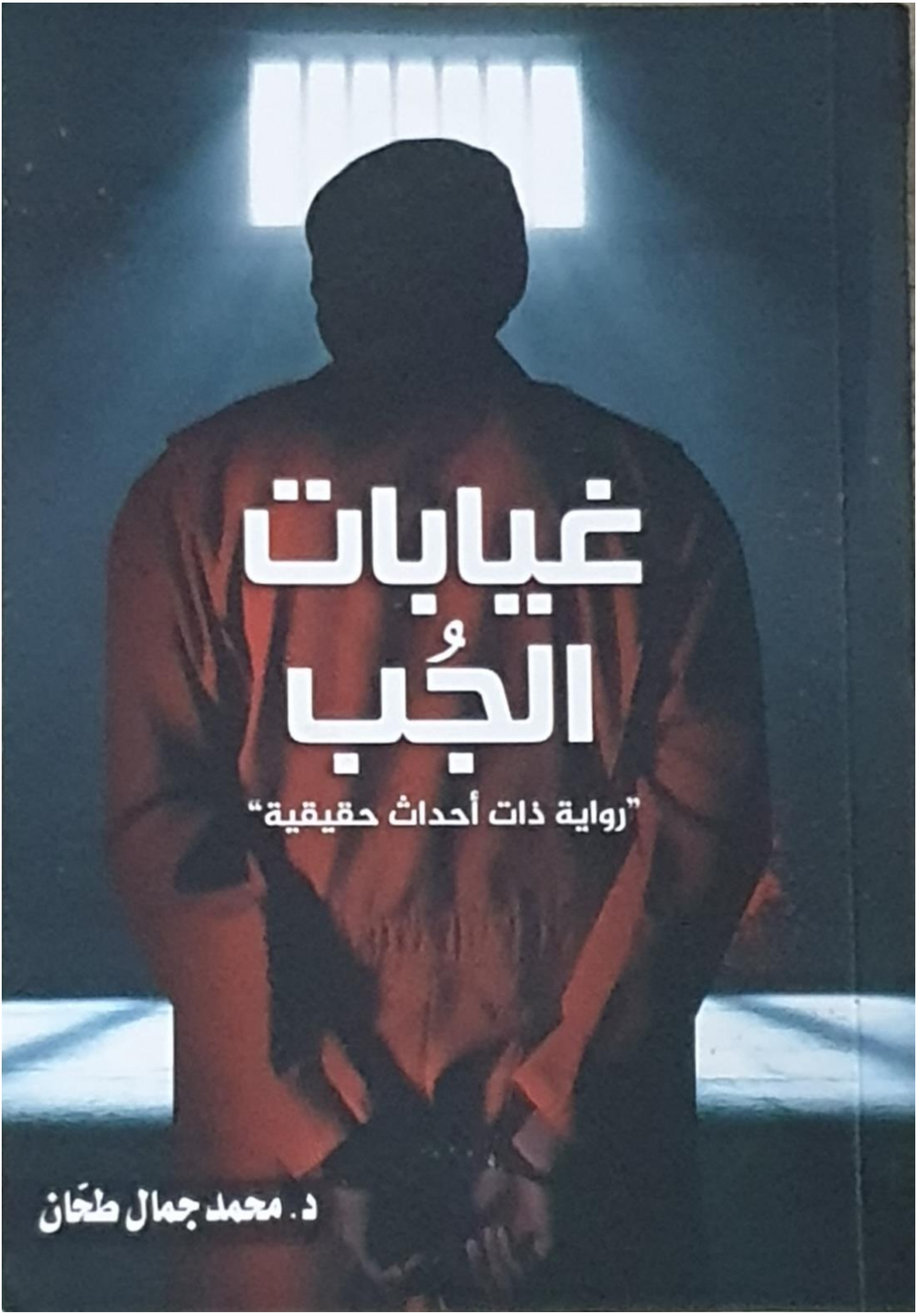
غيابات
الجُب
"رواية ذات أحداث حقيقية"
د. محمد جمال طحَان

غيابات الجب

رواية

تأليف

د . محمد جمال طحان

مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع

د . محمد جمال طحان

غيابات الجب

الطبعة الثانية٢٠٢١ م

جهة الإيداع القانوني / الهيئة المصرية العامة للكتاب

- الناشر: مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع
- رقم الإيداع القانوني ١٣٥٤٢ / ٢٠٢٠

الرقم الدولي رد مك : ٥ – ١٠٧٢ – ٠ – ٩٩٢١ – ٩٨٧

كافة الحقوق محفوظة للمؤلّف

I.S.B.N ٥ – ١٠٧٢ – ٠ – ٩٩٢١ – ٩٨٧

الناشر مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف : : ٣٥٧١٢٢٣ – ٠٤٨ –

٠٠٢

المبيعات : : تحويل داخلي ١٣

الفاكس : : تحويل داخلي ١٥

إدارة النشر : : ٠٠٢٠١١٤٢٠٢٢١٧٤

بريد : ALOMAPUBLISHER@GMAIL.COM

نحن، دائماً، نفكّر في شيءٍ ما.
نقلق من شيءٍ ما.
حين يطفو الاستبداد، نفكّر في الحريّة.
حين تتوافر الحريّة، نفكّر في معنى الحياة.

الفصل الأوّل:

أوّل الخيط

عنتاب – 20 **أيلول** 2013 **– ظهراً**

–1–

انتفض، هرباً من كابوس يكتم أنفاسه. الطائرات تُسقط حممها البركانية على سوق الحميدية فيتراكض الناس هلعاً. يتدافعون ويتعثرون بالأنقاض التي تتراكم مع كل قذيفة. يتقافزون فوق الأعضاء المبعثرة في كل مكان. تنطلق أجهزة الإنذار وتختلط بأصوات أبواق سيارات الإسعاف. جرس الباب لايتوقّف عن الرنين. يزحف شهم من دون جدوى. حركته مشلولة تماماً. يفتح فمه على صرخة مكتومة تظل حبيسة خلف شفتيه. لايريد أن تستيقظ أمّه مرعوبة. يحاول التحامل كي يصل إلى الجرس. يمدّ يده بكل قواه المتبقّية. يصل إليه. يضغط زر الرد على هاتفه المحمول. يتوّقف الرنين. يقرّب الجهاز من أذنه، بكفّ ترتعش. يهمس:

مَن؟

يأتيه صوت أخته مصحوباً بأصوات انفجارات ورشقات ناريّة وأبواق إسعاف.

ينظر حوله باحثاً عن خفّه المنزلي، فلا يجده. يتسلل على أطراف أصابعه حتى يصل إلى الباب. يخرج إلى ممر المبنى لاهثاً ويسمع خرير حنجرة أخته الذي يطغى على صوتها. يحاول أن يهدّئها كي يستوعب ماتقول. فهو بالكاد يعي أنه كان غارقاً في كابوس.

تحدّثه عن البراميل التي تتساقط فوق رؤوسهم. المبنى الملاصق لهم صار حطاماً. الجثث تتطاير والدماء تنفر كالبراكين.

يصفع جبينه بشكل متلاحق ليوقظ نفسه من حلم مزعج. ليس حلماً. إنهم يعاودون رمي البراميل. البراميل؟ كيف؟ هل يمكن أن يفعل البرميل شيئاً؟ كيف يصل البرميل من الطائرة إلى الأرض؟

يتحرّك عقله كسلحفاة ليتذكّر أن البراميل نوع من سلاح فتّاك شديد الفعالية ورخيص الكلفة. محشو بأنواع مختلفة من المتفجّرات والمواد المعدنيّة المؤذية. يهدم الأماكن التي يسقط فيها بشكل عشوائي، ويقتل الناس الذين يكونون على مقربة من منطقة انفجاره.

اليوم بادٍ من أوّله. يعود أدراجه إلى الغرفة، بحذر. معكّر المزاج يفتح جهازه ليسمع الأخبار، باستخدام

السماعة الشخصية: "عشيةَ (اليوم العالمي للسلام) لا شيءَ يوحي بأنّ هذه الأمنية قد تتحقق ... فالفَقرُ إلى ازديادٍ، ومعه الجريمة ... والحروبُ الداخلية والخارجية تعُم غالبيةَ دول العالم...و هذا الوصفُ أكثرُ ما ينطبق على دول الشرق الاوسط، فالنزاع العربي – الاسرائيلي مستمر. والنزاعات الداخلية "حدِّث ولا حرج"، بحُجة "الفوضى الخلاّقة" لبناءِ ديمقراطياتٍ رَفَضتها شعوبُ المنطقة، كما يحصُل في ليبيا وتونس ومصر وسوريا حيث أكلت الثورة أبناءَها".

لعنة الله عليكم، يقول في سرّه، الشعوب ترفض الديمقراطية أم الحكّام الذين يبيعون أوطانهم من أجل كرسي؟

يتابع الاستماع إلى مذيعة نشرة الأخبار:

"سوريا – إحدى هذه الساحات – عادت الى الواجهة اليوم بعد تشكيك الرئيس الروسي في إمكان إنجاز الاتفاق مع واشنطن بشأن الأسلحة الكيميائية، وذلك تزامناً مع تأجيل اجتماع /مُنظّمة حظر الأسلحة الكيميائية حول سوريا/ الذي كان مقرَراً في الثاني والعشرين من الجاري، علماً ان هذه المنظمة أعلنت تلقّيها تفاصيلَ من سوريا عن

اسلحتها الكيميائية. أما لبنان، الذي "لا حولَ ولا قوّةَ له" نظراً إلى ارتباطه بهذه الأزمات، فما زال في حال الغيبوبة السياسية، رغم الدعوة اليتيمة التي وجّهها رئيسُ مجلس النواب لعقدِ جلسةٍ تشريعية الاثنين المقبل".

يشرد قليلاً وهو ينقل فكره بين هاتف أخته والأخبار والكابوس الذي داهمه بعد غفوة دامت أقلّ من ساعتين.

الأخبار المتفرّقة تأتيه: "اشتباكات بين الجيش الحر في اعزاز وعناصر من القاعدة، وانقسام في جبهة النصرة. فرنسا ستزوّد الجيش الحرّ بالسّلاح.

إيران مستعدّة لتسهيل الحوار بين الحكومة والمعارضة في سوريا.

تعهّد الرئيس السوري بشار الأسد بتسليم الأسلحة الكيميائية التي بحوزة النظام، لكنه حذّر من أن ضبطها وتدميرها سيستغرق سنة وربما يتطلّب مليار دولار. ويرى أن بلاده لا تشهد «حرباً أهلية» بل تتعرّض إلى هجوم من تنظيم «القاعدة». وقدّم تقديراً لعدد قتلى الجيش، موضّحاً أن 15 ألف جندي قتلوا، وأعرب عن استعداد السلطات

السورية لإصدار عفو جديد «كجزء من المصالحة الوطنية، يشمل من تلطّخت أياديهم بدماء السوريين».

ونفى بوتين أن تكون بلاده تسعى لتحقيق مصالحها في سوريا عبر الدفاع عن الحكومة الحالية، موضّحاً أن «موسكو تناضل من أجل الحفاظ على مبادئ القانون الدولي».

قتل 56 عنصراً من الأمن اليمني في ثلاث هجمات للقاعدة اليوم.

اتفاق لإيقاف وقف اطلاق النار في اعزاز بين الجيش الحر من جهة وداعش* وجبهة النصرة من جهة ثانية.

مقتل 16 واصابة 15 في تفجيرين بمسجد مصعب بن عمير في سامراء بالعراق أثناء صلاة الجمعة.

الوكالة الدولية للطاقة الذرّية ترفض مشروع قرار انتقاد إسرائيل بسبب ترسانتها النووية.

القوّات المصريّة تواصل مداهماتها لمنازل الداعمين للرئيس المعزول محمد مرسي وتعتقل 68 شخصاً. بينما تستمر المظاهرات ضد قرار العزل".

* مختصر يذم التنظيم الذي يسمي نفسه: الدولة الإسلامية في العراق والشام.

يغلق الجهاز. يمدّ يده فتصل إلى إبريق الشاي، يضعه على "البوتوغاز". يمد يده إلى الناحية الأخرى فيغدو البراد الصغير في متناوله. يبتسم بأسىً: "الغرفة قدّ عقلي".

إنّه يعدّ الفطور لأمّه، ويمنّي نفسه بأن ينسى ماحدث ليتمكّن من متابعة يومه. اليوم بادٍ من أوّله. الله يجيرنا من الأعظم.

...

-2-

كما كلّ يومٍ، يعبر "شهم" الجسر، من "يشيل سو" إلى "غازي مختار" في "غازي عنتاب" التركيّة، وهو في طريقه إلى المقهى لتناول قهوة الصباح. يجتاز الجسر بتؤدة وهو يتأمّل أشجار التوت والتين المترامية على الجانبين تنثر حكايا المارّين من هنا. ويراقب حركة المرور، مثل كاميرا تلتقط ماتراه لتخزّن صوراً من الحياة.

عجوزٌ سبيعينيّ يخاصر زوجته ويتهاديان، ببطء، على رصيف الجانب الأيسر من الجسر.

شاب وفتاة يشبكان أيديهما مرحَين. يقفان، بين الحين والآخر، لتبادل القبل، وسط حديث يخوضان فيه،

بالتركية. تتأبط حقيبتها النسائية المدلاّة من كتفها الأيمن، ويعدّل الشاب حمالة جهازه المحمول على كتفه الأيسر.

يتذكّر شهم زوجه التي ركبت البحر، مع أخيها، ووصلت إلى ألمانيا طالبة اللجوء. أرسلت له الأوراق المتعلّقة بلمّ الشمل ليلتحق بها.

مايزال يفكّر، هل يذهب إلى ألمانيا، أم يعود إلى الوطن، أم يبقى، هنا؟

ينساب مع شروده:

- "ألمانيا، تلك الحلم الأوروبي لكل عربيّ مكبوت. هناك الفرص متاحة أمام من يريد الانطلاق. دولة ترعى المواطنين وتقدّم كل أنواع الدعم للمبدعين. لاحاجة للإنسان هناك بتضييع الوقت في البحث عن لقمة العيش. لاقلق يسكنه بحثاً عن الأمان، فلاخوف من نقد سياسات الحكومة، ولاأقبية مخصّصة لأصحاب الرأي المعارض.

ولكنني لست مواطناً ألمانياً، فلن أكون سوى مهاجر ينضوي تحت قوانين اللجوء. اللغة الألمانية صعبة، وحتى أتمكّن من تعديل شهاداتي للعمل بها، سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً. هذا بالإضافة إلى مشكلة الاندماج بالثقافة المحليّة. العادات والتقاليد والأخلاق تختلف.

طيّب. العودة إلى الوطن أسلم. ولكنْ أي وطن؟ الوطن الذي تمّ اختصاره بشخص؟ الوطن الذي لايعترف بالاختلاف، ولايقدّم للمرء أيّ فرصة للتقدّم؟ الوطن الذي يعتبرك مداناً وعليك الجدّ، دائماً، لإثبات براءتك؟"

يستغرق في أفكاره حتى يعلو صوته متحدّثاً إلى نفسه:

"ولكنني أرفض البراغماتية على الطريقة الأوروبية، حيث تكون العلاقة عقداً مقنّناً يستبعد القيم الأخلاقية ولا يعترف بغوث الملهوف أو حماية المستجير.

خلف كلّ تحيّة في المانيا تكمن مصلحة، والحفلات الجماعية تُقسّم تكاليفها على كل المشتركين. والكرم – عندنا – لا يُحَدّ ولا يُقنّن ولا يحتاج إلى مراسيم تشريعية لتنظيمه .

تعلّمت في بلدي أن الحب يشيع إلى درجة أن يضحّي الفرد بنفسه من أجل إنقاذ الآخرين من غير حساب للفوائد التي قد يجنيها من وراء شهامته. وأنا لا أبادل أصدقائي بالعالم .. نحن يد واحدة في وجه الظلم والافتراء".

يضغط صدغيه بكفّيه. يطلق ابتسامة ساخرة:

"هل حقّاً نحن كذلك؟ يبدو أننا نساق وراء شائعات تُروَّج لنا وما نلبث أن نصدّقها وكأنّها حقيقة. إننا، في الواقع، عندما يُحسّ أحدنا بسوء.. تتفكّك الأيدي ويبحث كلٌّ منا عن خلاص لنفسه .

وأنا بين حرّيتي في الموت قهراً أو العيش ذلاًّ في سوريا التي أضحت ملكاً لفئة؛ وبين أوروبا التي تراودني، ومن الآن أشعر بأني غريب عنها وبأنها غريبة عنّي؛ وبين البقاء هنا.

هنا، في تركيا، وبالأخص في عنتاب، أجد تشابهاً كبيراً مع دمشق. الحواري القديمة نفسها، الطقس نفسه، الجوامع تصدح بأوقات الصلوات، والكثير من الكلمات العربية، أو التركية التي يستخدمها الشوام في حياتهم اليومية. مع ذلك تبقى تركيا ليست بلدي. عنتاب وكلّس واضنه ومرسين وانطاكيا واسكندرون كلها كانت تابعة لحلب أيام السلطة العثمانية، ولكن ذلك مضى. السنوات الطويلة التي مرّت كانت كفيلة بتغيير البنية الاجتماعية في هذه المناطق فغدت بعيدة عنّا".

ينبهه من شروده محرك سيارة صغيرة يتباطأ قربه. تمد الفتاة رأسها من الشباك وترطم بالتركية. لم يفهم شيئاً مما

قالته، يبدو أنها تسأل عن وجهة ما. يجيبها وهو يحرّك سبابتيه باتجاهين متباعدين:

يوك..يوك..بيلميوروم..لاأعرف..يابانجي.

السيارات تمرّ مسرعة. منها الصغيرة على شكل سلحفاة تبدو مجهدة لتجاوز الشارع، وأخرى حافلات متوسطة، أو كبيرة، تضم تلاميذ في طريقهم إلى المدرسة.

على الناصية، في آخر الشارع، عربة بأربعة أرجل، يعلوها غطاء لحجب حرارة الشمس. حلّة تغطس في قعرها، وكؤوس كرتونية مصفوفة، بعناية، على كلا الجانبين. السقف مزدان بعرانيس الذرة، مايزال البائع يعدّل شكلها لتجلب أنظار المارّين.

...

-3-

تحت شجرة توت كبيرة، في منتصف الجسر تقريباً، لمح مصنّفاً أخضر اللون لايكاد يلفت النظر وسط هذه الغابة من الخَضار.

تلفّت حوله فلم يجد أحداً قريباً من المكان. إذن لم يسقط الملف بشكل عَرَضيّ من أحد. حين دنا أكثر،

وجده مثقلاً بحجرٍ صغير وكأنّه وُضع عمداً هنا... بعنايةٍ واضحة. حين انحنى ليحمله، مرّت سيارة كبيرة لنقل القمامة، مسرعةً وهي تدفع الريح بقوّة. بدأت الأوراق تتطاير منه. التقط المصنّف بسرعة. قرأ بعض الكلمات بشكل عاجل من صفحات مختلفة:

((–صوت السياط وهي تنهال على شخص ما في غرفة التحقيق.......

–حين فكوا العصابة عن عينيّ. لم أكن أدري تماماً كم الساعة.......

–خرجنا من مدخل سوق النسوان في المدينة وصار سوق الزهراوي مواجهاً لنا.......

–حفر جعلت السيّارة تهتزّ وتكاد تخرج عن المسار، قبل أن تتوقّف لحظة، سمعت بعدها صرير باب.......

–وهي تحاول الاقتراب منّي ولمسي من خلال إيماءات يديها المترافقة مع الحديث، غير أن ما ركّزتُ.......

–وأسندت ظهري إلى الجدار... فتح السجان الباب ووجد أحمد جاثياً لم ينتبه إلى الحركة....

–مدّوا أكفّهم جميعاً إلى سحابات بناطيلهم بحركة بدت وكأنهم قد تدربوا عليها....

–صوت صرخة عظيمة من شاب معلّق وقد ارتمت ساقه أمامي وهي غارقة بالدماء...)).

شدّه ماجاء فيها. راح يعدو خلف الورقات المتطايرة ليمسك بها واحدةً تلو الأخرى. بعضها هوى إلى الحديقة تحت الجسر، مااضطره إلى إنهاء الجسر والالتفاف من تحته بحثاً عمّا تطاير منها. تأبّط مارأى أنه كنز ثمين أثار فضوله. تابع سيره ببطء أشدّ وهو يتلفّت حوله أملاً في العثور على أوراق أخرى، ويمنّي النفس بقراءة لذيذة لحكاية يلفّها الغموض.

...

-**4**-

مع حلول المساء، حضّر شهم قهوته. دخل المنزل. أغلق الباب. أضاء عاكس الطاولة الموجّه على الأوراق وحدها. راح ينظّمها وفق أرقام الصفحات، التي بالكاد تُرى يسار أسفل الصفحة.

عندما كان يقلبها وينسّقها، وعيناه تراقبان الأرقام، تمهيداً لقراءتها، باهتمام، سقطت سماعة الهاتف في كأس الشاي. ارتبك.

لا يدري، هل ينقذها أم يضحك من حالته وسط هذا الضوء الخافت المنبعث من العاكس، حرصاً على راحة أمّه النائمة في الغرفة الوحيدة التي تأويهما.

من عادته الاستماع إلى ليليات شوبان أو ضوء القمر أو أنشودة الفرح لبيتهوفن، قبل أن يبدأ بالقراءة.

انتهت، توّاً، السيمفونية الخامسة (ضربة القدر)، ونسي رفع السماعة عن أذنيه.

وسط هذه المعمعة، قفز إلى ذهنه سؤال: عندما تسقط الذبابة في الكأس هل نسكب الكأس في الحمّام أم نغطّ جناحها الثاني ونشرب بلا حرج؟

بعد ترتيب الأوراق ظهر العنوان الأساسي " مذكّرات معتَقَل " تتبعه عنوانات فرعية لكل بضعة أوراق. بدأ يلتهمها بشغف.

البداية كانت مع الجملة التالية:

(مهما حدث، أريد أن أكتب مذكّراتي في السجون السوريّة، كما عشتها تماماً، من غير مغالاة أو مواربة أو خجل).

حلب– تموز – 2012

مذكّرات معتقَل

ليس سهلاً أن تبدأ الكتابة من جديد بعد توقّف سنوات عنها، وكأنّ ينبوع التفكير قد جفّ، ولم يبقَ فيه مايدعو إلى ذرّة من الجدوى بعد كل هذا الخراب المتراكم الذي يحيط بنا من كل جانب.

غير أن قوّة خفيّة تدفعني كي أكتب مشاهداتي في سجون الطغيان، لعل أحداً ما، ينتفع بها، ويذكر ماجاء فيها وهو يقبع في زنزانة تشبه تلك التي حاصرتني طيلة فترة الاعتقال.

كما أنني أؤدّي أمانة رواية ماحدث، تماماً، لتعرف الأجيال القادمة كيف عانينا، ويعرف العالم الذي يدّعي التحضّر أن مايحدث هنا هو من نتائج أطماع حكوماتهم التي لم تترك للإنسانية مكاناً في مخططاتها نحو المستقبل.

ربما يتساءل من يقرأ هذه السطور، عن جدوى الكتابة عمّا عانيته في الاعتقال، فقد كتب كثيرون عن مآسي السجون، وبرع الأدباء في وصفها وفي تفصيل مايجري فيها من تعذيب يفوق الخيال، وحلّل بعضهم نفسيّات السجّانين والسجناء.

كثيرة هي الروايات التي كُتبت، لكنّها ليست روايتي. ليست ماعانيته أنا. ليست كابوسي. ليست وحدتي القاتلة التي رمتني كخرقة بالية في زاوية منسيّة من عالم يمور.

إنني أكتب لأنسى. لأقتصّ لنفسي من أولئك الذين تفنّنوا في تعذيبنا، وفي اشتقاق شتائم لم نكن نحسب أن اللغة تستوعبها. أكتب كي لاأنفجر من القهر، وكي يتبيّن لطالبي الحرية الأثمان التي تُدفع في سبيل نيلها، وكي تكون لديهم تجربة نظرية ينتفعون بها حين تواريهم الأيدي الآثمة في غيابة الجبّ

الاعتقال

الثامن عشر من تموز 2011 يومٌ لايُنسى ولايُغتفر. إثنان متخلّفان من حطب السلطة المجرمة، يشبهان الجدار الأصم، طول كلّ منهما يقارب المترين. جثتان ضخمتان متحزّمتان بما بدا لي أنه درعٌ واقٍ للرصاص. على خصريهما هراوات وجهاز اتّصال ومسدسات. اختطفاني من باب البيت مساءً حين كنت أمد يدي للسلام عليهما.

قال أحدهما:

– هنت* كمال

– نعم. مين حضرتك؟

مدّ يده. جذبني إليه. أمسك ساعدي الأيمن بعنف، بينما التفّ الآخر وقبض على ساعدي الأيسر. قاداني وأنا أسمع أحدهما يسكب رصاص الكلمات في أذني:

– أمن.

حين خرجنا من باب المبنى، ونحن ننزل الدرجات التسع، لمحت على الصفّين مجموعة من الأشخاص الجسام،

---

* أنت. بلهجة القرداحة.

مدجّجين بالأسلحة والهراوات. ثلاث أو أربع سيارات متوقّفة بشكل عشوائي، تحجز السير.

تجمّع حولي عدد كبير من المتربّصين. حشروني في سيارة أجرة، بسرعة أذهلتني، ولم أدر إلى أي جهة يتبعون.

أول ماسألاني:

- هل تعرف الدكتور مروان الخطيب؟

- هناك إثنان مروان الخطيب، أي واحد تقصد؟

قال واحد من النذلين، والحقد يطفر بين عينيه:

- بلا فزلكة.

الآخر جمع قبضته ولكمني على فكي الأيمن خمس لكمات متواصلة. أحسست أنني فقدت بعض أسناني. طعم الدم كان حامضاً. وضع كفّه فوق قِحفي وضغط بعنف حتى غدا رأسي بين ركبتيّ.

سارت بنا السيارة قرابة ربع ساعة، ثم دخلت مبنىً محاطاً بسور ضخم. بعد الباب الرئيسي، أفضى بنا المسير إلى ساحة كبيرة. لم يدخلاني من الباب الكبير، بل نزلا بي من باب حديدي جانبي.

أول مانزلت القبو لمحت في الممر وجه الفتي عمر عكام متورّماً، وتملأ قميصه الدماء، ومايزيد على عشرة أشخاص يجلسون في الممر منهكين وفي أيديهم أوراق، ويكتبون.

عرفت حينها أنني في مقرّ الشيطان. تسارعت الأفكار وتلاطمت، في رحلةٍ مكّوكية انفلت منها التأنّي.

الذهول كان سيّد الموقف، وانغلقت دوني ستارة العالم الخارجي. عالم الحياة.

استقرّ في خلدي، بعد تلك التجاذبات، أنه لاملاذ لي سوى باللجوء إلى الله، وتحدّيهم.

يريدون تيئيسنا وتخويفنا وتصييرنا جهلة، وانتزاع المعلومات منّا، وينبغي لنا التحلّي بالأمل والجرأة والاستغباء، والصمت.

قيّدني أحدهم، ووضع العصابة على عيني.

الممر

أدخلوني إلى مكان لم أتبيّن معالمه لأن يديّ مقيّدتان، وعينيّ معصوبتان. أوقفوني أمام طاولة حديدية، ولمحت من تحت العصابة يديّ رجل يرتّب أكياس ورق قديمة عسليّة اللون، أو لعلّها مظروفات غامقة، يدوّن عليها اسم الشخص، أو ربّما رقمه، ويضع أشياءه الخاصّة داخلها.

لم يكن معي أي شيء.

أداري. ملص الخاتم من أصبعي. وضعه في الكيس وقال للشخص الذي يقف خلفي: - شيلوه* .

دفعني الآخر من ياقة كلابيتي الصيفية سمنيّة اللون، ذات النصف كم. أجلسني في الممر ورأسي إلى الجدار. فكّ القيد والعصابة. أعطاني ورقة وقلماً وقال لي:

- اكتب كل شيء عن نشاطك التخريبي، واكتب أسماء كل من كانوا معك في المؤامرة. اكتب كلّ شيء، من بداية حياتك حتى اليوم. واكتب بالتفصيل كل تحرّكاتك من أول الأزمة حتى الآن.

* احملوه.

سمعت لهجةً أكثر صرامة من رجل آخر:

- اكتب بالتفصيل. ماتكزووب هه، احنا منعرف كل شي عنّك**، أكتر مما تعرف أنت.

جلست مذهولاً، ولم أكن قد صحوت، بعد، من غفوتي المسائية التي تحدث كل ثلاثة أشهر مرّة واحدة. ولسوء حظي حدثت اليوم، فاقتادوني من فراشي إلى مكان تبيّنت جزءاً من عتمته الخانقة، حين فكوا العصابة عن عينيّ. لم أكن أدري كم الساعة. كل ماأذكره أن زوجتي أيقظتي وأخبرتني أن أشخاصاً بالباب يسألوني عني، وقالوا لها إنهم من أصحابي. دخلت غرفة مكتبي لأستقبلهما من الباب الخارجي للمكتب. لمحت هاتفي المحمول يومض، مايعني أن اتصالات أو رسائل وردتني ولم أفتحها. أشعلت الإضاءة. قلت في نفسي: "أستقبل الضيوف ثم أرى المتّصل".

آآآه لو أنني تناولت الهاتف قبل أن أفتح الباب، لا شك أن أحداً من معارفي كان ينبّهني إلى أنهم يسألون عنّي، وأنني مطلوب. لكنّ الذي حدث أنني فتحت الباب. ووجدت نفسي هنا. في مكان يغمّ القلب ويطبق على الصدر.

** لاتكذب، نحن نعرف كل شيء عنك.

لم أتبيّن مصدر بصيص الضوء الخافت، لأنني أسمع كلّ من يرفع رأسه من الجالسين مثلي ويكتبون، يقولون له:

- وطّي راسك ياحيوان.

وأسمع صوت أكفّ تنهال على الرقاب. هذا غير الأصوات التي تأتي، من بعيد، عقب أصوات سياط وعصي، تنهال على من يصرخون، وتتداخل أصواتهم :

- والله ياسيدي ماعملت شي. والله مالي علاقة. أقسم بالله العظيم مالي خبر، أبوس إيدك ياسيدي اش بدك بقول*.

تناولت الورقة والقلم وبدأت الكتابة...

---

* أعترف بما تريد.

إفادة أولى

كتبت سيرة حياتي، منذ طفولتي في باب الأحمر، حيث ولدت، حتى دخولي روضة النسر السوري بحلب، في طلعة دوار الكرة الأرضية، تدعى الآن منطقة الحريري. ثم دراستي للصف الأول الابتدائي في مدرسة الكواكبي. بعد انتقالنا للسكن في منطقة بستان الزهرة قرب نهر قويق، حيث كنت أتريّض مع أمي وجاراتنا، كل مساء، حول النهر الذي لم يكن له سور؛ ثم انتقالي إلى مدرسة عمرو بن العاص في الصفوف الثاني والثالث، لأننا عدنا وسكنّا في باب الأحمر من جديد. ثم سكنت في الاسماعيلية وانتقلت إلى مدرسة الوليد بن عبد الملك. أما المرحلة الاعدادية فقد درستها في مدرسة الأمين، والثانوية في المأمون.

لم تكفِ الأوراق التي أعطوني اياها فرفعت يدي منتظراً أن يراني أحد.

سمعت صوتاً يسأل:

– اش بدك ولاك*؟ خلصت؟

– لا... بس خلص الورق.

---

* ماذا تريد.

جاءني بأوراق وهو يقول، مستنكراً:

- بكتب جريدة؟
- مو بدكن كل شي؟

تركني ومضى.

سمعت أصواتاً مختلطة قادمة من إحدى الزنزانات، خيّل إليّ أنه صوت الدكتور ياسر. ثم سمعت أحد السجّانين يصيح:

- مين الشر(...)ة اللي عبتطالع صوت، بدي ادحشلا العصا.

توقّفت عن الكتابة برهة، وتوجّست مما سمعت. هل يسجنون النساء، هنا، أيضاً؟ ويحرسهن سجّانون؟

وصلني صوت، لم أدر هل هو موجّه لي أم لسواي:

- حط عينك بالورقة واكتوووب يافهيم.

تابعت الكتابة: درست في جامعة دمشق قسم الفلسفة وعلم النفس. عملت في مديرية الصحة والمالية ثم تابعت دراستي العليا في الجامعة اليسوعية ببيروت. درّست فترة من الوقت في ثانويات حلب ثم انتسبت إلى جمعيات

كثيرة، وأعمل الآن في جريدة تشرين*. صدر لي أكثر من ثلاثين كتاباً في الفكر والأدب. ذكرت لهم أربعة أوخمسة عناوين منها ونسيت الباقي.

قلت بصوتٍ عالٍ، وأنا أرفع الأوراق فوق رأسي:

- خلصت.

جاء السجّان. أخذ الأوراق والقلم. وضع يديّ خلف ظهري وقيّدني بشيء حديدي، عرفته من قساوة ملمسه ومن صرير القفل حين أغلقه. وضع العصابة على عيني واقتادني من رقبتي. مشينا في الممر وانعطفنا يساراً. سمعت صوت قفل يُفتح وصرير باب حديدي. فكّ القيد ودفعني إلى الداخل قائلاً:

- شيل الطمّاشة.

رفعت مايغطّي عينيّ وأعطيته له. كان في الغرفة شخص بلباس عسكري، قال له السجان:

- هات أغراضك وتعال.

لملم الشاب حاجياته وخرج. أُغلق الباب عليّ.

وسط ذهولي في الغرفة الضيّقة ذات الإضاءة المعتمة رحت أفكّر: ماكتبته لاقيمة له. وقد كتبت مثله عشرات

* جريدة رسمية تصدرها وزارة الإعلام.

المرّات حين دخولي الجامعة، وحين توظفّت، وحين طلبت رخصة ًلمعهد. سيطلبون مني مزيداً من المعلومات، فماالذي ينجيني من براثنهم. وكيف يمكن أن أكتب مالايضرّ سواي. ولكنْ، عليّ أوّلاً أن أعرف ماالذي أتى بي إلى هنا؟ من تحدّث عنّي، أو من وشى بي؟

إنني أتحرّك في حدود ضيّقة وكثيرون لايعرفون عنّي إلاّ معلومات عامّة. لم يكن في مقدروي العمل باسم مستعار، لأنّ كل من يراني يعرفني، ولهذا حرصت ألاّ يعرف عنوان بيتي غير أصدقائي قبل الثورة.

لم يَدُرْ في خلدي سوى مهرَبين اثنين هما: نداء حلب من أجل الوطن، ومقهى الشباب.

لم يمهلوني طويلاً وأنا أقلّب الأفكار لأتحدّث عمّا هو مكشوف لايمكن إخفاؤه ولاتشكّل معرفته فرقاً لديهم، حيث لايتورّط أحد. سُحب مزلاج الباب بقوّة وبدا خلفه رجل ضخم لايحمل إلاّ القليل من الملامح البشريّة، صرخ:

– تعال.

وقفت. أداربي بعنف. وضع القيد في يديّ، وأحكم العصابة على عينيّ، ودفعني أمامه.

لم يطل سيرنا حتى وضعني في مواجهة جدار، وذهب.

صارت أصوات السياط، واستجارة من يُضرب بها، أكثر قرباً.

يصلني صوت صارم:

- يامنيـ (.) بدك حريّة؟ بدك تطلع مظاهرات؟ موعاجبك السيد الرئيس مو هيك؟ شو موعاجبك فيه ياحقير.

لاشكّ أنه الضابط المحقّق يعنّف موقوفاً ما ويحاول الحصول منه على المعلومات.

دبّتْ حركة مفاجئة حولي.

لمحت، من تحت عصابتي المخرومة، خيال شبّان يُساقون ويُدفَعون تباعاً إلى الممر. الأكفّ تنهال عليهم بالضرب، وبعضهم يتلقّى ركلة، وآخرون يحمون رؤوسهم من العصي المختلفة التي تأتيهم من حيث لايعلمون.

لمحت، أيضاً، لدى رجل، غاية في الضخامة، جنزيراً من سلاسل متصلة تزن أكثر من خمسة كيلو غرام، يلهو بها في ضرب أرجل الطاولة التي وُضعت عليها الأمانات، حين لايمرّ به أحد الموقوفين.

طال بي الانتظار ساعة أو أكثر. لم أعد أقوى على الوقوف، ولم تزل وفود المتظاهرين تتوارد، ويتكرّر مشهد

الضرب والتحقير، ويزداد الصوت القادم من غرفة التحقيق علوّاً، ويزداد صراخ من يتلقّى الضرب، الذي بدا لي أنه جلد لئيم بالسياط، ماذكّرني بفيلم كنت قد رأيته أكثر من عشر مرّات وأنا في المرحلة الابتدائية، اسمه" الجلاّد القرمزي".

في تلك المرحلة كان والدي، بالإضافة إلى معمل النسيج الذي يملكه في منطقة المغاير بحي الكلاسة، يشارك في تعهّد عروض بعض الأفلام في سينما فؤاد وسينما الشرق وسينما الجماهير، مايتيح لي أن أقضي فترات طويلة في مشاهدة الأفلام مجّاناً. ذلك الفيلم كان يثير لديّ الرعب في كلّ مرّة أشاهده فيها.

الآن، أرى الرعب ذاته متجسّداً في أصوات أولئك الذين يُجلَدون.

تُرى، حين يحين دوري، هل يمكن أن أطلق صرخات استجارة، أم أكتفي بالصراخ الذي كنت أكتبه على مدى التاريخ؟

إفادات متوالية

-1-

بعد انتظار طويل قادني شخص من ياقة الكلابيّة. دفعني. مشيت أمامه بحذر، متحسّساً دربي بحيث تسبق قدماي رأسي، كي لاأصطدم بشيء ما.

من يدفعني من الخلف، لم يقصّر في كشف الطريق لي بصوته الأجش:

– يمين.. يسار.. وقيف* .

بعد برهة، دفشني إلى داخل غرفة. ملأت أنفاسي رائحة زريبة أبقار مختلطة برائحة كحول، تشبه رائحة سيكارة خالي الذي ترك علبة سجائره وخرج، فاندفع ابن خالتي، الذي كان مثلي، في الصف الثاني الابتدائي. مدّ يده الى العلبة وأخرج لفافة وقال لي:

– شمّ.

* قف.

شممتها. قلت له:

– رائحتها تشبه رائحة لبن جدّي.

كان من عادة جدي أن يسكب شيئاً من قنينة صغيرة في الكأس، ولشد ماكنت أدهش كيف تصبح لبناً رائباً، عندما يسكب فوقها قليلاً من الماء، ثم يبرّدها بقطعة ثلج، تقتطعها له إحدى النساء اللواتي يكنّ حوله من أقاربي.

مرّ وقت طويل حتى عرفت أن اسم تلك القنينة " بطحة"، وأن المادّة التي يسكبها هي كحول، قالوا لي إنه "عرق". وأثناء دراستي الجامعية عرفت أنهم يسمّونه مَلِك المشروبات.

لم يكتف ابن خالتي بشم اللفافة بل أشعلها ودعاني كي أجرّب. أخذتها من يده. لم أكن أدري كيف يشربونها:

– هل أنفخ أم ابتلع؟

– لا.. ابلع.

بلعت كمن يزدرد قطعة حلوى، فهاجمني سعالٌ شديد. رميتها ورحت إلى صنبور الماء أعبّ منه وأغسل فمي من تلك الرائحة.

...

-2-

هناك رائحة أخرى داهمتني في الغرفة، لم أتبيّنها جيّداً إلا عندما سمعت أحداً ما يشفط سائلاً ما بمتعة، ثم يتنحنح، ويسعل لينبّهني إلى وجوده. هاااا. إنّها متّة.

سمعت صوت إشعال سيجارة، قبل أن يحدّثني صاحبها بلكنة لشدّ ماكرهتها لارتباطها بالتسلّط. كان لديّ معارف وزملاء من جبلة يتحدثون بلكنة تشبهها، كنت أحبّهم، لكنني أكره لكنتهم التي سمعتها أوّل مرّة عندما كنت أؤدي الخدمة العسكرية. قالت لي أمي:

- ابن خالتي ضابط في دمشق ولابد أن تزوره كي يساعدك في الإجازات وفي حضور بعض المحاضرات في جامعتك.

استدللت على مكانه: في حي الروضة نائباً لرئيس فرع فلسطين. سألت الحارس على باب المقر وأنا فخور بقريبي من ريف حلب (الباب) ويعمل عملاً يحتفي بفلسطين:

- أريد المقدّم عمر.

- ليس لدينا مقدّم بهذا الاسم.

قلت له اسمه الكامل، قال: هاااا. المقدم رضا... مين أقللووه؟

- قل فلان ابن خالتك.

لم يطل انتظاري طويلاً حتى دخلت إليه، وأنا أعرف أنه يدرس الاقتصاد بعد تطوّعه بالجيش.

لكنّ دهشتي امتدّت، بعد مفاجأة تغيير اسمه الأول، حين سلّم عليّ بتلك اللكنة التي أكرهها وهو يعرّفني على ضيوفه:

- الدكتور فلان.. رئيس قسم الاقتصاد.. فلان مدرس اقتصاد بجامعة دمشق، فلان ضابط في كذا.

(تبيّن لي، فيما بعد، أن فرع فلسطين لايحتفي بها، وأنه ليس سوى مركز أمني يتم فيه احتجاز المنشقين عن النظام السوري و معارضيه في الخارج، من مختلف الجنسيات؛ وفيه يتمّ استجوابهم).

...

-3-

المهم: بادرني، من أظنّ أنه ضابط مسؤول في مكان احتجازي، قائلاً:

- شو يادكتووور... عابنى هنتْ مسقف وفهمان*. ولااه... بتعرف أني إحنا منعرِف عنّك أكتر من اللي بتعرفو عن حالك. بتعرف إلاّ مابتعرف؟.

- بعرف.. طبعاً.

- بقى لاتخبي شي وقول كل اللي بتعرفو.. رفقاتك اعترفو عليك.. ومارح تستفاد شي أمّا تِنكُر. اللي كتبته كلّه ماالو قيمة. بِدنا منك تقول كل اللي بتعرفو وكل العمليات اللي قمت فيها وكل اللي تعرفت عليين بهالفترة. نحنا حتى الآن محترمينك ومقدرينك، بقى لاتخلينا نغيّر معاملتنا معك.

- كتبت كل ماأعرفه. قل لي أنت من تريد أن أتحدث عنه لأحكي لك.

- معك عشر دْقَايق.. بتكتب كل شي بالتفصيل وبتكتب أسماء شركاتك بالتخريب إذا حابب تطلع ونسامحك. إذا مااعترفت عالبقية رح تموت عنّا.

* على أساس أنت مثقف.

صمتت.

قال: شو؟

لم أردّ. سمعت نقراً على الطاولة ينمّ عن عصبيّة، فهيّأت نفسي لتلقّي صفعة من مكان ما. سادت برهة صمت.

حين جرّني شخص من وسط كلابيتي، عرفت أنّ محدّثي أومأ إليهم:

-خذوه.

قادني الشخص عبر الممر. كانت شحّاطتي تنزلق بين حين وآخر، من آثار الدماءِ التي نسير عليها.

(سامحه الله ابني اشتراها لي بعد أن أضعت شحاطتي في الجامع الأموي رمضان الفائت، واختارها من أجود الأنواع الفاخرة المتوافرة في ذلك السوق، والتي تبدو سهلة الانزلاق.

عندما أخرج من هنا، سأضعها في فاترينا، كونها رافقتني وعانت في السجن من غير ذنب اقترفته).

صفعتني رائحة تشبه سوق العتمة بحلب. كنت أمرّ فيه سريعاً وأنا بطريقي إلى المعهد. كنت أسرع في تلك المنطقة

كي أدلف إلى حلب العتيقة ليبدأ إشراق يومي مع تبدّي رياح العقبة.

وصلنا إلى الغرفة المعتمة، حررني السجّان من القيد، ومن عصابة العينين. قال وهو يغلق الباب بالمزلاج:

- معك عشر دْقايق.. متل ماقال سيادة الرائد.. أبتفهَم والا هنْتْ غبي؟ بعد أن أغلق الباب، فتح الطاقة الصغيرة التي يظهر منها وجه الواقف أمامها، رمى إليّ قلماً وبضعة أوراق وكرر: عشر دْقايق.

لم ينتظر لأكمل جملتي، وبالكاد سمعني وهو يغلق الطاقة، أقول:

- العتمة كثيفة هنا.. كيف يمكن أن أكتب من غير أن أرى؟

اعترافات خطيرة

-1-

تناولت الأوراق والقلم وبدأت أكتب ماأغفلتُه.

سيادة المحقق؛ اعذرني، فظروف اعتقالي أنستني نقاطاً مهمة ينبغي ذكرها. فحين كنت في الصف الأول بمدرسة الكواكبي، كنت من التلاميذ الشاطرين، ودفتري كان في غاية النظافة والأناقة. وأذكر ذات يوم طلب المعلّم منّي أن أدور على تلاميذ صفّي وأريهم أناقة دفتري وخطّي الجميل. حين وصل الدفتر إلى أحد التلاميذ الكسالى بصق على الدفتر. هرعت إلى المعلّم وأريته الدفتر، فعاقب التلميذ، وشرح للصف أننا ينبغي أن نتعلّم من بعضنا الاجتهاد، وأن نسعى للمنافسة لا أن نقاطع كل ماهو جميل. انبسطت كثيراً من معلّمي وصرت أحبّه أكثر.

حين خرجت، في الفرصة، إلى باحة المدرسة، التي لم يكن لها سور، جلست على إحدى الصخرات الواطئة، ورحت أتناول ساندويش الحلاوة بمتعة، رغم أن الحلاوة

كانت مائعة على الخبز من حرارة الصيف. ورحت أفكّر: كم عظيمة هي أمي.. لا أحد في صفّي يحظى بمثلها، فقد درستْ حتى الصف الرابع وورثتْ خطّاً جميلاً مثل أبيها الخطّاط، وكلّ وظيفة أكتبها تبيّضها لي بخطّها الجميل.

...

-2-

توقّفت برهة عن الكتابة، وتذكّرت أنهم طلبوا منّي أن أكتب أسماء أخوتي وأخواتي وأعمامي وأخوالي وعماتي وخالاتي وأولادهم جميعاً، وإلى أي حزب ينتسب كلّ منهم، وهل انتسب أحدهم إلى تنظيم الأخوان. طيب.. كتبت من أذكر منهم، وكيف لي أن أذكر أسماء جميع أولاد أقاربي؟ لو بقيت سنة أحفظهم لعجزت عن ذلك.

آآآآه تذكّرت. اليوم الأوّل في المدرسة الرسميّة، حيث كنت برفقة والدي. اشترى لي قرص بعجوة. ماأطيبه.. لم أذق في حياتي قرصاً بذلك الطعم.

أجلس القرفصاء وأكتب من غير أن أتبيّن ما الذي أكتبه من العتمة. أسندت ساعدي على الأرض ووضعت كفّي على وجهي: ياالله كم أنا جائع؟ تُرى كم الساعة الآن؟ ألا

يقدّمون هنا وجبة عشاء؟ لاشكّ أنّ الوقت تأخّر، وقد جيء بي بعد أوان العشاء.

مددت يدي لإخراج لفافة من علبة دخاني، فلم أجدها. وقعت كفّي على بطانيّة، قدّرت أنها بنيّة اللون، لأن ملمسها الخشن يشبه بطانيات الجيش. ضحكت: " اش جنيت كنّي. أي دخّان؟ أنت مسجون".

تابعت الكتابة بتوجّس خشية أن تنتهي العشر دقائق ولم أنتهِ بعد من كتابة ماطلبوه منّي. لاأريد أن أسمع كلمة بلا سبب وجيه: سأدخل في الموضوع مباشرة سيادة المحقق كي لاآخذ من وقتكم الكثير: في بداية ال...

توقّفتُ فجأة.. ماذا أكتب؟ بداية الثورة؟ بداية الأحداث؟ بداية الأزمة؟ المؤامرة؟ التخريب؟

كتبت: في بداية المظاهرات قلت في نفسي لابد من أن نبيّن رأينا فيما يجري. اتصلت ببعض الأصدقاء واتّفقنا على اللقاء كي نفكّر بدورنا فيما يحدث لنجنّب حلب مشكلات هي في غنى عنها. نعم تريدون بعض الأسماء سأكتب من أذكره منهم . (أوردت أسماء بعض الأشخاص الذين أعرف مواقفهم السلبية من الثورة... وبخاصّة ذوي المراكز المهمّة والحساسة من معارفي).

تابعت الكتابة: لم نتوصّل إلى موقف مما يحدث، فقلت في نفسي إن المطالب التي يريدها المتظاهرون محقّة، ولكنني لاأعرف طريقتهم في التظاهر. لا بدّ لي من معاينة الأمر عن قرب لأعمل، مع أصدقائي، على توجيه المظاهرات بشكل سلمي وعقلاني للمطالبة بما هو ممكن ولايؤذي البلد. كلّما سمعت بمظاهرة ستقوم في سيف الدولة أو أغيور أو الجميلية، أو بستان القصر أو الجامعة أو سواها من مناطق حلب، كنت أجهّز نفسي للذهاب ومراقبة مايجري. لكنّ الذي حدث أنني في كل مرة أذهب فيها، لاتحدث المظاهرة. أرى تجمعات كثيرة تنبي عن أن شيئاً ماسيحدث، لكنّه لايحدث. ربما لأنني كنت أرى أيضاً كثيراً من سيارات الأمن والشرطة المدنية، وبيك آبات تحمل عدداً من العساكر. أيضاً كان هناك أشخاص ملتحون يضعون عصبة سوداء على رسوغهم، لم أعرف إلاّ بعد فترة طويلة أنهم من اللجان الشعبية الذين يسمّيهم المتظاهرون شبّيحة. بعد فترة من الأحداث اتصل بي مدير الأوقاف السابق الدكتور الحسيني وقال لي: لابد أن نجتمع.. أرجو منك الاتصال بمن تثق من معارفك وبخاصّة من المحامين لنتّفق على موعد نلتقي فيه بعيادتي ونبحث ما نحن فاعلين. بالفعل اتّصلت بأمين عبد اللطيف، والدكتور محمود مرشحة، ومحمود بادنجكي، وأشخاص آخرين لم أعد أذكر أسماءهم.. ولكنني سأتذكّر بعد قليل. أطباء ومحامون وأساتذة جامعة. اجتمعنا أكثر من مرة في مقاهي

مختلفة لنتّفق على موعد اللقاء المنتظر، الذي انبثق عنه ماسمّيناه "نداء من حلب لأجل الوطن"*.

توقّفت عن الكتابة، ورحت أتذكّر ماحدث يومها.

---

* وجّه عدد من شخصيات حلب نداءاً، شرحوا فيه رؤيتهم لتهدئة الشارع ، من خلال القيام بإصلاحات السياسة السورية. .

نداء من حلب

-1-

كان اجتماعنا الأول في عيادة الحسيني. حين دخلنا معاً دفعة واحدة كان في يده الدستور السوري، بعد أن سلّم علينا وقدّم الضيافة بنفسه، عاد إلى الجلوس وراء الطاولة. فتح كتيّب الدستور وقال:

- مارأيكم، ومعظمكم قانونيون، بهذه الفقرة من الدستور: حزب البعث هو قائد الدولة والمجتمع، وهو يتصدّر مايسمّى الجبهة الوطنية التقدمية التي هي نسخة طبق الأصل عن البعث؟

أجاب بعضنا، ولست أذكر من تكلّم: هذا عار على العقل السوري المستنير. وتوالت الأحاديث عن قانون الطوارئ الذي يحكم البلاد منذ استلام البعث الحكم في سوريا، مع أنه غير قانوني، ولم يصدر وفقاً للإجراءات المتبعة في القانون.

ثمّ تحدّثنا عن رسالة باتت تنتشر عبر الموبايل على نطاق واسع: "ياالله حلّك حلّك.. بشار يقعد محلّك". قال الحسيني إنه اتصل برئيس الفرع ونبّهه إلى خطورة مثل تلك

الرسائل، فهي تهيّج الرأي العام، وتمسّ ثوابت الدين، فكان ردّه:

- إنّنا لانسمح بمثل هذا الكلام، لكن الناس يعبّرون عن مشاعرهم، ولانستطيع أن نمنع أحداً من التعبير عن شعوره وعن مواقفه.

ولاشكّ بأنّ الرد نفسه سنتلقّاه إذا تساءلنا عن انتشار صورة السيء الرئيس وبعض المتخلّفين يسجدون لها، بما يعزّز عبادة الفرد.

(كان ملوك الفراعنة يقدّمون أنفسهم على أنهم آلهة، ومن بعدهم الفرس والرومان، واستمر ذلك حتى العصور الوسطى عندما انتزع رجال السياسة في أوروبا السلطة من الكنيسة. لقد استند بعض الباباوات إلى نظرية "الحق الالهي"، التي تقول إن الحكم لله وهو يختار من يشاء ليصبح حاكماً بأمره، وذلك ليتسنّى لهم الاحتفاظ بمصدر الحق الذي يجسّده البابا. ثم حلّت نظرية "العناية الإلهية"، التي روّجت الاعتقاد بأن عناية الله هي التي تضع أحد الأفراد في سدّة الحكم بدون تدخّل من البابا، مستندة إلى فلسفة الجبر التي سادت أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادي، والتي تقول إن أعمال الناس كلّها محددة سلفاً بإرادة الله ولا خيار لهم فيها، وأسندت أعمال الشر إلى الشيطان .

وليس ببعيد الحاكم بأمر الله، المنصور، الخليفة الفاطمي السادس، فقد ادعى الألوهية واعتقد بتجسد الإله في شخصه. ثم تحوّل وصفه من الحاكم بأمر الله إلى الحاكم بأمره، وصار أتباعه إذا رأوه قالوا: "يا واحدنا يا واحدنا، يا محيي يا مميت".

وقد أشار أرسطو إلى أن الاسكندر المقدوني، أثناء غزوه لبلاد فارس، لاحظ أن الناس هناك تسجد لملكها، وأن الملك يتمتّع بمزايا خاصّة تخوّله حق إنهاء حياة رعاياه في أي وقت يشاء، حتى لو لم يكن هناك من سبب غير الأهواء الشخصية، كأن يريد الملك أن يُدرّب خليفته على الرماية فيوجّه سهامه نحو أحد المواطنين ليصطاده. فاستغرب الاسكندر من ذلك الوضع وعندما استفسر عن السبب، قيل له إن الملك في الشرق هو بمثابة إله او وكيل للآلهة في الارض، فأُعجِب الاسكندر بهذة الفكرة، ولما عاد من بلاد فارس، طلب من اليونانيين السجود له. ويعزز الحاكم سلطته على الشعب بإشاعة أنه يحظى بتأييد من الله، حتى لا يحاول أحد معارضة السلطة فيحلّ عليه غضب الله.

السجود على الصورة أو تأليه الحاكم، جعل ذاكرتي مزدحمة بعشرات الأمثلة، بدءاً من الأمويين، مروراً بالعباسيين الذين استندوا إلى تأكيد الحق الإلهي في الحكم، ومزجوا قواعده بتقاليد الفرس في الملك. اتكؤوا على النزعة الجبرية

التي ترى أن الإنسان مسيّر غير مخيّر. فتحولت السلطة معهم إلى مُلك موروث، مثل النظام الذي كان سائداً في الدولتين: البيزنطية والفارسية؛ حيث لم يكن للشعب حق الحد من سلطة الحاكم لأنه غير مسؤول أمام أحد. وقدجعل ابن تيمية من قوة الإكراه جوهر الحكم، وضرورة من ضرورات المجتمع، تنشأ بفعل استيلاء يضفي عليه عقد التشارك طابع الشرعية. فالحاكم، ولو كان ظالماً، خير من الفتنة وانحلال المجتمع، وللحاكم أن يفرض واجب الطاعة على رعاياه. "أدّوا إليهم حقهم واسألوا الله حقكم". فعلى الرعية إطاعة الحاكم، فإن ظلم ما لهم إلا أن يرفعوا أيديهم إلى السماء بالدعاء.

أما من يتّبع المستبدون تعاليمه بدقة فهو ميكيافيلي الذي نصّب (الأمير) ليكون له القول الفصل في ما يتعلّق بدولته، ونصح له بأن يقدّر وحده الأوضاع الطارئة التي يجب عليه أن يكون شرّيراً فيها ليحافظ على منصبه. «من الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلّم كيف يبتعد عن الطبيعة والخير»، من دون أن يبالي بما يقوله الآخرون عنه، ما دام هدفه أن يوحّد الرعايا على طاعته، وذلك يكون بالاجتماع على حب الأمير تارة، وعلى الخوف منه أحياناً أخرى. «من الواجب أن يخافك النّاس وأن يحبّوك، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبّوك». وعلى هذه الفلسفة

اعتمد "كرومويل" حين قال: «تسعة مواطنين من أصل عشرة يكرهونني؟ ما أهمية ذلك إن كان العاشر وحده مسلّحاً».

على المنوال نفسه تحاول السلطة السورية أن تسير، مستعينة على ذلك بمشايخها، لترسخ سلطة الأب ومن بعده ابنه الذي ينبغي أن تقدّم له فروض الطاعة والتبجيل. وليس مستبعداً اتّباع خطوات الامبراطور كاليجولا الذي ادّعى أنّه إلهٌ أرضي، وأمر ببناء جسر بين قصره و كوكب المشتري ، حتى يتمكّن من إجراء مشاورات مع الآلهة هناك).

فهل يمكن تصديق أن السماح بتلك الهتافات التي تبجّل الرئيس، وتدعو للسجود على صوره، هو مجرّد حريّة رأي، أم أنها خطوات مدروسة يتم ترسيخها في أذهان الناس؟

...

-2-

آآآآه ياهذه العتمة الخانقة.. أسمع صراخاً متكرّراً من أناس يُجلدون بقسوة.. أسمع السوط ينهال على أجسادهم فيستجيرون بحرقة. يتوسّلون بالله ورسوله للخلاص،

وبعضهم يصل إلى مرحلة التوسّل ببشّار ليكفوّا عنه العذاب. لكنّهم يستمرون في الضرب، ويصلني صوت ضرب تناوبي بين شخصين، كأنّ أحدهما يبدأ والآخر يرفع العصا ليعزفا معاً ألحان المتعة في تعذيب الآخرين.

يتوسّلون؟

أذكر أن أبي -رحمه الله- زار مرة قريب أمي (ذاك) في فرع فلسطين فأنزله ليريه الزنازين. قال له:

- أترى هذه السياط وهذه العصي، كلّ منها له اسم. عندما يستجير السجين بالله يضربه العناصر بهذه. وعندما ينادي للرسول، يضربونه بهذه. لدينا كل أنواع السياط التي يستجير باسمها السجين.

...

أفكّر: وماذا سأكتب بعد؟

إنّ الحديث عن تجمّع" نداء حلب من أجل الوطن" لايضرّ أحداً، وبخاصّة أن الموقّعين عليه يدعون إلى الحوار الوطني، وهم متّفقون على أولويته، فغدا تجمّعاً للحكواتية، لايؤثّر على السلطة بشيء، وإنّما قد تتخذه السلطة ذريعة لموافقة الشعب على بوادر الإصلاح التي أوحت بأنها تعتزم إجراءها. والأسماء الموقّعة على النداء الحسيني شخصيات معروفة ولها ثقلها.

عدت إلى الكتابة: في لقائنا من أجل النداء اتفقنا على أن نعقد جلسات لدراسة الدستور والعمل على إصلاحه، ثم استمرت جلساتنا في مقاهٍ مختلفة لنصوغ بيان النداء الأول، وقد حضر معنا العديد من القيادات السياسية لأحزاب متعدّدة، بعضهم في الجبهة الوطنية التقدمية، وبعض الأكراد، لكنني لاأذكر أحداً منهم، إنني منذ فترة أعاني من ضعف الذاكرة، وقد درست الفلسفة لأنني غير قادر على الحفظ، وإنّما أعتمد على الفهم وحسب. وهكذا تتالت لقاءاتنا ووقّعنا على بيانين أوثلاثة بيانات، هي في مجملها لاتتعارض مع خطة الدولة الإصلاحية، من بينها إلغاء حكم الطوارىء الذي استجابت السلطة له وألغته.

...

توقّفت عن الكتابة. تأمّلت المكان الذي أنا فيه. هل يعقل أنني وصلت إلى هنا؟ ولماذا؟ ماالذي يعرفونه عني ليعتقلوني؟ ترى من الذي وشى بي؟ حتى الذين أعمل معهم لايعرفون ماذا أعمل وكيف. ليس هناك مايبدو على السطح سوى ورشة صياغة الدستور، ونداء حلب، وهما عملان نقوم بهما في العلن، لأننا وقّعنا البيانات بأسمائنا.

أشعر بألم في رأسي.. هنا بزغت فكرة إيصال الخبر لأهلي كي يعرفوا أين أنا.

طرقت الباب بحذر غير مرّة حتى جاءني صوت من بعيد:

- مين مايدق ولاه؟

- هنا.. هنا.

يبدو أنه عانى للوصول إلى مصدر الصوت، فتح الطاقة الصغيرة أعلى الباب وقال:

- شو بدك ولاه حيوان؟

وقفت وبيدي الأوراق والقلم، قدّمتها له وقلت:

- خلصت.

- ياتيس... تاني مرة لمن تدق قول رقمي حداعش... احفظه يابهيم.

قلت له، بلهجة حلبية عفوية، وأنا أناوله الأوراق:

- بس في شغلة مهمة بدي أئلك عليها.

سخر مني: - أئوللك.. أئوولك...

لم آبه لسخريته. كنت أركّز طوال الوقت على الكلمات التي سأقولها له بطريقة مقنعة.

- أنا مريض بالقلب، معي تسارع وضغط مرتفع، وإذا ماأخدت الدواء ممكن تجيني نوبة قلبية مفاجئة.

قاطعني قائلاً:- فطيسة.. لجهنم.

لم أكترث بتعليقه وتابعت الكلام:

- الدواء عندي بالبيت، ممكن، لو سمحت، تجيبولي ياه؟

أغلق الطاقة وهو يتمتم. رفعت صوتي أكثر كي يسمعني:

- لازم كنت آخذ الدواء من المغرب، والآن راسي راح ينفجر من الألم.

تربّعت على الأرض وأنا أبتسم. المهم استطعت أن أوصل رسالتي.

هكذا، حين يسألون عن دوائي، يمكن أن يعرف أهلي أين أنا، ويخبروا أصدقائي ومعارفي فينقذوني مما أنا فيه.

الجدران دفاتر المساجين

كنت في غاية الإرهاق والتعب، لكنني لم أستسلم للنوم. عليّ أن أستكشف المكان، على ضيقه، ربما يساعدني شيء ما في هذه المساحة الضيّقة.

حملت البطانيات البنيّة القاتمة التي كنت أعرفها أثناء الخدمة العسكرية. نفضتها.. كانت ثلاث بطانيات.. طويتُ إحداها لتكون وسادة.

بين البطانيات عثرت على قطعة صغيرة من الحجر، وعلى قطعة صغيرة من سلك معدني قاسٍ، وعلى قطعة معدنية انتُزعت من مغلاق سحاب بنطالٍ، كنت قد سألت عن اسمها باللغة الانكليزية، وحين تذكّرت لفظها ضحكت بصوتٍ عالٍ، وسرعان ماابتلعت الضحكة حين انتبهتُ أين أنا.

يااااه كم كنت أسأل. أتحسّس الأشياء كي أتعرّف عليها. أقرأ لوحات الإعلانات. أركّز على الكتابة الإملائية والتشكيل.

حتى الآن، لم أعثر على خطّاط يكتب نصّاً بشكل سليم، وكأنّ من سمات أصحاب الخطوط الجيّدة استمرار الوقوع في الأغلاط الإملائية.

آآآآه الخط الجيّد.. تُرى من هو صاحب الخطّ الجيّد الذي رمى بي في هذا المستنقع الموحش.

دائماً كنّا نحذّر بعضنا:

– انتبهوا.. فلان خطّه جميل.

أعدت ترتيب البطانيات بما يلائم طولي. ورحت أبحث عن استعمالات تلك الأدوات التي أعدت إخفاءها تحت البطانيات، بإحكام.

بدأت من الجدار المقابل للباب. عبارات كثيرة مكتوبة بطريقة شفّافة لاتلفت النظر: ماشاء الله كان.. السجن للرجال.. هناك قلب مرسوم يخترقة سهم ونقاط تسيل.

قلب؟ كيف لمن يكون هنا أن يفكّر بالحب؟ الحب؟ حب مَنْ؟

ماالذي فعلته أنا اليوم؟ أو ربما أصبح أمس. لم أعد أذكر تماماً ماذا حدث. أخذت أمي إلى مشفى العيون.. كان المشفى مكتظّاً بالمرضى. استبعدت أمي أن نتمكّن من الحصول على دور قبل يومين. اتّصلت بمدير المشفى

فاستدعاها، بعد دقائق، للفحص. أعطانا دواءً وموعداً بعد أسبوع لإجراء العملية.

ونحن نخرج، بعد أقل من نصف ساعة، لمحت عينيّ أمي تبرقان. كانت فرحة بأننا أتممنا مانريد بيسر. لاشكّ أنها تفخر بي، في سرّها.

ذهبنا إلى السوق.. اشتريت من كل نوع فواكه كيسين. واحد لبيتي والآخر لها. كانت كل كرزة بحجم الخوخة. كرز وخوخ ودراق وموز وجبس وبطيخ.

ذهبت إلى البيت.. وضعت الفواكه بالبرّاد، وحرصت على وضع الكرز في الثلاجة العليا لأضمن التبريد السريع، ثم أوصلتها إلى بيتها مع الأكياس التي اخترتها لها.

الحب؟ يكتبون عن الحب، هنا؟ الحمد لله أنني فعلت ذلك اليوم. لاشكّ أن أمي راضية عنّي كلّ الرضا.

الكرز.. آآآه لم يتسنّ لي أن أتذوقّه. تُرى هل أنزلوه من الفريزا قبل أن يتجمّد؟

أشعر بجوع يعتصر أمعائي. لم أزل أبحلق في الجدار المقابل لباب الزنزانة.

أعلى الباب، وبمحاذاة السقف العالي، هناك طاقة محميّة بشبك حديدي يتخلله أسلاك حديدية مموّجة، وبللور مكسور تراكمت عليه، فضلات الحشرات، والأتربة التي ينقلها الغبار، ما جعل الرؤية من خلاله لاتسمح إلاّ

بتسلل خيط ضعيف من ضوء نيون يأتي عبر الممر الطويل الذي تصطف حوله الزنزانات الخارجية. أما زنزانتي فهي خلف ذلك الممر مباشرة، ويفصل بينها وبين الممر باب حديدي كبير.

تُفتح زنزانة محاذية لي.. أسمع صوتاً بغيضاً ينهر. حفيف أرجل.. صرير قيود حديدية تُحدث طقطقة قاسية حين يُحكم السجّان القفل على يديّ أحد الموقوفين. صوت ارتطام كفّ بخد... سقوط شيء ثقيل على الأرض. أسمع صوت السجّان مرّة أخرى يدعو السجين إلى الوقوف.

خطوات تقترب من زنزانتي.. أدقّ الباب بشكل لاشعوري. أسمع صوتاً يشتم ويتساءل، بوحشيّة، عمّن يدق.أقف أمام الطاقة الصغيرة الموصدة. أقرّب فمي وأقول:

- هنا..هنا

- رقمك ولاااك

- إحدى عشر

الليلة العصيبة

يذهب الصوت.. أسمع خطوت متثاقلة. أعود إلى الجدار.. ثمة من استعمل أداة الحفر تلك وكتب التاريخ، وعدّد الأيام، من خلال خطوط مائلة.

أعرف تلك الخطوط.. كان يخطّ مثلها بائع الحليب على جدار بيتنا في باب الأحمر. يصيح: حليب.. حليب. يقول لي جدّي، قبل أن تُقطع رجله:

– خود هالطاسة وقللو: مكيالين.

أركض إلى باب الدار.. أفتحه فتطالعني رائحة الماعز وثغائها. ألوّح بالطاسة وأصيح:

– عمو... هون.. هون.. تنين.

يشير لي بيده أن اقترب. أهرع إليه عبر ممر الحارة الطويل. أصل إلى الزقاق الخارجي حيث يهشّ الراعي الأغنام. يمسك مكياله ويحلب لي ثم يسكب المحتويات في الطاسة.. أمسكها بكلتا يدّي وأسير ببطء. أشعر بدفء الحليب وقد علته الرغوة. يلحق بي الراعي، يسألني بعد أن صرنا أمام باب البيت:

– هون عمّو؟

أهزّ برأسي: إيه هون.

يُخرج من جيبه شيئاً يشبه الفحمة المدبّبة. يضع خطّين على الجدار بجانب الباب.

لم أكن أصل إليها لأعدّها.. بل لم أكن أتقن العدّ بعد. لكنّ جدتي، عندما سألتها مالذي يفعله الحلّاب وبائع السوس في الجدار، ولماذا لايأخذون النقود عندما نشتري منهم؟ قالت لي:

– حبيبي.. بيجو يوم الخميس أو أول الشهر منعطيهم حقّه.. مشان الفراطة.

...

أُف. الحر هنا شديد في النصف الأخير من تموز. بعد أيام يكون رمضان.. لو أن كأساً من السوس البارد ترويني الآن.

كنت، من باحة الدار أسمع صوت تنقير السوّاس على طاسته بنغمة بديعة وهو يحمل القربة على ظهره ويصيح. لم أعد أذكر ماذا يقول.. هل يعقل أنني فقدت ذاكرتي؟ لم يمض عليّ في هذا المكان يوم كامل بعد.

أعود للتفرّس في الجدار.. أعدّ تلك الخطوط التي دوّنها موقوفون قبلي.. اثناعشر يوماً.. التاريخ منذ أيام مضت. هل هذا يعني أن مدة الاحتجاز هنا لن تتجاوز ذلك؟ افتّش عن تواريخ أخرى: منذ عام، عشرة أيام.. منذ عامين، ثلاثة أيام . يالطيف.. هذا شهر ونصف. لا..لا..لايمكن ذلك.

منذ يومين اجتمعت مع المحامين نجيب ومحمود في حديقة منزل الدكتور سعد لنرى ماذا يمكن أن يقدّم موقّعو نداء حلب في ظل الهجمات الوحشية التي يشنّها النظام على حمص وحماه ودرعا، وحدّثنا ناصر عن اعتقاله. لم يجب عن سؤال حول إذا كان قد تعرّض للضرب، إلاّ بقوله:

– لاأوقعكم الله بين أيدي الظالمين. لم يوفّروا وسيلة لم يتوسلوها لنزع الاعترافات منّي، حتى أن رئيس الفرع، وهو يطلق سراحي قال لي: ستعود قريباً وأريك كيف يكون التعذيب على أصوله.

كانت الكلمة تقف على رأس لساني لأسأل:

– ماهي المدة التي يمكنهم احتجاز شخص فيها بعد رفع حالة الطوارئ؟

لكنني صمتّ. لو أنني سألت لتلقيت جواباً شافياً من المحامين. لكن مبادرة نجيب بالقول: لم يعد الأمر كما كان سابقاً.. صلاحيات الأمن تقلّصت، جعلتني أبتلع السؤال.

لاأعرف من ذكر أمامي ذات مرّة أنه لايمكن احتجاز الشخص أكثر من خمسة عشر يوماً. ولكن.. ماذا؟ أسبوعان... أكيد سأجنّ خلالهما، إن لم أختنق من قلّة الهواء هنا.

لم أزل أبحبش في الجدار الثاني. شتّت انتباهي صوت السياط وهي تنهال على شخص ما في غرفة التحقيق. يبدو أن تناوباً في الضرب يحدث، وذلك يبدو جليّاً من خلال التناغم الصوتي بين ثانية وأخرى: طاق.. طاق..طاق.. طاق. يصل صوت من تقع السياط عليه مخنوقاً وهو يصرخ:

- والله ياسيدي مابدي أنشقّ.. سيدي أبوي مريض وماعطوني إجازة نزلت يوم واحد.. آآآآخ يايوووم.. والله التوبة... كرمال الله حاج... حاااج دخيلكن.. ابوس ايدك حاااااج... رايح أموت. أنا مريض.

وقع السياط كأنّه ينصبّ في روحي.. لم أعد قادراً على الاستماع إلى كل هذا العذاب.

يتوقّف الصوت فجأة. لحظة ترقّب تبدو كأنها دهر: ماالذي حدث؟

هل يمكن أن يكون... لا..لا.. لايمكن أن يحدث ذلك. هل مات من التعذيب؟ بعد قليل سمعت خبطات غريبة تدنو.. وضعت أذني على الباب لاستكشاف مايجري. كأنّهم يجرّون شخصاً:

- قوووم وققف ولاااا .. شو انت مرا؟ كللن كم فلقة. تضرب في نيعك.

اقتربَ أكثر صوتٌ يشبه صوت سحب كيس من الجبس على أرضٍ اسمنتية متعرّجة.

صوتٌ آخر يقول:

- ليك العجي بيمسح الدم بكم القنباز.. بحّتو بحّتو * لهالكرّ.

يُفتح بابُ زنزانة قريبة.. خبطة شديدة.. يُغلق الباب الحديدي بقوّة.. طقطقة مزلاج.

طوال الوقت كنت أسمع أنينه وأنا أفكّ حروف الكتابة على الحائط الثالث: سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري.. ساصبر حتى ينظر الرحمان في امري. هكذا

---

* اضربه ضرباً مبرحاً.

بأغلاطها كُتبت لتدلّ على مستوى التعليم لدى كاتبها. ثمّة جملة كُتبت بخطّ جميل جدّاً على حرف الجدار الموازي للباب الحديدي: زنزانة الأحرار. تأمّلت جمال الخطّ مليّاً، وأراحتني تلك العبارة التي تذكّرني بأنني لست مجرماً، وإنما طالب حريّة.

الأكل والمرحاض

ربما يوم أو يومان مضيا وأنا أسمع أصوات التعذيب والولاويل، يُفتح باب الزنزنة عليّ ثلاث مرّات لوجبات الطعام، ومرتين للذهاب إلى المرحاض، بعد الافطار وبعد العشاء بنصف ساعة. أمّا المرّات الأخرى التي كان يُفتح فيها الباب، فكنت أساق معصوب العينين ومقيّد اليدين، ليعطيني المحقّق درساً مقتضباً في الوطنية والإخلاص، ويهدّدني بعذاب شديد ينتظرني إن لم أكتب شيئاً جديداً مفيداً في إفاداتي.

يعودون إلى السيرة ذاتها، أوراق وقلم.. وأعيد كتابة ماكنت قد كتبته أكثر من عشر مرّات، بكلمات مختلفة، ولكن من غير أن أغيّر إفادتي إلاّ بإضافات أعرف أنها تتضمن تفاصيل أكثر سخافة مما كتبته من قبل.

الفطور كان رغيفاً من الخبز مع حلاوة أو بدونها. بعد أربعة أيام اكتشفت أن الرغيف الذي كان يأتي مجرّداً وفي طعمه شيء من المذاق الحلو، كان يحتوي على نصف ملعقة صغيرة من سائل مربى المشمش. أمّا الحلاوة فمن أوّل قضمة لم يخطر لي سوى أنني أتناول "شحاطة

بلاستيكية" فيها شيءٌ من السكّر. كنت أنظّف الرغيف من الحلاوة ثمّ أتناوله مع الماء.

أفكّر في جدوى العبارة التي كنّا نتداولها مرحين:"خبز وماء أكل العلماء".

الماء كان في إناء بلاستيكي يشبه طاسة الحمّام، نملؤه عندما نخرج للمرحاض بما لايتجاوز دقيقة واحدة. المرحاض كان قريباً من زنزانتي، يأتي السجّان، ومن أصوات فتح الأبواب وإغلاقها أعرف متى يحين دوري. يفتح الباب ويقول بلهجة صارمة مستعجلة: طلاع. أتّجه مباشرةً إلى اليمين، أسير في ممر ضيّق قصير، في الممر الأساسي المحاذي لطاقة زنزانتي يواجهني باب المرحاض، فسحة صغيرة ثم بابان أدخل في أحدهما. أجلس وماء مواسير تواليت الطابق العلوي القذرة تسيل فوق رأسي أو على كتفي. أخرج، وليس مسموحاً إلا بغسل اليدين والوجه. ومن يخالف ذلك يتلقّى لطمات بخيزرانة مدببة الرأس يستعين بها السجّان على تطويع المساجين كي لايتأخروا ولايتجاوزوا حدود التغسيل المسموح به. كل ثلاثة أو أربعة أيام أجد بروة صابون صغيرة أحتفي بها أيّما حفاوة، أستعملها وأستمتع بنظافة لانظير لها. ولأنني كنت أتقن الإسراع، كان السجّان يغتاظ منّي ويضرب الجدار بخيزرانته، ضربات متتالية كي لايفوّت على نفسه متعة الاستمتاع بوقع ألحانها التي تفرّق الهواء وهي تهوي على جسم ما.

...

الغداء له حكاية أخرى، إناء يشبه طاسة الماء فيه شيء من البرغل أو الأرز، مع مرقٍ يقبع في قعر الإناء، لم أكن أتبيّنه لشدّة انخفاض الضوء، لكنّ الرائحة كانت تدلّني عليه قبل أن أكتشف فتحة بمقدار نصف سنتيمتر على طول أسفل الباب، فما أن أسمع حركة توزيع الطعام حتى أستلقي بحيث أرى محتويات الصحن الذي يقدّم للزنزانات الأخرى. كما أنني اكتشفت فرجةً صغيرة في طرف طاقة الباب حيث بدأت أتلصّص عندما أسمع حركةً في الخارج.

كنت أكتفي برغيف الخبز مع قليل من الماء وأبقى أعاني، حتى موعد الخروج إلى الحمام، من رائحة طاسة الطعام، التي تحتوي ماء البندورة أو الفاصوليا البيضاء أو البطاطا المطهوة من غير غسيل أوتقشير. أحياناً كنت ألملم قطعاً من الفاصولياء من غير مرق وأدرجها في رغيف الخبز وهي بنصف طهو. طبعاً لم أكن أستهلك الرغيف، لكنني كنت أخفي بقاياه ،لأنني عادة أجوع في آخر الليل.

كانت وجبتي الأساسية في البيت هي وجبة العشاء، وذلك لأنني أنام بعيد الفجر. ولاأذكر أنني استهلكت رغيفاً كاملاً في أي وجبة باستثناء زيارتي لبيت أهلي فكنت أفخر بأنني أقضي على رغيف كامل إذا كان الطعام لحمة بالفرن أو باذنجان مكمور.

في العشاء أيضاً يأتينا رغيف خبز مع نصف حبة بطاطا بنصف نضج، أو نصف قطعة بندورة من الحجم الصغير. يالسعادتي... هاهي أيضاً تستمر وجبتي الرئيسة على العشاء. العشاء هو الوجبة الوحيدة التي كانت تسدّ رمقي لأنها لاتقتصر على الخبز والماء.

إزعاج ليلي متواصل

-1-

لم أكن أعرف أوقات الصلاة إلا إذا كان الهدوء سائداً، حيث يأتيني طيف خفيف من صوت أذان يبدو أنه أقرب الى الزنزانة المقابلة لي. في البداية استعملت طاسة الماء للوضوء، ثم اكتشفت حيلة جديد. حين أذهب إلى المرحاض صرت أغسل رجليّ قبل أن أخرج، ثم أكمل الوضوء بالمقلوب وبطريقة تبدو وكأنني أغسل يديّ ووجهي وحسب.

نعم، قبل أن أنسى.. أتناول النتوء الحديدي من تحت البطانية وأبدأ الحفر على الجدار كي لاأضيع الأيام.. دخلت يوم الاثنين18/7/2011 ، وضعت سطراً يضم أيّام الأسبوع والتاريخ تحت اليوم المحدد. وفي كل يوم كنت أكتب التاريخ تحت اليوم وأراجعه بين برهة وأخرى.

كنت قد سجنت قبل الآن، عندما كنت أؤدي الخدمة العسكرية، وأكثر ماأزعجني وجود عبارة "السَّوق" إلى الخدمة الإجبارية في دفتر العسكرية نفسه، يكتبون تاريخ السَّوق... وكل مساعد يخطر في باله السؤال: متى كان سوقك؟ كنت أتقزّز من تلك العبارة لأنّها تذكّرني بسياقة

الحمير أو طرش الغنم. ومع ذلك استسلمت للتحقير المجاني وبلعتها. بقيت أكثر من ثلاثة أيام لا أخلع البوط العسكري تحسّراً على ما نحن فيه من ذلك الإذلال، ويفترض أن نشمخ برؤوسنا ونحن الذين ندافع عن الوطن، ألم يقل السيّء النافق أن الوطن عزيز والوطن غالٍ؟ ألم نتعلّم في المدرسة أن الجيش هو حامي الديار؟ ويقولون لنا: حماة الديار عليكم سلام أبت أن تذلّ النفوس الكرام؟

إنّ أسوأ شيئين واجهاني في بداية الخدمة هما درس الرياضة الصباحي، وصعوبة العثور على كأس من الشاي. من الرابعة صباحاً:

- ولاك مستجد رمَلاً عالساحة.

تمارين مرهقة لم أجد منها جدوى، وخاصة أنني لم أكن أتحرّك من فراشي ما لم أتأكّد من جاهزية الفطور في البيت. ينتهي درس الرياضة الذي لابد أن تتخلله الشتائم المتنوعة حسب قاموس الرقيب المدرّب والمساعد المسؤول والضابط الآمر، وبعض العقوبات الجماعية والفردية التي لايعدم المساعد اختراع أسبابها.

يبدأ التوارد إلى مركز الإفطار لنجد قطعة صغيرة من الجبن أو بيضة مع كمية من اللبن لخمسة أشخاص توضع في إناء يقدِّم فيه مربّو القطط الحليب لقطّتهم الوحيدة المدللة، مع نصف صمّون تضربه في رأس الكافر فيعلن

إسلامه. ولم أجد أي مبرر لهذا الصمود من مخلّفات الاحتلال الفرنسي، مادامت سورية تستعمل الأرغفة الطبيعية للطعام. يبدو أن طقوس الجيش لاتكتمل إلاّ بصمّونه الفرنسي السميك. أما الشاي فيوضع في حلّة كبيرة، وكل عسكري يغرف كأساً منها، بما في ذلك الدسم الذي يبدو على السطح نتيجة استعمال الحلّة نفسها في طهي الطعام المخصص لليوم، ولاحاجة لغسلها مادامت تستعمل للغاية نفسها، كله طعام وشراب يدخل جوف الأغرار. الحل الوحيد الذي ناسبني أنني كنت حين أنزل إجازة عصر الخميس والجمعة إلى حلب لأعود فجر السبت.. كنت أجهّز حاجياتي في الثانية وأنطلق باتّجاه باصات "الهوب هوب " فلا أجد مكاناً إلا على سطح الحافلة، كيف وأنا الولد المدلّل. أعود أدراجي الى البيت فتفرح جدتي وأمي ويلومني أبي:

- غداً يعاقبونك.

- طيب... ماالعمل؟ لم أجد مواصلات.

قضيت يومين آخرين.. لأرى الأصدقاء وآكل من طبخات أمي ثم أنطلق. فور وصولي نُصفّ أرتالاً ونسمع الأوامر الإدارية: "حدّاد" أربعة أيام سجن... يفكّون حزام البنطال ورباط البوط العسكري ويسمحون بإدخال كتب

الدورة العسكريّة فقط لدراسة المركبات والقومية والاشتراكية.

حوالي عشرين شخصاً مسجونين في غرفة مساحتها اثنا عشر متراً مربّعاً، ومتاخمة لغرفة حرس الباب الرئيسي، في حرستا. يدخل الطعام إليهم ولايخرجون.

في الغرفة حفرة صغيرة تعلوها حنفية تحتها إبريق بلاستيكي، لقضاء الحاجة. فكرت: أنا أفكّر إذاً أنا حر.. كم أنا سعيد.. لقد اكتشفت لتوّي أنهم حجزو جسدي وحسب، ولم يستطيعوا حجز تفكيري.

جاء الصباح ولم يخرجونا، تبيّن أننا محرومون من الرياضة، وهنا زادت سعادتي فقد تخلّصت من الصحو المبكّر وممارسة الرياضة العنيفة والعقوبات التي تتبعها.

لاشيء نقوم به هنا.. والطعام يأتينا.

في المرات الأخرى صرت أتأخر ثلاثة أو أربعة أيام وأدخل عشرين يوماً إلى السجن. وضعت خطّة للاستفادة من الوقت. أدخل السجن وماأن يصير الضحى حتى يبدأ رفاقي بتسريب الكتب التي جلبتها معي من مكتبتي الخاصة. جلبت أربعين كتاباً، وكنت كل يوم أقرأ كتاباً وألخّصه وأقتبس أهم الأفكار فيه. خلال سجنتين قرأت أربعين كتاباً. حين اكتشفوا أن حياة المساجين أريح

من حياة العناصر المستجدين في الخارج، خفّضوا فترة السجن إلى يومين، فلم أعد أغيب. ثم بدأت أُحضر روايات نجيب محفوظ أقرؤها أثناء نوبتي في الحراسة، وأدرس كتبي الجامعية في الفترة المخصصة لمطالعة كتب القومية وكتب الميكانيك.

...

-2-

هذه الفكرة عن تجربتي السابقة ساعدتني على تحرير فكري من سجنهم، ولم يبق سوى سجن الجسد، فرحت أحلّق في سماء العالم الخارجي.

في غمرة ما أنا فيه فُتح باب زنزانتي على عجل.. وقفت.. أشار لي بالجلوس من موقعه حيث اتّخذ وضعية القرفصاء أمام الباب من الخارج. جلست. سألني عن نوع سيارتي ولونها وهل معي المفتاح. أجبته عن كل الأسئلة، حين علم أنها ليست بالخارج، أصيب بخيبة الأمل، وقال، باستياء: انكشِح.

أغلق الباب بارتباك وذهب. عدت إلى حلمي. لم يكن يقلقني سوى مَن هم في الخارج.. أهلي .. أقاربي.. أصدقائي... تُرى هل يعرفون كم أحبّهم؟ كان يفترض

أن أكون أكثر صراحة بالتعبير عن حبي لهم وعن لهفتي عليهم وعن رغبتي في مساعدة أيٍّ منهم. من المرجّح أن هذا هو قبري.. لن أخرج من غَيابة الجبّ، فكيف سيعرفون كم كنت أحبهم.

بدأت بالتركيز على شيء واحد كلّ مرة، أوشخص واحد: أبي، أمي، زوجي، أولادي، من أحببت على مدى أربعين عاماً. ماذا عملت وماذا أنجزت؟ ترى هل سأدخل الجنة أم أن خطيئاتي تتجاوز الحسنات.

استعرضت تاريخي واكتشفت أنني كنت مظلوماً على مدى العمر. صحيح أنني نعمت ببعض السعادة من خلال إنجازاتي الفكرية والعملية، ولكن السمة الغالبة كانت الشقاء الذي أدفعه بالعمل. كنت أدفع عني التفكير السوداوي بالعمل الذي كان معظمه طوعياً بلا عائدات، ولكنني كنت فيه أحقّق ذاتي.

في هذه الأثناء فُتحت طاقة الباب الوحيدة، وبرز من خلالها رجل قميء، تعلو البثور وجهه، حليق الشعر والشاربين، له لحية كثيفة، وعلى كتفه الأيمن وشم كتب عليه: رضاكي ياأمي، مع قلب يخترقه سهم. وعلى الكتف الأيسر جملة: لبيك ياعلي، وفيه وشم سيف معكوف. في يده أوراق يدوّن عليها.. يبدو أنه جدول تفقّد. نهرني بلهجة صارمة، سألني عن اسمي

وأعلمني أن على السجين أن يقف ووجهه إلى الحائط عندما يُفتح الباب، وأن يخاطب محدّثه بقوله: سيّدي.

أعدت الاسم وختمته ب(سيْدي) من غير تشديد، لأنني أعرف أن السّيِدْ هو الذئب وليس السيّد.

قال، وهو يغلق الطاقة:

- تخوزق... بَدْكُن حريّة؟ بدكن رصاصة تريحنا مِنْكِن.

كل ذلك يحدث وسط حركة متهيّجة في الخارج... متظاهرون يدخلون والعصي تنهال عليهم والشتائم المتنوعة... يسلّمون أماناتهم... يكتبون تصاريح... بعضهم يخرج بعد كتابة التعهد، وآخرون يقضون خمسة عشر يوماً على أقل تقدير، يرافقها تعذيب دوري.

كنت قد تعبت جداً وأردت أن أنام. أتقلّب: ماالذي يعرفونه عني وماالذي يمكن أن أخفيه. كيف أتحدث عن المظاهرات والتنسيقيات ورفع الأشرطة المسجلة عاليوتيوب والتواصل مع الفضائيات. هل يعرفون شيئاً عن العصي الكهربائية؟ عن أجهزة الاتصال المتنوعة؟ عن عملي مدرّساً في المعهد الفرنسي؟ لا شك أن هذه النقطة ستصنّفني من المتعاملين مع قوى أجنبيّة، مع أن المعهد مرخّص من الدولة ولايغيب عن نظر أجهزة الأمن طويلاً. كل فترة يأتي أحد منهم.. تعطيه الإدارة المعلوم وينصرف، علماً أن إدارة

المعهد تابعة للحكومة الفرنسية عبر بعثاتها الدبلوماسية، ويعملون في حارة شعبية بإيجار الدار من الحكومة نفسها.

احترام مريب في التحقيق

فيما أنا على وشك أن أغفو وأنسى أين أنا، فُتح الباب بعنف: لم يبدُ وجه الشخص، الذي وقف وراء الباب متخفّياً. وضع الطمّاشة على عينيّ. شدّ يديّ إلى الخلف ووضع القيد فيهما،ودفعني أمامه. تعثّرت بدرجة واطئة قبل أن يرمي بي مرافقي إلى داخل الغرفة.

سألني صوت، يبدو أن مصدره واقف:

- من أوّلها..احكيلنا عن المظاهرات، وكيف كنت توجهها، ومين كان معك، ووين كنتو تجتمعو، وشو مخططكم لقلب النظام. شوف لحد هلق نحنا محترمينك، هنْتْ رجل معروف والك مركزك وكنت مدير مجلة، ومالك جلجوق، بقى لاتخلينا نغيّر المعاملة معك. عَدنا أساليب مابتخطر ببالك فاختصر على حالك الطريق وقلنا أسماء إذا بدك تطلع من هون، وإلا ورب اللي خلقك منخليك تتخ* هون.

* جلجوق= لاقيمة لك. عَدنا= عندنا . قلنا= قل لنا. منخليك= نتركك. تتخ هون= تبلى عنا.

بعد مايزيد على ساعة ونصف وهو يحقق معي وأنا واقف، لم أكن أنتبه إلى الرائحة النتنة التي تعجّ بالمكان، ولم أكن أشعر بأي تعب لأنني كنت حريصاً على التركيز حول ماأقول خشية الانزلاق بما قد يؤدّي إلى فتح ملفات أظنّ أنهم غافلون عنها تماماً.

دار حولي بضع مرّات، ولم يخترق الصمت من حولنا سوى صوت عصا يبدو أن حاملها يضرب كفّه فيها بانتظام يبعث على الخوف، وكأنّه يهيئها لشيء ما.

مع دوران المحقّق حولي كانت تدور في رأسي شخصيات المحققين التي قرأت عنها، وعن أساليبهم في انتزاع الاعترافات.

كم يبعث الصمت على السكينة وهدوء النفس، بمقدار ماينبيء أن عاصفة تلوح في الأفق. رحت أعبّ من هذا الصمت الذي افتقدته يومين أو ثلاثة أيام خلال وجودي في هذا المستنقع الذي لاتبدو له نهاية، وأنا أسمع أصوات التعذيب ونداءات الرحمة التي لايستجيب لها أحد في هذا المكان.

الأمر الأساسي الذي كنت واثقاً منه، مهما تكن النتائج، ومهما يكن مصيري، لن أسمح لهم بهزيمتي.

بحركةٍ مفاجئة وضع المحقق يده على كتفي وقال:

- احكيلنا عن علاقتك ب"أبو فادي".

قلت بتلعثم: أبو فادي.. أبوفادي.. (بعد صمت دام ثوانٍ تابعت):

- ايه رجل كبير السن طيّب القلب..إنه محامي من حماه يقيم في تجميل المشارقة منذ فترة طويلة، هو لايعرف او لايحب قيادة السيارة لذلك يستعين بابنه.. يتصل به ليأتي ويأخذه من المقهى.

قاطعني المحقق بنبرة حادّة:

- عبتضحك علينا؟ شو دخلنا بسيارته وابنه.

قلت، بهدوء شديد:

- سيدي انتو قلتولي احكيلنا بالتفصيل، وأنا عبحكي كل شي بعرفو.

سمعت صوت ازدراده الماء قبل أن يتحدّث وكأنّ بقايا الماءِ مايزال في فمه ولم يكمل ابتلاع كل مافيه:

- مو هاد ياااااا... بني آدم. أبو فادي اللي بيتعامل مع الدول الغربية، وبدو يخرّب البلد.

- مابعرفو سيدي.

- كيف مابتعرفو. سماع لَشوف.

سمعت وقع خطوات، لم أتبيّن مصدرها، ولكن يبدو أنها تحيط بي من كل جانب. ساد صمت مريب برهة من الوقت ثم سمعت صوتاً على بعد مترين منّي:

- احكي أبو ثائر.. بيعرفو كل شي، وأنا حكيتلهم كل شي عملناه.. كنّا عندك في البيت أنا وأبو فادي واتّفقنا أنو يجيب العصي الكهربائية، وحكينا عالسلاح بس ماجبناه وماستعملناه.

عندما جاءني صوت الدكتور ياسر دارت بي الغرفة وشعرت بأنني أقف عارياً أمام قبيلة تعرف دقائق حياتي كشريط سينمائي لايمكن نفي أيّ شيء فيه.

بعد أن أنهى ياسر كلامه، بدوت للحاضرين كمن أُسقط في يده، وعاد صوت المحقّق يجلجل مكلّلاً بنصر حققته المفاجأة:

- م ي ن أبوفادي، وكيف تعرّفت عليه، ومتى، ومااااذا كنتم تخططون له؟

قالها وهو يتلذّذ بمخارج الحروف ببطء كامرأة تختبر أنوثتها لأول مرّة. صدرت منّي كحّة خفيفة لاإراديّة وقلت:

- منذ ستة أشهر تقريباً اتصل بي شخص قال أنا أبو فادي ونحن أصدقاء من أيام الدراسة وأنا اشتقت لك وأريد أن أراك.

قاطعني المحقّق:

- ومن أين جاء برقم هاتفك؟

ابتلعت لعابي وقد داخلني فرح خفي من مقاطعته تلك، بما يسمح لي بتمييع التحقيق. قلت:

- سيدي كل سوريا بتعرف رقمي.. يعني أي شخص يمكنه معرفة رقم هاتفي بسهولة، بصراحة لم يخطر لي أن أسأله هذا السؤال، يمكن أن يسأل اتحاد الكتاب أو اتحاد الصحفيين أو جمعية العاديات، أو أي شخص في المقهى. أنا كل ماأقوم به واضح وفي العلن ولاأخفي شيئاً عن أحد.

(أحسست أن المحقّق أحبّ حكايتي، وبدأ ينسى مايريده منّي، لذلك استرسلت، مستعرضاً، قدر الإمكان، معارفي كي لايجرؤوا على إيذائي):

- مرة كنت في أصفهان بمؤتمر علمي وكان معنا مجموعة باحثين، من بينهم الدكتور فخري، وهو رجل مسنّ ومعروف، أصرّ، في طريق العودة، على أن يحجز درجة أولى وكنّا نحن درجة سياحية، فقلت

له: لماذا تريد تكليف الجماعة عبئاً إضافيّاً، قال: أنا أستاذ جامعي، ولايجوز أن يحجزوا لي بدرجة سياحية، قلت له: طلّع فيني دكتور.. إذا دقّيت باب حلب، أول مية شخص بيطلع بيناتهن "حداد" وبعد كم مية بيطلع اسمك، شو يعني أستاذ جامعي؟ أنا أستاذ جامعي كمان.

يبدو أن المحقّق ملّ حكايتي، فلم تكن مجرياتها تناسب هواه، فصاح:

- شو دخلنا بهالعلاك الفاضي؟

- سيدي انت بتسأل منين جاب رقم تلفوني.

- وبعدين؟

- وعدت ابوفادي.

قاطعني: - وشو اسمو أبو ضراط.

- والله سيدي نسيت.. هلء بتذكرلك.

- كمّل.

- المهم تواعدنا نلتقي بالمقهى. أنا مابعرف شكلو. دخلت أشوف مين في حدا غريب، وأكيد لازم يكون شكلو محترم. يمكن مهندس هو. المهم.. رنّيت التلفون، قللي:

-أنا هون.

شفتو جالس بتاني طاولة عاليمين.

قاطعني صوت آخر غير صوت المحقق قال:

- سيدي جاي عبالي اعملو كفين.

قال المحقق:

- احكيلنا المفيد مابدنا التفاصيل الفاضية.

- سيدي أنا بحطكن بالصورة، مشان تكون عندكن فكرة كاملة عن كل شي.. أنا ماعندي شي أخبّيه.

خبط الطاولة بيده خبطة قويّة وقال مغتاظاً:

- كمّل.

- المهم شفتو بتاني طاولة. سلمت عليه، سألته: شو بتشرب؟ قال: شاي أخضر. قلتلو في زنجبيل إذا بدك. قال: إيه أحسن. أنا طلبت قهوة اسبريسو.

سمعت صوت غاضب:

- إيه وبعدين؟ المهم شو خططتو ضد البلد.

صمتّ برهة، وقلت ببطء:

- ماااحِططنا شي. إذا بدك أستعجل هلء بنسى اش عبؤل[*] . سمعت صوتاً ساخراً:

- ايه أأأأووول.

(سمعت هسهسة خافتة، ربما كان د. ياسر مصدرها، فهو يعرف اسلوبي في المماطلة). تابعت: - سألني ماذا تعمل وقلت له. اييه تذكّرت. هو ليس مهندساً. هو قال إنه تاجر بن في اسبانيا، كمان هو مابيدخن، لأنو لما شافني بشعّل سيكارة صار يبعد الدخنة عنّو بأيدو ويقول: الله يخلصك منها. كمان هو أصلع شوي وأصحّ منّي وأقصر، وعندو سيارة لها باب واحد، ونمرتها أجنبية، بس أنا مالي منيح باللغة، مابعرف من أي دولة السيارة، كمان مابعرف بأنواع السيارات. لما كنت بالمركز الإعلامي، قلت بدي أغيّر السيارة، قللي المحافظ ليش شو عطيناك نحنا نوعها، قلتلو والله مابعرف سيادة المحافظ. (كنت في كل مناسبة أركّز على ذكر الأسماء الكبيرة، وعلى أمراضي المختلفة).

سمعت صوتاً ساخراً أيضاً:

- ايه تذكّر كمان لنشوف.

---

[*] ماذا أقول.

- أراني صورة لنا نحن في إحدى رحلات المدرسة بلباس الفتوة أمام سيارة أجرة قديمة. بس الصراحة أنا لم أذكر تلك الصورة ولم أعرف نفسي فيها، لكنني قلت له: ذكّرتني بأيام المأمون. قصدي – سيدي – هي الثانوية اللي كنا فيها، بشارع الاسماعيلية. أعرف تريدون الخلاصة وأنا الآن أتذكّر.. المهم حكينا أن حلب تعاني مشاكل ونحن نريد محاربة الفساد من دون أي اندفاع أو أذى، وحكينا كيف يمكن أن نشارك في المظاهرات ونوجّه الهتافات بما يمكن إصلاحه. وهيك عرّفته على أشخاص كثيرين، وكل علاقاتنا كانت تدور حول معرفة مايدور في المظاهرات وكيفية الحفاظ على التظاهر بما لايخالف القانون.

قاطعني المحقّق قائلاً: - هنت ماعمّا تفهم عليي. شللو الطمّاشة ياولد.

...

استمرار جلسة التحقيق الطويلة

رفعوا العصابة عن عيني، بينما بقيت يداي مقيدتين.

المفاجأة كانت مذهلة، وبقدر ماأربكتي أفرحتني، حيث بعد أربعة أيام في الظلام أرى أشخاصاً أعرفهم. كان على يميني وأمامي على بعد مترين الدكتور ياسر وإلى جانبه الدكتور عبد الرؤوف، من غير أي قيد. من جهة اليسار رأيت المحقّق لأوّل مرة: قصير القامة يكاد يغطس في الكرسي الجالس عليه، والطاولة أمامه تخفي ثلاثة أرباع جسمه. عينان زرقاوان صغيرتان بالكاد يمكن العثور عليهما وهما غائصتان تحت حاجبين سميكين. وقف، فاتضح لي جسمه النحيل الضئيل ودهشت: هل يمكن أن يكون المحقق بهذه الصورة. أعرف عن المحققين أنهم يحملون كروشاً كبيرة، ويكونون عادة كألواح في أطوالهم، وكجدار في بنية أجسادهم الضخمة.

وضع يديه في جيبي بنطلونه الجينز . مشى باتّجاهنا. حاول نيل التأكيد من رفيقيّ أنّ أحداً لم يمسّهما بسوء، واستجابا لرغبته فطلبا مني الاعتراف بكل شيء، بعد أن

أكّد أنه لايستطيع الإفراج عن أحدنا، فلابد من الحصول على الاعتراف ليفرج عنّا جميعاً.

بقيت مصرّاً أنني قلت كل ماأعرفه.

جمع الرائد قبضته ونكز كتفي الأيسر بقوّة، تراجعتُ خلالها خطوتين الى الوراء وأنا أميل لأحدث توازناً كي لاأقع. لم تكن الضربة بتلك القوة، لكنّني أردت أن أوحي له بمدى هشاشتي.

أعرف أنني لست ذكيّاً لدرجة كبيرة، ولست سريع البديهة كثيراً، غير أن الخوف هو الذي كان يحرّكني. أعرف كم هم كاذبون، وأعرف أنهم لايعرفون عنّي أكثر مما أقوله، وأنّ أي اعتراف بشيء ما، سيجعلهم يتمسّكون بي، ويستخدمون شتّى الوسائل لينتزعوا منّي معلومات أكثر.

وأنا أتحدّث، أشار ياسر إشارة سريعة بإصبعه الى قدميه. فهمت من إشارته أنه وعبد الرؤوف تعرّضا للتعذيب ماأجبرهما على الاعتراف بماقالاه، وكأنهما قالا كلّ شيء يعرفانه.

(لكن اتّضح لي، فيما بعد، أنهما لم يقولا الكثير. وعرفت أنّ أرجلهما بقيت متورّمة أكثر من عشرين يوماً

من شدة التعذيب، وقد تم اعتقالهما قبلي بيوم ولم يخبرني أحد بذلك. وبدا واضحاً أن التعذيب توقّف عنهما، مؤقّتاً، بعد الاعتراف، ماجعل ياسر يغيّر بعض أقواله ويجاريني في إخفائي حقيقة ماحدث).

الضابط يمشي جيئة وذهاباً، بعد ساعتين من التحقيق، وأنا أستغرب من صبره عليّ كلّ هذا الوقت. توقّف وقال:

- ياسر كان يجبلك سيديات مشان تبعتهن عالفضائيات العا(..)ة. مع كم قناة كنت تتعامل، ولمين تاخدهن؟ شوف اذا بتكذُب بَدّي (كفر كفرية كبيرة).

أهم نقطة أنه لم يسألني مع من أرسل السيديات، لو فعل كنت قلت إنه عرف قصة عمر حطاب وأيمن حناوي، ولم يعد هناك مفر من الاعتراف، لكنه لم يسأل هذا السؤال، ولمحت تجاوب ياسر معي، فقلت:

- كيف أكذب عليكم، لاأريد توريط نفسي بالكذب، أنا أصلاً فاتح ثلاثة مشاريع عمل مع بعض، فلاوقت لدي. ماعدا مَرَضي اللي اكتشفته منذ شهرين، ومرض مو سهل.. سرطان. وأنا قصّة

السيديّات فعلاً استغربتها، هو عطاني سيديين بس، وبصراحة أنا كان وضعي النفسي سيّئ كتير وسمعتو مرة عبيقول بدي أحوي ليترين وسكي بالسيارة وسيديات بورنو، قلت له: ياريت لو تعمل حسابي بالسيديات اذا بينفعو. لما أعطاني السيديات عرفت أنه لبّى طلبي. فتحت أول واحد طلع فيه مظاهرة في الأتارب، وكنت شايفها عالجزيرة من زمان واستغربت ليش عطاني ياه وماعرفت السبب، قلت يمكن بالغلط. السي دي التاني مافتحتو، بصراحة، خفت. الناس رايحين جايين بيزوروني فماكان عندي وقت، وانا عامل عملية تجريف مثانة من السرطان فقلت أول شيء بسأل طبيبي رئيس القسم بمشفى ابن رشد الدكتور حنّا بجوز هالشغلة تضربي.

هنا سارع الدكتور ياسر الى القول، كي ينجدني:

- صح سيدي هنن سيديين بس، أنا كنت نسيان.

قال المحقق:

- انتو كِلكين عر(...) ت، وأنا بعرف شو دواكن، خدو هالدواب من هون.

بدا لي أننا هزمنا المحقّق، تماماً، ولم أكن أدري ماهو مخبّأ لي.

...

هذه المرّة أعادونا إلى الزنازين بدون تطميش وبلا قيود. سرنا معاً برفقة رقيب وثلاثة عناصر. كان باب غرفة التحقيق قريباً من الممر الذي سلّمنا فيه الأمانات، حين مررنا صاح لي رجل ضخم الجثة يعاني من كرش واضح، لم أستغرب تلك الكرش عندما عرفت، فيما بعد، أنه المساعد أبو صالح وهو مدير السجن، سألني وهو يرفع كيساً أعرفه:

– هاد دواك؟ ان شالله سم الهاري.

حين لمحت كيس دوائي النايلون الأصفر أخفيت فرحي الذي تضاعف بعد أن تجاوزتُ محنة التحقيق، وذلك لسببين مهمّين، أوّلهما هذا يعني أن أهلي عرفوا أين أنا، الأمر الآخر أن الكيس كان يحتوي على أصناف دواء أكثر مما هو ضروري لعلاجي، من بينها حبوب مهدّئة كنت أستعملها وقت الشدة، أو حين يستعصي النوم. الآن وقتها تماماً كي أتمكّن من الخروج من المستنقع الذي أنا فيه.

أمسكت الكيس. نظرت داخله. أخذته ومشيت، قال المساعد، وهو ينتر الكيس من يدي:

– تأخذ حبة واحدة من كل نوع، مع الوجبات.

ولكن كيف جاؤوا به؟. كيف سمحوا بدخوله؟

بدلاً من عرضي على طبيب، وكي لايتكلفوا ثمن أدوية لي، يحضرون كيسي الذي خصصته لأدويتي!. يحضرونه كما هو من غير تمحيص أو تدقيق!. كيف وهم يرعبون بلداً بأكملها، ويدّعون أن الأمن السوري من أقوى دوائر الأمن العربي؟!

ياللغرابة، مجرد كيس أدوية خفّف عنّي نصف أثقالي، ومدّني بالعزيمة، وزوّدني بالطمأنينة.

أخدت حبة من كل نوع، وسار معي السجّان الذي كان يتبعنا حيث زنزانتي بالقرب من الصوفاج على يمين الداخل إلى الممر، ولأوّل مرة أعرف أن زنزانة د. ياسر أمامي مباشرة ورقمها (8) أما زنزانة عبد الرؤوف فهي بعدي مباشرة وفي الصف نفسه ورقمها(10).

دخلت الزنزانة وأنا فرح، تناولت حبة الضغط، وأرجأت حبوب الأسبرين وميرليت ونورفيك.

الآن عرف أهلي أين أنا، تُرى هل يتحركون لأجلي ليعرفوا كيف الطريق الى إخراجي من هنا؟ ماالذي بيدهم؟ وماموقف شركائي في نداء حلب، واتحاد الكتاب، واتحاد الصحفيين، وجمعية العاديات، والمفتي، والمحافظ الذي التقيته منذ فترة قصيرة من أجل فك الحصار عن درعا وتخفيف معاناة أهلنا في حمص؟.

...

عنتاب -20 أيلول 2013– مساءً

ذكرى

وضع شهم الأوراق جانباً، وقد داخله شعور باكتئاب مفجع. تذكّر حين داهم رجال الأمن مكتبه في دار النشر بدمشق. أجبروه على دفع ثمن مئة نسخة من كتاب بعنوان" القائد الخالد". أعطوه نسخة من الكتاب الضخم وقالوا له إنهم سيوزعون الباقي بمعرفتهم:

– نهبك النسخة بألف ليرة، مع أن الأفكار الذهبية فيه لاتُقدّر بثمن.

بعد سنوات، وفي تحضيرات الاحتفال بتنصيب الرئيس– الابن جعلوه يوقّع عقداً يلزمه بتسليمهم مئة صورة قماشية له بحجم 216 متراً مربعاً، وأفهموه أن ذلك شرف له. عقب تلك الحادثة لازم فراش المرض أكثر من شهرين، لينفض عنه مواجع القهر، وهمّ الدين الذي تراكم عليه بعد السلب الذي تعرّض له بشكل لاينفع معه قانون.

غير أن الشعور بالمساواة في الظلم، هو الذي خفّف عنه عبء آلامه. فجاره الذي يملك متجراً لقطع غيار السيارات، صحا يوم العاشر من آذار 2001 ولم يجد سيارته الحديثة أمام منزله. لدى سؤال الجيران، تبيّن أن ثلاث سيارات بيجو تحمل لوحات خضراء (يعني أنها حكومية – أمنيّة) توقّفت أمام السيارة. نزل منها مجموعة شبّان، عالجوا زجاج نافذة القيادة بسيخ حديدي، ثم حاولوا تشغيل السيارة فلم يفلحوا. حضرت، بعد قليل، رافعة السيارات، قطروا السيارة ومضوا.

بعد تتبع الواقعة والاستقصاء، نصحوا صاحب السيارة بعدم تضييع الوقت في المخافر، لأن هذا الأمر يتعدى صلاحيات الشرطة، وقالوا له هناك حوادث كثيرة مشابهة، ولن تجد سيارتك في دمشق. إنها في جبلة. كل المؤشرات التي تدلّ عليها طريقة مصادرة السيارة تشير إلى هناك.

بعد وساطات متعدّدة، ومن مسؤول إلى مسؤول، وصل إلى سيارته. رآها بأمّ عينه متوقّفة أمام فيللا في ضاحية الأسد. ولأنه يحمل (كرت واسطة) من محافظ دمشق، سمحوا له بالحديث مع أحد الضباط المكلفين بحراسة الفيللا . قال له والابتسامة الصفراء تتوضّع بين فكّيه:

- باين عليك ابن عالم وناس. السيارة استحلاها المعلّم، مو معقول تستكترها عليه، احمد ربّك أنك ترجع لدمشق سالم. صحتك بالدنيا. أنت أهم من السيارة ومن الفلوس. بدّي قلّك شغلة وحدة: انسَ..الله معك.

أحسّ شهم برغبة في التقيؤ بعد أن غزته تلك الذكريات. عاود التفكير بلمّ الشمل. بالذين يقبعون في زنازين ضيّقة تحت الأرض. بدار النشر التي يتوقّع منها اجتراح المعجزات.

يبدو أننا سنبقى في حلقة مفرغة، أو حلقة دائرية، قال جورج أورويل" إن كان هنالك أمل ، فالأمل يكمن في عامة الشعب، لن يثوروا حتى يعوا، و لن يعوا حتى يثوروا". وهانحن في قلب المعمعة، بدأت الثورة ولم يتم تشكيل الوعي بعد.

لقد تساءل كولن ولسن: "لماذا لا تحدث ثورة ضد قوانين الرياضيات كما تحدث ضد الدين؟

ليس ذلك لأن قوانين الرياضيات مفهومة أكثر. إن قانون إكمال المربع هو غير مفهوم بالنسبة للإنسان العادي، تماماً كما لايفهم هذا الإنسان نفسه العقيدة

"الاثانيزية"، وليس هذا لأن العلم خالٍ من السحر والأساطير والمعجزات وتواريخ الحياة التي يفاخر بها "الأصدقاء" ببطولاتهم وقدسياتهم، ومن التافهين والفارغين الذين يدّعون بأنّهم مكتشفون، بل على العكس، فإن تصورات وقدسيات العلم كبيرة جداً وحقيرة بقدر كثرتها.

إلا أن طالب العلوم لم يتعلم أن قانون الوزن النوعي يتألف من الاعتقاد بأن أرخميدس قفز من الحمام وركض عارياً في شوارع سيراكوز صائحاً: وجدتها وجدتها، أو أن قانون إكمال المربع يجب أن يُنبذ إذا استطاع أحد أن يثبت أن نيوتن لم يدخل بستاناً في حياته.

إننا نجد في الرياضيات والفيزياء أن الإيمان مايزال نقياً، وبإمكانك أن تتمسك بالقانون وتترك الأساطير دون أن يتهمك أحد بالهرطقة". فمن أين أتت كل تلك الأكاذيب التي تحشو رؤوسنا.

هل يمكن أن يكون دويستوفسكي قد كشف السرّ في "حلم رجل مضحك"، وهي قصة يروي فيها بطل الرواية حلمه الغريب عن أرض سعيدة وبشر يعيشون بسلام بلا رغبات ولا خطايا، يغنّون ويتحدثون مع الأشجار بلغةٍ خاصة. حين غزاهم بأفكاره، تعلّموا الكذب وأحبوه وعرفوا

مواطن الجمال فيه، ربما بدأ الامر(بريئاً) علي سبيل المزاح، أو الغنج والدعابة واللعب، وحقيقة الأمر أن البداية كانت ذرة، لكنّ ذرة الكذب تلك تسرّبت إلى قلوبهم و أعجبتهم، بعد ذلك ظهرت اللذة بسرعة. بعدها قالوا إن الحقيقة لاتُبْلغُ إلا بالعذاب . وعند ذلك ظهر العلمُ عندهم، وعندما أصبحوا أشراراً أخذوا يتحدّثون عن الأخوّة و الإنسانيّة، وفهموا تلك الأفكار . وعندما أصبحوا مجرمين اخترعوا العدالة، و كتبوا قوانين تصونها، ولأجل تطبيق القوانين نصبوا المقصلة !

عجيبة هي الحياة بتناقضاتها.

أغلق شهم أبواب الذاكرة، وأعاد فتح الأوراق مرّة أخرى ليتابع قراءة المذكرات. وجد نفسه يدخل الزنزانة مع كمال. يشعر بالانقباض الجاثم على صدره.

....

زنزانة حلب 22 تموز 2011

مشكلة المثانة

-1-

لم أعد أذكر إذا كنت قد تناولت العشاء، أو وفّر السجّان حصّتنا لنفسه حين كنّا في التحقيق. لا يهم.. المهم أنني تجاوزت المحنة. الآن يبدو أن ياسر وعبد الرؤوف اضطرا إلى ذكر اسمي في التحقيق بعد التعذيب الذي تعرّضا له، ولكن هل يشكّل ذلك خطورةً عليّ؟ لاأظنّ. ونتيجة الشائعات على عبد الرؤوف التي لم أكن أصدّقها، كنت حذراً جدّاً فلم أتركه يعرف بيتي.

بتُّ أعاني من تشويش الأصوات التي تتداخل، ولم أتمكّن من النوم بالرغم من تعبي الشديد، فهاهي هسهسات خفيفة تصل إليّ من خلال الجدران أو الباب. قد يكون شخصٌ ما يشارك د. ياسر زنزانته، فالصوت بدا قريباً جدّاً.

صوت يشبه نداءات الباعة في الصباح الباكر حين أكون في ذلك الوقت قد أويت إلى الفراش، فيتعكّر مزاجي وأتقلّب في الفراش من غير جدوى. قررت، حين أبدّل بيتي

فلابد أن أسكن في شارع رئيس بحيث لاتُتاح الفرصة للباعة بالسير في شارع مزدحم يعجّ بحركة السير. طبعاً فعلت ذلك لاحقاً، ألم يقل جبران: ليس في العالم شهوة لاتتحقّق. تحقّقت فعلاً، بدّلت بيتي، وهاأنا أعاني من أصوات السرافيس وأبواق السيارات. وزاد على ذلك (الطشمة) جارتنا زوجة سائق باص السفر الساكنة في المبنى المجاور، ويحلو لها أن تسهر طوال الليل في حديقة بيتها الأرضي الأمامية التي يطل عليها البلكون الخلفي لغرفة نومي، وتبدأ أحاديثها الهاتفية بأعلى صوت وكأنّها تتحدث إلى شخص في غواتيمالا، ولايمكن أن يسمعها مالم تجعل من صوتها مكبّراً يخترق الآفاق. وماإن تنتهي من هواتفها المتوالية حتى تمدّ ساقيها على بساط من القش تفترشه، وتضع أمامها طبخة الغد، فتحفر الكوسا أو تلف ورق العنب أو تحشي المكدوس، هي وبعض قريباتها أو جاراتها، وتبدأ مسلسل النميمة على كل من يعرفنه. ووسط حديثهن تتذكّر أهميّة إضفاء جوّ رومانسي على جلسة المتعة تلك، فتصيح بصوتٍ عالٍ:

– ولك يامقروفة العمر يعدّمني ياكي ليش ماشعلتي أضواء العريشة الملوّنة.

ومايزيد الطين بلّة أن ابنتها لاتسمعها لأنها ترقص في الغرفة الداخلية على أنغام أغنية حديثة لايمكن تذوّقها مالم

ترفع صوت المسجّل إلى حدّه الأقصى، مايجعل الأم ترفع صوتها أكثر:

- ولك يابنت الكلب صرلي ساعة عبصحلك.

تستجيب البنت مكرهة. بعد إضاءة الحديقة بأضواء ملونة تومض، تستأنف جارتنا حديثها عن فلانة:

- ولي عليها مابتسوا قشرة بصلة ومابعرف ليش ريفعة أنفها.. على إيش شايفة حالا دخيلك. وفلانة يعني كأنّو ماحدا غيرا اشتغل محامي، محسبة حالا كونداريزا رايز، وابن أم حمدو يقرف عمره اش عينو زايغة، ياخيتو أنا بس أشوفه بتطق مرارتي، يعني يكون عليه لحسة لبن فيها ومافيها. وماحكيتلك عن بهيجة يما شرشحتا عالعرس المبهدل.

تتابع كلامها حتى الفجر على هذا المنوال الذي يذكّرني ب"خيرية"، ضرة "فتحية"، التي تتحدث بما صرنا نسمّيه(فجلأة) تستعمل خلالها كل المفردات المستنكرة التي نخجل من استعمالها في حياتنا اليومية، والتي تزداد شراسة حين يلقي عليها طلاب الجامعة من الطوابق العليا مايتوافر لديهم من بقايا بندورة أوبصل، أويرشّون عليها الماء، لأن صوتها يعطّل عليهم دراستهم.

اااافففف مابي وجارتنا والأصوات؟ هل جننت؟ لا.. إنّ مانقلني إلى تلك الحوداث هذا الصوت الذي يحفر في أذنيّ، ومصدره زنزانة قريبة منّي، ويمنعني من النوم، بالرغم من الإرهاق الذي أعانيه. كيف يمكن أن أفهم فحوى النمنمات التي أسمعها، لعلّي ألتقط مايعينني على ماأنا فيه في هذا القبر الذي يسمح بمرور شيء من الضوء، وقليل من الهواء بما يمنع من الموت، ولكنّه لايجنّبني ضيق الصدر.

(عرض زنزانتي المنفردة على امتداد فتح يديّ، وطولها يزيد عن طولي قليلاً).

أضع أذني على الباب لألتقط الهمس.. لم أستطع اكتشاف الحروف التي تتناثر من شفاه المتحدّثين. أبحث في أرجاء الغرفة عن شيء أستعين به على إرهاف السمع.

كنّا، ونحن أطفالاً، نأخذ "كونة" فارغة، وهي عبارة عن قطعة إما بلاستيكية أو كرتونية تُلفّ عليها الخيوط، مخروطية الشكل، لها فوهتان، عريضة وضيّقة، نغلّف الطرف الأصغر بورقة بعد أن نربط ثقباً فيها بخيط نمدده، ونفعل بالطرف الآخر الشيء ذاته. كل طفل يأخذ بطرف يتحدث منه تارةً، ويصغي تارة أخرى، بما يشبه الهاتف السلكي.

الآن من أين آتي بالكونات؟ أعاود تجوال بصري في أرجاء الغرفة، فهي صغيرة ولاحاجة بي أن أقوم للبحث. تقع عيني على طاسة الماء البلاستيكية.

لم أعد أذكر تماماً، ربما عندما كنت صغيراً أضع طاسة الحمام النحاسية على فمي وأقرّبها من أذني، فيبدو الصوت عالياً وجميلاً، ويُصدر صدىً، لعلّ هذا الصحن – الطاسة يفلح في نقل الصوت. أمّد بصري ثم يدي، أكثر من نصف الإناء ملآن بالماء. عليّ أن أشرب الماء كلّه إذن. أبدأ بعبّ الماء على دفعات وأنا أسمّي بالرحمن. دقائق قليلة ويصبح الإناء فارغاً. أضع فوهته على الجدار، وأضع أذني على قعره. أسمع أصواتاً متداخلة، ومن بينها صوت أنين شبه منتظم. مايصلني لايشبه الصوت الذي كنت أسمعه بشكل أقرب. أبدّل مواقع سماعتي الجديدة إلى أن أعثر على مصدر الصوت. إنه من الباب الحديدي، أي من الزنزانة التي أمامي أو من زنزانة قريبة أخرى. كان المتحدث يشرح بهمس مبحوح، لمن يشاركه الزنزانة، عن ظروف اعتقاله:

– من أربعة شهور لم أنزل إجازة، نزلت من الشام ومعي إجازة قديمة زوّرت تاريخها، ومرّرت على كل الحواجز بسلام إلى أن دخلنا حماه، وبالصدفة اكتشف أحد العناصر أن لون خط الرقم "واحد

"بالتاريخ يختلف عن بقية الأرقام فمسكوني وأتوا بي إلى هنا.

فهمت، مما دار بينهما من حديث، أنه رقيب أول متطوع، وحكى لصاحبه أنه منذ أربعة أيّام نقلوا كتيبته بسيارات عسكرية إلى حرستا ووزعوا عليهم البواريد وأمروهم بإطلاق النار على العصابات المسلّحة، منهم من لم ينفذ الأوامر فتلقّى رصاصة في رأسه من الخلف، من الضابط المرافق. أما هو فقط اضطر الى إطلاق النار، بشكل عشوائي، ولايعرف إذا كان قد أصاب أحداً أو لا.

صار الصوت أكثر همساً، ولكنني سمعته يقول:

- يازلمة ماشفنا عصابات مسلحة ولاشي.. عليّ الحرام بارودة ماشفنا.. كلهم ناس عاديين متجمعين.

عندما علا صوت حركة سجّان يُخرج موقوفاً للتحقيق، كفّ المتحدّثان عن الكلام برهةً ثم استأنفاه بخفوتٍ شديد. هاااا الآن عرفت أين أنا.. أول مادخلت الزنزانة أخرجوا عسكرياً منها لآخذ مكانه، وهاهو رقيب أول معتقل. وسمعت السجّان البارحة يتحدّث الى شخص على الغالب في الزنزانة(7) يقول له:

- أنت عقيد في قطعتك، هون انت موقوف آفيني ساعدك.. قول لنا رفيقك اللي انشق وين هو وخلّص حالك؟

معناها أنا معتقل في الأمن العسكري.

كنا نجتمع كثيراً على المحلّق قرب هذا المكان.. أمام جامع العباس، ونفكّر متى نتخلّص من صنم الجحش الذي يجلس على حصان وسط الدوّار. على بعد أربعة مبانٍ مكتب سامر الذي كنّا نجتمع فيه أيضاً. في بعض الصباحات نجلب الفول والمامونية والجبنة والقشطة ونفطر، إمّا قبل صلاة الجمعة أو بعدها. كثير من المساءات قضيناها هنا، وأحياناً حج بشير يقول له: اش بدك تعشّينا اليوم ياسامر أفندي. ولم يكن سامر يتأخر لحظة واحدة. كان الرجل كريماً. لاأزال أذكر المكدوس والمربى والزعتر والفتّات التي تسارع زوجته في تقديمها لنا. ولأن قسماً من بيته هو مكتب إعلامي خاص يعمل فيه بضعة موظفين، كان أحياناً يتركنا مجتمعين ويغادر إلى عمل له، ونغادر نحن تباعاً بحسب مقتضيات الحال.

حين أخرج من هنا سأتوجّه فوراً إلى مكتبه. أدخّن سيكارة من أحد العاملين لديه. آخذ حمّاماً سريعاً عنده قبل أن أذهب الى البيت، فقد أصبحت رائحتي لاتطاق بهذا الصيف الحار وهذه البطانيات، وهذا المكان الموبوء.

ولأنني لاأحمل نقوداً لاشكّ أنه يوصلني هو أو يكلّف أحد العاملين لديه بذلك.

فجأة سمعت جلبة كبيرة في الخارج، صمت المتحدّثان تماماً، وغطّت أصواتٌ متداخلة كثيرة على كل الأصوات القديمة. إنّها اعتقالات جديدة، لابدّ أنهم داهموا مظاهرةً طيّارة واعتقلوا بعض المشاركين فيها.

عاد صوت الصفع والضرب بالعصا والأحزمة، بينما هناك صوت آخر يقول:

- شو في معك؟

معناها هذا مستلم الأمانات.

صوت آخر يأمر شبّاناً على التوالي:

- طلاع.. نزول.. طلاع.. نزول.. نزول عالأخير ياحيوان.

ظننت أنه يعاقبهم بما كنّا نُعاقَب به في الجيش، التمرين السادس أو التاسع، واحد ينبطح فيه المعاقب على الأرض ويحمل جسمه بكفّيه ليلامس الأرض بأنفه ويرتفع ويعاود عدّة مرّات، والثاني يعقد كفيه خلف رأسه ويبادل بين رجليه في الصعود والهبوط لتلامس ركبته الأرض. لكنني علمت، فيما بعد، أنّ هذا الصوت: طلاع.. نزول..

طلاع.. نزول، يعني أنهم يفتّشون المعتقل الجديد بأن يفكّ ثيابه السفلية ليغدو عارياً، يجثو ويقف عدّة مرات ليتأكدوا من أنه لايحمل أي أداة حادّة في ثيابه الداخلية أو يخفي شيئاً في شرجه.

يتوالى الصراخ ويعلو في غرفة التحقيق، ويعجّ الممر بالذين يسلّمون الأمانات، والذين يتمّ تفتيشهم، والذين يبدأ التحقيق الأوّلي معهم. يسألهم مستلم الأمانات عن مناطق سكنهم، وتتوالى الإجابات: الميسّر- سيف الدولة – الجميلية- صلاح الدين- طريق الباب – هنانو...

ويتكرّر ذكر سيف الدولة كثيراً، الأكثرية من هناك. إذن هي مظاهرة من جامع آمنة.

أسمع صوت صفعة قويّة:

– ياشر(...) أنت شو جابك لسيف الدولة ومتخوزق بيتك بالجلوم.

ويتوالى المسلسل. ويكبر الرعب في داخلي وأنا أتخيّل منظر الدماء التي تسيل مع استقبال المتظاهرين كل ليلة، وبخاصّة ليلة الجمعة، وبعد صلاة الجمعة. أحاول التفكير... لا أستطيع.. أحاول النوم.. لاأستطيع.. رأسي يكاد ينفجر من الألم.

أتذكّر الحبة المهدّئة لديّ. أضعها في فمي.. أتناول طاسة الماء.. يبيي فارغة تماماً.. حتى ليس فيها أي نقطة. أبتلع الحبّة من غير ماء. الأصوات تختفي حيناً وتعود في الارتفاع تارةً أخرى.

أكوّم جسمي في زاوية الغرفة مسنداً ظهري إلى الجدار. رأسي بين يديّ.. أغمض عينيّ.. تدور الزنزانة بي.. أغفو وأرمح، وساقاي تهتزّان بحركة لاإراديّة. مع كل غفوة يوقظني صراخ شابّ يتلّقى التعذيب.

أرى في غفوتي جثثاً متراكمة، رؤوساً تُداس.. عسكراً يرقصون على أجساد الناس المنبطحين المقيدين وهم يغنّون، تماماً كما حدث في البيضا منذ شهور. وأرى الكثير من الدماء.. نهر قويق يجري بماءٍ برتقالي اللون. أغفو. يتلبّسني كابوسٌ وأصواتٌ متداخلة فأصحو. يتراءى لي الجلاّد القرمزي وفي يده سوط.

-2-

كم مضى عليّ وأنا هنا؟ ربما يومان أو ثلاثة أيام... هل صاروا أربعة؟ لست أدري. أشعر بامتلاء المثانة. منذ شهور وأنا أعاني من كثرة التبوّل، ثمّ عرفتُ

أن السبب هو هذه الكتلة الموجودة في المثانة التي اتّضح وجودها أثناء التنظير، ثمّ تبيّن بعد فحصها أنها كتلة سرطانية.

ماالذي أفعله؟ السجّانون يستشيطون غضباً مع الوافدين الجدد، وهم يبحثون عن أي ذريعة ليفرّغوا كبتهم وشهوتهم بضرب الآخرين. أمسك نفسي وأنا أدعو الله أن يُذهب عنّي هذه الغمّة ويؤجّل اضطراري للتبوّل. ياالله، كم هي صعبة الحاجة للتفريغ وعدم قدرتنا على فعل ذلك.

أذكر.. كنت منذ سنوات أعاني ألم البواسير، ولعدم ثقتي بالأطباء، استعملت الأدوية والمراهم، ولم أنفّذ وصيّة أحدهم بضرورة إجراء العملية، إلى أن أتى يوم عانيت فيه أكثر من ساعتين وأنا أستعمل الحقن والماء الفاتر للتبرز، وفي أثناء محاولاتي تلك، عاد والدي من العمل وطلب طعام الغداء، كان يتناول الطعام بطريقة جعلتني أحقد عليه، يتناوله بنهم ومتعة واضحين، وكنت أسمع مضغه للطعام كأصوات التعذيب التي أسمعها الآن، كيف يأكل شخص بلا مبالاة وأمامه شخص يتلوى من الألم لأنه لايستطيع إفراغ الأذى من جوفه!.

الآن أشعر بالانقباض نفسه. أسمع طرقاً خفيفاً على الباب، ومامن مجيب. يعاود الطارق القرع بصوت أعلى وأسرع تتابعاً، يأتينا صوتٌ غاضبٌ من الممر:

– مين مايدق ولاااا... مين الشر(...) اللي مايدق.

يصُدرُ صوتٌ خجولٌ: – رقم ستة، سيدي.

يردّ عليه السجّان: كول خرا.

بعد دقائق.. يعاود الطارق إصدار صوت خجول ملحّ:

– سيدي انا متضايق كتير بدي اروح على التواليت.

يجيبه: – خرااس.. بتطلع بعد الفطور... ياحيوااااان..

صوت تاني: – بجي ب(...) عليك.

أُصدرُ صفيراً خافتاً: هففف هففففف... كل هذا من أجل التبوّل. أقوم وأمشي في الغرفة التي أقطعها بثلاث خطوات. أعاود الجلوس.. المشي يحرّض المثانة أكثر. ياإلهي... ماالذي أجبرني على شرب كل مافي الإناء من ماء؟ كل هذا من أجل الفضول؟ أوقعت نفسي في ورطة. هل أدقّ الباب أيضاً؟ ومالفائدة؟ سأتلقّى الشتائم من غير فائدة. تُرى متى يبزغ الفجر؟ بعد كم ساعة موعد الطعام؟ وهل أستطيع الاحتمال

حتى ذلك الوقت. أعاود القيام والمشي.. الوقوف.. الجلوس.. أسند أعضائي لعلّي أؤخّر تلبية نداء الطبيعة قليلاً. أهزّ جذعي إلى الأمام والخلف كما لوكنت في حلقة ذكر، أذكر: جدّي كان يقول لأخي حين يفعل ذلك: حاج تحجّ.. ركوووز.

بعد معاناة لم يكن يخفّف عبأها سوى شعوري بمعاناة الذين أسمع أصوات تعذيبهم تكاد تصل إلى المباني في الجوار، لم أعد أحتمل السيطرة على نفسي أكثر من ذلك.

فجأةً، انبثقت فكرة جنونية لم يكن منها بدّ. استعملت طاسة الماء مرتين لتفريغ المثانة قبل أن يحين موعد الفطور. المشكلة حُلّت وارتحت. الآن تواجهني مشكلة أخرى: كيف سأتمكن من حمل الطاسة مليئة أمام السجّان عندما أخرج للحمامات؟ كيف سأبرر له حملها وهي مليئة؟ الشيء الذي يمكن أن يساعد أن لون الطاسة خمري، وأنني منذ وجودي هنا لم أتناول أيّ شيء من اللحم، وهذا يعني أن لون البول كاشف ولايميل إلى الأصفر. بل الواقع أنني لم أتناول سوى الخبز والماء والبطاطا بنصف سلق ومن دون ملح، لأن الملح ممنوع.

بدأ فتح الأبواب وبتّ أرقب متى يحين دوري لاستلام الطعام. الطاسة لامكان لها سوى بالزاوية قرب الباب.

رفعت جزءاً من البطانية لتغطي جزءاً من الطاسة التي يفترض أنها للماء. وقفت قرب الباب، أترقّب، حين فُتح، مددت يدي لآخذ رغيف الخبز وفوجئت بأربع حبات زيتون ناعمة. قلت لا بأس زيتون أفضل من خبز حاف. ماأن وضعت الزيتونة بفمي حتى شعرت بمرارة فظيعة. أعدت النظر إلى مابيدي.. هل هو زيتون فعلاً. وبصعوبة شديدة لففت الزيتونة بقطعة خبز وتناولتها. خطرت لي فكرة رائعة.. هذا الزيتون جاء بوقته.. أضع بزرة الزيتون(النوى) في طاسة الماء، وهكذا لم يعد هناك خوف من تبدّل لون الماء.. وغدا هناك مبرّر لتغيير الماء مادام فيه حبيبات تمنع من شربه.

انتهى الفطور وبدأ قلق انتظار موعد الذهاب الى التواليت.

تُفتح الأبواب واحداً إثر آخر، وأنا أترقّب دوري ناظراً من ثقب طاقة الباب.. ياالهي.. ألمح شخصاً يمرّ يشبه الدكتور أيمن.. وها هو صبري.. يبدو أنهما في زنزانة واحدة.. وبحسب مكان خروجهما يكون رقم الزنزانة(**4**).

كل شخص يخرج، إذا تلكّأ تصيبه ضربة من خيزرانة السجّان، وكذلك إذا تأخّر أثناء التبوّل أو تعبئة إنائه بالماء، أو حاول غسل رجليه بالماء.

يُفتح بابُ زنزاتي بقوّة وأسمع صوتاً فجّاً:

- طليييع.

أخرج وبيدي الإناء المملوء.. أسكب محتوياته في بللوعة الفسحة الخارجيّة للتواليت. دوري هو الأول، لذلك أختار الباب الثاني لعله لايقطر ماءً قذراً من السقف. يتبعني شخص آخر ويضطر إلى دخول الباب الآخر. أخرج بعد ثلاثين ثانية ويكون السجّان قد وقف أمام الباب الخارجي للتواليت.

أسأله: - أليس هناك صابون؟

يزجرني بقوله:

- عيّن... بلعط... اشحالك ولاك مايكوون بدك شامبوو كمان؟ لشو صابون؟

- صحن الماء عليه دهون، ممكن أجليه أو أبدّلوا.

- بدّلو من هنيا.

تناولت صحناً من الصحون المكومة في الباب التالي للتواليت، حيث أشار، واكتشفت أنه المطبخ. فيه حلل كثيرة، وبرّاد، والكثير من مواد التنظيف. عدت إلى التواليت بسرعة لملئه. يبدو أنني تأخرّت بهذه العملية المعقدة، فحين خرجت من الباب نكز السجّان الإناء بخيزرانته فانسكبت محتوياته عليّ.

تابعت السير بسرعة وفي يدي الإناء شبه فارغ.

أشرت له على الصوفاج، قال: - بسرعة. مددت يدي، أخذت ثلاث حبات من الدواء. دخلت الزنزانة. أغلق الباب عليّ. جلست.

الحقيقة أن أدويتي مكوّنة من حبّة ضغط وأسبرين وحبة وقاية من مرض القلب، لكنني أخذت ثلاث حبات من المهدّيء، وذلك لأن أدويتي تؤخذ مرة واحدة فقط، أثناء طعام الغداء، وأخشى أن يكتشف أحد أمر الحبوب المهدّئة، لذلك آثرت أن أخزّنها داخل قصاصة صغيرة من إحدى نشرات الدواء، وأخفيها تحت البطانيّات.

المهم أنني تخلّصت من أعباء الإناء المليء بالبول، ولم يستطع أحد اكتشاف ماالذي فعلته. لايهم الماء.. لقد غسلت رجليّ بالتواليت قبل الخروج، وأكملت وضوئي باسلوب لم يلحظه السجّان، وشربت. أحبّ الماء كثيراً، لكنّ الصبر على العطش أخفّ وطأةً من حبس البول.

-3-

اليوم في بدايته، واليوم طويل في هذه الغرفة الضيّقة، ذات الباب الفضي الأصمّ، الذي تعلوه طاقة صغيرة بمستوى نظر الواقف، وفوقها قضبان حديدية مبسّطة بطول

خمسين سنتيمتراً، ثم بقيّة الجدار. في الأعلى قطع من الالمنيوم تشبه بوراي المطاعم الضخمة، مخصصة لشفط الهواء ومتّصلة بالزنزانات الأخرى عبر الممرات.

قررت أن أفكّر كلّ يوم بشيء واحد صغير، وأسهب في التفكير فيه. ماأروع أن تكون لدي القدرة للتسلل عبر هذه القضبان، فأخرج من زنزانتي الضيّقة، وأعود قبل موعد الغداء.

القلق بدأ يحرّك داخلي مارداً يتوقّد لهيباً: أنا.. في هذا المكان؟ كلّ هذا العذاب.. وكلّ هذا الصبر على الفقر وعلى دفع فكرة التعامل بالرشوة، إحدى السمات التي كانت تميّز معظم العاملين معي. وأصير هنا؟ وبيد مَنْ؟ طغمة من الأنذال الذين لايتورّعون عن بيع آبائهم من أجل المال.

أقف.. أتحرّك بقلق شنيع ضمن هذه المساحة الضيّقة. ماالذي ينبغي لي أن أفكّر فيه اليوم؟ القلق يزداد شراسة وأكاد أختنق. الهواء الذي يصلني لايكفي رئتيّ. أمدّ يدي تحت البطانيّات أُخرج حبّة من المهدّيء..أتناولها مع بقايا الماء في قعر الإناء. ألفّ البطّانيّات على شكل وسادة في صدر الغرفة، مقابل الباب تماماً، وأجلس عليها.

كنت أقول لأحد طلابي الأجانب في المعهد، حين يكون لدينا درس منفرد في موضوع تخصّصه للدراسات

العليا: أين دَرْسُنا اليوم؟ ينظر في جدول ترتيب المحاضرات، يقول:

- دكتور.. فوق.

أضحك.. هذه الفوق كانت غرفة صغيرة بحجم هذه الغرفة تقريباً، يتصدّرها لوح، وفيها طاولة وكرسيان ومكيّف.. كنا نصعد إليها عبر دَرَج خشبيّ. أوّل مرّة رأيتها، أسميتها الزنزانة. وغدت تُعرفَ هذه الغرفة بهذا الاسم في المعهد كلّه. فحين يكون لدي درس أسأل جاكومو أو جوناس أو كاتي أو شيلبا: أين درسنا اليوم، يقولون: في الزنزانة. وهاأنا بعد شهور من إطلاق تلك التسمية أودَعُ زنزانة حقيقية.

أرى دخاناً يتصاعد من خلال القضبان الحديدية فوق طاقة الباب.. أقف.. أتسرّب من خلاله. لم أرَ أيّ ممر.. لم أعد أرى الأبواب، ولا الدَرَج الذي نزلنا عبره حتى وصلت إلى هنا. أشمّ رائحة اللحوم المقززّة. كثير من الأدمغة المكوّمة.. ألسنة تتكدّس... أصوات نداءات مختلفة.. أجسام مذبوحة ومعلّقة من أضلاعها بحديدة على شكل حرف (**S**). كيف يمكن للإنسان أن يتحمّل مثل تلك الروائح وهذه المناظر التي تصيب بالغثيان. يفاجئني شبل صغير بصوت يفزعني وهو يقول:

- أستاذ مابدك كلواز؟ اليوم نزل السعر صار ب(**32**).

أمدّ يدي إلى جيب الكلابية.. أكتشف بأنني لاأحمل أيّ نقود.

كان هذا مساري ثلاث مرّات بالأسبوع، حيث مواعيد حصصي في المعهد. أركن السيّارة في سوق باب جنين، قرب بائعي الفواكه والخضار الذين يتوزّعون على جانبي المنطقة الجرداء التي تشبه مشروع حديقة قادمة، وأسير باتّجاه سوق العتمة، حيث يعجّ المكان بروائح اللحوم المختلفة وأصوات الباعة الذين يلحّون على المارّين للشراء. لاأسير في السوق إلى آخره، بل أمرّ بجانب بائع الحلاوة على الزاوية، وألقي نظرة على مصلّح البوابير النحاسية القديمة، والمدخل الخلفي للجامع، وبعض محلات بيع الدجاج المضروب بأبر ماء كي يزداد وزنه، ثم محلات بيع الأسماك ولحوم الضأن والعجل. أحثّ الخطا في تلك المنطقة، ثم أدلف إلى أول شارع فأنعطف يميناً..أشمّ روائح محل بيع الشواء، وأنا أتجاوز بسطة بائع الدخّان المهرّب.

حين أصبح في منتصف الطريق القديمة أبدأ في التمهّل بالسير لأعبّ من روائح البيوت العربية العتيقة في الزقاق الضيّق وأنا في رحاب منطقة "العَقَبة".

هذه البيوت القديمة تعكس مزاج أصحابها بطابعها المعماري الأصيل حيث تتجاور البيوت وتتلاصق في حميمية واضحة، وقد بنيت بالمواد الإنشائية الأوليّة البسيطة، وترتفع جدران البيت فنرى البيوت تتقارب حتى لا تترك إلا حيّزاً ضيقاً يتيح المرور لضوء الشمس والهواء، وفسحة من صفحة السماء الزرقاء، وتتقابل الشرفات والمشربيات في الطوابق العليا الى حدّ أنها تتحاور وتنقل تحيّات الجيران، وتهمس بما تكنّه نفوسهم من مشاعر المودّة والجيرة الطيّبة.

قبل أن أصل إلى مفرق المعهد أنتشي برائحة الخبز التي تصدر من الفرن الهاديء وقد تحلّق أمامه بضعة أشخاص يتناولون من الميزان أرغفة طازجة. أصل الآن إلى الزقاق الضيّق الذي تتوسطه دالية تربط بين جدارَي بيتين متقابلين، تتعاشق روائح الخبز مع الأرض المغسولة بالماء وورق العنب وذكرى طعم العنب الذي يروي العطش. أدفع باب المعهد ببطء.. تلفحني رائحة الياسمين المتدلّي على شبّاك المعهد كشَعر حوريّة مثل شلّالٍ منسدل. باحة الدار العتيقة التي تتوسطها بركة الماء تموج تحت شمس تقتسم الظل الذي يغطّي نصف المساحة. أقف متأمّلاً سلاحف الدار تلاحق بعضها، يقول لي أحمد، المكلّف بالحرص على شؤون المعهد:

– هذه السلحفاة تحاول إبعاد تلك التي تلحق اناثه.

- معناها لديكم سلحفاة وغيلمان.

- اشو؟

- احفظها.. الذَّكَر اسمه غيلم.

نظرت في الساعة، حان موعد درسي. رنّ الهاتف، كان المتحدث مدير التلفزيون يريد أن يجري معي حواراً، تذرّعت بضيق الوقت، لكنّه عرف أنني ممتنع عن إي لقاء تلفزيوني أو إذاعي منذ بدء الثورة السورية، لأنهم يريدون التبشير بالمستبد، ولأنني أرى أن أي تعامل مع إعلام السلطة هو خيانة للثورة.

الرجل لم يستسلم، وعرف كيف يغريني، قال لي:

- نريد منك ربع ساعة فقط تتحدث خلالها عن حرية الصحافة.

الحرية كلمة مغرية بالنسبة لي، وخاصة في مثل هذا الوقت. قاومت الإغراء وقلت له:

- ليس لدي الوقت.

- ربع ساعة فقط، ونحن نأتي إليك في أي وقت تشاء، ولن يكون هناك مذيعة.

- أنا في المعهد وعندي دروس لاتنتهي حتى الثالثة.

- في الثالثة تماماً تكون الكاميرا عندك، ولك أن تتحدث عن أي شيء متعلّق بالصحافة.

- وافقت.

دخلتُ القاعة.. ماتزال الملصقات كما هي، قلت:

- صار أربعة أيام. يكفي.

وأنا أبتسم قلت للطلّاب، بالعاميّة:

- منخاف يجي الأمن يعتبرن منشورات.

(نتكلّم معهم بالعامية أحياناً، لأن لديهم دروساً في العامية والفصحى والطبخ).

كنت قد طبعت لهم بعض النصوص للحفظ، وعلّقتها لهم بلوحة الاعلانات في المطبخ، وفي القاعة الرئيسة. وكانت النصوص تحتوي على بعض أقوال الكواكبي، أذكر الآن مقطعاً منها: "وهؤلاءِ الواهنة تشقُّ عليهم مفارقةُ حالاتٍ أَلِفوها عمرهم، كما قد يألف الجسمُ السَّقَمَ فلا تلذُّ له العافية". وأذكرُ أيضاً: "تعوّدوا الأدب مع الكبير فيقبّلون يدَهُ أو رجلَهُ أو ذيلَهُ". آآه يالذاكرتي، نسيت النصوص.

في الاستراحة، دخلت مطبخ المعهد لتناول القهوة، كانت الأستاذة "ريما" تعطي إحدى المجموعات درساً في الطبخ. دخل أستاذ الفرنسي متذمّراً:

- ياأخي شو هاد؟ طلعوا خمسين طالب في الجامعة عملوا فوضى، كم عصاي تفرّقوا.

قلت: - يادكتور قبل شوي كنت بحكي مع الدكتور سعد وقال لي: "مظاهرة تضم أكثر من ثلاثمئة طالب تظاهروا في ساحة كلية الآداب فجاء الأمن مخترقاً الحرم الجامعي وبدأ يضرب بقسوة، وقد تمكّنتُ من تخليص سبعة منهم من الاعتقال، قلت لهم: الشباب لم يفعلوا شيئاً، إذا كنتم ستأخذونهم، خذوني معهم أيضاً".

طلاّبنا الأجانب من جنسيّات مختلفة كانوا من مناصري الثورة، ولايتركون فرصة إلاّ ويسألونني عمّا يجري في حلب. ولهذا أصغى الحاضرون منهم إلى حوارنا، باهتمام. الأستاذة ريما قالت:

- حلب تأخرّت كثيراً عن ركب الثورة، وبتُّ أخجل من القول إنني حلبيّة.

قلت لها مازحاً:

- يعني إذا جاء التلفزيون بتقولي إنك من حماه؟

- طبعاً أقول.

- ألاترون أننا نظلم حلب؟ كثير من المظاهرات تنطلق من حلب، ولكن لابدّ أن نأخذ بعين الاعتبار الكثافة الأمنية المنتشرة فيها، فهم يخشون أن تصبح "بنغازي" سوريا، بالإضافة إلى تخاذل التجار والمشايخ، الذين ألحقهم الطغيان، عبر أربعين عاماً بمركزية دمشق، وربط مصالحهم به. المسألة التي يجب أن لاننساها أن حلب غدت مركز إيواء اللاجئين من المدن المنكوبة الأخرى، نصف أهل حمص ودرعا أصبحوا في حلب.

في الاستراحة التالية، وحين كنّا نتذوق طبخ الطلّاب من الكبة بصينية والكبّة النيّئة، دخلت مديرة المكتبة قائلة:

- دكتور كمال، جاء التلفزيون.

ابتسمتُ ابتسامة خبيثة، وأنا أراقب ردّة فعل الأستاذة "ريما" التي توعّدتُها بالتلفزيون قبل سويعات. دهش جميع الذين حضروا حوارنا السابق، وبدا وكأنني فعلاً خبّرت التلفزيون.

خرجتُ إلى باحة الدار. انتقى المصوّر زاوية جميلة، فبدت خلفنا زهور متنوّعة مما يحفل به المكان. قلت له:

- أتحدّث، وأنت حين تمرّ خمس عشرة دقيقة أشر لي كي أتوقّف.

تحدّثت عن حرية الصحافة الغائبة في الوطن العربي، وضربت أمثلة عن الكبت الإعلامي وخوف المسؤولين من الرأي الحر، وقارنت بما يحدث في أوروبا. اقترحت بعض الحلول ليكون لدينا صحافة نعتزّ بها وتساهم في تطوير البلد وفي مكافحة الفساد. حين توقّفت عن الكلام، أشار المصوّر بإبهامه: تمام.

طبعاً البرنامج لم يتم بثّه، وبالرغم من أن مدير التلفزيون، في دعواته التالية، التي لم أعد ألبّيها، بحجّة مرضي، أكّد لي أنّه بُث، لكنّ أحداً من معارفي لم يخبرني بأنه شاهد الحلقة.

كنت واثقاً أنّها لن تُبثّ، فقد تحدّثت بما لايوافق توجّه إعلامنا، وبخاصّة بعد انطلاق الثورة.

آآآه كم أحنّ إلى تلك الأيام. كان العمل مريحاً مع أناس منفتحين أعطيهم منهاجاً قررته أنا، من تأليفي، وقد أتاحت لي إدارة المعهد حريّة التصرّف بما أراه مناسباً. كنت أحضّر دروسي بمتعة، وأسير إليها في دروب حلب العتيقة فأصل معبّأً بعبق أجدادنا العظماء.

...

-4-

حين بدأت أسمع أبواب الزنازين تُفتح بقسوة، ويجرح سمعي صرير احتكاك الحديد، أدركتُ أن موعد الغداء قد حان. تسرّبت الرائحة الكريهة بسرعة إلى داخل الزنزانة. جلست أمام الباب مباشرة أترقّب تناول قصعة الطعام ورغيف الخبز. فُتح الباب، بدا خلفه رجل ضخم الجسم مفتول العضلات حليق الشعر، قال بلهجة صارمة:

- تااع.

خرجت، أدارني إلى الجدار، وضع القيد في يدي، عصب لي عينيّ، وقادني من ياقة الكلابية.

الممر نفسه.. رائحة الدم تتسرّب إلى داخلي بالرغم من أنّ حاسة الشمّ عندي ليست قويّة. رائحة الغرفة نفسها، ورطوبتها، والصرير الخفي الذي يكتم الروح. النمنمات التي أسمعها تدلّ على أن الغرفة مكتظّة. صوتٌ قاسٍ يأمرني بالجلوس. يضغط السجّان على كتفي فأجلس على الأرض. صوتٌ مجروح الحنجرة يزجرني:

- ولاك هنْتْ آابتفهم.. هيك عاجبك يجي ابنك ويوقف على باب الفرع ساعات ليسأل عنك هو ورفقاتك؟ ليش أبتساعدون وبتساعد حالك.

(كان سبب تلك الزيارة هو إحضار أدوية كمال وبعض الثياب الداخلية. وصل الدواء لكنّ المساعد احتفظ بالثياب الداخلية الجديدة).

يتابع المحققون الأسئلة:يسألون عن (رقم!) الفيسبوك، زودتهم بالاسم وكلمة السر. كنت محتاطاً لهذا الأمر، فلديّ حساب قديم مفتوح لمن يشاء النشر فيه، ولم أغيّر صورة بروفايلي فيه ولامرّة. بادر صوتٌ ضخم يحذّرني من الكذب، ويخبرني أن اليوم سيحدّد مصيري. بدا لي، من خلال لهجته، أنه رئيس الفرع . وضّح بلهجة صارمة أن رفاقي اعترفوا علي بحيازة ثلاثة "أجهزة ثريا"، وانهال عليّ بالأسئلة رشّاً، بشكل متلاحق وسريع، فأخبرته، بثقة، إنني لاأعرف شيئاً عن الثريا، ولم أحضر أي مظاهرة، وليس لدي أي مجموعة تظاهر، ولاأعرف شيئاً عن التنسيقيات.

كانت إجاباتي، كالأسئلة، مركّزة وحاسمة. لم يستفد المحقّقون من تأكيداتهم أنهم يعرفون كل شيء عني، وأن من ضمن صلاحياتهم أن يموت عشرة بالمئة من الموقوفين، وأنهم لايُسألون عمّا يفعلون.

بدا لي أنهم يتهامسون.. لحظات صمت بدت دهراً، تبعها صوت:

- ياحمار.. روح جبلو بدلة زرقا.. باينتو مطوّل عنّا.

ركبي تصطكّ، تعبتُ من الجلسة. يبدو أن كلّ محققي الفرع مجتمعون في هذه الجلسة.

فكّ شخص قيدي وأمرني بارتداء ماناولني إياه. لبست البنطال الذي رأيت نفسي أخضّ داخله، لفّقت ربط أزراره على عجل، حشوت الكلابية تحته. ناولني السترة..ارتديتها. أمسك برسغي بقسوة شديدة أحسست أن يدي تكاد تنفصل عنّي، لفّ يديّ إلى الخلف، أعاد وضع القيد. ضغط على كتفي لأجلس. جلست. ضحك واحد منهم:

- البدلة لايقة عليك.. انشالله الدهر كلّه.

- الله لايقدّر.. أنا مالي عامل شي.. قريباً بترجعوا تاخدوها.

باغتني سؤال:

- مين أبو فادي، شو اسمو؟

أدركت أن التهرّب أكثر من ذلك قد يجعلهم يعذبونني كما يعذّبون الآخرين، الذين تصمّ أذنيّ كلّ يوم أصواتهم

ونداءات استجدائهم. لقد حجبت الاسم بما يكفي لتواريه. قلت:

- نعم.. تذكّرت.. اسمه عدنان، ولكنني لم أتذكّر كنيته بعد. غاب تماماً عن ذهني.. سأفكّر باسمه اليوم ولابد أن أتذكّره.

جاءتني نكزة قويّة على كتفي الأيمن من قبضة بدت لي من حديد. لم تحرّكني كثيراً، لكنني رأيت أن ارتمائي سيتيح لي مجال تغيير الجلسة القاسية، وقد تجلب تعاطفاً ما معي، أو تبدي هشاشتي فيفكرون كثيراً قبل لمسي. ارتميت بظهري إلى الخلف وصارت يداي المقيدتان تحتي. رفعَتْني رِجْلٌ من كتفيّ فاستقمت بتثاقل وعدّلت جلستي. سمعتُ جَلَبةً من حولي ووقع أقدام متسارعة وأصوات جنازير حديدية صدئة. قرأت المعوّذات، ورحت أستعرض الأفكار الفلسفية التي تمجّد الألم.

تذكّرت النيرفانا البوذية (الانطفاء) وهي حالة انعتاق من كل مايجلب الألم والعذاب. ودارت في ذهني ممارسات اليوغا، وحاولت من خلالها تنظيف فكري من أدران العالم الخارجي، وذلك بالتوجّه إلى ذاتي والتحرّر من قيود العالم. كنت من قبل قد فكّرت أن الألم إحساس لايختلف عن السعادة، كلاهما مؤقّت، فلماذا نخاف من الألم ونطلب السعادة. إننا حين نركّز على طلب السعادة بشكل مستمر

فإن ذلك يكون مدعاةً لعذاب الذات. ببساطة شديدة، يمكننا أن نتلذّذ بالألم من خلال التفكير فيه على أنه حالةٌ عارضة، وهو من مستلزمات السعادة. فكيف نصل إلى السعادة ما لم نتخلّص من الألم؟ لو أن الإنسان كان في حالة رتيبة من الرفاه لما غدا للحياة طعم بهذا الشكل الرتيب.

فيما كنت أقنع نفسي بأهميّة الألم وضرورة احتماله، جاءني صوت المحقّق الذي بدا لي أليفاً، كيف لا وأنا أظنّ أنّ من أحضر الأدوية قد أوصى بي، ولهذا فلا خوف عليّ منه، قال:

– اجلس بالطريقة التي تراها مريحة، وابدأ من الأوّل.. كل ماسبق كان لهواً ومقدّمات.. الآن احكِ لي قصة حياتك منذ ولادتك حتّى الآن.

لأدري كم امتدّ بي الوقت.. أربع أوخمس أو ست ساعات وأنا أحكي وهو يقاطعني ويطرح أسئلةً جديدةً وأجيب بما لاينحاز عمّا قلته سابقاً قيد أنملة. ربما في تلك الأثناء أنهى المحقّقُ علبة كاملة من السجائر، وقرقع ثلاثة أباريق من المتّة. شعرتُ في آخر الجلسة أنني منهَكٌ تماماً، ومستسلم لأقل نداء. نشف حلقي تماماً، وقلت، بطريقة لاإرادية:

– مي.. مي.. مي.

سمعت صوتاً مغموراً بالبهجة من خلفي:

- أصبللو سيدي؟

لم أسمع إجابة، لكنّني أدركت أنه قد أشار له وهو يبتسم، حين سكب شخصٌ ما الماء على رأسي بكميّة كبيرة، جعلت كلّ ثيابي مبلّلة بالماء، ولم تصل أيّ قطرة إلى شفتيّ.

ضحكات عالية راحت تتناثر من حولي واخترقت أذنيَّ كفقاعات تصدر من بركان.

أوقفني شخصٌ ما، قال المحقّق:

- انتبه... مابدي يطلع صوت التنفس تبعك، هلق بيدخل شخص بتعرفو، بتسمع صوتو ولا كأنّك هون، عبتفهم؟ هلق رح يعترف عليك وهنت بتكمّل الاعترافات. بعدين، ليك، إذا بيطلع صوتك بحطّك بالدولاب وبسلخ جلدك ليطلع العضم.

وقفت صامتاً، صرخ:

- شو؟

- حاضر.

أسمع وقع خطوات يتبعها صوت المحقّق:

- ايه ياصبري.. احكيلنا، كم جهاز ثريا وموبايل جبلك "كمال حدّاد"، وشو القنوات الشرا(...) المغرضة اللي حكيتو معها؟

جاءني صوت صبري متنمّراً طلقاً يحمل نبرة الواثق، بإيقاع سريع:

- سيدي.. الدكتور مالو علاقة لا بأجهزة ولا بشي الو علاقة بالثورة.

قال المحقّق غاضباً:

- لا تقول تور.. مافي غير دكتور واحد حامي العرين.. رافع راس السوريين... هون كيلكن موقوفين، ماالنا علاقة بشو انتو برّا. وهي الخرية ماسما ضراط، اسما ارهاب وعصابات مسلّحة ومرتزقة.

وتابع يقول:

- هو اعترف بكل شي، هنْتْ مافيك تخبّي.. اعتَرَف عليك وعلى حالو وعلى رفقاتكو.

قال صبري:

- لا.. سيدي مالو علاقة، أنا كنت بشتغل معو بتنضيد الكتب عالكومبيوتر وبس.. وأنا بعرفو من

عشر سنين، وهو مابيعرف شي عن شغلي اللي قلتلكن عليه.

- ولك كل هالقتل اللي أكلتو وإسّا بتدافع عنّو... لك الجحش أابيتحمّل الدولاب والكرابيج اللي أكلتها.

صمت برهةً ثمّ سأله:

- هنْتْ شو رأيك فيه؟

عاد صبري إلى لهجته الصارمة فرمى حروفه برشاقة:

- رجل محترم جداً جداً جداً، وكاتب كتير كتير كتير كويس، وكلامو بالميزان.

قاطعه المحقّق، ساخراً:

- قرّب بوسو بقا ياعر(.).

غمرني وابلٌ من السعادة وأنا أسمع مايقال عنّي بغير حضوري، وكدت أنفجر ضاحكاً من طريقة الحوار الذي دار بينهما، لكنّني غببت الضحكة، وأخفيت ابتسامتي بتحريك رأسي للأسفل.

بدا لي الضابط مخذولاً ويوميء بيده وهو يقول:

- خدو هالمتآمرين الصهاينة، مفكّرين أمريكا بتنفعهم.[*] لازم نهفاهم هفي .

قادني السجّان إلى زنزانتي، فكّ القيد، وأخذ العصبة، ثم صفق الباب بشراسة وهو يقول:

- كلْكينْ خوَنة.

كنت ملغوفاً، عببتُ ماتبقّى عندي من قطرات ماء. ارتميت على البطانيات مرهقاً، ورحتُ ألوّح بيديّ ورجليّ في الهواء، وأحرّك رأسي يميناً وشمالاً كي أنفضَ إرهاق الساعات التي قضيتها في غرفة التحقيق. لاأدري كيف غفوت وكم طال بي الوقت.

رمحت على صوت فتح الباب، مددت يدي لآخذ رغيف الخبز ونصف حبة بطاطا مسلوقة، قلت للسجّان:

- أريد الدواء.

أشار لي.. خرجت لآخذ دوائي من فوق الصوفاج.. قبل أن يغلق عليّ الباب، رفعت الإناء الفارغ في وجهه وقلت له:

- لاماءَ لديّ لشرب الدواء.

---

[*] نزيلهم. نتخلّص منهم.

لم يبالِ بما قلت. صفق الباب في وجهي. بدأت رحلة العشاء الصعبة. تذوّقت نتفةً من البطاطا المسلوقة أوّلاً، كي لاأتورّط بإفساد الخبز بها، إن كانت تحمل طعم مازوت أو كانت فاسدة. إنّها بنصف نضج، ولاأثر للملح فيها، لابأس الملح ممنوع، وأصلاً أنا معي ضغط والملح لايناسبني. يقولون الكذب ملح الرجال، أم ملح النساء؟ لم أعد أذكر.. ياالذاكرتي التي لاتُسعِفْ. لو كانت مكتبتي هنا، كنت بحثت فيها. ااه لو أن الكتاب مسموح هنا، لم أكن لأشعر بمقبرة الروح. لا.. لن أكون مترفاً، يكفيني قلماً وبضع أوراق للكتابة. الكتابة عندي أهم من الملح. أبحبش في البطانيات عن الحبوب التي لديّ.. لم يبقَ سوى حبّة مهدّيء واحدة. أطوي نصف الرغيف على نصف حبّة البطاطا وأهرسها.. أصفّ ثلاث حبات فوقها: الضغط والمهدّيء والاسبرين. أضع نضف الرغيف على طَرَف الإناء، لأتناوله قبيل الفجر. كانت وجبتي الرئيسة هي العشاء، لذلك أكون كثير الجوع في الليل.(ربّما أكون قد قلت ذلك من قبل، وأكرره الآن من ضجري). أسمّي بالرحمن وأبدأ عشاءً مترَفاً.

لايغادرني التفكير وأنا أتناول وجبتي. عندما كنت في الجيش، وبعد ان تمّ فرزي إلى رحبة حلب، وفي يوم كنت فيه ضابطاً مناوباً، قمت لصلاة الفجر. ثلاثة من الجنود صلّوا معي، كان معنا عريف من بيت الصباغ، وعلى غير

عادة العرفاء، كان ملتحياً، فقلت له: أنت أولى بالإمامة. بعدها جلسنا نتحدّث، اكتشفت أن معلوماته الدينية ضيئلة، لكنه قال شيئاً أعجبني: ينبغي أن يدعو كلّ إنسانٍ دعاءً خاصّاً به، إضافة إلى الأدعية المختارة التي تعلّمناها. أعجبتني الفكرة، ورغم أنني أعلم بأن على الإنسان أن ينوّع في أدعيته كي لا يصبح دعاؤه بمستوى أهميّة الصلوات الابراهيمية، فكّرت في دعاء خاصٍّ بي، ومن يومها لاأقطعه عقب الصلوات الابراهيمية: اللهم إنّي أسألك العفو والعافية والستر والرزق والنور والتوفيق. هكذا رأيت أن يكون الترتيب. فمن المهم أن نحصّل الغفران عن آثامنا، ثم تأتي أهميّة أن يكون الإنسان صحيح الجسم لايعاني من الأمراض ليستطيع الاستمرار بالحياة على نحوٍ طبيعي. ونحن نقوم بأشياء لانرضى عنها ونرغب أن تكونَ مخفيّةً إلى أن يتوب الله علينا، كما أننا لانريد أن تظهر نقائصنا للآخرين، ولهذا نطلب الستر. وإذا كان الفقر يجلب بعض الآثام، فإن الرزق يدفع ذلك عنّا. أما النور فهو أن ينير الله عقلي إلى طريق الهدى والصلاح واختيار الصواب بين الممكنات. فإذا عرفت الصواب لابد من طلب التوفيق في السير فيه. الآن وأنا في هذه المعمعة، التي قد لاأخرج منها، لابدّ لي من دعاء يثلج صدري.

لم أكن قد أنهيت عشائي حين فُتح الباب فجأة. أخفيت نصف الرغيف تحت البطانية، وضعت مايعادل

خمسة سنتيمتر من السندويشة التي لم أكملها داخل الاناء، حملته وخرجت. رميت بقايا ماكنت سآكله مع أكوام المرميات وسط الممر، دخلت التواليت، عبّأت الماء، توضّأت سرّاً وعدت إلى زنزانتي. تابعت ماكنت فيه.

إنني خارج منذ أيام من عملية تجريف المثانة من السرطان، ولم أكمل جرعات العلاج بعد، وأعاني من ارتفاع ضغط الدم، وفي هذا المكان لا أمل لي بأيّ علاج سوى من الله. وهذه الطغمة الحاكمة لاأحد يمكن أن يخلّصنا منها سوى الله، وهذه الزنزانة –القبر هي بلاء، ووضعي في هذا الظرف بتحقيق لاأعرف كيف يسير وإلى أن يصل، هو بلاء لايرفعه عنّي سوى الله. أضفت إلى دعائي السابق: اللهم إنّي أسألك الشفاء من كلّ داء، والنصر على الأعداء، وتخليصي من كل بلاء. لاتمرّ لحظة هنا إلاّ وأشعر أن شيئاً ما يجثم على صدري، ويكاد يطبق عليّ. همّ لايشبه أيّ همّ سابق، ولايدفعه إلاّ مايشبه الجنون، الجنون الذي أردت تحويله إلى شيءٍ إيجابيّ.

لقد عملت مايقارب العام في مشفى الأمراض العقلية، الذي خفّفوا وقع اسمه ليغدو مشفى ابن خلدون للأمراض النفسية أو للصحة النفسيّة، لم أعد أذكر. كان ذلك عام **1981**. عملت هناك محلّلاً نفسيّاً، وكانت تسمية محدَثة غير موصوفة في وثائق مديرية الصحة. هناك مرّت عليّ نماذج عجيبة، اكتشفت من خلالها فساد مدير المشفى

ومعظم الطاقم الطبّي والتمريضي هناك. سرقات وحالات اغتصاب وبيع الأدوية المخصّصة للمرضى إلى أشخاص يتاجرون بالأدوية.

من خلال مقابلاتي مع المرضى هناك اكتشفت جنوناً سببته اعتقالات مماثلة لاعتقالي. ونتيجة التعذيب، فقد بعض المعتقلين عقولهم. كما أنني وجدت مودَعين هناك لأسباب سياسية، منهم" ايفيت"* .. الفتاة المتمرّدة التي كانت تدرس الصحافة فأودعها أخوها، الضابط، في المشفى بحجّة المرض العقلي، لكنّه أراد التخلّص من لسانها كي لاتظهر آراؤها المعارِضة وتفسد عليه الترقيات المرتقبة.

أجنحة فيها عراة، وأجنحة فيها أطبّاء فقدوا عقولهم، وأجنحة لرسّامين. أحاورهم فيبدو جنون بعضهم واضحاً، ويبدو جنون آخرين مفتعلاً، وبعضهم أدمن حالة وجوده هناك، حتى أنّه حين يخرّجونه، لايلبث خارج المشفى طويلاً حتى يعود. اكتشف أن الجنون الخطير إنّما يكمن في المدينة لا في المشفى. هؤلاء جميعاً تمرّ عليهم حالات عصيبة، وأشدّها قسوة تعرّضهم لجلسة العلاج بالكهرباء.

---

* يومها أجرى الشاعر الفلسطيني عصام ترشحاني تحقيقاً عنها، بتحريض مني، لكنّه مزّقه قبل النشر، بإيعاز من مدير المشفى، بعد أن تسرّب خبر التحقيق إلى أجهزة الأمن. (كتّاب التقارير، دائماً، حاضرون).

وهنا أيضاً، في المعتقل، جلسات للصعق بالتيار الكهربائي، لكنّها ليست للعلاج، إنّما للاعتراف. ليس للاعتراف تماماً، في الحقيقة إنها علاج للسجّانين المرضى، والضبّاط الذين يشعرون بأنهم مسحوقون وحثالة، لايملكون من أمورهم شيئاً.. لا في عملهم، لأنهم مرؤوسون وعليهم تنفيذ الأوامر بكل صَغار، ولا في بيوتهم حيث تحكم الزوجة شخصيّاتهم المهزوزة، ويسيطر عليهم أبناؤهم، ولايجدون متنفّساً لإطلاق رغباتهم المكبوتة سوى بتعذيب الآخرين الذين لاحول لهم ولاقوّة وهم مقيّدون ومحاطون بأسوار عالية وأصفاد وبنادق موجّهة نحو رؤوسهم.

بعد كل حالة من حالات التعذيب يصبح المعتقَل في حالة تجعله يقول: اكتبوا ماتشاؤون من تُهَم، وأنا أبصم لكم عليها جميعاً. أعترف لكم أنني قتلت "الحريري"، وأنني أقبض من "بن لادن"، وأنتمي إلى القاعدة. فقط.. كفوّا عن تعذيبي أو اقتلوني.

الضباط والسجّانون هنا ليسوا بحاجة إلى كلّ هذا التعذيب لانتزاع الاعترافات، لكنّهم يستمرئون تعذيب الآخرين، ويجدون فيه تحقيقاً لطموحاتهم بأن يسيطروا على مصائر الآخرين، وتكون جدوى حياتهم بإظهار أنهم أقوياء.

في ظلّ كلّ هذا البؤس والشقاء، وجدت المودَعين في مشفى الأمراض العقلية يتمتّعون بأوقات سعيدة.

هذا المكان يشبه ذاك المكان، باستثناء الأوقات السعيدة، ولهذا حرصت على الدعاء الدائم في كل لحظات وجودي هناك: اللهم أسبغ عليّ سعادة تنسيني ماأنا فيه. كنت أدعوها بحرقة ومن صميم قلبي، حتى تفيض دموعي. ويبدو أن الله استجاب دعائي، فكثيراً ماكنت أشعر بالسكينة وهدوء النفس قبل أن تعاودني نوبة ضيق النفس إلى حدّ الاختناق.

صلّيت وغفوت وأنا أفكّر: تُرى هل القبلة التي قدّرتها لصلاتي صحيحة؟ لاأدري، ولكنّني أعرف أنّي أنّى توجّهت فثمّ وجه الله.

لم تطل غفوتي كثيراً، حتى صحوت مذعوراً على أصوات جلبة متصاعدة في الممر. أفواجٌ أخرى من المتظاهرين يُقتادون إلى الأقبية، ويعلو الصراخ وتتنوع الشتائم وإطلاق الصفات المختلفة على الذين يُضرَبون: صهيوني.. خائن.. عرعوري.. عميل. بدأت عملية وقع السياط اليومية، وصدى الصراخ الناتج عن الصعق بالكهرباء. وأنا بين الإصغاء والترقّب أغفو وتتراءى لي كوابيس الحروب ونيرون وهو يحرق روما، وهجوم التتار على حلب، وتيمورلنك الذي يدعو إلى الخراب والدمار

وسفك الدماء بجنون. يبدو أن حبّة المهدّيء التي أخذتها هي التي تخفّف عنّي وقع الكوابيس والسياط، وتجعلني أغفو بين لحظة وأخرى، بشكلٍ متقطّع. وأخيراً يبدو أنني غفوت طويلاً، لأنني لم أعد أسمع مايجري في الخارج، ولم أصحُ إلاّ على فتحٍ مباغت لباب الزنزانة.

التفتيش عن غوغل

قرفص صالح، السجّان النحيف، وحين وقفت مبهوراً من يقظتي، سألني:

- عندك كوكييل؟

- عندي، مافي كومبيوتر فيه نت ومافيه غوغل.

- تخوزق ياحيوااان.

صفق الباب ومضى. لم أدرِ كيف لم ينتبه إلى أنني، أصلاً، جالس. ولم أدرِ أيضاً لماذا داهمتني ابتسامة غريبة، حين تذكّرت طُرْفةً كنّا نتداولها في جلساتنا بعد العودة من المظاهرات: يسألون الشخص: معك فيسبوك؟ والمخبر الذي(يتفهمن) أكثر يباغت المتظاهر بصفعة ويقول له: طالع الفيسبوك من جيبك ولاك.. قوااام.. قوللي وين مخبّيه ولك قوررررد. ولايعلمون أنه ليس أداة تُحمَل، وأنّه مجرد موقع عالانترنت للتواصل الاجتماعي. لكن أن يصل الأمر إلى (دقن) غوغل، فهذا فاق تصوّري.

وعادوتني نوبة الابتسام حين عَبَرَ صدى وصفه لي: حيوان. ورحت أردّد: حيوان.. حيوان.. تُرى من منّا الحيوان حقّاً، وكيف اقتطعنا حُفَناً من صبر أيوب على

أمثال هؤلاء لإدارة سوريا التي تضرب جذور حضارتها الأرض؟

لم تكن الغرفة تشرح الصدر، ليس فقط لأنها بالكاد تتسع لطولي حين أتمدّد، ولكن لأن مايدخلها عبر ثقوب الباب، أشكّ بأنّه يمتّ بأيّ صلة لما يسمّونه أوكسجين. أما العرض فيمكن معرفته من خلال النشاط الذي أقوم به. كنت كلّما أردت أن أكلّم أحداً من الغرفة التي أمامي، أتسلّق الجدار بيديّ ورجليّ.. هي ثلاث خطوات فقط وأغدو بمواجهة القضبان الحديدية الصدئة، أهمس فيسمعونني. أسألهم: هل سمعتم أذان المغرب أو العشاء؟ ذلك لأن غرفتهم كانت أقرب إلى صدى الجامع، كما أن نافذتهم الصغيرة العالية مطلّة على ساحة المبنى. أمّا نافذتي فقد كانت، كي تكتمل الفاجعة، تطلّ على الرواق الداخلي للمبنى، حيث يتمّ استقبال الزوّار وسماع استضافاتهم المتوالية. الضوء الخافت يصلني من تلك النافذة التي تراكم عليها الدم المطروش من أعضاء الموقوفين، والغبار المعجون بالرطوبة، وبقايا الذباب والبعوض الذي يصول ويجول بين الزنزانات. ولم تفلح محاولاتي المستمرّة للتبرّع بتظيفها، فمرّة يضحك سجّان ساخراً، ومرّة يُدهش آخر من طلبي، ومرّة يقولون لي: منشوف.

ليس سهلاً عليك استحضار ذكرى السُّبات الواعي، لأن استحضاره يستدعي معاودة عيش تفاصيل تجهد

نفسك كي تنساها. الآن وأنا أتذكّر كي أروي لكم ماحدث، يضيق صدري وأكاد أقارب الاختناق، ولكم أن تتأملوا وحشيّة أن يُزجَّ بكم في غرفة ضيّقة يتسلل إليها بصيص ضوء شديد الخفوت.. رائحة شديدة الكراهة.. شتائم لم يعرفها قاموس من قبل.. أصوات صراخ وعويل يتبيّن لكم سببه إمّا من أصوات العصي أو الكرابيج، أو من خلال صوت سجّان له نكهة عواء الذئاب:

- ياعر(..) لم ترَ التعذيب بعد، إنه مجرّد مقدّمة بوط عسكري ادحشه في فمك. بدكين حريي.. ماهيك ياشْرا(...).

وتتوالى الشتائم ويتوالى وصف مايحدث في الخارج، إمّا مِن الذي يتلذّذ بالتعذيب، أو من زميله الذي يقهقه:

- حطللوا العصايي... ادحشلو هييي... خلينا نعرف شو بدو هالأبن ال(...) بدكين حرييي ماهيك؟

بين الحلم والخيال تترنّح مخيّلتك، وكأنّ كابوساً يداهمك، فتجاهد كي تستيقظ لتشرب الماء وتصلّي على النبي، وتتنفّس الصعداء. غير أن الذي يحدث أنّك تتنحنح.. تتلفت حولك.. تحرّك ساقيك.. تقرأ المعوّذات.. تقرأ الفاتحة.. ثم تكتشف أنك بين فكّي وحش مفترس لاتنقذك منه محاولات الانتفاض مما تظنّه أضغاث أحلام.

في هذا الجو المشحون بالخوف والقلق مما يحدث، وفي وقت يمكن تقديره بالساعة الواحدة بعد منتصف الليل، تسمع طقّة قفل ضخم، ثم سحبة مزلاج لم يعرف طعماً للتشحيم. يُفتح الباب بقسوة، ليبدو خلفه كائن ضخم لم ترَ مثله إلاّ في مدينة المرَدة التي جابها جوليفير في رحلاته الثلاث.

هنا، أدركت أنني أنا من يواجه واقعاً عجائبياً ليس لي منه مفرّ. انتفضت واقفاً. داهمني صوت من يقف أمام الباب. أشحت بوجهي عنه واستقبلت الجدار. أغلق الباب وغاب.

وقفت كي أصلّي، ولم أنهِ الفاتحة حتى سمعت وقع أقدام تقترب، قطعت الصلاة وجلست.

غسل الدّماغ

عاد السجّان صالح. ولشدّ ماذُهشت عندما قادني، من غير أصفاد، ومن غير تطميش، إلى غرفة صغيرة، تبدو مجاورة لغرفة التحقيق. الرائد قصير القامة ذو العينين الزرقاوين الصغيرتين يجلس خلف طاولة خشبية صغيرة وإلى جانبه شخص آخر، بينما جلس صالح بالشورت إلى يساري وهو يلعب بخيزرانة في يده. أمام الضابط مباشرة كان هناك كرسي، أشار لي أن أجلس، جلست. بدأ الحديث عن العصابات المسلّحة وهو يقرقع المتّة ليغسل رائحة العرق التي تفوح من فمه، والتي وصلتني وأنا على بُعد ثلاثة أمتار منه. تحدّث عن أهمية الإحساس الوطني والدفاع عنه، ودور المثقفين في الحفاظ على البلد ضد أعدائنا التاريخيين.

رأيت كتب القومية الاشتراكية تتراقص أمامي، من المرحلتين الثانوية والجامعية. إن أقل علامة حصلت عليها في الجامعة هي(57) في هذه المادة التي أكرهها من الجلد إلى الجلد.

حين أشعل سيجارته، استلم الحديث الرجل الذي يجلس إلى يساره، ويبدو أنه ضابط أقلّ رتبةً منه،تحدّث إليّ، وهو يمطّ الحروف، مبدياً استغرابه من غبائنا، فهم يعرفون عنّا كل شيء، ونحن نحاول أن ننكر أفعالنا.

رفع جهازاً ذهبيّ اللون يشبه سبيكة ذهبية، كنت قد رأيت مثلها عند حج بشير الصائغ، وراح يشرح لي خواص ذلك الشيء، بأنه جهاز يلتقط كل مكالمات الجوّال ويسجّلها. وأي مكالمة يريدونها يمكنهم الحصول عليها، فيعرفون من تحدّث وماذا قال.,وعاد إلى نصحي لأعترف بكل شيء، والاعتراف يكون في مصلحتي. ودخل في تفاصيل أساليب المخابرات لتقصّي الحقائق، ومراقبة الناس بدقّة.

كنتُ أنقّل طرفي بين هؤلاء الثلاثة، وعلى غير العادة، كان الهدوء يسيطر على المكان. على يميني سريرين عسكريين من طابقين، ودولاب شاحنة مرمي على الأرض، وأكوام من الخيزرانات المنقوعة إما بالماء أو بسائل لم أتبيّنه. وتحت الأسرّة أحزمة جلديّة متنوّعة الأحجام والأطوال. وعلى الجدار، خلف الأسرّة، كبلات كهربائيّة مثبّتة بمسامير ضخمة. وقف الرجل الآخر الذي بدا أمرداً حين اقترب منّي وهو يغادر الغرفة. أشعل الرائد ماهر المحمود سيجارة، صبّ كأساً أخرى من المتّة، تفرّس في وجهي مليّاً ثم قال مبتسماً:

- البدلة لايقة عليك. هنْتْ زلمة مسقّف ولازم تخبّرني شو اللي بيدور حولك. رأيك بالسعودية وبندر والعراعير والمؤامرة الدولية اللي حابة تضرب خط الممانعة للسيد الرئيس اللي رافع راس العرب وحامي الأوطان.

- أنا لا أفهم في السياسة، ومابعرف هدول اللي عبتحكي عنن.

- ولك كل السوريين عرفوا بأنّ هناك مؤامرة كونية وهجمة شرسة على بلدنا سوريا. الأمبريالية والصهيونية العالمية جنّدت الإعلام العربي والغربي لمهاجمتنا، ونحن قلنا خسؤوا ولن يمروا، فشو صار؟ نزلنا لكل ساحات الوطن، وبالملايين هتفنا باسم القائد وباسم سوريا، وقلنا بصوت واحد: منحبك يارئيسنا.

أطلق زفرةً طويلة نحو السقف، تفرّس في وجهي وهو يسألني:

- ليش ماحررت سورية الجولان حتى الآن، بتعرف؟

- لأنو ماصار حرب.

قال والزبد يخرج من فمه، وكأنه يريد أن يدسّ التوعية في عقلي:

- كيف نحررها وهنتو تركتوها وحيدة في مواجهة العدو الصهيوني؟ كيف نحررها وهنتو تطعنوها في ظهرها بتحالفكن مع أميركا واسرائيل؟ ولكن رغم كل ذلك، بقيت دمشق خلال العقود الماضية عاصمة عربية صامدة أمام الضغوط الدولية والاقليمية التي حاولت تركيعها أمام إسرائيل، وبقيت دمشق العاصمة الرئيسية الداعمة للمقاومات العربية الإسلامية، واستطاعت استنزاف قوة العدو الصهيوني -الأميركي بجدارة في فلسطين ولبنان والعراق. كانت خطة استنزاف قوة العدو بحروب شعبية قمة الدهاء العسكري من نظامنا الممانع، لأن موازين القوة بالمنطقة كانت تميل لصالح أميركا وإسرائيل، لأن الأنظمة العربية تحالفت مع الغرب الصهيوني، سرّاً أو علانية، لذلك كان لابد لنا من البعد عن الحروب النظامية، واستبدالها بدعم الحروب الشعبية.

صَمَتَ برهة، أشعل سيجارة مارلبورو، وسألني، معتزّاً بتحليله:

- شوما تقول؟
- تحليل صح.

أشعل صالح سيجارة حمراء، وهو يقول:

- هالكلام بدكين كتير تاتتعلموا تحكوا شي بيشبه نتفة مننو.

قال الرائد بانفعال يُظهر فخره بنصٍّ يحفظه بصماً:

- لك شوف شقد عظيم هالقائد، شو مَيقول سيد الوطن: شرفني الشعب باختياره لي رئيساً للجمهورية وأديت القسم الدستوري وتسلمت مهامي، أقول إنني تبوّأت هذا المنصب ولكنني لم أتبوّأ الموقع، أي إن المنصب تبدّل، لكنّ الموقع بقى ذاته ولم يتغير منذ خلقت وذلك حيث أرادني الله سبحانه وتعالى أن أكون، وحيثما رغب الشعب أن أقف منذ أن عرف أن هنالك شخصاً أحب الشعب بصدق وأحبه الناس بإخلاص، وكانوا أوفياء له. سمعت؟ لك الله بددو ياه وانتو مابدكين؟

- لكنّ الله أمر بإقامة العدل وإنصاف المظلوم، وأمرنا بأن نقول كلمة الحقّ. كيف بدنا نصحح الخطأ ونحارب الفساد إن سكتنا. كل حاكم يحتاج إلى النصح. كل مافعله هو أن أبيّن وجهة نظري في تصحيح المسار. برأيك صح أني أكون معتقل وكل مافعلته هو أنني تكلّمت.

قاطعني قائلاً:

- بتعرف ليش هنتو الخونة ضد سيادة الرئيس؟ لأنه الرجل الصافي الشريف اللي قال في الدوحة بدنا نحط صور أطفال غزة في غرف نوم أطفالنا ونكتب تحتها مامنغفر ولامننسى.

هنا تذكّرت أطفال درعا الذين عُذّبوا واقتُلعت أظافرُهم. تذكّرت حمزة الخطيب، الطفل الّذي اتّهموه باغتصاب نساء الضباط وبتروا له عضوه، جاهلين أن انتصابه إنّما كان من شدة الخوف والتعذيب الذي تلقّاه على أيديهم. تذكّرت "أسماء" وهي تمثّل البكاء على أطفال غزّة، ولم يرفّ لها جفن وهي تراقب ذبح الأطفال السوريين، وتباركه بالسكوت عليه.

استأنف حديثه بحماس، بعد أن رآني أتقن الإصغاء، ولاتبدو عليّ شهوة الكلام:

- كل اللي بيطلعوا مظاهرات يوم الجمعة خونة. شفت المطالبين بالحرية في حمص، كل اللي عملوه حرق وتكسير وشتيمة واستعمال أسلحة ضد الأمن وحركات استفزاز ومني(..)، هَي الحريّة؟

سألني عما حدث بالقطار من أيام، ثم أجاب:

- قطار رايح من حلب لدمشق فكيّتوا سكّة الحديد، بآخر لحظة انتبه السائق ووقف القطار، بس حاد

عن السكة ومات.. احترق.. في جرحى كتير. في القطار (500) شخص مسافرين.. هي هيه الحرّية؟ هاد مو عمل إرهابي.. موشغل عصابات خَوَنة ؟

- سيدي كل ماحكيت بتئول أنتو أنتو.. رجاءً.. قل هم.. أنا مادخلني ماتجمل الكل مع بعض، من قال إنني أرضى بأن يتم خدش سوري واحد. نحنا أيام كنا نطلع عالمحلّق.. قريب من هالمنطقة.. نشوف شرطة المرور ودوريات الأمن تعبانين من الصبح للمسا، نقول لصاحب البرّاكة: اسأل الشباب شو بيشربوا وضيّفهم على حسابنا. محمود حمام كان يقول: هدول أهلنا.. أخوتنا. بس بصراحة كنّا نستاء كتير من الشبيحة.. أولاد زعران بالسيارات يقطعوا السير ويتمايعوا، والشرطة تشوفهم وماتحكي معهم. يعني اللي بدو يطلع مسيرة موضروي يزعج الناس، ويحجز الشارع، ويستعرض الأسلحة من شبابيك السيارة، ويعرقل السير. حتى الأمن بيّن أنه موقادر يضبّ هالناس.

قال، كأنه عثر على مايقنعني:

- هيك بدكين. بس طلعتوا مظاهرات وسقّطتوا النظام، مين رح يستلم البلد؟ هدول. (وقال بكلمات شديدة الفجور) يغتصبون نساءكم

ويسرقون أموالكم، في غياب الأمن. الشبيحة يصبحون هم البديل، وكأنّكم تريدون تخريب حياتكم بأيديكم.

لاأدري، هنا، لماذا انفجرتُ في البكاء، لم تكن دموعاً متساقطة، بل نحيب بصوت مرتفع، كنت أشهق من خلاله. دُهش الرائد من شدّة الصوت الذي أحدثه بكائي، فقال:

- مالقّيتك، ليش مَتجعر*؟

- أبكي على بلدي، نحنا وين رايحين وشو بدو يصير فينا.

استمر بكائي ومسحت الدموع المنهمرة بكم سترة السجن.

الواقع أنّ نوبة البكاء أتتني بعد قهر اعتراني من الموقف الذي أنا فيه. إنسان بهذا الغباء والتخلّف لديه صلاحية جَلدي بما علق في ذهنه من ترّهات، مسلّحاً بكل الأمراض النفسية والفكرية التي يحملها، وبكل أنواع التحايل والغصب والنصب بحكم وظيفته، ويملك أن يعاقب إنساناً قضى عمره في خدمة بلده بإخلاص، وأتعب عينيه في القراءة والدرس والاطّلاع. هؤلاء ينظّرون علينا وزمام أمور

* لم ألمسك، لماذا تبكي بصوتٍ عالٍ؟.

البلد بأيديهم، فأيّ خير يمكن أن نجنيه إذا كان هذا مستوى وعيهم. طبعاً ليس ضابط الأمن هذا وحده هو من يقول ذلك، السلطة كلّها، عبر توجّهها الإعلامي، تريد أن تقول: الأسد أو خراب البلد، وكأن بديل السلطة الحاكمة الوحيد هو الشبيحة الذين لايتورّعون عن فعل أي شيء يخدم مصالحهم ويخفّف عنهم عبء الحقد الذي يحملونه ضد البشر.

حين لاحظ هدوئي، استطرد المحقق وهو يشعل سيجارةً جديدة:

- أنا أدافع عن بلدي.. وإن تلقيت التهديدات، وفي أسوأ الأحوال يمكن أن أقتل فأكون شهيداً: من دافع عن نفسه أو ماله أو عرضه فهو شهيد.

بعد هذا الحديث، الذي يبدو أليفاً، خطر لي أن هذا الرجل قليل ذوق.. يعني ماالذي يخسره لو عرض عليّ أن أدخّن سيجارة، مادمنا في جلسة خاصّة خارج مسار التحقيق؟ ألحّت عليّ فكرة أن أطلب منه أنا ذلك، بعد أن استنشقت رائحة الدخان الذي يعجّ به المكان، لكنّني لم أتعوّد أن أطلب شيئاً من أحد ويقول لا، فلماذا أضيّع كلامي وأبيّن نقطة ضعف لديّ؟ إنّ عزّة النفس أهم من أيّ شيء آخر.

تابع حديثة الذي بدأ يتّضح في نبرته أنه وصل إلى مرحلة الثمالة، بعد سريان مفعول الكحول في جسمه:

- بتعرف أن السيد الرئيس من رقته وشفافيته مابيعرف أنو هين* عنا دولاب، ومابيعرف لشو استعماله. بس أنا بأكّدلك أنو الدولاب من الجنة. كتير من الجرائم كشفها الدولاب. لولا الدولاب كنت شفت الجريمة معباية البلد. الدولاب بيمنع الجرائم.

فكّرت كم هي مسكينة أوروربا، كيف لم تفكّر في أهميّة الدولاب؟ المحققون، في الغرب، يعملون شهوراً محاولين كشف جريمة ما، بينما الأمن لدينا يكشف تفاصيل أكبر جريمة بدولاب واحد، وخلال ساعة من الزمن.

هل يظن الرائد، حقّاً، أن رئيسه لايعرف الدولاب؟ هل هو ساذج إلى هذه الدرجة؟ أم أنّه يمثّل مثله؟ ألم يسمع بالطريقة الوحشية التي ضرب بها بشار مفلح الزعبي، ابن رئيس الوزراء، حيث تولّى تعذيبه بيديه؟

ابتسمت، في سرّي، وأنا أتذكّر أحد الأشخاص حين سألته جيزيل في أحد البرامج عن تجنّيه على ممارسات الأمن في سوريا، فقال لها:

---

* هنا.

- كم أنت جميلة ورقيقة وصوتك ناعم، إذا اعتقلوكِ في أقبية الأمن السوري ستخرجين بعد أن تعترفي لهم بأنك أسامة بن لادن.

خرج الرائد دقائق، كأنّه راح يستجدي أفكاراً جديدة لتوعيتي. حين عاد سألني:

- هل تعرف مامعنى أن النبي أمّي؟

- لايقرأ ولايكتب.

قال، وتبدو عليه علائم السعادة من اكتشاف جهلي:

–لا.. غير صحيح، هذا خطأ. أمي أي أنه بُعث للأمة. لا يعني أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة. كان يرسل رسائل إلى الملوك والأمراء، فهو يقرأ ويكتب ويفهم، إنه نبي أميّ، معناه أنه من أمّة لاكتاب لها: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ نبيّاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ ".

حين بدا منشرحاً وهو يعلّمني معنى الأميّة، لم أشأ أن أقطع عليه تلك المتعة التي تعود عليّ بالفائدة، فأُصبِح محبّباً لديه، وهو من بيده نتائج التحقيق، وقد يكون مكلّفاً بتعذيبي ليحصل على المعلومات منّي. كما ترسّخ لديّ أنه من معارف بادنجكي(طبعاً فيما بعد تبيّن خطأ توهّمي هذا، لكنّه كان وهماً مفيداً في حينه، فقد منحني قوّة التماسك أمام التحقيق). لذلك لم أشأ أن أصحّح

له الآية: رَسُولًا مِنْهُمْ وليس نبيّاً. ولم أرَ فائدة من تصحيح معلوماته حول الفهم الخاطيء الذي حصّله من قراءة محمد عابد الجابري ومحمد شحرور حول معنى أميّة النبي وتسويغهما له.

بعض الذين تكلّموا بالموضوع يرون أن الأميّين: أي لا يعلمون ما هي الأحكام في كتب اليهود والنصارى، ومنهم من يرى: وإنما سمّي الأمي لأنه كان من أهل مكة، ومكة من أمهات القرى.

ولم أعد أذكر هل كانت في صيغة صلح الحديبية أم في رسالة النبي إلى هرقل أو كسرى عندما تم الاعتراض على كلمة، فلم يشأ كاتبها، علي بن أبي طالب، أن يمسحها فقال له الرسول:

– ضع أصبعي على الكلمة وأنا أمحوها.

غريب أمر الإنسان، كيف أفكّر في هذه القضايا وأنا في وضع لا أُحسد عليه. ربما تنتهي حياتي في أي لحظة، وربما أبقى مغيّباً هنا أكثر من تسع سنوات كالتي قضاها فؤاد ايليا في السجون السورية، كما فعلوا بمصطفى خليفة صاحب رواية "القوقعة" الذي سُجن أكثر من ثلاثة عشر عاماً، بتهمة الانتماء للأخوان المسلمين، بالرغم من اكتشافهم أنه مسيحي.

لاأدري لماذا يلحّ عليّ الحديث الشريف: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها.

المهم.. انتقل الرائد من أميّة الرسول إلى الحديث عن الثورات:

– الثورات الحقيقية الوحيدة في العالم هي الفرنسية والإيرانية والسورية، ثورة الثامن من آذار.

ولاأدري لماذا اعترف بالثورة الفرنسية مع أن فرنسا ينبغي أن تكون امبريالية، لأنها تشارك في المؤامرة الكونية، وتقف إلى جانب الثورة السورية.

كانت سهرة التنوير هذه متنوعة، وكأنّه أراد أن يبسط أمامي كلّ شيء يعرفه. يريد أن يستمع إليه أحد، وغدوت أنا، في بدلتي الزرقاء هذه، المستمع المثالي الذي يمكن أن يفرغ الكبت الذي يعاني منه هذا الضابط الذي يحتاج إلى من يصغي إليه من غير مقاطعة أو اعتراض. أحببت أن أتلبّس هذا الدور، فمن غير المجدي أن أناقش شخصاً يجلس وراء طاولة المحقّق، ويقرقع المتّة، ويدخّن مالبورو، ويعطيني دروساً في الوطنية، بحيث ينبغي أن يكون النبي محمد من أتباع الأسد الذي لايُشقّ له غبار في البطولة والرقّة والحكمة.

(كان الرائد قصير القامة، يتقافز في مشيته كضفدع مذعور. بيد أن كرشه المتدلية لاتتناسب مع نحافة جسمه

وضآلة حجمه. له عينان زرقاوان صغيرتان، كعيني ذئب. تتركز سلطته في مرؤوسيه ومسجونيه، حيث تتاح له فرصة التنمّر عليهم، بينما يبدو حملاً وديعاً أمام زوجه ورؤسائه، يحدّثهم مطأطأ الرأس، مطيعاً إلى حدّ التصاغر. يمقت الجامعيين المدنيين الذين أتيحت لهم فرصة اختيار كلّياتهم، ويبدون راضين عن وضعهم في الحياة، بالرغم من أنهم عرضة للتحقير من أي رقيب).

عاد مرّة أخرى إلى الحديث عن المظاهرات ليتّخذ موقع الإخراج المسرحي قبل أن يدلف إلى مملكة الشعر، قال:

- "إشو مَتعملو هنتو؟ تخرجو في مظاهرة، وأكتركين بيحمل عكتافو شعر طويل مسبسب، بتصيحو بمياعة: الله – سورية – حريّة وبسسسسسس".

(وهنا يمسح شعره بكفّه ويحرّك رأسه إلى الخلف بحركة نسائية تحمل دلال أنثى تدفع شعرها الطويل المنسدل من عينها إلى الخلف برشاقة، تماماً كما فعلت "لونا الشبل" على قناة "الدنيا"، منذ شهرين، حين صوّرت رؤيتها للتظاهر في سوريا).

ويكمل:

- بيجو الشبيحة اللي بتشتبكو معهين، وبتطلبو تدخّل الأمن ليخلصوكين من بين أيديهم، بيسقط

قتيل. تاني يوم بتقومو بتشييع القتيل من المسجد، بيتحوّل التشييع لمظاهرة، وبيسقط قتلى تانيين نتيجة العنف اللي بتقومو فيه، وهيك بتستمر الدائرة ومابتنتهي. لأيمتا بدو يبقى الأمن يخلصكين من الشبيحة؟

هنا تذكّرت رقّة رجال الأمن ووطنيّتهم من مظفّر النوّاب:"سيدتي كيفَ يَكونُ الانسانُ شريفاً/وجهازُ الأمنِ يَمُدُ يَديهِ بِكُلِّ مَكانٍ / والقادم أخطر /نوضعُ في العصارَةِ كي يَخْرُجَ منا النفطْ".

وألحّت عليّ صورة المخبر: "خَلفَ زُجاجِ الحَانَةِ / أُسْتٌ ذو أُسْتينِ يُراقبُنا/ دُسِّي في جَيبي شيئاً نُرْبكُهُ / نثيرُ شَهيَّتَه وشَهِيتَنا / نَخْبَ الشَّيْءِ.. /سيكتُبُ فينا مَلزْمةً / لا يكفي/احتضِنيني / سأُكَتِّبُهُ، ابن الكلبةِ، هذي الليلةَ دَفتر .

غير أن المقطع الذي سيبقى يلحّ عليّ طوال فترة الاعتقال، وسأبقى أردّده في كل السياحة السجنيّة التي مررت بها من مكان إلى مكان فهي: "سُبحانَكَ كُلُّ الأشيَاءِ رَضيتُ سِوى الذُّلْ/ وَأنْ يُوضَعَ قَلبيَ في قَفَصٍ في بَيْتِ السُلطان / وَقَنِعْتُ يَكونُ نَصيبي في الدُنيا.. كَنَصيبِ الطيرْ/ ولكنْ، سُبحانَكَ حتى الطيرُ لها أوطانْ /وتَعوْدُ

إليها.. . وأنا ما زِلتُ أَطير/فهذا الوطَنُ الممتدُّ مِنَ البَحْرِ إلى البَحْر/ سُجُوْنٌ مُتَلاصِقَةٌ/ سَجانٌ يُمْسِكُ سَجان".

يتابع الرائد وصلته التوعوية الزاجرة:

– أنتم إرهابيون.. قتلة.. ينبغي أن نسحقكم.. رئيس الفرع قال لي: ليش لهلق صابر عليه.. حطّو بالدولاب بيحكي كل شي..استعمل معو الكهربا.. اسحقه.. هاد مجرم خطير بيموّل التسليح وبيحكي مع الفضائيات وبيحط مخطط كل المظاهرات، وموزّع أجهزة اتصال عالمجرمين. وأنا صابر عليك، بقدّر المسقّفين*، وهلق بحكي معك لأفتح عيونك على شي مانك منتبه عليه. بتساعد أعداءنا وبتتيح المجال ليستلمو المجرمين والشبيحة البلد. بدي تحكي كل شي عندك وأنا بساعدك لتطلع من هون وتبقى تتعامل معنا لكشف المؤامرة.

لا أدري لماذا، هنا، ألحّت علي قصيدة نزار حين تذكّرت كيف تم اعتقالي تحت جنح الظلام: "إنَّني أعرِفُ بالفِطرَةِ أصواتَ بساطيرِ العَسَاكِرْ ...وأنا أعرفُ بالفِطْرَةِ، أوصَافَ، وأَحْجَامَ، وأسماءَ الخَنَاجِرْ.. جَهَّزوا جيشاً خُرافيّاً، لكي يَقْتَحِمُوا عُزْلَةَ شَاعِرْ.

يطفيء سيكارته بعنف وإمعان، ويشعل أخرى:

---

* المثقفين.

- لقد صوّركم نزار قباني، بتعرف إشو قال؟: ما الذي عند السماء؟ لكسالى.. ضعفاء.. يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر.. ويهزون قبور الأولياء.. علّها ترزقهم رزاً.. وأطفالاً.. قبور الأولياء.. ويمدّون السجاجيد الأنيقات الطرر.. يتسلّون بأفيونٍ نسميه قدر.. وقضاء.

هو يستشهد بنزار قباني الذي يريد أن يخرج من قبره ليعترض، فهو لم يكتب الشعر لهؤلاء، ولم يتخيّل، أن يستشهد أمثالهم بما كتب ليواجههم به. هو يتلو شعر نزار الذي يخيّل إليه أنه يدين المتظاهرين ويظهرهم بمظهر المتطرفين الإسلاميين القدَريين، وأنا أتذكّر المحامي "علي" عندما كان في المنتدى يتلو ماحفظه من "السيرة الذاتية لسياف عربي".

كما راح الرائد، وقد انفتحت قريحته الشعرية، يتحدث عن أمراء النفط من شعر نزار أيضاً: بدكين تساعدو الخونة أهل النفط اللي بيصرفو دولارات عالشْرام(..)؟ هدول بيقول عنن قباني: تمرّغ يا أميرَ النفطِ.. فوقَ وحولِ لذّاتك / كممسحةٍ.. تمرّغ في ضلالاتك /لكَ البترولُ.. فاعصرهُ على قدَمي خليلاتكْ /كهوفُ الليلِ في باريسَ.. قد قتلتْ مروءاتكْ.

كان الرقيب صالح مسروراً والابتسامة الصفراء لم تفارق شفتيه، معتزّاً بقائده المثقف الحكيم الذي يقوم بتوعية موقوف من وزني. حرّك خيزرانته بين ساقيه وقال:

- شايف.. بدك ألف سنة تاتاعريف تحكي متل مايحكي سيادة الرائيد.

وأنا لم أكن أقلّ سخاءً ومراءاةً منه فقلت:

- أنا سعيد بالتعرف عليك سيادة الرائد، فأنت تحفظ شعراً أكثر مما أحفظ أنا، ولكنّني كنت أفضّل أن نلتقي بظروف أفضل من هذه.

كنت أتساءل، في سرّي، تُرى كيف أوصلوا الرائد وأمثاله لهذه الحالة؟ كيف علّموه، وماهي الملفّات التي يحفظونها له في أدراجهم السريّة، لاستخدامها وقت الحاجة؟ ليست 1984 لجورج اورويل هي الرواية الوحيدة التي تصوّر كيفية تجنيد العملاء لمصلحة السلطة. إنها أساليب تتبادل الخبرات فيها مراكز الأمن في العالم. فيها كيفية حصار المستهدفين حتى يكرهوا الحياة، وفيها كيفية توريطهم، ثم حفظ ملفاتهم الإجرامية لفتحها وقت الحاجة، بما في ذلك استعمال المحكومين بجرائم كبيرة. وقد يفتعلون قتل واغتصاب أقارب آخرين، وينسبون تلك الأعمال لأعدائهم، مايوغر صدور أقارب المجني عليهم، ويجعلهم مجرمين لايرفّ لهم جفن. كل ذلك لضمان الولاء. أولئك الذين يقعون في براثن المتعاظمين،

يلذّ لهم الإيغال في تقديم فروض الولاء بكل الوسائل التي يقدرون عليها.

لهذا لم يكن غريباً أن يستميت الرائد للمشاركة في الدفاع عن السلطة، والتبشير بها.

...

انتشى الرائد وتصّدر. تناول علبة دخانه.. تمختر ببطء إلى خارج الغرفة، وأشار إلينا كي نتبعه. فتح باباً يلي الغرفة التي كنّا فيها.. صعد بضع درجات.. أشعل لفافته، وبقينا أنا وصالح أسفل الدَّرَج. تحدّث في الهاتف. بدا مرتبِكاً. أشار لنا لنذهب.

قلت لصالح:

- بدي ادخل عالتواليت.

دخلت وأرحت نفسي بتؤدة، شربت وتوضأت. وصلت إلى زنزانتي منهَكاً وأشعر بارتياب شديد من شدّة الصمت المطبِق، وقبل أن يغلق عليّ الباب سألته:

- كم الساعة؟

- الثالثة.

بلبلة في الممر

لم أكد أنتهي من صلاتي حتى بدأت الجموع تتوافد، وعمّ الصخب أرجاء الممر. كيف لي أن أغفو وأنا أسمع أصوات استقبال الوافدين باللطم والرفس والاستفسار الأوّلي عن الاسم والمنطقة: سيف الدولة – الصاخور – جب القبّة –مساكن هنانو –الشعار –الصاخور. بالرغم من استيائي مما يحدث كان ثمة خيط مريح لي، هاقد عادت المظاهرات مرة أخرى، كي لايقولوا: اعتقلنا عناصر التنسيقية وهاهي حلب قد هدأت. كنا (21) شخصاً اعتُقلنا دفعة واحدة على مدى أربعة أيام. بيننا أطباء وأساتذة جامعيون وحاملو دكتوراه وإجازات جامعية وطلاب جامعة ومهن مختلفة.

أردت أن أستكشف مايجري في الخارج. نافذة الزنزانة العالية مطلة على الممر، بعد محاولات متعدّدة استطعت أن أتسلّق الجدار واضعاً قدمّي على جدارَي عرض الغرفة، وكذلك يديّ، ورحت أتلصص على مايحدث. رأيت قسماً من الممر الذي يطلّ على غرفتَي المطبخ والتواليت. بدا الصوت أقرب، من هذا المكان، ورأيت ثلاثة أشخاص، وجوههم إلى الحائط، وثيابهم ممزقة، وكانت الدماء تسيل

من أذن أحدهم. وُزِّعت على الموقوفين أوراق وأقلام، قال أحدهم:

- لاأعرف الكتابة.

سمعت صوتاً يقول له:

- بغل وبتطلع مظاهرات؟ ثم استدرك كلامه: أصلاً مابيطلع مظاهرات غير البغل. نقّلني ياابن الحرام.

- ليش عبتئول* ابن حرام. انا ماعملت شي. كنت معدّي شفت الناس عبصيحوا.

- عْليك* ونقّلني.. كلكين بتعملو حالكين شرفا. اسمك؟ اسم الأب.. وين ساكن.. الاحزاب اللي منتسبلها.. فيه أحد من أقاربك أخوان... ؟

تتالت الأسئلة والشاب يجيب. أحيانا يقول له:

- على مهلك ولا.. كرّ.

وأحيانا: - جاوب بسرعة ياحمار.

إلى أن وصل إلى سؤال حول مشاركته بالمظاهرة، قال:

---

* لماذا تقول.
* اخرس.

- كنت معدّي شفت المظاهرة، وقفت أتفرّج، مسكتوني مع إني ماإلي علاقة.

- إشو الشعارات اللي كنتو تصيحو فيها؟

- كانو بيقولوا: الله سورية حرية وبس... الدم السوري حرام.. يادرعا نحنا معاكي للموت.. ياحمص وياحماة نحنا معاكي للموت.

فجأة غضب الموقوف وقال:

- أنا ماهيك قلت.

هنا أحسست أنني لم أعد قادراً على الوقوف أكثر.. انزلقت. جلست على البطانيّات.. وضعت أذني قرب الحائط ورحت أصغي. الصوت غدا أبعد، لكنّه واضح. السجّان يقول:

- إشو ماقلت ولاا حيوان؟

- أنت كتبت انو المظاهرة بتقول: الشعب يريد اسقاط النظام.. نحنا السنيّة بدنا نبيد العلوية، وهن ماهيك صاحوا. قال السجّان بغضب:

- ولا.. مني (..) موقلت إنك ماابتعرف تكتوووب.

- ايه.. قلت مابعرف اكتب.. بس ماقلت مابعرف أقرأ.

سمعت رنّة صفعة قويّة وصوت يقول:

- وقّع هون، والاّ أابتعرف توقّع كمان؟

تداخلت أصوات السجّانين الذين يبدو أنهم استنفروا لأخذ المعلومات من الوافدين.

- إشو قلت اسمك؟

- محمد أعرج.

- ياابن الشر(...) ة بدك تسقّط النظام ماهيك؟ مو عاجبك السيد الرئيس؟

- ليش عبتسبني؟ قلتلك اني كنت سهران عند رفيقي.

أسمع صفعة قوية، وصوت ارتطام عصا بعظام. يصيح شخصٌ ما، بغضب:

- ليش عبتضرب.. أأأأ.. ليييش؟ ليشششش عبتسبّ... قلتلك ماني عامل شي... بدك تضرب؟ انا بضرب... لاتعذّب حالك.

سمعت صوت ارتطام قوي بالباب الحديدي القريب من زنزانتي. أشخاص يصيحون:

- إشو صار... إشو صار؟ إشو عمل؟ مين عمل هيك؟ اركوض جيب دوا احمر من الخزانة.. بسرعة.. يخرب بيتو بددو يورّطنا.

أصوات أقدام متسارعة تجري في الممر.. أشعر بألم شديد في رأسي. أجمع كلّ حوّاسي لأعرف ماالذي يحدث في الخارج. بعد دقائق يعود صوت السجّان، ولكن بهدوء:

- إشو صار.. انا ماأسألك كم سؤال بس.. أمّا منعرف أنّك مالك علاقة بالمظاهرة منرجعلك الأمانات وبتروح عالبيت.

سأل شخصٌ آخر:

- لك إشو صار قرد ولو؟

قال السجان:

- إسّا عم اسألو كم سؤال ضرب راسو بالباب.. بدّو ينتحر ويبليني... إسا ماعملتلو شي.

توقّف صوت الضرب في الممر... عمّ الهدوء المكان. استطعت أن أسمع صوتاً باهتاً لمؤذّن يأتي من بعيد. سمعت صوت ماء يُسفَحُ في الممر. يريدون غسل آثار الدماء التي ملأت الممرات.

عندما أخرج من هنا.. لن أنسى هذا الاسم. كان شجاعاً وقد أرعب فرع المخابرات العسكرية حين ضرب رأسه بالباب ولم يقبل أن يشتمه أحد. على الغالب، بعد تلك الحادثة، أعطوه أماناته وأفرجوا عنه. إنها طريقة رائعة للتخلص من براثنهم. تُرى لو فعلتُ ذلك أنا ماالذي يمكن أن يحدث؟ لابدّ لي من التفكير بطريقة ما للخروج من هنا، مهما كلّف الثمن.

شعرت بحاجة إلى التبوّل. لاأريد أن أريق ماء الإناء فأنا كثير العطش. اقتربت من الفرجة في أسفل الباب وفعلتها هناك، باتجاه الممر الضيّق أمام غرفتي. سكبت وراءها قليلاً من الماء ليغيب اللون الأصفر للبول. بما أنهم بدؤوا حملة الشطف.. لابد أن يغسلوا الممر أمام زنزاناتنا أيضاً. وهكذا تضيع معالم فعلتي تلك.

تصلني رائحة مساحيق التنظيف. أشعر بالانتعاش. أنظر من ثقب الباب، هاقد وصل التنظيف إلى ممرنا. ياالله، ماهذا ؟ يبدو طفلاً صغيراً هو مَن ينظّف المكان. أسمع أحد السجّانين يشتمه وهو يعطيه تعليمات التنظيف بشكل جيّد ليتابع الزوايا المخفيّة تحت الصوفاج. ومن ردّه يبدو صوته ناعماً لايتعدّى عمره عشرة أعوام. ااممم هكذا إذن.. الموقوفون الصغار يشغّلونهم بالسخرة، لهذا عندما نمدّ أيدينا لأخذ الطعام يقولون: راسك بالأرض، كي لانرى من يحمل الطعام

لنا. بعد انتهاء التنظيف، أمعنت النظر لأرى توزيع الفطور. بالفعل، رأيت طفلاً يحمل قصعة الخبز الكبيرة ويضعها أمام زنزانة جاري، ثم يأتي بعلبة سمن حديدية مكشوفة الغطاء، دققت النظر فيها من ثقب الطاقة أعلى الباب فرأيتها مملوءة للنصف بسائل أصفر اللون يشبه سائل قمر الدين. بدأ توزيع الفطور، حين مددت يدي لالتقاط الرغيف والانسحاب للخلف، قال لي المساعد أحمد: وقفْ. غمس ملعقة صغيرة بالعلبة، عبّأ نصفها بالسائل، قال: فتاااح. فتحت الرغيف، وضع نصف السائل، وأغلق الباب. من هنا عرفت أن الطعم الحلو الذي يأتي للرغيف عند الفطور هو من نصف الملعقة من مربى المشمش. حين طويت الرغيف، ومرّغت السائل فيه، فتحته، فلم أرَ شيئاً. لكنني حين تناولت الفطور، علمت أن طعم المربى موجود، لكنه لبس طاقية الإخفاء خجلاً من كميّته.

الوقت سيمرّ طويلاً بعد الفطور ولابدّ لي من التسرّب لأخرج من هذا المكان. ولكنْ، كيف؟ بعد قليل يحين موعد الخروج للتواليت، فلأعبّ إذن الماء المتبقّي لديّ، ولأفكّر بمغزى اجتماع الرائد بي.

سوابق أمنيّة وذكريات

على غير العادة، وقبل موعد التواليت، بدأت تُفتح الأبواب، طلبوا أن نحمل البطانيات ونقف في الزنزانة.

كانت حيرتي الأساسية هي كيف سأخفي أدوات الكتابة والحفر التي لديّ. رفعت الإناء البلاستيكي وأخفيتها تحته، ثم جمعت البطانيات ووقفت.

استجابة لطلب السجان، رميتها في الممر فوق أكداس منها. بقيتُ في أرض جرداء. رحت أتفرّس في أشكال الوجوه والأحصنة التي تتشكّل عشوائياً وبحسب زوايا نظرنا على البلاط. أعدتُ قراءة ماهو مكتوب على الجدران، ورحتُ أصوّب ماتلقّيناه سابقاً، كانوا يقولون: الحيطان دفاتر المجانين. الحقيقة أن الحيطان هي دفاتر المساجين.

أتفرّس في الخطوط التي رسمتها على الجدار لمعرفة اليوم والتاريخ، إنه اليوم السادس لي. بحسب دراستي للتواريخ المرسومة على الجدران، وبحسب مافهمته من أحاديث المحامين، مايزال أمامي عشرة أيام أخرى هنا حتى أكمل خمسة عشر يوماً، قبل الإفراج عنّي.

ياإلهي، كيف يمكن أتحمّل فترة أطول من التي قضيتها في غيابة الجبّ حتى الآن؟

أعمل في صحيفة رسمية، جريدة تشرين المفترض أنها أهم صحيفة رسمية. كيف يمكن أن يُودَع محرّرٌ ثقافي في أهم المدن السوريّة في السجن من غير أن تطالب الصحيفة به؟

أضحك من نفسي. أضع وجهي في الجدار المواجه للباب وأحاول أن أراني، وأكلّمني: من كل عقلك عبتحكي؟ شو يطالبوا فيك؟ الجريدة تابعة للسلطة، والسلطة تريد كمّ الأفواه، كيف إذن ستطالب فيك يافهيم. ربما يكون الحق عليّ. كان مقرّ مكتب الصحيفة بحلب في السبع بحرات. دخل شخص المكتب وأخبرني أنه من الأمن، ويريد التعرّف على العاملين بالمكتب. أجبته، باقتضاب، وتابعت ماأنا منشغل به. جلس الرجل صامتاً، وربما شعر بالحرج من عدم اهتمامي به. اخترع شيئاً للتحرش بي: طلب ماءً، فأشرت إلى المطبخ. عاد وهو يمسح فمه من آثار الماء، وهو يمد يده لمصافحتي، دسّ في يدي بطاقة عليها اسمه ورقمه. أخذت البطاقة منه ووضعتها على الطاولة بلا مبالاة، لكنني صافحته بحرارة عندما غادر.

يعني لو اهتممت به، لو حفظت اسمه، ألا يمكن أن يساعدني ذلك هنا؟ ضحكتُ منيّ عليّ. يقولون: الغرقان بيتمسّك بقشة، ماحدا قال بيتمسك ببعرة. اش جنّيت

كنّي. ليش نسيت عنصر الأمن لما زارك بالعاديات، ونقل إليك إعجاب العقيد المثقف بكتباتك التي يتابعها دائماً، وطلب منه دعوتك إلى فنجان قهوة، ماذا قلت له وقتها؟. طلبت منه نقل دعوتك للعقيد لشرب فنجان قهوة في الجمعية.

ييي علاقتي مع الأمن من يوم يومها تنابذ. قال شو: أجو لعندي لما استضفنا برهان غليون في جمعية الشهباء، يمكن من أكثر من عشر سنين، ماقبلوا تكون الجلسة علنية، فصار اجتماع حبي بين الأصدقاء، جاؤوا بعد أيام يسألونني عمّا صار في اللقاء. يومها قلت للسائل، مستهزئاً:

– لحظة بس أفكّر ماذا أكلت البارحة حتى أجيبك.

ييي.. ليش بس هي؟ ووقت جاء.. مَن... مَن؟ نسيت اسمه، كاتب مصري أفتى المشايخ بتطليقه من امرأته لأنهم اعتبروه مرتداً. نعم.. نصر حامد أبو زيد.. المهم جاء إلى صالة معاوية ألقى محاضرة. في اليوم التالي جاء عنصر من الأمن، قال:

– أنا المساعد فلان.

ماذا يريد؟ قال ينتظر منّي أن أحكي له عمّا حدث، بالتفصيل. قلت له:

- حبيبي أنا ماحضرت.. كان مقدِّم المحاضر ومدير الحوار جمال باروت اسأله. بعدين، هناك شيء أهم، الدكتور نصري، يتعامل معكم دائماً. أحسن شي اسأله هو.

افف، لسا يوم صدور كتاب نعيم اليافي واحتفالنا فيه، أصرّ عنصر الأمن على أخذ رقمي، قال يريد أن نتواصل. أعطيته رقم محروق، رنللي طلعتْ خارج التغطية، قبل أن يكشفني أضحك عليه، أخذت رقمه وقلت هيك احسنلي.. رنيتللو.. وخزّنت اسمو: أمن لاتردّ.

انتبهت إلى أنني أكلّم نفسي عبر الجدار.. طبعا هم يريدون أن ننتحر أو نجنّ أو نغدو موالين تماماً. ايه فشروا. صرت أردّدها بصوتٍ عالٍ: فشروا.. فشروا.. فشروا. بدأت أتساءل: تُرى ماالذنب الذي ارتكبته وأودى بي إلى هذا الوادي؟. وردت إلى خاطري أبيات كنت أستعملها مع طالبي الإيطالي، "جاكوب"، عندما كنّا ندرس أوزان الشعر:

يا ربِّ إنْ عَظُمتْ ذنوبي كثرةً   فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ
إنْ كانَ لا يرجوكَ إلا مُحسنٌ   فبمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ
أدعوكَ ربِّي كما أمرتَ تضرُّعاً   فإذا رددتَ يدي فمنْ ذا يرحمُ

لم أدرِ كيف غفوت ولم أستيقظ إلاّعندما فُتح الباب. رموا داخل الزنزانة ثلاث بطانيات تفوح منها رائحة مازوت. دفع السجّان برجله رغيف خبز شبه يابس، وقصعة فيها شيء يشبه البرغل عليه سائل أبيض. أغلق الباب. شممت الطعام، غلبت الزنخة رائحة المازوت وكدت أُفرغ مافي معدتي لو تكن فارغة.

صحيح. صار الظهر، معناها ماسمحوا لنا نطلع عالتواليت اليوم بعد الفطور. غطّيت القصعة بالرغيف، لأكبت الرائحة، وبدأت أعيد ترتيب البطانيات.

استلقيت وأنا أفكّر: أين كنت.. أين كنت؟ نعم كنت أفكّر في تشرين. عنجد عنجد يبدو أنني أصبت بمسّ. كيف تدافع الجريدة عنّي؟ الأيام الجميلة التي قضيتها في الجريدة كانت عصيبة عليّ بعد أن تركت جمعية العاديات. حين صار رئيس الجمعية يشعر بازدياد شعبيتي وهو لايرغب بظهور أحد سواه، بدأ يسحب مني صلاحياتي حيث كنت أعمل وفق قناعاتي، وحين أراد تقييدني، تركت.

هنا، في مبنى تشرين في السبع بحرات، صرت أقرب إلى المدينة القديمة. كلّ يوم أنزل للتجوّل في حَواري حلب القديمة.

عندما تشعر بالاغتراب ممن حولك، لايخرجك من ذلك الشعور إلاّ محاورة التاريخ، تلمّس روائح الحجر العتيق، والانغراس في حميمية الأبنية المتلاصقة التي لاتترك مجالاً للشعور بالوحدة. وسط "جادّة الخندق"، أدخل من الزقاق الضيّق الذي يبدأ بشارع ضيّق ثم كنيسة، أشتري كاتو (مارينغو) الذي أحب نكهته الحادّة، من عند كزّة، وأتابع سيري وأنا أراقب محلات البوابير النحاسية القديمة، وبائعي ضيافة العيد.

عند الزاوية تماماً بسطة بائعة دخان، أشتري علبة منها.. أقف متامّلاً مفارق الشارع، من جهة اليسار، متحف التقاليد الشعبية، حيث سوق الصوف، ثم بوابة القصب. الشارع الأمامي يفضي إلى بيت اجقباش الأثري، يليه بيت الوكيل والبيوتات التي صارت مطاعم، ثم ساحة الحطب. أتّجه نحو اليمين، وقبل أن أصل إلى سوق السمك في "جْدَيدة"، أنعطف يميناً لأمرّ على مكتبة خواتمي لتجليد الكتب الفني، وأنا في طريقي إلى قسطل المشط. ألقي نظرة من بعيد على باب النصر حيث كنا نشتري الزينة لموسم الحج، ونشتري الكتب المدرسية ونبيعها. أتابع الطريق وأراقب بائع العجة الشهير على باب الجامع. رائحة العجة تفتح النفس بالرغم من أنني أراه يستعمل الزيت نفسه أكتر من مرة للقلي. سألته، وكان سبعيني:

– منذ كم سنة وأنت هنا؟

قال:

- هو هووووو من زمان. أكتر من أربعين سنة.

لكنه لم يشأ أن يتحدّث أكثر من ذلك ولم يسمح بتصويره.

وااخ. التصوير يعيدني مرة أخرى إلى حيث أنا، إلى الزنزانة، وأنا أترقّب موعد الذهاب إلى المغاسل. غير أنّ مارمى بي إلى زاوية القبو الذي أنا فيه، صوتٌ جَهوَريٌّ يشبه مكبّر الصوت:

- كل الغرف يشلحوا بالشورت فوراً.. المن(..) اللي ماسمع يسمع.. اشلحوا بالشورت ياعر(...) بسرعة.

الصوت يقترب أكثر وأسمع طرقاً رتيباً على أبواب الزنزانات بأداة حديدية تشبه جنزيراً يصدر أصواتاً متوالية الوقع.

لم أشأ أن أفعل ماقالوه، إن سألوني سأقول إنني كنت نائماً ولم أسمع شيئاً. بعد قليل جاء صوتٌ آخر:

- فَلّوا.. فَلّوا.. بسرعة... فَلّي ياحمار.

لم أعرف المقصود من حركتهم ولم أفهم طلبهم، لذلك تقوقعت على نفسي وسرحت بأفكاري إلى مبنى تشرين

الجديد، سرّني أنه قريب من منزلي، كان في مبنى هيئة الرقابة والتفتيش، أمام فرن الرازي، وبيتي على بعد شارعين منه، وبالامتداد نفسه، بعد جامع السلام، أمام سكّة القطار.

اجتماع تشرين اليتيم

يوم افتتاح المقر حضر المحافظ، وجاءت رئيسة التحرير(س) من دمشق، وأقيم حفل كبير حضره بعض الأدباء والفنانين والصحفيين، وبعض مدراء الدوائر، ثم كان العشاء لبعض الحاضرين في دار الياسمين، البيت العربي العتيق الذي تحوّل إلى مطعم. المكان المحجوز لنا كان في الليوان، على يمين الباب الرئيسي مباشرة. جلست (س) إلى جانب (علي جمالو) صاحب موقع شام برس الموالي للسلطة، والمعروف بأنّه مبتزّ على نطاق واسع. كانت الثورة في بدايتها، وكانا يتهامسان، ويستعملان الهواتف بشكل كثيف من أجل تجييش أكبر عدد من الشباب لمواجهة صفحات الثورة الالكترونية. إلى جانبي كان يجلس رجل الأعمال محمود (هـ) وكنا نتهامس على النظام الجائر وأهمية مجابهته. لم أرَ رئيسة التحرير سوى مرتين في حلب: الآن، وحين جاءت مرة أخرى بمهمة حضرت خلالها عرساً لأحد معارفها، وعلى الهامش أجرينا حواراً مع محافظ حلب، وفي كلّ مرّة كانت تغادر بالطائرة.

المرّة الوحيدة التي رأيتها فيها بدمشق، كانت في اجتماع موسّع لمكاتب الصحفيين في المحافظات. تحدّثتْ عن تضحيتها بمئة ألف ليرة سورية شهرياً كانت تتقاضاها لقاء عملها في مجلة "الاقتصادية" وقبلت رئاسة تحرير الجريدة لتخدم بلدها.

(هنا أدركتُ أنها لابد أن تحصل على ضعف المبلغ من الصحيفة، بأي وسيلة كانت، حتّى تكون مرتاحة الضمير. والاقتصادية معروفة بأنّها لرامي مخلوف، وكانت تسهّل تبادل الصفقات بين التجار والمسؤولين).

في الاجتماع، تحدّث معظم الصحفيين عن مطالبهم، وكانت تجيب، وتثني على القيادة الحكيمة التي فتحت باب حرية الصحافة على مصراعيه. ثم أشادت بالحكومة التي تبذل مافي وسعها من أجل زيادة الاستكتاب في الصحيفة، وتكرم الصحفيين. ثم التفتت إليّ وسألتني:

- دكتور كمال، لم نسمع مطالب حلب، ولم نعرف رأيك في تعزيز دور الصحافة.

تنحنحتُ.. وضعتُ كفّي تحت ذقني، وقلت:

- سأنطلق مما انتهيتِ إليه. تقولين إن الحكومة كريمة مع الصحفيين، وهذا يعني أنّها تتكرّم علينا وتمنحنا

من مالها. كيف يمكنني أن أن أتلقّى أموالاً من شخص ثم أتجرّأ على ذكر أخطائه، وفتح ملفات فساده. كيف يمكن أن أكون حينها سلطة رابعة وأنا أتلقّى أموالاً ممن ينبغي عليّ الدعوة إلى إصلاح مساره.

– وماذا تقترح؟

قلت أربع كلمات، جعلت الحاضرين مشدوهين من تفوّهي بها، وجعلت رئيسة التحرير تفضّ الاجتماع، قلت:

– أقترح إلغاء وزارة الإعلام.

معظم الصحفيين أثنوا سرّاً على رأيي، في الممرّات، وتخوّفوا مما يمكن أن يحدث لي بعدها. لكنّني لم أبالِ. وأيضاً لم أعد أُدعى إلى أي اجتماع آخر.

مقرّ تشرين الجديد بحلب كان قريباً وآمناً، فقد عقدتُ فيه العديد من الاجتماعات مع عدد من الثوّار. وذات اجتماع أثنى أحدهم على مكان الاجتماع، لِمَ لا..أصلاً هذا المكتب مكتبنا، مكتب الشعب، وليس مكتب السلطة الحاكمة.

من هناك أدرنا مظاهرات ليلية، وكنا نتواصل مع جهات مختلفة من أجل بعض الذين أوقفوا في مظاهرة يوم الاجتماع، ونتّفق على أعمال اليوم التالي. لم نكن نبقى في المكان طويلاً، فإن احتاج الأمر كنّا ننتقل، على دفعات، إلى أحد مقاهي الخالدية، وهناك نتابع بعض الأعمال، بحذر، فمعظم المقاهي هناك موالية وشبيحة، وقد حرصنا على تفحّص المقهى، قدْر إمكاننا، ونبحث تحت الطاولات، خوفاً من وجود جهاز تسجيل، ونجلس في الحيّز الصيفي، في الخارج.

مِرجل الفتيان

كما كلّ مرّة، يُفتح باب الزنزانة لأُقاد إلى إحدى الحفلات. غير أن المفاجأة كانت مفجِعة هذه المرّة. بعد أن دُفعتُ إلى إحدى الغرف، رفع السجّان جزءاً كبيراً من عصبة العينين الملفوفة حول رأسي، فبدا المشهد مهيباً. وجدت نفسي بين خمسة فتيان عارين، تماماً، تتراوح أعمارهم بين عشرة أعوام وخمسة عشر عاماً. قِدر كبير مملوء بماء يتصاعد منه البخار. ثلاثة سجّانين يحملون عصياً كهربائية، يلدغون بها أجسام الفتيان المبللة بالماء، ويحثونهم على غطس أيديهم بالماء المغلي، كشرط للتوقف عن الصعق الكهربائي.

بدا اليافعون كدجاجات تتقافز فوق الجمر هرباً من لهيب النار، وهم يسمعون أقذع الشتائم التي تنهال عليهم، ويتلذّذ بإخراج حروفها حَمَلَة العصي.

لم أكن بمنأى عمّا يحدث، فقد حرص السجّان، الذي اصطحبني، على لومي وتحميلي مسؤولية مايحدث لهؤلاء اليافعين:

- مو هنت معلمهم ؟ مو هنت بتقلهم يتظاهروا ضد الوطن، وبتحرّضهم على سيّد الوطن؟ ذنبهم برقبتك.

بدأ يصفعني على خديّ بقوّة بكلتا يديه، كمن يقرع طبلاً. علا صوت السجّانين المجتمعين بالغرفة يترنّمون مع العازف ويرددون مايقوله:

- على دلعونا على دلعونا..خدو هالأسمر غيّر اللونا.. ياويلك شو رح نعمل فيكم اليووووما.

استمرت الحفلة أكثر من ساعة، والجلاّدون يتفننون بأشكال التعذيب، حتى خارت قواي، ولم أعد أقوى على الوقوف.

لم أعد أذكر سوى أنني ملقىً في زنزانتي، والعرق يسدّ مسامات جلدي.

مددت يدي تحت البطانيّة. أخرجت ثلاث حبّات(أتيفان) لأتمكّن من الصمود، وأخفّف من رعشة جسمي الذي أحسست أنه ينتفض كطائر مبلول بالدم. قد أتمكّن من النوم.

تسـرّب الخـدر إلى رأسـي، ووجـدتني بنصـف صـحو، لـذلك لم تكـن لـديّ أيّ ردة فعـل عنـدما شـحطني أحـد الحرّاس من زنزانتي ورمى بي في غرفة أخرى.

لايمكـن أن أنسى. إنها ليلة محفورة في تلافيف الـدماغ، تركت في شَغاف القلب كتلةً مدمّاة.

أدخلـوني إلى غرفـة، بـدت لي، بعـد أن أمـاطوا عصـبة العينين، أنها غرفة معاينة طبيّة. مستطيلة الشكل، عرضـها ثلاثة أمتار وطولها احتلّ الضعف. تتصدرها منضدة خشبية عليهـا مقياس ضغط وسماعة طبيّة وزجاجات تعقيم. سرير المعاينة الجلدي الأسود توسّط الغرفة وتناثرت حوله بضعة كراسي بلاستيكية بيضاء بعضها ملوّث ببقع الدم الجاف، وأخـرى بـتراكم بقـع صـفراء وبنّيّـة. خزانـة زجاجيـة احتلـت نصـف جـدار، مملـوءة بعلـب الأدويـة، ومعـدّات الإسـعاف الأولي.

مصـارعٌ يرتـدي ثوبـاً أخضـر رشـقني بسـطل مـاء بـارد. لم أتحرّك. أمر الحارس، مشيراً بيده:

– الحشو هونيك.

رمـى بي أرضـاً. دخـل أحـدهم يحمـل بصـلة كبيرة. وضـعها على جبهتي وهوى بقبضته عليها فانفلقت. مرّغ بها أنفي.

تقـدّم المصـارع يضـربني بقبضـة حديديـة علـى بطـني. كـرّر صـفعي. لم أسـتجب. كنـت مشـلول الحركـة، بعينـين غائمتين. فتح جفنيّ بأصبعيه. حدّق بعيني ثم قال:

- اتركـوه. مغمـى عليـه. شـوي وبيصـحى. مـارح يفطـس ..قرد بسبع أرواح.

زرع الغرفـة جيئـة وذهابـاً ويـداه معقـودتـان خلـف ظهـره، ثم سأل، بصوت رصاصي ثخين:

- شو عندنا غيرو؟

- سيدي عندنا كرّ قال مايستفرغ.

أشار لهم بيده، هاتوه.

رمى السجّان صبيّاً ممشوق القوام. شعره الأشقر منسدل على كتفيه. عندما رفع رأسه لمعت عيناه الخضراوان.

بـدا المصـارع – الطبيـب أو الممـرض، ذو الـرداء الأخضـر، منبهراً بجمال الفتى. أشار بأصابع كفّه للحراس أن اخرجوا. ثم قال ، بحزم:

- الرقيـب أبـو ضـراط خليـك عالبـاب مـن بـرا ممنـوع دخول أحد، بدي أفحص هالكر.

نقّل ذو الرداء الأخضر نظره بيني وبين الفتى. أشار بسبّابته إلى إناء فيه أكثر من ليتر ماء، وهو ينظر إلى الفتى:

- كراع هالقصعة فرد كرعة ولاك كر.

كاد الفتى ينفجر وهو يجبر نفسه على إفراغ الماء في جوفه. أمره بالاقتراب. صفعه على وجهه صفعات متتالية بإيقاع سريع:

- شو تهمتك ياعر(.)؟

- سيدي قالوا كنت أصور مظاهرات وأنقل مواد إغاثية وأدوية للإرهابيين.

- قفيز ولاك كر متل القرد الهايج.

بعد قفزات متعدّدة، قال له، مشيراً إليّ:

- وقاف فوق راس هالقرد وشخ عليه.

حاول الفتى، متردداً، فلم يخرج منه سوى قطرات لم تُصب الهدف.

اغتاظ ذو الرداء الأخضر :

- تضرب. قرّب ولا كرّ . كنّوا أمّك ماعرفت ترضعك منيح. فعمز بين رجليّ.

فتح رداءه. ضغط بكفّه قحف رأس الفتى باتّجاه عانته. أغمض عينيه محاولاً تركيز قواه في تلك المنطقة. بدا الفتى منهمكاً. يتوقف بين فينة وأخرى:

- سيدي مافي استجابة.

- هنت ولد حقير ماتنفع لشي.

جذبه من شعره. ضغط وجهه على عانته بعنف، وهو يحثّه على الشفط بقوّة . يبدو أن الخرقة البالية لم تتحرّك. بعد محاولات فاشلة متكرّرة، ركله برجله بقوّة قدر مايستطيع. اصطدم بالجدار. ترك رأسه بقعة دم. تهاوى كشرشف يغادر حبل غسيل.

بصعوبة شديدة أحاول ألاّ يرفّ لي جفن، بعد أن تمكّنت من اختلاس النظر في معمعة ماحدث. الهلع دقّ مفاصلي.

صاح ذو الرداء بأعلى صوته:

– يــاأبو ضــراط. كعــروا للجلجــوء* بالزبالــة، وكعــرو لهالجحش في قصر الحبتّية** عمرو مايفيق.

(ذلك الفتى لم يره أحد مرّة أخرى).

...

لم أزل وسط ذهول. هل مارأيته حقيقة، أم أنه وهم نشأ نتيجة تناولي جرعة عالية من أقراص التنويم؟

بنصــف صــحو، أحــاول، جاهــداً، الخــروج مــن عتمــة الزنزانـة إلى الـذكريات. لايمكـن أن يحدث ماأتوهّمـه. لايمكـن ان يكون في سوريا كل هذا الشر، وكل هؤلاء الوحوش. انا أكيـد أنـي في كـابوس. لسـت في سـوريا. لسـت في حلـب. لست في مدينة الثقافة والفكر والفن والأدب. أدنـدن وأنـا أعتلي مسرح قلعة حلب:

عذِّبْ بما شئتَ غيرَ البعدِ عنكَ تجدْ

أوفى مُحِبٍ، بما يُرْضيكَ مُبْتَهِجِ

وخذْ بقيَّةَ ما أبقيتَ منْ رمقٍ

لا خيرَ في الحبِّ إنْ أبقى على المهجِ

---

* ارمِ هذا التافه.
** الأراذل.

لِلّهِ أجفانُ عينٍ، فيكَ، ساهِرَةٍ ،

شَوْقاً إليكَ، وقَلْبٌ، بالغَرامِ، شَجِي

أصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مكتئباً

ولَمْ أقُلْ جزَعاً:يا أزْمَةُ انْفَرِجي

أين تذهب حين تبكي؟

تُفتحُ الزانزانة فتنقطع سلسلة أفكاري التي أحلّق بها من هذا المكان، وهواجسي التي تحفر في الأعماق أخاديد ألم.

إنّه العشاء: نصف خيارة مع رغيف من الخبز. لم أتمكّن من لمس عشائي. لم يمضِ وقت طويل حتى فُتح باب زنزانتي ، مرّة أخرى، فجأة:

- طلاع.. وجهك عالحيط.

وضع الأصفاد في يديّ، طمّش عينيّ. تعثّرت بشخصٍ مرميٍّ على الأرض. وقبل أن أتماسك، اصطدم رأسي بالجدار. أمسَك السجّان بالقيد الحديدي وسار بي إلى غرفة التحقيق. رائحة أجسام نتنة تزكم أنفي، وتلفحني حرارة هواء جاف، ورطوبة تشبه التعفّن.

- شرّف البيك. سمعت أحدهم يقول.

الآخر باغتني:

- طبعاً.. ليش مَنستغرب.. اللي يخون بلدو أافيه مايخون أهلو؟ طبعاً.. الخاين خاين. بتعرف سامي مسلّم؟

- لا.

- العمى في عيونك..عبتكذُب كمان؟

- لا.. ليش أكذب.. مابكذب.

- لك مو أنْتْ كاتب إني من قرايبك سامي مسلّم.

قلت مستدركاً:

- هااا سامي مسلم مو مسلّم.. هاد ابن اختي.

- هنْت أكلتْ على أخواتك الميراث وماعطيتهن شي.. بقى هاد شي عادي، اللي مَيخون الوطن، بيخون كل قرايبو. هلّق بسمّعك الكلام وتشوف كيف نحنا كاشفينك.

(بعد ثوانٍ): - بتخرس ولا نَفَسْ..

(بعد ثوانٍ): - ماتردّ؟ إشّو؟

- إيه بخرس.

سمعتُ جَلَبَةً تبعَهُ صوت:

- إشو سامي الوسخ.. إسّا بتطلع مظاهرات كمان؟
- لا.. سيدي مابطلع.. والله العظيم بطّلتْ.
- احكيلي إشو بتعرف عن خالك ؟
- سيدي قلت لك مابعرف شي.. نحنا من زمان مقاطعينو ومامنحكي معو.. لابيجي لعنّا ولامنروح لعندو.. وأبوي حالف يمين على أمي أنو مابصير يدوسنا*.

ابتسمتُ في سرّي، وقدّرت أن سامي خائف من علاقته بي، ولايعلم فداحة التهم المنسوب إليّ، كما أنّه لايريد البوح، حتى بالمقدار الضئيل الذي يعرفه، وأعجبتني جدّاً فكرة إنكاره لي. كما أن سهولة دحض هذه التهمة تعينني على التملّص من سواها.

(كان سقراط يقفّص محدّثيه من خلال طرح مجموعة أسئلة تسلسلية يعرف إجاباتها، ويتيح لهم فرحةَ الاعتداد بآرائهم، عندما يقول لهم:

- أحسنتم.. كانت هذه الفكرة غائبة عنّي، ثمّ يوصلهم إلى مرحلة الاقتناع بما يريد أن ينشره من أفكار).

---

* يزورنا.

المحققون، هنا، يفعلون العكس، من شدّة سذاجتهم، يمنحونني فرص نزع قضبان القفص واحداً إثر آخر لأنعم بالحريّة، حتى وأنا مغلول اليدين، ومغمض العينين.

يتابع المحقّق استدراج سامي، ليصفعني ببراهينه الدامغة:

- وإشو عملتو لما سمعتو خالك مجرم وقبضنا عليه. قال بتلعثم وتردّد وكأنه يحسّ بوجودي:

- انبسطنا.

- لك العمى فعيونك العمى..هنت موقلت امبارحة انكن اشتريتوا حلو ووزعتو عالجيران من فرحتكن انكين خلصتو منو.. وبتفشّو قهركن ؟

- ايه... سيدي قلت.

- ليش فرحتو، مو لأنك قلت خالك أكل الورث وباعوا وماعطاكن شي؟

- ايه سيدي..(تابع مرتبكاً): بس هوه قال أنو بدو يعطينا بعدين.

- العمى في قلبك، كل هالقتل أكلتو وماكفاك إسّا بتكذُب.. كل مرة مَتحكي شي.. خدو اشبحو لهالبغل.

كنت أقاوم ابتسامتي وأنا فرح باكتشافاتهم العظيمة، فكلّما واجهوني بشخص، تتكشّف لهم براءتي أكثر. إنّهم يحضرون الأشخاص الخطأ.

بعد صمت، أحسست خلاله أن المحقّق يمسح عَرَق جبينه، ويواري خجله، من سخف اكتشافاته، أمام زملائه وعناصره الذين أشعر بوجود خمسة منهم على الأقل، من تقاطع الأنفاس التي تلفح جبيني ورقبتي. جاءني صوتٌ آخر أقلُّ حدّةً وأكثر هدوءاً:

- إشو ماتقول في اللي سمعتو؟ هي قراييك أمّا يحكي عنّك.

- سيدي هاد الحكي كلّو موصحيح. انتو لما كمشتوه وسألتوه عنّي خاف.. ظنّ أنّي عامل شي. بس الحئيئة (هنا ضحك ثلاثةٌ منهم، على الأقل، دفعةً واحدة، وراح أحدهم يقلّدني بطريقة فجّة: الحئيييئة.. الحئيييئأأأأأه. لم آبه لهم، تابعت الحديث):

- الحقيقة ليست كذلك، إنّها شيء مختلف، سأقول لكم بكل وضوح.

ضحكوا مرّة أخرى، وجاءني صوتٌ فيه فحيح ابتسامة تُوارى:

- أمّا تحكي فصحى..احكي عادي ياخاين.

قلت بنبرة استعطاف:

- سيدي عمتضحكوا عليّ..أنا هيك لهجتي.. نسيت اش كنت عبّئوول.

جاء الصوت الهاديء:

- اتركوا يحكي متل مابدو... هاد مبينتو عر(.) كبير.
- ليش هيك عبتؤول عنّي، أنا ماعملت شي غلط.

قال بلهجة صارمة:

- كمّل ياتيس.. ماعنّا وقت نضيّعوا معك.. مَنقلك يادكتور يافهمان ماإما يبيّن معك. باينتك بدك كم دولاب لتعرف وين وقعت.
- عندنا معمل نسيج، والدي، رحمه الله، كتب المعمل باسم الصبيان، واشترى بيت وأجّره وكتبه باسم البنات. نحن ثلاثة صبيان وثلاث بنات. البنات، بعد فترة باعوا البيت وتوزعوا حقّه. ونحناالصبيان،

قبل ماأجي لهون، بعنا المعمل بنفس سعر البيت، ولسا المشتري بيستنى الفراغة بس أطلع من هون. يعني، مو أكلت حقّن، بالعكس طلع سعر الصبيان بسعر البنات، يعني متل الأميري.

قال: – إشو يعني أميري، ثم استدرك: نحنا إشو النا علاقة بهالعلاك* ؟

– سيدي انتو سألتو.

– هلق بدك تقلّي ولاك إشو علاقتك بالعرعور؟

– مابعرفو سيدي.

– العمى في عيونك، كيف مابتعرفو، وكل يوم مايشهّر فينا عالفضائيات ومايحرّض القاعدة.. بدّو حكم إسلامي عرعوري سلفي تايصير عندو سبايا.

– سيدي مابتفرج عالتلفزيون كتير.. مشغول دايماً بالقراءة والكتابة.

– كيف مابتعرفو ومايطالب فيك؟ بعدين إشو علاقتك بالجزيرة.

– مالي علاقة سيدي.

---

* الكلام الفارغ.

- ولك كيف مالك علاقة حيوان، لكان ليش ماتطالب بالافراج عنك، وصرعتْ طيزنا فيك؟

- أقلك سيدي؟

- خرااس.

عرف أنني سأكرّر الكليشيه وأقول له إنني كاتب معروف ومسالم، ومحرّر في صحيفة رسميّة، وعضو اتحاد كتاب، واتحاد صحفيين ووووو... ، لذلك لم يشأ أن أجيب.

صرخ بصوتٍ عالٍ:

- خدو لهالحيوان، هلق تحت الضرب بيكرّ كل شي عندو.

سحبني شخصٌ ما إلى ركن، استطعت من تحت الطمّاشة أن أراه يشبه منصة المقصلة.

- ابطحو.

بطحني على بطني، ويداي مقيّدتان خلف ظهري.

- رفاع رجليك ولاك.

رفعتهما بشكل عمودي. بدأ الضرب بعصا، بدت من وقعها على قدميّ، مبرومةً، ومن خشب الزان. أغمضتُ عينيّ وصرخت بأعلى صوتي:

– أأيييييييييي.

لم تكن قوّة الضربة تُشعرني بالألم، غير أنني تذكّرت قصة "الصرخة" للؤي خليل. وبدأتْ تتراقص أمام عينيّ،مقالة كنت قد كتبتها ذات فجر في حديقة السبيل، إثر ضغط عانيته في عملي: إلى أين تذهبُ حين تبكي؟ سؤالٌ يحفر في الصميم. إذا أردتَ أن تبدو قويّاً متماسكاً، فكيف تداري الدمعَ على أطرافِ العين حتّى تجدَ مكاناً قصيّاً لا يراكَ فيه أحد.. القهرُ يعتصركَ وأنتَ تتماسكُ وتحبسُ الدمع. الشارعُ مزدحمٌ بالمارّة.. الجامعة مكتظّة بالزملاء والطلاّب.. البيتُ مليء بالزوجةِ والأبناءِ والأحفاد.

الآن، مع الضربة الأولى، اكتشفت مكاناً مثاليّاً للصراخ بأعلى صوتي، حيث يمكنني أن أبكي من غير أن يتّهمني أحدٌ بالضعف أو بالجنون. مع كل ضربة عصا كنت أصرخ أعلى من الصرخة التي قبلها.

لم أقل شيئاً. لم أسألهم أن يكفّوا عن ضربي، كنت مستمتعاً بما أنا فيه إلى حدّ الشعور بأنّني أعزف سيمفونيّةً بصراخي، وكأنّ حريّتي تتجسّد الآن بأعمق معانيها، فأصرخ بملء طاقتي وأفجّر الكبت المختزَن داخلي منذ عقود.

كان صوت المحقّق يصلني من بعيد:

– إسّا مابدينا وأمّا تصيح متل قرد، كيف بقى لما نبدا.

لم آبه لما يقول، لأنّني مستغرقٌ بما أنا فيه، وبفلسفة الألم التي تحوّله إلى مجرّد إحساس زائل، مثل الشعور بالفرح. بل فوجئتُ عندما توقّف الضرب.

أوقفني السجّان، وكنت في غاية النشوة، وكأنّني صحوت نشيطاً بعد حلمٍ جميل.

يبدو أن الطمّاشة ومحاولة التلصّص من خلالها تُفقد المرءَ شدّة التركيز، لهذا آثرتُ أن أبقى مغمض العينين، لأمعن في الظلام.

وصلني صوت المحقّق مغتاظاً، يعدّ كلّ ماسبق كان مزاحاً، ويعدني برؤية نجوم الظهر بعد أن يملص عينيّ. طلب من أحد عناصره أن يناوله الكمّاشة ليعلّمني كيف تُقلع

الأظافر. حاولت إحباط غضبه فرميت له بكنية الاسم الذي كان يسأل عنه: عدنان فلاحة. ووافقته عندما وصفني بالغباء لأنني سمحت لشخص بمعرفة بيتي من غير أن أعلم عنه كل شيء.

بدأت أدور حول نفسي وأنا أردّد:

- غباء.. فعلاً غباء.. شلون مابعرف بيتو؟ ولابعرف شي عنّو.. أنا غبي.. غبي.. غبي.

صرخ بي:

- وقيف. إذا مادليتنا على دارو خلال خمس دقايق بدي موتك. وهنت إشو كان دورك بالأحداث؟ مين اللي كنت تعطيهم تعليمات وتحرّضهم عالتظاهر؟ أشخاص كتير اعترفوا عليك إنك كنت معهم باجتماع التنسيقية.

ثبتت مكاني ومازلت أردّد:

- غباء..غباء. ايه اعدموني.. موتوني... موتوني. إذا مابعرف، حتى لو متت مارح أعرف. أنا كنت بس لما أشوف حدا بيسأل عن المظاهرات أو بدو يتظاهر أو يكون ألو دور بالإصلاح، كنت أعرّفو على حدا

تاني ألو علاقة بهالشي، وبس. أنا مابحضر تنسيقيات، ولابعرف تنسيقة، ولابعرف شو بتعمل التنسيقية.

- لك عمقلّك اعترفو عليك، كنت معهم بالمزرعة.
- ايه.. رحت عالمزرعة.. أصلاً نحنا كل يومين تلاتة منروح لشي مطعم أو مقهى أو منطلع عالمحلّق.

قال بعصبية شديدة:

- لك هنْتْ الخازوق قليل عليك.. بتروح عشرين كيلو متر وبتقللي كسدرة.
- ايه سيدي مافيها شي. مابعرف إنها تنسيقية، بعرف إنها دورة.. شمّة هوا. متل ماقلت : كسدرة. مااتفقنا على شي.. حكينا مشكّل ملوّن، عالأحداث وقوانين الطوارىء وكيف ممكن تنحلّ المشاكل بالبلد. ويعني آراء عاديّة.

مسكني من شعري وهزّ رأسي هزّة عنيفة:

- لك قالوا انو اجتماع تنسيقية، وخططتوا لعمل كبير.. اعتَرَفو عليه.

- بيجوز سيدي.. مابعرف.. أنا كل شوي بدخل التواليت، مو معي سرطان بالمثانة، وبعدين دخلت لجوّا أتفرّج عالتلفزيون (هنا انتبهت إلى تناقضي، قلت، قبل ساعتين أنني لاأحب التلفزيون، لكنّهم لم ينتبهوا . كان المحقّقون يركّزون على مادار في الاجتماع).

بعد صمت قصير، قال أحد الموجودين في الغرفة:

- سيدي خلّيني اعملّو كفّين أنشط ذاكرتو وأخلّيه يحكي.

تابع المحقّق كلامه:

- هنتو بالاجتماع اتفقتوا وعملتو قَسَم الثوّار، مين عملو؟

- سيدي مابعرف، في شخص، أول مرة بشوفو له لحية طويلة، عطانا ورقة صغيرة مكتوب عليها كلام، قرأناه، لما وصل لعندي صححته، كان فيه أخطاء نحوية، وبدّلت كلمة الثائر حطيت بدالها متظاهر. بس أنا ماعرفت ليش هاد.. لأنو إذا كان قَسَم كنا حفظناه أو كانوا وزّعوه علينا. بس اللي صار انو قرأناه وكل واحد قال رأيه فيه وبس.

صرخ أحدُهم:

- هنْتْ عبتكذُب، وإذا ماحطيناك على كرسي الكهربا مارح تعترف، اللي كتب القَسَم هو غياث الضللي.
- سيدي اعدموني. ماعندي شي اقولو غير اللي قلته، مابعرف اسمو هاد غياث، أوّل مرّة بشوفو.

بعد أكثر من ست ساعات تحقيق تخللتها كل أنواع الشتائم، والنحر، والرفس، والصفع؛ ساد هدوء مفاحيء. سكون تام استمر نصف ساعة وأنا متّكيء على أعصاب ساقيّ. لم أعد أحسّ بأن لدي أطرافاً. عاد الهرج من جديد، لم يدم تحرّك العساكر حولي طويلاً، فماهي إلاّ لحظات حتّى ذُهلت بالمفاجئة، ولم أتوقّع أن يحدث ذلك.

....

الفصل الثاني

عنتاب – 20 أيلول 2013– مساءً

شهم ودوّامة البحث

طوى شهم آخر ورقة قرأها. تلفّت حوله لعله يجد ورقات هنا أو هناك، تكمل القصة. لكنّه لم يجد شيئاً. ضحك من نفسه لأنه يعلم، مسبقاً، أنه لم تعد هناك أي أوراق مكتوبة. مدّ يده لارتشاف القهوة. لاشيء في قعر الفنجان. المنفضة مكتظة بأعقاب السجائر.

...

في مقهى "ياشين طاش"، حيث النوافير الأرضية تصدر صوتاً أليفاً متناغماً مع أصوات الجالسين في المقاهي على طرفي الساحة، بدا مشوّش التفكير.

كان ينظر إلى المارة الذين يتوقّفون لحظات لالتقاط السيلفي مع الورود المنتشرة وسط الساحة، ولكنّه لايراهم.

تفكيره منحصر في كيفية العثور على باقي المذكّرات.

لمح محمود شرود شهم فقال له مازحاً:

- أخوي.. نصف الألف خمسمية، ماسرّ استغراقك في التفكير؟.

فَرَدَ شهم الأوراق أمام محمود الذي ماأن وقعت عينيه على بعض سطورها حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة، وقال:

- الله.. الله. أين أنت ياكمال.

لم يخفِ شهم دهشته وهو يسأل:

- من كمال؟

- كاتب المذّكرات.

عدّل شهم جلسته. قرّب رأسه من محمود باهتمام بالغ:

- هل تعرفه؟

لم ينتظر جواباً وتابع تتابع أسئلته رشّاً:

- أين أجده؟ كيف يمكن العثور على بقية المذكرات؟ كم صفحة كتب؟ وهل هي مذكرات الاعتقال فقط، أم مذكرات عامة؟ قل بربّك.

تصدّر محمود في جلسته، وبدت على وجهه ملامح العارف، وقال:

- كمال هو من مؤسسي التنسيقية الأولى، وهم الذين اعتُقل معظمهم في بداية الثورة. كتب مئتي صفحة عن اعتقاله، بعد الإفراج عنه. كنّا نراه يوميّاً في المنتدى بحلب. جاء زيارة إلى عنتاب ثم غاب فجأة ولا أحد يعرف أين هو. يمكنك أن تسأل عنه في مكتب جريدة تشرين بحلب حيث كان يعمل، أو في جمعية العاديات.

حلب – 12آذار 2014

الطريق إلى حلب

-1-

الرحلة إلى حلب كانت شاقّة، استغرقت ثلاث عشرة ساعة، بالرغم من قربها من عنتاب. غير أن الحواجز المتنوعة المنتشرة بين أحياء حلب، جعلت شهم يدور حول حماه وادلب قبل أن يصل إلى المناطق التي يسيطر عليها النظام حيث يمكنه تجديد جواز سفره ورخصة قيادة السيارة. والأهم من ذلك كله، إرواء الفضول الذي يحفر في دماغه ليعرف بقيّة المذكرات ويعثر على صاحبها، بعد أن سمع عنه الكثير. كان يعتقد أن تلك المذكرات ستشكّل إضافة نوعية لدار نشر شهم التي أطلق عليها اسمه ونقلها من دمشق إلى عنتاب.

...

-2-

وصل إلى حلب. اتصل بمعتصم فأخبره أنه سيوافيه في العاشرة صباحاً، وأنه حجز له غرفةً في فندق ديدمان، بمنطقة المريديان.

تغيّر اسم الفندق من مريديان إلى ديدمان، تبعاً للجهة التي تستثمره، وبقيت المنطقة تعرف بالاسم القديم.

لم يكد يفرغ الحقائب في الخزانة حتى سمع جلبة في الخارج. ارتدى كلابيته على عجل ونزل يستطلع الأمر.

- مشاجرة حصلت بين شخصين حول إحدى الفتيات، بدأت بشكل طبيعي لتنتهي خارج الملهى عبر سحب تلك الفتاة مسدساً ووضعه في خاصرة أحد الأشخاص، لتقوم بعدها بالضغط على الزناد عدة مرات بشكل مقصود إلا أن الرصاصة رفضت الخروج.

هكذا قال له أحد شهود العيان للحادث.

وتابع الشاهد:

- يبدو أن الحظ كان حليف هذا الشخص الذي لاذ بالفرار بعد أن رفض المسدس إخراج الرصاصة، ولم تتمكن الفتاة من تلقيمه رغم محاولاتها المتكررة.

قبل المتحدّث دعوة شهم إلى فنجان قهوة، وبعد أن تعرّف إليه واستأنس بصحبته، أردف قائلاً:

- ليست هذه الحادثة الأولى من نوعها في فندق ديدمان، صاحب النجوم الخمسة، الذي يستقبل الوفود الأممية والوزارية في حلب، فالملهى الموجود في الفندق يشهد، بشكل شبه يومي، حالات مشاجرات وإطلاق رصاص وإصابات تنقل بشكل مباشر إلى المشفى ويتم التستّر عليها. وقد جرت منذ أيام حادثة إطلاق نار أسفرت عن عدة إصابات بين أحد ضعاف النفوس من عناصر اللجان الشعبية المدعو "محمد حبو" وصديقه المدعو "محمد عجلة" اللذين تبادلا إطلاق النار بسبب إحدى "الراقصات" التي تواعدهما هما الاثنان.

قرّب فمه من أذنه وهمس: شبّيحة.

عدّل جلسته وتابع متلمّظاً بكلماته كمن يتشفّى:

- الحادثة بدأت "بقيام "حبو" بصفع "عجلة" وطرحه أرضاً، ليقوم الأخير بسرقة مسدس من نوع غولد عيار (9) مم من أحد العناصر الأمنية، الذي كان "زبون" هذه المرة، ليسارع بعدها عجلة بإطلاق النار على "صديقه" ما أدى لإصابته في أعلى الخاصرة لتأتي الرصاصة الثانية التي استقرت في الفخذ الأيمن لـ حبو. ولم تنتهِ الحادثة بهروب "عجلة" بل تعرض مدخل الفندق بعدها لإطلاق نار كثيف من قبل مجهولين يستقلون سيارة "بيك آب" نوع "مازدا" لاتحمل لوحة، ويميّزها خطّان أحمران على جوانبها، تتبعهم سيارة "سابا عمومي". إنه أمر خطير ياسيد شهم.. ما يحصل بشكل شبه يومي في الحي عبر الرصاص العشوائي الذي يصيب المنازل والمدنيين في الشوارع بسبب اشتباكات تحصل داخل ساحة الفندق في ساعات الليل الأخيرة، ومجهولين يطلقون النار في الحي بشكل عشوائي. الميرديان(ديدمان) الفندق الوحيد بحلب الذي يستقبل العديد من الشخصيات الهامة من وفود أممية ومراقبين دوليين بالإضافة إلى الوفود الوزارية، لذلك أستغرب هذا الانفلات الأمني. وتأتي تلك التصرفات وكأن الحرب التي تعيشها المدينة غير

كافية لتظهر معاناة الحلبيين، ليشاهد الزوار مثالاً مصغراً وحيذاً عن الأزمة التي تعيشها المدينة بواسطة "جومارتية" الميرديان. والغريب أن مدير الفندق ينفي وقوع أي حادث. وذلك بالرغم من أن الملهى الليلي في الفندق أغلق لعدة أيام بالتزامن مع وجود وفد وزاري وحزبي منذ حوالي 10 أيام، وذلك خوفاً من وقوع أي اشتباكات ليلية داخل الملهى.

...

-3-

في الصباح كان معتصم ينتظره في بهو الفندق ليرافقه إلى مقر جريدة الجماهير حيث كان يعمل كمال.

طوال الطريق راح يشرح له الأماكن التي يمرّان بها:

- نزلة أدونيس.. هنا كافيتريا جميل وقديم سمّي بهذا الاسم. لكن، كما تعرف، بدا أدونيس الشاعر الحداثي نذلاً حين انطلقت الثورة السورية. استيقظ فيه الإحساس الطائفي البغيض وأيّد الطغيان بدلاً من الوقوف إلى جانب الشعب المظلوم. انظر إلى هذا المكان الذي تحجبه البسطات المتناثرة، إنه محل سحسول للحلويات، وقد سمّى الناس موقف الباص

باسمه. مشهور بمناسف الخروف المحشي بالأرز والمكسرات. هناك ماركات مهمة للحلويات بحلب: مستت باب الفرج - طرابيشي السبع بحرات- طرقجي التلل وسبع بحرات - دياب نزلة السليمانية وجانب فندق بلانيت- سلورة الجميلية والعزيزية والسليمانية وبعدين الخالدية. وكان هناك حلويات ابو العبد في محطة بغداد، توفي في الشارقة رحمه الله.

الذي يهمك من هذا كله حلويات فرنسية لصاحبها محمود بادنجكي وأخوته، أمام جامع الصدّيق في الجميلية، وصاحبها محمود كان صديقاً لكمال، ويعرف عنه الكثير، وآخر معلوماتي عنه أنه كان في منبج وسمعت أنه سافر إلى تركيا.

يتابع معتصم شرح الأماكن التي يمرّان بها:

- هنا شارع خير الدين الأسدي صاحب الموسوعة الشهيرة، موسوعة حلب المقارنة.

قاطعه شهم:

- نعم أعرفها في سبعة مجلدات، استغرق في إعداها ثلاثين عاماً بيده الوحيدة، وقد أصدرتها جمعية العاديات رقمية أيضاً، مؤخّراً، ولم يتسنّ لصاحبها أن

يراها حتى ورقية. وفيما أعلم أنه توفي فقيراً ولم تُعِره الدولة أي أهمية.

قال معتصم:

- نعم. كانت وفاته مأساوية، حضرت سيارة بيك آب من دائرة الدفن، وُضعت فيها الجثة بلا تابوت، واتّجهت إلى مقبرة الصالحين، فدفنه حفّار القبور في ممر بين قبرين. وعادت السيارة من حيث أتت ولم تنتظر أن يُدْفَن. هكذا حُمِلَ الأسدي إلى مثواه الأخير وحيداً غريباً، بلا جنازة ولا مشيعين في تربة المدينة التي عشقها وخلّدها بتآليف ما خُلِّدَتْ بمثلها مدينة من قبل. لم يجد مساحة مترين تكون له قبراً تهدأ فيه عظامه!!. وقد كان نائباً لرئيس جمعية العاديات التي غدا بعده فيها كمال عضو مجلس إدارة، ولابدّ أن نزورها قريباً لتعرف أخباره من هناك أيضاً.

بعد لحظة صمت، وهما يتجاوزان الشارع، استأنف معتصم دلالته في الطرقات:

- شارع الأسدي هو الشارع الذي نجد عبره فرن الرازي الشهير.

يبسط ساعده على امتداده ويشير بيده: - هناك. وجامع السلام بعده، ونصل من الطرف الآخر إلى الإذاعة وطلعة الزبدية. لكنّ طريقنا نحن هو العبور تحت جسر الإنشاءات، نصل بعده إلى مبنى الإنشاءات العسكرية الملاصق لمبنى المخابرات الجوية القديم قبل نقله إلى حلب الجديدة، حيث اعتقل كمال. بعده نمرّ بالاسماعيلية ثم إعدادية الأمين فثانوية المأمون الشهيرة، التي كتب عنها كمال مرّة واصفاً إياها بأنها مصنع العظماء. ثم نصل إلى شارع اسكندرون، من خلال التفافنا إلى اليسار، عند مقر جمعية العاديات، بدلاً من المرور بحديقة جمال عبد الناصر وباب الجنان ثم باب الفرج.

شارع اسكندرون، الذي تراه ميتاً الآن، ومرتعاً لبعض البسطات التي تعلوها القذارة كما ترى، كان غارقاً في الحيوية من خلال المحلات المترامية على طرفيه: المكتبات، تجليد الكتب، الكومبيوترات، أجهزة الموبايل، اللوحات.

هنا، في المنتصف تماماً، في الزاوية اليسرى محل المصور ديكران.

كان أمامه نصب الطلبة الشهداء، لوحة مرمرية وقصة بطولة، هنا بين محليّ فلافل "النزهة" وفطائر "الرضوان" المقابلان لمحل المصور "ديكران"، لم تعد توجد الآن سوى هذه اللوحة التي تراها معلّقة فوق براد للماء، كتب عليها "هنا صرع رصاص الاستعمار الطالبين الشهيدين "أحمد القدسي"، و"عبد العزيز حاووط".

سأل شهم:

– لماذا سمّي هذا الشارع بهذا الاسم؟

– افتتح شارع اسكندرون عام (1883)، بعد سنة على إنشاء حي الجميلية الذي نسب اسمه إلى اسم الوالي جميل باشا. سمي الشارع بهذا الاسم لكونه بداية الطريق إلى مدينة اسكندرونة.

أمسك معتصم ساعد شهم بكفه قائلاً:

– دعنا نمرّ من هنا. انظر إلى هذه اللافتة في عرض الشارع: فلافيلو مع الأسد للأبد. بائع الفلافل هذا، منذ اليوم الأول لاندلاع الثورة، اختار ممارسة التشبيح ترويجاً لبضاعته، وكي يغطّي على مخالفاته الصحيّة والتنظيميّة المتعددة. إنه يستخدم كامل الرصيف لوضع معدّاته، ويحتلّ جزءاً من الشارع

الجـانبي. وبكـل تأكيـد يعفـي نفسـه مـن ضـرائب الدعاية واللافتات التي تشوّه الشارع وتحتوي عبارات تراعي كلّ مناسبات النفاق.

هنـا على اليمـين صـالة الأسـد الرياضية الـتي انطلقـت منها السياسة الإعلامية لاحتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسـلامية عـام (2006) وكـان كمـال يـديرها. سمّاهـا الثـوار، بعـد مظـاهرات بركـان حلـب، الصـالة الوطنيـة. بعدها البريـد. ومـن هنـا كـان كمـال يحصـل علـى مجلاتـه وصحفه الـتي ينشر فيهـا خـارج سوريا، وتترافق، أحيانـاً، بشـيكات المكافـأة. كـان يمـرّ يوميـاً، ثم صـار مـروره كـل أسبوع. بعد انتشار الانترنت والموبايلات، صار صندوق رسائله في البريد شبه مهجور، ومع ذلك استمرّ في دفع الرسوم السنوية لحجزه.

هذه الساحة أمامنا هي ساحة سعد الله الجابري التي طالما حاول المتظاهرون التمركز فيها دون جدوى. يدرك الأمـن في حلـب مـدى خطـورة تمكّـن المتظـاهرين مـن احتلالها، لذلك تراها دائماً، كما الآن، محصّنة بالحواجز ومحاطة بالأمن والشبيحة وكتائب حفظ النظام.

هـذه علـى اليسـار هـي الحديقـة العامـة. أكـبر حديقـة في حلـب وتمتـد حـتى محطـة القطـار، محطـة بغـداد. هنـا

أمامنا بقايا الفندق السياحي على الطرف الأيسر من شارع القوتلي.

هنا، من شرفة الفندق المطلّ على ساحة الجابري، أذكر أن مفتي حلب، آنذاك، أحمد حسون، وقف إلى جانب المحافظ، الذي غدا رئيساً للوزراء، مصطفى ميرو، وراحا يمجّدان الأسد بطريقة طلائعية تدعو إلى القرف وهما يلوّحان بأيديهما كمهرجَين فاشلين. وحسّون ينتف شعرات وهميّة من وجنته.

في الطرف الأيمن كان مقهى جحا الذي يروده المثقفون قبل تفجيره. في منتصف الشارع بنك الدم، وفوقه كان مكتب المحامي تيسير قاسمو رحمه الله، كان صديقاً لكمال، حتى أنه حين صدر كتاب "طبائع الاستبداد" للكواكبي، كتاب في جريدة، اشترى تيسير عشرين نسخة خصّ منها كمال بعشر نسخ، فهو يعرف مدى اهتمامه بمكافحة الاستبداد. مسكين مات قهراً.

كان يزور مكتبة الثقافة لأصحابها بيت لحموني يومياً ليحصل على الكتب الجديدة، كما كان زبوناً دائماً لبراكة بائع الصحف المتميّز الذي يختار العناوين المهمة لكل صحيفة ويبرزها في لافتات أنيقة بحجم مناسب.

بعد قراءة الصحف يصنّفها ويجمعها كل شهر في صرّة يضعها على القسم العلوي من رفوف مكتبته الضخمة.

يعرف كل المحامين وأصحاب الدعاوى مدى سلاطة لسان تيسير، الذي يتذمّر، كل يوم، جهراً. يقف في وسط القصر العدلي ليشتم الحكومة وقراراتها، ويشتم القضاة المرتشين. وأخيراً، كما كان متوقّعاً، مات بالسكتة القلبية.

غذّا السير باتّجاه العبّارة. في الزاوية حلويات الأفراح.

عاد ليشير:

- في الشارع الضيّق، في هذا الزقاق مقهى الثقافة الإسلامية لصاحبه المحامي محمود حمام، هو في تركيا الآن. وكما ترى المقهى مغلق. كان هذا المقهى مجمع الكتاب والمحامين ومنسقي المظاهرات بحلب في بداية الثورة.

قاطعه شهم:

- نعم التقيت الأستاذ حمام في عنتاب.

حين وصلا إلى تقاطع شارع "القوتلي" مع "شارع بارون"، أشار إلى الفندق:

- هـذا فنـدق بـارون الشـهير. علـى كتـف الفنـدق مجموعة من المحلات المتخصصة في بيع قطع تبديل السيارات، والإطارات، والمولدات الكهربائية، وبعض المطاعم.

دعـاه إلى تنـاول كـوب مـن العصير عنـد أحـد باعـة العصائر الطازجة هناك، وتابع الشرح:

- هنا، في الوسط تقريباً، كما ترى محلات" طوربجية"* واحد منها كان لبيت النعسان.

أشار بيده:

- هنا حيث توفي زوج ابنة د. كمال، عمّار نعسان، توفي هو ووالده، وأصيب أخواه وبعض الزبائن إثر قذيفة سقطت على محلهم. خلّف عمار وراءه ثلاثة أولاد، بينهم توأم. أكبرهم عمرها ثلاث سنوات.

قفـلا عائـدين إلى شـارع بـارون. مـرّا بمجموعـة مـن السينامات حتى وصلا إلى ناصية الشارع:

- هنا كانت سينما فؤاد، سابقاً، وجرى لغط كبير حولها قبل هدمها منذ عشرين سنة، وحتى الآن لم يقم أي بناء مكانها.

* تصنيع قطع التبديل بالمخرطة.

في الجهة المقابلة هذه سينما حلب، خلفها مباشرة نصل إلى منطقة العبّارة، وهي معروفة باسم عبارة سينما حلب تمييزاً لها عن العبارات المنتشرة في المحيط. الشارع فيه محلات لبيع الألبسة والأدوات الكهربائية والحقائب. هنا كان مطعم سيروب، لو أنه كما كان كنت دعوتك إلى صندويش خاروف فاخر، لكنّ كل شيء تغيّر اليوم.

يتوقّف معتصم. يشير على امتداد يده إلى لافتة في الطابق الأول من مبنى مهترىء:

– هنا مكاتب جريدة الجماهير. أتركك الآن وأراك بعد الظهر. لاأعرف من بقي هناك حتى الآن، لكنني أعرف أن علاقة كمال كانت جيدة مع أمين التحرير السابق محمد الراشد، وأم علاء التي تعمل بالتنضيد، وإبراهيم داوود الذي يعمل في إخراج الجريدة.

وقف يتأمّل لحظة محاولاً أن يتذكّر أسماء أخرى. أغمض عينيه. وضع كفّ يده اليسرى على صدغه. أسبل. فتح عينيه. قرّب فمه من أذنه، وهمس:

– دقّق في ماتقوله مونيكا إذا صادفتها في الجريدة. يندرج في تلافيف دماغها أنّها من الأقليّات، وأن خلاصها يكمن في التزام خطّ النفاق، والحفاظ على

نظام الأسد حامي الأقليّات في مواجهة العرب المسلمين الذين يتطلّعون إلى حيازتها من ضمن السبايا.

غمغم قبل أن يودّعه:

- آه كم تغيّرت حلب. الطريق هو هو إلى شارع بارون باستثناء الوجوم الذي تراه على الوجوه والأرصفة، وترى الكثير من النساء والأجهزة والمتحولين وقلة قليلة من الشباب. وترى بقايا حفر وتراكم الأوساخ، وترى عند فرن الرازي بائعي الخبز في الشوارع، وبعد الفرن سوف تدهش إذا دخلت حديقة الرازي لا ترى اطفالاً بل نوعيات من المنحرفين رجالاً ونساءً أصحاب اليانصيب والخمر والمتسكعين. وفي الطريق إلى الحديقة العامة تصطدم بالحواجز وانت داخل إلى الحديقة التي تستوعب جلّ البشر على مختلف مشاربهم، تجدها قد خسرت الكثير من مساحتها وخصائصها.

جريدة الجماهير

همّ شهم كي يصعد درج البناء المؤدّي إلى مدخل الجريدة. انتبه، كما قال له معتصم، من الدرجات المتآكلة، وهو يسمع لغطاً بين اثنين واقفين على الدرجة الخامسة، أحدهما، مستنداً إلى الجدار، يخبر زميله عن براميل سقطت على معبر بستان القصر، وسقوط عشرات القتلى. سألهما عن مقر الجريدة فأشارا له إلى الباب.

قرع الجرس. فتح له الحارس وبدأ باستجواب على الباب. كان حريصاً على ألاّ يذكر اسم كمال، فقد قال له معتصم أن (صوفته حمراء) عند المسؤولين في الجريدة منذ كان يعمل معهم، وأنهم كانوا يقبلونه على مضض. كل الأسماء التي ذكرها أمام حارس الجريدة تبيّن، إما أنها تركت العمل، أو انتقلت إلى مكان آخر، باستثناء أم علاء. سمح له الحارس بالدخول بعد الحصول على هويته.

رائحة العفن لجمته وهو يراقب الأوراق المعلّقة بشكل عشوائي على الجدران المهترئة، وفيها تعليمات تحذيرية

وتوجيهية، وأسهم تدلّ على اختصاصات الغرف، وعلى غرف رئيس التحرير، وأمين التحرير والأقسام.

يتابع مسيره وتلفت انتباهه كثرة الأوامر الإدارية المعلّقة على كل الجدران.. وعلى باب كل غرفة ملصق يقول: ممنوع الدخول لمن ليس له عمل. لكن الذي أدهشه حين وصل إلى المرحاض أن المنع وصل حتى إلى هذا المكان، وتساءل: تُرى من الذي يمكن أن يدخل إلى هذا المكان دونما حاجة؟!

دفع الباب وهو يتابع قراءة الأمر الإداري ففوجئ باصطدامه بشيء ما، ثم سمع صوت نحنحة وسعال مفتعل، ورأى رجلاً قصير القامة متجهاً صوب الحائط يبول. فتراجع بحركة سريعة ولم يعرف أن الذي يتنحنح هو رئيس التحرير. شعر بالقرف.

عاد إلى الممر من غير أن يقضي حاجته. لمح في إحدى الغرف سيدة محجبة تعكف على التنضيد، دخل مسلّماً. سمع جوابها من غير أن تلتفت إليه. تحلّق حوله مجموعة أشخاص حين عرفوا أنه يسأل عن كمال.

الاتصالات على قدم وساق، داخل الجريدة وخارجها، للتبليغ عن الدخيل لمعرفة ماالذي يريده. مثل هذه

الإجـراءات تعرفهـا أم عـلاء، لـذلك كـان الحـديث عاديـاً وعـابراً، حاولـت أن تتخللـه الطرفـة، لـذلك أشـارت لـه إلى كرسي مربوط بجنزير وموضوع عليه قفل كبير، قالت له:

– هذا كرسي الدكتور كمال، له ارتفاع محدّد. كل يوم يأتي صباحاً ويجد أحداً قد استعاره إلى غرفة أخرى، لـذلك وضـع لـه هـذا الجنزيـر الكبـير والقفـل الضـخم اللـذين كانـا متـوافرين عنـد الحـارس آنـذاك. انتقـل الدكتور كمال، وترك الحارس العمل منذ فترة طويلة، وفقدنا مفتاح القفل، لذلك تجده كما هو.

ابتسمت ابتسامة عريضة وأكملت:

– حـين زار الجريـدة وزيـر الإعـلام الأسـبق، ومحـافظ حلـب، لفـت نظرهمـا الكرسـي المعتقـل وعلّقـا عليـه، ووعدا بتحديث تجهيز مفروشات الجريدة.

صمتت برهةً. استجمعت جرأتها وهي تنظر حولها كمن يطلق قذيفة، وقالت:

– وهاد وجه الضيف.

قدّمت لـه فنجـان القهـوة. لاحـظ وجـود ورقـة مطويـة بـين الفنجـان والطبـق، مـع أن الفنجـان غـير ممتلـيء، ومـن غـير

المحتمل أن يطفح فينسكب شيئاً من القهوة على الطبق. أدرك أنه "لأمرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه".

في لحظة مباغتة دسّ الورقة في جيبه واستأذن بالانصراف. اضطر إلى قبول دعوة رئيس التحرير لشرب الشاي. بالتأكيد لم يدعُهُ حبّاً به ولاإعجاباً بكمال، إنما، وكجزء من مهمته، أراد معرفة سرّ الزيارة. ولكن هيهات أن يحصل من شهم على شيء. عرّفه بنفسه أنه صاحب دار نشر، وأوهمه بأنه يسأل عن كمال ليعطيه مبلغاً صغيراً من المال، حصّته من ريع أحد كتبه المنشورة في الدار. وهكذا مرّت الزيارة الغليظة بسلام.

على الكرسي الحجري أمام جامع العبّارة، فتح الورقة ليجد فيها رقم هاتف. تبادل رسائل الوتس أب مع صاحبة الرقم، أم علاء، وعرف أنها تنهي عملها في الرابعة عصراً. تواعدا على اللقاء في مدخل الدرج الوحيد للحديقة العامّة.

بعد أن حكى لها أنه يبحث عن كمال وعن بقية مذكراته، وبعد أن اطمأنت إليه، عرف، في اللقاء، أن كمال أودع لديها بضع صفحات مكتوبة بخط اليد لتقوم بتنضيدها على الكومبيوتر، ووعدته بإرسالها إليه. وحكت

له حكاية فترة عمل كمال بالجريدة. وكيف كان في صدام دائم مع رئيس التحرير، وهذا يعني أيضاً صداماً مع بعض المحررين الذين لايهنأ عيشهم إلا بالنفاق. يحابون الإدارة من خلال عداء خفي للدكتور. أستطيع أن أفهم ذلك، بسبب التفاوت الكبير بينه وبينهم. ثقافتهم تكاد تكون منعدمة. يعملون بمهنة تجلب الرزق. يحرصون على رضا الحزب والإدارة والمسؤولين، ويشيعون التوتّر والخوف كلّما تحركوا. على عكس الدكتور تماماً. يمج الحزب والمتحزبين. يعمل بحب. حين يدخل الجريدة تضجّ بالحركة والنقاشات وتمتلئ حيوية.

حين طال بهما الحديث انتقلا إلى بهو الفندق السياحي. مع أول رشفة قهوة اسبريسو، فركت كفّيها ببعضهما واستأنفت الحديث:

- لم يكن غريباً أن تحاول مونيكا التقرّب من كمال. هي أيضاً تعمل معنا في الصحيفة. لكنّه حين صدّها، انضمّت إلى قافلة المعادين، حتى أنها كتبت فيه تقريراً لاتحاد الصحفيين بأنه معارض للسلطة القائمة، ويعادي الحزب. وأضاف رئيس التحرير للتقرير بأن الدكتور من جماعة المجتمع المدني. حين جاءت لجنة من اتحاد الصحفيين بدمشق للتحقيق

في موضـوع التقريـر، اكتفـى المجتمعـون مـع الـدكتور بإطلاق ابتسامات ساخرة من سخافة ماأشيع.

وضعت أم علاء كفّها على صدغها. أغمضت برهة. فوجيء شهم عندما سمعها تتمتم بهمس:

– الدكتور رائع. لهذا عندما دعاني للعمل معه في جمعية العاديات، استجبت فوراً. كانت من أجمل الأيام. مع ذلك، هناك أيضاً صراع من نوع آخر. الإدارات هي هي أينما ذهبنا. سأعطيك رقم (أبو جميل) محاسب الجمعية ليحدثك عن تفاصيل. ربما هناك تجد قسماً آخر من يوميات الدكتور.

فكّرت برهةً ثم قالت:

– هناك أيضاً يمان الذي عمل معه فترة من الوقت، وتجد عنده معلومات عنه وعن الجمعية.

وهو يخرج من باب الفندق مغادراً، سمع صوتاً خلفه يناديه. قالت له:

– تذكّرت لجين. قد تفيدك أيضاً. هي رسامة تجدها في نقابة الفنانين التشكيليين. كان تزور الدكتور في الجريدة بين فينة وأخرى. وهي من متابعي أعماله.

العاديّات

-1-

حـان موعـد لقـاء معتصـم. هاتَفـه واتفقـا أن يلتقيـا في جمعية العاديات.

استهوت شـهم تلـك الرحلـة مركّبـة المخـاطر والمعـارف والاستكشافات.

مدينة حلب التي تحكى عنها الأساطير في الأدب والفن والتصوّف. لعراقتها كأقدم مدينة مأهولة في التـاريخ، ألـف حكايـة وحكايـة. لقلعتهـا الشـامخة الـتي استعصت على الغـازين، حجـارة ناطقـة. لسـوقها الفريـد الـذي يعـدّ أكـبر سوق مسقوف في العالم، وشوشات تملأ الذاكرة. لمطبخها وسحر مأكولاتها أفانين تقصر المجلدات عن وصفها.

يكفي أن ابن العديم في كتابه الوصلة إلى الحبيب يصف عشرات الطرق لطبخ الدجاج.

والمعري في رسالة الغفران يقول إن الله تعالى اختار طباخي الجنة من حلب. كما أن سمعة تجّارها وصنّاعها بلغت العنان.

يضاف إلى متعة هذه الرحلة التي تبهره كطفل يدخل مدينة الألعاب لأوّل مرة، تحفيز الفضول الذي يأكله لمعرفة تفاصيل حياة كمال وماأدى به إلى زنازين الاعتقال، وماذا كتب عن ذلك في يومياته.

حين وصل شهم إلى منتصف الجميلية وجد تقاطع شارع اسكندرون. طوال الطريق تبدت له الفنون المعمارية التي تتوجت بمبنى الجمعية الذي يتصدّر الشارع.

. ...

–2–

الجمعية خاوية باستثناء شخص عرّف عن نفسه بأنه (أبو جميل) المحاسب واللوجستي فيها. وكالعادة، كان سريع الاستجابة، ويطلق إجاباته رشّاً بدون توقّف:

– نعم، صحيح. بعض الناس يربطون الجمعية بالماسونية. السبب الاساسي أن هناك ثلاثة أعضاء

من الذين أسسوا الجمعيه كانوا من رموز الماسونية في حلب. لكنّ هذا كان في الماضي ولاعلاقة للجمعية به. لقد تأخّر الدكتور كمال في الانتساب للجمعية لأن أحد زملائه من مدرّسي جامعة حلب قال له بأن أسماء أعضاء الجمعية ترسل كل عام إلى محفل الماسونية بحيث يتم ضم جميع أعضاء الجمعية اليها. لكن الدكتور زار الجمعية مستفسراً، وحضر بعض النشاطات فيها وشارك في بعض الرحلات التي تقوم بها. بعد أن اطمئن، انتسب إليها. بعد سنوات خاض الانتخابات، وغدا عضو مجلس الإدارة فيها.

قدّم أبو جميل فنجان الشاي لشهم وهو يتابع:

- على كل حال الماسونية في ذلك الوقت لم تكن شيئاً منفّراً. جمعية تنادي بالحرية والإخاء والمساواه والسلام، وهي شعارات جاذبة، لذلك انضم إليها كثير من رجال عصر النهضة العرب، وعندما تبيّنت لهم حقيقتها وعرفوا أنها سرية أو أنها قد تحيك المؤامرات، انسحبو منها واحداً تلو الآخر.

تلكّأ أبو جميل قليلاً ثم تابع كمن اكتشف برهاناً لايُدحض:

- سأقول لك شيئاً: كان الدكتور كمال يعمل في جريدة الجماهير وعانى كثيراً. مشاحنات دائمة مع المسؤولين، وصبر طويلاً. وبما أنه في مجلس الإدارة بالجمعية، فإذا كان الأعضاء ماسونيين، كان ارتاح من تلك المشكلات وصار هو رئيس التحرير، لأننا نعرف أن الماسونية تضع أعضاءها في أعلى المناصب لتستفيد منهم.

أمسك أبو جميل ساعد شهم بكفّه.. هزّها وهو يقول:

- الدكتور تحدّث مرّة، في محاضرة له هنا، عن الماسونية وقال إنها شيء وهمي في العصر الحديث. فهي ليست كما توصف بأنها قادرة على تحريك العالم. هي الآن مجرد فكرة وهمية لاعلاقة لها بالواقع.

في هذه الأثناء حضر يمان الذي اتصل به أبو جميل بناءً على طلب شهم. وماهي إلاّ ثوانٍ حتى تبعه معتصم، وغدا الحديث جماعياً.

عرّف يمان بنفسه:

- كانت مسؤوليتي في الجمعية هي الأمور التقنية المتعلقة بأجهزة الكومبيوتر. عملت فترة مع الدكتور،

ومن خلال عملنا معاً صار يتقن الكثير من الأمور المتعلقة بالأجهزة والبرامج اللازمة لعمله.

خرجنا معاً في رحلات أسبوعية تنظّمها الجمعية إلى الأماكن الأثرية في مدينه حلب، وشهرية إلى المحافظات الأخرى، وأيضاً تنظّم كل عام رحلة إلى خارج سوريا للتعرف إلى المعالم الأثرية الموجوده في العالم.

مقر الجمعية كما ترى هو مبنى أثري قديم. كان في البدايه مديرية التربية ثم أصبح مدرسة ثم أصبح مقرّاً للجمعية، وهو من أملاك اليهود. تدفع الجمعية الآجار سنوياً إلى الفلسطينيين.

رغب معتصم أن يشرح يمان لشهم أكثر عن الجمعية، فقال:

- جمعية العاديّات هي جمعية أهلية تعنى بالتراث العمراني والآثاري واللامادي في سوريا، تأسست في مدينة حلب عام 1924 م بهدف حماية قلعة حلب ومن ثم استمرت كجمعية هدفها الأساسي هو المحافظة على التراث.

بدأت الجمعية في البداية باسم «جمعية أصدقاء القلعة والمتحف». السبب المباشر لنشوئها ما حدث أثناء الانتداب الفرنسي. آنذاك، تمركزت حامية فرنسية ضمن قلعة حلب، وقد قام رئيسها بفك محراب موجود في جامع إبراهيم الخليل داخل القلعة، وهو محراب يعود إلى الفترة الزنكية والذي يُعتبر آية فريدة في الجمال، حيث لا يوجد سوى محراب واحد في العالم شبيه له لا يزال حتى الآن موجوداً في المدرسة الحلويّة.

نتيجة لهذه السرقة، قام جمعٌ من المثقفين في المدينة من مختلف الخلفيات السياسية والاجتماعية بتأسيس جمعية هدفها صيانة الآثار والأوابد الأثرية والتعامل مع التراث، وكان لها مساهمة في إنشاء متحف حلب. وتمّت تسميتها بـ«جمعية العاديَّات»، حيث هذه الياء للنسبة، فمفرد كلمة «عاديّات» هي «عاديّ»، والتي تعبر عن ما ينتسب إلى «عاد» أي الموغل في القدم.

كان المؤسسون الأوائل من مختلف الجهات والاتجاهات، يمثلون التنوع الثقافي والاجتماعي في حلب، فكانت الجمعية تضم شيوخاً وعلماء كبار مثل الشيخ راغب الطباخ والشيخ كامل الغزي والمؤرخ خير الدين الأسدي، كما كانت تضم أباءً مثل الأب

جبرائيل رباط، بالإضافة إلى أناس مثل أدولف بوخا - المواطن النمساوي الذي استقرت عائلته في سوريا.

قامت الجمعية، خلال السنوات الماضية، بالدفاع عن التراث العمراني في سوريا. وقد سُجل للجمعية الوقوف في وجه المشروع الذي كان يهدف إلى إزالة السور وتغطية الأوابد الأثرية في منطقة «باب الفرج» في حلب في أواخر القرن العشرين، حيث تدخّلت الجمعية وأوقفت المشروع ومن ثم تمّ تسمية حلب القديمة كجزء من التراث العالمي من قبل منظمة اليونسكو.

حين استأذن أبو جميل ليغيب دقائق كي يجلب صور الرحلة السابقة من عند "ديكران"، عدّل يمان جلسته وقال:

- تركت العمل في الجمعية منذ زمن طويل، بسبب اضطراب دفع الراتب، لكنني جئت الآن بناءً على اتصالكم لأنني أقدّر الدكتور.

أشعل لفافته. رفع رأسه عالياً متطلّعاً إلى السقف وهو ينفث الدخان، وزّع نظره بين شهم ومعتصم ثم قال:

- فهمت أنكم تريدون كتابة دراسة عن الدكتور، أو شيئاً من هذا القبيل.

نظر إلى الباب، قرّب كرسيّه من شهم ثم تابع:

- سأقول لكم ماأعرفه قبل أن يأتي أحد. رئيس الجمعية، مثل كل المؤسسات في سوريا، يحاول دائماً أن يسيطر على الأمور، وأن تكون كل الأمور المالية وغير المالية في يده. أن يكون وحده البارز في الجمعية. أعضاء مجلس الإدارة مستكينون. عندما لاحظ أن الدكتور بدأ نجمه يصعد، فهو يدير النشاط الثقافي في الجمعية ويشرف على المكتبة، ويدير مجلة العاديات، صار يخاف منه. للدكتور طاقة عجيبة على العمل، يتابع كل شيء يختص به. يقرأ المقالات ويختار المناسب منها للنشر، ويسهر مع المنضدين ومع مخرج المجلة أياماً كثيرة، حتى يطمئن إلى العمل بأفضل شكل ممكن. يعني قد تجيء انتخابات ويستلم رئيساً للجمعية، لذلك بدأ يحاربه بشكل خفي.

توقّف يمان بشكل مفاجيء، ثم قال:

- مالنا وهذا الكلام. في الواقع أنا لم أر الدكتور منذ سنوات إلاّ في المقهى بشكل عابر وسريع. بعد أن تركت ترك هو أيضاً الجمعية وانشغل بين تأليف

كتبه، وأعماله الأخرى. لم أسمع باليوميات التي تتحدثون عنها، ربما أم علاء تعرف شيئاً عنها، فقد نضدت له بعض كتبه على الحاسوب. وقد يفيدكم صديقه الدكتور سراب، الذي كان معه في جمعية العاديّات.

...

-3-

كان صدفةً لقاء شهم ب "لجين". وهو يمرّ بالجميلية، أمام مبنى مديرية الصحة، لمح لوحة: "مرسم سعود غنايمي". ألقى نظرة إلى الداخل فلمح يمان الذي دعاه للولوج. دلف هابطاً بضع درجات، ليجد نفسه في مكان شبه أثري. كأنه كهف مرصّع بالحجارة النافرة القديمة. الجدران مزدانة بلوحات. تتوسط المكان طاولة واطئة يجلس حولها يمان وشابّ آخر بينهما فتاة. عرّفه يمان بهما:

- حسام الفنان ابن المرحوم سعود عنايمي، والرسامة المبدعة لجين.

لم ينتظر طويلاً حتى شرح لهم سبب زيارته لحلب، ورجاءه بأن يجد معلومات لديهم عن كمال، مشيراً إلى أن يمان زوّده بشيء مفيد. قال حسام:

- نعم نعرفه، ومن لايعرفه؟ كان يزور المعرض مع كل جديد، لكنني أعتقد أن يمان والسيدة لجين يعرفانه أكثر. بما أنك تحدّثت إلى يمان. اسمح لي أن أنهي عملاً بدأته معه، ولجين تزوّدك بما تعرف.

دخل يمان وحسام إلى الردهة. راحت لجين تحدّق في فنجان النسكافيه أمامها.

...

(في أول لقاء لها بكمال في مكتبه بجريدة الجماهير، رجته أن يسمح لها بتقبيل يده. دلفت إلى مبنى الجريدة في الصباح الباكر، لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف، ولم يكن في المبنى كلّه سوى كمال والمستخدم والحارس. بيّنت له سبب الزيارة أنها تريد الحصول على عدد قديم من الجريدة، نقد فيه إحدى لوحاتها المشاركة في المعرض. كان نقداً قاسياً بعض الشيء، لكنّها لم تبدِ امتعاضاً مما كتب، بل قالت له:

– أشكرك على نقدك الذي نبّهني إلى إشارات كانت غائبة عنّي في اللوحة. لقد أعدت رسمها من جديد فصارت تحمل أبعاداً أكثر من ذي قبل بكثير، وكسرت المباشرة فيها.

ثم تحدّثت مطوّلاً عن إعجابها بكتاباته الجريئة التي تلتفّ على القاريء، مايجبره على قراءتها غير مرّة، ليدرك ماتريد أن تقوله بين السطور.

وضع المستخدم فنجان القهوة أمامها، واستدار متّجهاً نحو الباب. لاحقته بعينيها. حين اطمأنّت أنّه صار بعيداً، التفتت إلى كمال. وقفت. انحنت باتّجاهه نصف انحناءة كي تصل إلى يده وهو وراء طاولته. أخذت يده بين يديها. رفعتها إلى شفتيها وهي تقول:

– اسمح لي بتقبيل الأنامل التي تبدع تلك الحروف.

سرت رعشة في جسمه. دفعه الذهول إلى ردّة فعل لاتقلّ مفاجأة عمّا فعلته. ألقى نظرة خاطفة على الباب، وضع كفّيه على وجنتيها، وباغتها بقبلة خاطفة على خدّها الأيمن. جلسا، بعدها، بصمت، تاركين إكمال الحوار للعيون).

....

قطع صوتُ شهم شرودَها:

- أنتظرك سيدتي.

- كنت أرى الدكتور كمال من بعيد، حين أزور الجريدة لأزوّدها بصور بعض لوحاتي، أو في جولات العاديات ونشاطاتها، أو في معارض الرسم التي يحضرها. رأيته آخر مرّة، بشكل عابر أيضاً، في نهاية لقائي مع الدكتور سراب في مقهى كليّة الآداب.

حين أنهت الجملة الأخيرة شعّ من عينيها وهجٌ. تلمّظت الحروف وهي تقول:

- كان هو والدكتور سراب على علاقة وطيدة. بينهما مشتركات كثيرة، في الجريدة، وفي العاديات، وفي الإعداد للمظاهرات في بدايات انطلاق الثورة.

تلكّأت هنيهة، ثم أردفت، بأسىً:

- على حدّ علمي أنهما اعتُقلا معاً. لاشكّ أنك ستجد لديه معلومات كثيرة عنه.

مررت لسانها بين شفتيها بحركة خاطفة:

- الدكتور سراب الآن في الريحانية.

حاولت إخفاء ارتباكها بإخراجها ورقة وقلماً من حقيبتها وبدأت تكتب:

- إليك عنوانه.

شكرها ومضى لتبقى هي سارحةً في أفكارها بعيداً.

...

الفصل الثالث

حلب– شباط 2012

شرارة العصيان

-1-

كانت تدخل إلى صفحته على الفيسبوك. تعلّق باقتضاب، وتراسله بخجل وارتباك، راجية منه أن يساعدها في الانضمام إلى قافلة المتظاهرين أو العاملين بتوزيع الإغاثة على المحتاجين.

بعد شهر من التلصص على مايقوم به عبر وسائل التواصل المختلفة استطاعت أن تحظى منه بموعد في مكان عام.

هي تعرفه منذ وقت طويل. إنها مولعة بالتراث والآثار ويستهويها كل ماهو قديم. كانت تتردد على جمعية

العاديات وتستمع إلى محاضراته وإلى الندوات التي يشارك فيها.

كما كان يتولى الشرح في بعض جولات أعضاء الجمعية في حواري وخانات ومساجد حلب القديمة.

أما هو فلم يكن يعرفها إلا من خلال الصورة الشخصية(البروفايل) المنشورة على الفيسبوك.

جلس ينتظرها في مقهى كليّة الآداب. وكالعادة، التقى به بعض معارفه فجلسوا إليه. عيناه ترصدان باب المقهى مترقّباً إطلالتها. شرح للجالسين إليه أنه بانتظار فتاة تريد أن تلتقي به لتنضمّ إلى ناشطي الثورة، وطلب إليهم أن يغادروا طاولته حين وصولها، كي لاتتحرج من الحديث أمام آخرين.

حذّره بعضهم من أنها قد تكون مدسوسة من الفروع الأمنية كي تكشف المتظاهرين.

في غمرة انهماكه بالحديث، سمع صوتاً ناعماً يخاطبه:

- دكتور سراب.. مرحباً.

فتاة ثلاثينية، رافقتها رائحة عطر (فينوس)، تحمل في يدها نظارة شمسية وحقيبة نسائية بدت كجلد النمر. وقف

ومدّ يده.. مدت يدها، بإحجام، مصافحةً وهي تهمس، بخجل:

- لجين.

سرت في أوصاله رعشةٌ تحمل الخِدر في طيّاتها، وهو يسمع مجالسيه على الطاولة يستأذنون مغادرين. جلست أمامه بقميصها المزهّر الذي يغلب عليه اللون الخمري. لم يستطع أن يتبيّن لون الجاكيت ولالون البنطال، لأنه انشغل بعينيها، وشعرها المنسدل على الكتفين، وفتحة القميص الذي بدا منه القليل من جيدها، وحجب، تماماً، إطلالة النهدين. حديثهما كان مبعثراً يشوبه الحذر. حاولت أن تشرح له عن عملها في الإغاثة، بإيصال المساعدات إلى حمص التي بلغت التظاهرات فيها أوجها. تلفتّت حولها. مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منها، بحذر، سبحةً نُظمت حبّاتها بألوان علم الثورة، ناولته إيّاها:

- إنها من بعض مانشتغل فيه للثورة.

حين سألت عن كيفية الانضمام إلى نشاطات الثوار، أعطاها اسم شخص لتلتقي به في جامعة حلب وهو يشرح لها كيفية العمل ويزودها بمواعيد التظاهر، الذي كان

خجولاً، في حلب. بيّن لها أنها تستطيع المساهمة في إرشاد الوافدين، من حماه وحمص إلى مراكز الإيواء.

حين دخل كمال المقهى ازداد ارتباكها. سلّم عليهما قائلاً:

- اعذراني، لدي موعد مع الشباب، أجالسهم ثم أعود.

...

سراب رجل ممشوق القامة في أواسط الخمسينات، له ندبة في جبينه، وشامة على خدّه الأيسر. يوصف بأنه عالم آثار. يحاضر في قسم الآثار بجامعة حلب. عمل في المتحف وله أصدقاء هناك. يحمل دكتوراه في اللغات القديمة، وأصدقاؤه كثيرون في جمعية العاديات.

أما لجين، فقد كانت تشعر بالغربة. هجرهم أبوها. أمها تعيش في عالم آخر لايمكن أن تنتمي إليه. عالم نمطيّ، كل شيء عندها بحساب. أولادها صغار ينتمون إلى جيل مختلف. لهذا لجأت إلى العرّاب. حين شعرت بالغربة عنه، نتيجة الاختلافات الكبيرة بين آرائهما، لجأت إلى أسطورة تشكّلت في مخيلتها وتجسّدت في شخصية سراب الغامضة.

...

كان يشعر كلّ منهما بأنّه يسابق الزمان. علاقتهما تتسارع وكأنّهما يعرفان بعضهما منذ سنوات. لقاءٌ يتيم جمع بينهما، ثم تبعه لقاءان عابران أخرجا اللقاء الأول من تفرّده، وهاهما يحثّان الخطى لترتيب لقاءٍ جديد، سيبدو وكأنه للمرة الألف.

-2-

اتّفقا على اللقاء، عند الباب الخلفي لحديقة السبيل، قبيل المغرب مباشرةً. قالت له:

- أكون في سيارتي (تويوتا) حمراء. وأعرف سيارتك سيراتو بيضاء.

انطلق من حلب الجديدة وسط حركة مرور سلسة. الشوارع بدت خالية من المارة، والشمس على وشك الأفول. تجاوز دوّار (عمر أبو ريشة) ولمعت في ذهنه أبياته الشهيرة:

أمّـتي هـل لـك بـين الأمـمِ   منـــبرٌ للسـيـفِ أو للقلـمِ
أتلقّـــاك، وطـــرفي مطـــرق   خجـلاً مـن أمسـك المنصرمِ
ويكـاد الـدمع يهمـي عابثـاً   ببقايـــا.. كبريـــاء.. الألمِ
أمّـــتي كـــم صـــنمٍ مجّدتـــه   لم يكـن يحمـل طهـر الصـنمِ
لايُـلام الـذئب في عدوانــه   إن يـك الراعـي عـدوَّ الغـنمِ

دار حـول سـور الحديقـة. حلّقـت في ذهنـه ذكريـات منتزهات السبيل. السبيل حالة عشق لاتنتهي. كثيراً ماكان يزورهـا مـن الصباح البـاكر لممارسـة الرياضـة، والترويح عـن النفس، واستنشاق الهواء الصحي، شأن كثير من الحلبيين. ومن المؤكّد أنّ كثيراً من العائلات تصوّرت مع صنبور الماء الشـهير الـذي ينداح مـن فـم رأس الأسـد الحجـري القـابع تحت دَرَج أحـد مداخلها ضمن قنطرة جميلة مزخرفة. يترنّم وهـو يعـبر إلى الطـرف الثـاني: كيـف السـبيل الى وصـالك دلني؟

...

وصل إلى مكـان الموعـد، وجـدها بانتظـاره. قرّب سيّارته من سيّارتها كثيراً حتى كادتا تتلامسان. ابتسم حين تذكّر

وهو يركن سيارته: "وأحبّها وتحبّني ويحبّ ناقتها بعيري". لم تفارقه الابتسامة وهو يصعد إلى جانبها:

- مساءِ الخير، أين تريدين أن نذهب؟

- نذهب بجولة في سيارتي. المكان قريب من بيتي وأخشى أن يرانا أحد، إن بقينا هنا.

السيارة تجوب شوارع حلب، وأنامله تعزف لحناً عشوائياً على ركبتها فوق بنطال الجينز. عيناها تجوبان الطريق وتتوزعان، بين مرايا السيارة، ومن يجلس إلى جانبها، في حين كانت الشمس تشارف على المغيب، ويولد الليل من احتضارها.

تلك هي الساعة الخطرة. بعض الناس يحبّونها لأنّها تتميّز بشيء من السكينة، وتمنح النّفس بعض الهدوء. وآخرون يكرهون ساعة الأفول وكأنّها لحظة بدء القيامة. سألته:

- كيف ترى المساء؟

جالت في خاطره بضع كلمات عن المساء، باح بها:

- عندما يأتي المساء، أحسّ يا صديقتي بحاجةٍ عميقةٍ إلى البكاء.. على ذراعيك.. على دفاتري.

ضحكت.

– لماذا تضحكين؟

– لأن نزار قباني قال ذلك عن الشتاء، وليس عن المساء.

الحذر المشوب بالارتباك، بادٍ على طريقة لجين في قيادة السيارة. تحمل مشاعر متناقضة بين الاستسلام للخدر الذي يسري في أوصالها، من كفّ سراب التي تتحسس ركبتها، ومحاولتها ضبّ ساقيها كبتول خجولة.

ظهرُ كفّه تسترسل في إبعاد شعرها المرسل عن خدّها الأيمن، لتلامسه باستحياء.

بكلمات متقّطعة سريعة الإيقاع طلبت إليه أن يتركها تنتبه إلى الطريق، فالشارع مزدحم والناس يراقبون.

وهي تنثر الكلمات، تبعثرت ذاكرتها مع رغبة ملحّة لعناقه بعنف. كانت في رحلة اصطياف في الصلنفة. من خيمة مجاورة تنطلق آهات أنثى تبدو في حالة انسجام كامل. تذكُر لجين، تماماً، تلك اللحظة، حين استسلمت بكامل انفعالاتها لشاب عابر عانقها بقوّة، وشدّ جسمها إليه بكلتا يديه. حركاته المتسارعة ملكت إحساساتها، حتى

بدت عجينة ليّنة بين يديه. لم تدرِ لماذا لم تمنعه. تشعر بأنها كانت عاهرة في الخيمة، استسلمت للذتها مع شخصٍ لا تعرفه. وهاهي الآن تمارس دور الراهبة مع أقرب الناس إلى روحها. قرأته وتابعته، حتى كادت تحفظ كلّ حركاته وسكناته، قبل أن تلتقيه؛ومع ذلك تتمنع عنه.

لم يكن سراب يرى أي شيء في الطريق.. عيناه تلتقطان صوراً لشعرها.. جيدها.. عينيها.. يدها على مبدّل حركة السرعة.

يحاول أن يدسّ ما يجول بخاطره، من خلال يده التي تجسّ خدّها. كان الحوار بينهما عاديّاً في تلك الجولة التي استغرقت ما يزيد على نصف ساعة. خلالها عرف أنها متزوجة من مطرب فاشل يصغرها بعامين، تعرّفت إليه في إحدى رحلات جمعية العاديّات إلى مناطق أثريّة في ادلب. إنها مغرمة بالآثار، لذلك تتابع نشاطات تلك الجمعية الآثارية. أما الشاب فلم يكن يهمه سوى المال، وقد اصطحبته الجمعية ليضفي على الرحلة نوعاً من التسلية ببعض الأغاني التراثية التي تذكّر بأيام زمان. هي الآن تعيش مع أمها وأولادها الصبيان الثلاثة. زوجها يعمل في أحد الملاهي الليلية في سلطنة عمان منذ ست سنوات، ويزورهم في السنة مرة أو مرتين.. يبقى بضعة أسابيع، ثم

يعاود السفر من جديد. أما والدها فقد هجرهم منذ كانت في الإعدادية. تعرّف إلى امرأة حمصية، من بلده، تزوّجها وهجر أسرته، بعد مشاحنات متوالية نتيجة إدمانه السكر، وتديّن أمّها الحلبية التي تعدّ اللثم إثماً لا ينبغي اقترافه. حتى حين تقبّلها لجين.. كانت تبعدها عنها:

– دخيل الله... بدل البوس قومي اجلي الجليات.. الحب مو بالبوس.. بالفعل.

سألها سراب، وهو يقدح عود الكبريت لإشعال سيجارته:

– لماذا لم تسافروا مع زوجك حيث يعمل؟

أبطأت السيّارة. تسمّرت عيناها على يده. حين اطمأنّت إلى اشتعال سيكارته، مدّت يدها.. خطفت عود الثقاب من يده، بخفّة، قبل أن يرميه، دسّته داخل غطاء جوّالها. اختلست النظر إليه بطرف عينها. شعر بها جمرةً ملتهبة كفيلةً بإذابة الجليد. ردّت على سؤاله:

– لا أستطيع ترك والدتي.. أنا وحيدتها، ولا أريد أن اترك مرسمي. ثم.. أنا هاربة منه.

كان يفكّر في مغزى الاحتفاظ بعود الكبريت. وعبثاً، حاول أن يتذكّر الشاعر الذي يصوّر وجه حبيبته في ضوء عود الثقاب. حين لاحظت عبوسه سألته عن السبب، فقال لها، مراوغاً:

- حزنت من أجلك: جميلة، ولطيفة، وهاربة. بيني وبينك كنت أظنّك عازبة. ماتزالين صغيرة. وفوق ذلك أنت مرهفة المشاعر، كلامك كلّه حساسية وصفاء وروعة. إنني أرتعش من لمسك ولا أكتفي به.

أبطأت السيارة قليلاً. قالت له وهي تشير بيدها اليسرى:

- انظر.. هذا هو بيتي. هذه الحديقة تابعة له. يوجد مدخل من المبنى، ومدخل آخر خاص من الشارع مباشرة يفضي إلى الحديقة.

نظرت إليه نظرة خاطفة وهي تدفع يده عن ساقها، برفق:

- أبعد يدك، نحن قرب البيت والجيران كلهم يعرفونني، ويعرفون السيارة.

رنّ هاتفها.. رفضت المكالمة، ثم أطفأت الجهاز بسرعة، من غير أن تنظر مَن المتّصل. لم تكد تنعطف يميناً مبتعدةً عن البيت، حتى سُمعت أصواتٌ آتية من بعيد. إنها مظاهرة ليلية. في آخر الشارع، بدا المتظاهرون يحملون العلم الأخضر..علم الاستقلال.. وبعض اللافتات.. ومصابيح ليلية.

بالرغم من أن عدد المتظاهرين لم يكن أكثر من ثلاثين، إلا أنه كان عدداً كفيلاً بقطع الشارع. أدارت السيارة جهة اليسار وانطلقت بها. في آخر الشارع بدت سيارات الأمن وقد نصبت حاجزاً، ونزل عناصر الأمن بلباس مدني يحملون العصي الكهربائية، وخلفهم ثلّة من الشرطة. بدؤوا بالقبض على كل من يصلون إليه وحشره في بيك آب سوزوكي مسوّر بشرطة يحملون بنادقهم. كان شاب يركض بعيداً عنهم، غير أن أحد المارة أمسك به، حتى وصل أحد عناصر الأمن. لكمه على صدغه ثم رفع (بلوزته) من ظهره.. غطّى بها رأسه وقذفه إلى (باكاج) سيارة الأمن القريبة.

يدا لجين ترتجفان على مقود السيارة. توقفت فجأة. عادت إلى الخلف بسرعة كبيرة. دخلت في شارع فرعي من

الجانب الأيسر. توقّفت في الزقاق المظلم. غادرا السيارة بسرعة ودخلا إلى أول مبنى وجداه.

أمسكت يده، وعدت مسرعةً:

- تعال معي.

تسارعت نبضات قلبيهما، وشعرا بقلّة كميّة الأوكسجين، وهما يجتازان الأزقّة الضيّقة. وصلا إلى شارع بيتها، وسط عدد كبير من الناس، يهرولون باحثين عن مأمن يتوارون فيه. أخرجت المفتاح من حقيبة يدها.. فتحت باب الحديقة:

- ادخل.. اختبئ تحت شجرة الكبّاد تلك، حتى أراقب الوضع وآتي إليك.

أقفلت باب الحديقة، ودخلت من باب المبنى إلى بيتها.

هرع أولادها:

- ماما.. ماما.. نحنا خايفين.

أمها سألتها:

- أين كنتِ؟ طبّ قلبي ونحن ننتظرك.. اتصلت بك مراراً وهاتفك مغلق.

تحسّس خطواته في الظلام.. لاحظ باباً صغيراً تحت الشبّاك الأخضر. بجانب الباب طاقة صغيرة.. دفع الباب الصغير بحذر، فبدت خلفه "غرفة المونة". دخل وترك الباب موارَباً. بجانب شجرة الكبّاد عريشة عنب صغيرة.. ورود متناثرة في حوض ممتد على سور حديقة البيت. طاولة.. كرسيان.. مرجوحة أطفال. النوافذ المطلة على الحديقة ملأى بالناس الذين يراقبون مايجري في الشارع. أصوات مختلفة ومتناقضة تصدر منها:

- الله يقويكم.. الله معكم..

- يا أولاد الحرام خلونا عايشين ماناقصنا مشاكل.

- دخل عالبناية امسكوه.

- حرام.. اركض.. اركض جايينك.

ماتزال لجين مرتبكة، لا تصدّق ما الذي حدث، وكأنه خيال.

عندما كلّمتها أمها لم تكن تستوعب ما تقول:

- شفتيه أمي؟ شفتي الدكتور؟ شو صار معكم؟ تعالوا يا أولاد الأكل جاهز. تعالي ماما مناكل بعدين تحكيلي. الله يستر شو بدو يصير.

سُيّرت باتّجاه طاولة الطعام. بصمت مطبق، تناولت بضع لقيمات، من دون أن تتذوقها. لاحظت أمها ازدرادها البطيء للطعام:

- رممي عضمك.. كلي منيح.

- ماميتي جاي ع بالي كبة نية. نازلة أجيب برغل من "بيت المونة".

فتحت البراد. وضعت عنقوداً من العنب تحت قميصها، خلسةً. نزلت الدَرَج:

- دكتور أنا محرجة منك بسبب ما حدث. أرجوك تناول العنب حتى يهدأ الوضع. رح آخذ الأولاد إلى النوم وأعود لأفتح باب الحديقة، حينها ربما يصير الجو مناسباً لتخرج.

...

عندما عادت، داهمها حنين مباغت، وهما قابعان هناك، يترقّبان سكون العاصفة، همست:

- أريد أن أرى العاصي.

- العاصي بداخلك، فقط أطلقيه.

- عصى فلم يعاقبه الله لأنه شجاع وكريم ومبارك. وأهله عصوا الطغيان ونصروا الحق فعاقبهم ذاك الظالم عدو الله. أدفع عمري وأحصل على قبضة يد من تراب قاعه. إنه عاصٍ على الفناء. عندما كنا صغاراً، كانوا يقولون إن اسمه العاصي لأنه مشى عكس التيار، لكنّ الله باركه لأنه كريم ويروي كلّ من حوله. كنت كلما رأيته أتصوّر أن داخله مارد شجاع بيده سيف. قادر أن يقول: لا.

سها سراب لحظة في الأصوات من حوله، ثم استدرك سماع همسها:

- تبيّن أن المارد داخل كل من شرب من العاصي، أو لامست قطراته جسده. يا الله. أرى أنّ النهرَ أمٌّ تسبح بدماء أولادها. كم هذا صعب عليه. أسمعه يئنّ على حماه وحمص والتريمسة والقاشوش. الآن لا أعرف ما إذا كنت سأعصف أو أتلاشى. اليومان الماضيان من أسوأ الايام التي مرت بي. مقتل صديق في حمص. مجزرة واعتقالات. لم أعد أحتمل القهر وإحصاء الأيام. أمس اجتمعت مع بعض الأصدقاء. هي المرة الأولى التي أراهم فيها يجرّون أذيال اليأس والقنوط. أرعبتني عبارات القنوط التي كانت تطلّ من

بين جملهم المعفّرة بالتعب وغبار الضياع. منهم من عبر من حمص إلى حماه سيراً على الأقدام، كي يهرب من الحواجز. منهم من كان في "بابا عمرو" عند القصف. كانوا دائماً أقوياء واثقين بالنصر. هل هو الحزن أم الخزلان أم؟ لا أعرف.

- في السجن كان كثيرون يقولون: عندما نخرج سنلتزم ببيوتنا، فنحن لا نقوى على مواجهة هذا الإجرام ممن لا يخاف الله. يملكون كل القوة وليس لدينا شيء. رأيت كثيرين بعد خروجهم وقد غدو أكثر قوة وإصراراً على مواصلة الطريق حتى النصر. مروا بلحظات انكسار، ثم عاودوا الصهيل. قليلون، مثلنا، نستمر في أحلامنا حتى في أقسى حالات اليأس. أرى النصر في عيون الأطفال، وأرى انسحاق الظالم تحت حوافر الهزيمة المحققة. ولكن، لكل شيء أوان. في زمن الخوف نحتاج ان نكتب ونقرأ لنجد الأمان. نحتاج ان نقوى بتجارب الغير حتى يتحوّل الشك إلى يقين.

- هذه اللحظات العصيبة تعيدني إلى يوم اصطدامنا بإحدى الدوريات. حاجز أمني متحرّك. استقبلونا بوابل من الشتائم: مندسين حقراء.. ولاك انزول من

السيارة. اقتادونا إلى المفرزة وبدأ التحقيق. لن أسهب بما تردّد على مسامعي من ألفاظ مقزّزة وإهانات ثم سيل من التحقيرات. سبع ساعات من الرهبة شيّعتُ فيها الخوف وانبعثت إنسانة من جديد، حرّة من الخوف.

استلقت على الأرض. جمعت كفّيها تحت رأسها، وتابعت:

– كانت صديقتي معي. أول مرة أسمع فيها إهانة. أول مرة يلمس شيئاً مني السلاح. الحادثة كانت تشييعاً للخوف بداخلنا، وانطلاقة إلى عالم جديد، هذه اللحظة ذكّرَتني بها. خوفان متشابهان، وشعور بالانعتاق، لذيذ.

صوت أذان العشاء يعبر من النافذة وسط هدوء كامل. يبدو أن الشارع بات خاوياً.

...

حين وصل إلى مكتبه، وضع أمامه فنجان القهوة وهو يستمع، بصوت خفيض، إلى منوعات فيروزية، وبدأ بالرد

على الرسائل، والتواصل مع أعضاء التنسيقية ليعرف ما الذي جرى.

ثلاثة من تنسيقيته اعتُقلوا. تواصل مع القاضي "محمد" المنحاز للثورة، ومع المحامي "أنس" عضو مجلس الشعب المقرّب من السلطة، لترتيب لقاء يتم فيه بحث أمور الافراج عنهم عاجلاً.

كلهم يدخلون ويخرجون إلا فئة المثقفين، خريجي الجامعات الذين اعتقلهم الأمن الجوي في بداية المظاهرات في حلب، واستعصت الوساطات من أجلهم. واحد وعشرون رجلاً من خيرة الثوّار في المعتقلات: كمال. عبد الرؤوف كريّم. صبري الحرح. ياسر درويش. أيمن حناوي. معن وطفة. غياث الضللي. أحمد. وغيرهم. بعضهم يحمل شهادات الدراسات العليا وشهادات جامعية، وبعضهم طلاب جامعة.

. ...

-3-

اليوم التالي، في منتدى حلب، بضع ساعات خاض خلالها سراب معترك ما يدور في المدينة. عاد ثانيةً إلى

حوار الجالسين معه عن مشروعية الترشح لمجلس الشعب، في غمرة الأحداث الصاخبة التي تمر بها سوريا. عرض عضو مجلس الشعب في الدورة الحالية أن يتكاتف معه كمال في قائمة واحدة.

قال كمال:

- موافق شرط أن يركّز البيان الانتخابي على مكافحة الفساد ومعاقبة المتسببين في أحداث درعا.

ابتسم الجالسون غامزين. ولم يعد أنس إلى فتح الموضوع ثانية.

جرت الانتخابات، كالعادة. اشتُريت العضوية بحسب السوق الرائجة تلك الأيام ب 25 مليون ليرة.

...

انصرف العاملون وغدا المكتب خاوياً. فتح سراب صفحته على الفيسبوك، وجد رسالتها بانتظاره:

- لا أرى أجمل مما أكتبه في حواري معك. أشعّ فيسقط ضوئي على تقاسيمك. أنت قريب مني كيفما كنت وأينما كنت. أعشق كل ما تكتبه. ولكنني أحب أن أسمع ما يخطه قلمك، وأنا في

مخيلتك. يكفيني القليل.. تكفيني الأحرف وليس الجمل. تحادثني فترميني بسهام قوس قزح، الذي تحمله بيدك.. يضيئني.. يخترقني، فأركض إليك راغبة بانتزاعه. لم يعد لدي القدرة على احتمال وهج إصاباته. كل كلمة منك تزلزل كياني فأحتاج وقتاً لاستعادة توازني. عندما أتحدث إليك أنسى كل ما يحدث حولي. أطير إلى عالم آخر. فجأة، عندما أعود للواقع، أحس أني أخون دم الشهداء.. المعتقلين.. الجرحى.. المنكوبين.

أجابها:

- نساعد الآخرين بالحب، وليس بالامتناع عنه. الإخلاص لهم بأن نعيش بأفضل ما نستطيع، ونهبهم أقصى ما يمكن.

نار.. إنهم يطلقون النار.. دبابة تمر أمام مكتبه.

لم يكن يملك المتظاهرون سوى أجسادهم ولافتاتهم.. الدبابة تتجه نحو دوار الكرة الأرضية.

الانترنت والهواتف المحمولة، في ذروة فعالياتها بين أعضاء التنسيقية، يتبادلون المعلومات بعبارات ملغوزة بينهم.

كانت هناك مظاهرة متّفق عليها عند مشفى الحياة قرب الإذاعة، لابدّ أن المعلومات قد سُرّبت عنها، لذلك تنتشر الدوريات في المنطقة، والدبابة في طريقها للمؤازرة. فات الأوان لتحذير المتظاهرين مما يحدث. الاتفاق على الأماكن والمواعيد يجري بشكل شخصي، ومن المستحيل الوصول إلى كل الشباب بعد أن انطلقوا.

شغّل سراب سيارته مسرعاً كي يسبق الدبابة.

مرّ إلى مكتب حسام أخذه معه.

عند نزلة دوار الكرة الأرضية، أوقف السيارة في عرض الشارع. رفع غطاء المحرّك. نزع البطارية منها. أوصى حسام بحملها إلى مدخل أحد المباني القريبة وانتظاره هناك.

حديقة الكواكبي، أمام مشفى الحياة، اكتظّت بالشباب والصبايا في مجموعات تهتف:

- حرية.. حرية. الله.. سوريا..حرية وبس.

تسمّرت الدبابة أمام السيارة المعطّلة وسط الشارع. تلقّى سراب سيلاً من الشتائم والإهانات، بسبب تعطّل سيارته هناك. شاحنات حفظ النظام بدأت بالوصول.. يقذف العناصر بأنفسهم منها، لملاحقة المتظاهرين. مجموعة بيك

آبات أحاطت بالمنطقة.. نزل منها مدنيون يحملون سيوفاً وعصياً وسواطير..الشرر يتطاير من عيونهم.

...

يومٌ عصيب مرّ به سراب..الحصيلة كانت موت شاب، في الثلاثينات، نتيجة تلقّيه ضربة عصى كهربائية على البصلة السيسائية. خمسة عشر متظاهراً تم اعتقالهم. ثلاث إصابات في مشفى الرازي.

الواحة التي يأوي إليها.. صار وقتها. ركب سيّارته باتّجاه المنتدى.

منتدى حلب

منتدى حلب الثقافي، مقهى في شارع بارون، يجتمع فيه عـدد كبـير مـن المثقفـين. يحتسـون القهـوة صـباحاً في مجموعات، كل مجموعة لها اهتماماتها.

منهم مجموعة محامين، يناقشون الدساتير السورية منذ الاستقلال إلى الآن، لصياغة دستور جديد يصلح للوضع السوري الراهن. منهم مجموعة أدباء، يناقشون مستجدات الساحة الأدبية، ومسائل تجديد الشعر، وأساليب السرد الحديثـة، وقضـايا الأدب. مـنهم يخططـون للمظـاهرات، ويتوازعـون أعمـال الإيـواء والإغاثـة. وفي المسـاء يتـذاكرون حصيلة اليـوم ويرصـدون الأحـداث ويتبـادلون المعلومـات. لايخلـو المقهـى مـن عناصـر أمـن يتلصصـون. يحـاولون التخّفي، ويحاولون دراسة المجموعات لكتابة تقارير عنهم.

محمـود صـاحب المقهـى/ المنتـدى، محامٍ، يعـرف معظـم الـروّاد. حـين يرى وجهاً غريباً يبادر إلى ضيافته، فضلاً عن القهـوة، شيئاً من الفواكـه أو الحلويات التي يجود بها هـو أو

واحد من الروّاد الدائمين الذي أدمنوا هذا المقهى منذ اندلاع الثورة.

المار من تلك المنطقة يرى ماكُتب على البللور: منتدى حلب عاصمة الثقافة الإسلامية. وسط غابة من الزهور والشجيرات الخضراء الصغيرة، فيتهيّب ولوج المكان.

المنتدى يقع في شارع فرعي على تقاطع شارعي بارون والقوتلي.

لم يكن كمال من روّاد المقاهي قبل الآن، غير أن دماثة صاحب المنتدى وثقافته وحبّه للأدب جعلت كمال يدمن المنتدى بشكل يوميّ، ويلتقي سراب هناك. المكان واسع وجدرانه محلاّة بلوحات فنيّة جميلة، وتنتشر في أنحائه أصص النبات التي تضفي بهجة على المكان. تتصدر إحدى الجدران مكتبة تضم كتباً ومجلات وصحف في متناول الروّاد.

وقد خصّص صاحب المنتدى، طاولة رئيسة يتجمّع حولها الأصدقاء المقرّبون، وإلى جانبها صخرة تضمّ نباتات مختلفة.

لم يكن محمود يكتفي بتقديم قهوة إضافية لهذه الطاولة، بل يضيف الملتفّين حولها الفواكه والخضار والمكسّرات.

وفي مناسبات معيّنة كان يرسل نادله إلى محل حلويات الأفراح المجاور ليأتي بصحون هيطلية فاخرة، لها ملعقة خاصة من نوع الزبديات الزجاجية الملوّنة التقليدية العميقة الخاصة بالهيطلية. أو يجلب الرز بحليب أو المهلبيّة، أو البوظة. وقد درجت عادة روّاد هذه الطاولة أن يأتي أحدهم بما يشتهيه من الضيافات المختلفة، وبحسب الموسم.

أما الضيافات التي كانت شبه منتظمة فهي من منتجات محمود بادنجكي، صاحب حلويات فرنسية، فقلّما يحضر ولايكون مصحوباً بقوالب الكاتو أو صواني الحلو المختلفة. أما حين يحضر الطعام، فلا بدّ أن نعرف أن الصائغ حج بشير صباغ هو وراء الأكلات الحلبيّة الشهيرة.

وقد ضحك، ذات مرة، الأديب الساخر خطيب بدلة وفؤاد ايليا والمحامي عبد الرحمن علاف من صينيّة الشعيبيات التي أحضرها الأب (أنف) خصّيصاً من ادلب في سيارته. وضعها على الطاولة وراح يحكي قصّتها، قال:

- بعد أن أوصيت عليها قبل يوم، وضعتها في صندوق السيارة الخلفي ولفّحتها بورقٍ أبيض، فقد خفت أن لايصل منها شيء، فمن ادلب إلى حلب

هناك عشرات الحواجز، والشعيبيات لن تسلم من أيدي الأمن على طول الطريق إن رأوها.

المهم، أكل المجتمعون بعض الشعيبيات، وهم يشكرونه على جهوده. واحتاج الأمر إلى نصف ساعة، حتّى تجرّأ أحدهم وقال له:

– طعم الشعيبيات مشرّب بالبنزين.

وتبيّن، بعد ذلك، أن هناك "بيدون" مليء بالبنزين في صندوق السيارة، تحسّباً لنفاده.

الحاج بشير، السبعيني، من الشخصيات البارزة المدمنة على هذا المنتدى. بعد أن ينتهي من عمله في تعيير الذهب بمحله في سوق المدينة خلف الجامع الكبير، يصطحب (أبوعلي) حاملين، إما صينية كباب حلبي أو صينية كنافة أو كيساً كبيراً من المكسرات أو فاكهة الموسم، إلى المنتدى. يعاد حينذاك توزيع الطاولات لتصبح على شكل حرف(T) ويلتف بعض الروّاد/ الشلّة/ حولها يتسامرون وهم يتناولون ماتمّ فرشه على الطاولات. وعندما تشتدّ حرارة الحديث وتمتدّ الجلسة يطلب محمود من (حلويات الأفراح) الذي يواجه المنتدى، صحوناً على عدد

أفـراد شـلّة الطـاولات المجمّعـة، بحسـب الرغبـة. هيطليـة.. بوظة.. حلاوة الجبن.. حبوب.. مهلبية.

كـي يتم صرف النظر عما يحدث في المنتدى، ووضع الأمن في حيرة، قدحت فكرة في ذهن كمال وباشر بالعمل على تنفيذها.

ليست دراسته للفلسفة وحدها التي جعلته كائناً قلقاً، إنما كثافة قراءاته المتنوعة، ساهمت أيضاً في إضفاء هالة الحزن على نبرة صوته، وشكّلت عقدةً وسط جبينه، منها تتضح الأسئلة الكبرى التي تؤرّقه عن منشأ العالم ومصيره.

أما مابين دفّتي الحياة، فقد هدته تحليقات الروح إلى أن يكون مقداماً. إنه يريد أن يعيش حراً. أحب أن يمسي شهيداً كي يتجاوز محنة الأمراض التي تصيب الإنسان. لكنّه لم يدرِ أن مجابهة الاستبداد تفضي إلى مزيد من الألم والمرض والشقاء، بدلاً من ان تفضي إلى نهاية جميلة للحياة.

ذلك الموت الأنيق الذي يطلبه، ليس هنا، وليس هذا هو طريقه. يهرب من المرض بالإقدام، فيداهمه المرض ويجري خمس عمليات متتالية سبّبها الفقر والظلم والإهمال.

كانت تدور في رأسه كلمة ونوس التي يقول فيها: إننا محكومون بالأمل، ويرى أن الأحرى به القول: نحن محكومون بالألم.

من هذا الألم، الذي يمكن دفعه بالسخرية، نبتت فكرته بإنشاء مجموعة ساخرة، تستفيد من شخصية حج بشير، عنوانها: "مجموعة حج بشير للاحتجاج عالغلط". جاء في وصفها إنها: مجموعة للاحرار يحتجون فيها على الغلط ويدعون إلى الإصلاح.. بأسلوب ساخر.. وفي حدود الأدب.. بدون إعلانات أو أخبار شخصية.. بلا مواعظ وحكم.. ولا لإثارة النعرات الطائفية و العرقية والدينية..لا صور قتل ودمار..لا دعوات لتنسيقيّات أو تأييد لأعمال مسلّحة.. صفحة الحج بشير "فتفوتة السكر" على الفيسبوك. فيها القفشة الذكيّة والإيماءة اللطيفة. يجب أن يكون كل الأعضاء معروفين بأسمائهم الحقيقية أو بالأسماء المستعارة المعروف أصحابها من قبل "الآدمن".. ولا تقبل الملثمين المجهولي الهوية ولا الشبيحة والمنحبكجية ولا مؤيدي الطغاة عديمي الإنسانية.

كان يوماً طويلاً في المنتدى، احتدّت فيه النقاشات، واكتظ بالمجموعات المتوزّعة على امتداده. كل ستة أو ثمانية

أشخاص في زاوية، وفي جلسة مغلقة، يتحاورون، ويرسمون على الأوراق، ويتهامسون.

من جانب آخر هناك جلسات هادئة يغلب عليها الصمت أو الحوار الكسول بين كل اثنين أو ثلاثة، كانوا غائبين عمّا يدور حولهم من أحداث. جلستهم تشبه تلك التي تضمّ طاولة الأدباء المنشغلين، دائماً، بقضايا الأدب ومذاهبه ومدارسه، مبتعدين، تماماً، عن الخوض في دور الأدب بالمجتمع. يتحدّثون وأعينهم زائغة مرتابة من الطاولات الأخرى المنتشرة حولهم، والتي لابدّ أن يكون من بينها طاولات تحوي عناصر أمنيّة، أو مخبرين جاؤوا خصّيصاً لكتابة التقارير.

أما مأمون، الثمانيني، فقد كان يحكي لنظيره، رجب، قصّة حبّه الجديد، الذي توّجه، فيما بعد، بالزواج. كان الأسى بادياً على رجب وهو يستمع إلى تحسّر مأمون على فرص ضيّعها ولم يعرب لزوجه المرحومة عن مدى حبّه لها، وعن امتنانه لصبرها على طيشه أيّام الشباب.

...

ذلك اليوم العصيب، توّجهته الفرقة الميدانية بالتحضير لبركان حلب. تلك الفرقة القابعة في مستودع المقهى الذي

يفصله عن الرواد بهوٍّ مكشوف، قبل أن نصل إلى غرفة تتكدّس فيها رؤوس النراجيل، والفحم، تفصلها ستارة سميكة بنيّة اللون، يمتدّ خلفها سجّاد للصلاة.

***

حلب – 16آذار 2014

أوراق أخرى

فتح شهم بريده الالكتروني، بعد أن تلقّى إشارة تنبئه بوصول رسالة جديدة. غمرته موجة من الفرح، حين عرف أنّها رسالة من أم علاء. حوّل المحتوى للطباعة. عرف أنها أوراق أخرى من يوميات معتقل. رتّب طقوسه التي اعتاد عليها، عندما يطالع كتاباً مهماً، وجلس يقرأ:

زنزانة حلب 24 تموز 2011

اليوم السابع.. بلا شمس

أعــادوني إلى الزنزانــة بكــل بســاطة، وبهــدوء مريــب. وسـرعان مـا غفـوتُ مهـدود القـوى، بعـد التركيـز الشـديد الذي كنتُ أقبض عليه بقوّة طوال التحقيق.

عنـدما اسـتيقظتُ لم تشـرق الشـمس، ولم أرَ سـوى بصيصٍ من الضوء، استدللتُ، من خلاله، أن الفجر قد أزِف.

هل يُعقل أن أكون قد نمت كالقتيل، ولم أسمع أصوات التعذيب تخترق أذنيّ كما كلّ ليلة؟ هل كنت ثملاً بعذابي، كما لم أثمل بالفرح منذ وقتٍ طويل؟ كيف لحثالةٍ غبيّة كهـولاءِ يمكـن أن تقـودني إلى الجنـون؟ الشـمس.. أيـن الشـمس؟ منـذ أسـبوع لم أرهـا. مَـنْ هـؤلاء ليحرمـوني مـن شمس الله.

إذا كنت سأموت هنا فلأمت وأنا أقلق راحتهم، وأحفر في مساماتهم نبرة صوتي. فلأكن شخصاً لن ينسوا أنه صرخ في وجه الظلم، وهو مقيّدٌ في حفرةٍ تشبه القبر. في غياهب الجبّ.

أين أنت ياأبي؟ لقد تعبت ياأبي. لم أعد قادراً على احتمال العالم. الضغوط التي أعانيها تجاوزت حدود الاحتمال، ولم أعد قادراً على الصمود. كنت (أرى ماأريد) حتى اكتشفت أن العالم ليس كما ينبغي. الأصدقاء تتوالى خياناتهم. ويوماً بعد يوم يتّضح لي أكثر أن الإنسان كائن وحيد.

أنا وحيد ياأبي، وكل الذين يحيطون بي وحيدون، لكنّهم يتشاغلون عن الوحشة بافتعال الخلافات والحسد والمنافسة. كلهم يتصارعون كي يتناسوا هذه الوحدة القاتلة التي تحيط بنا. صبرتُ طويلاً يا أبي.. عاندت وقاومت.. توهّمت أهدافاً أريد تحقيقها ثم اكتشفت - متأخّراً - فداحة أوهامي وأني كنت (أرى ماأريد) وأحاول تحصين نفسي وأسرتي، وأكافح كي يستمر حلمي بوَطنٍ رحبٍ جميلٍ يغدو كما ينبغي.

لكنني فُجعت يا أبي.. فالقيم النبيلة حبر على ورق، وكلمات تلوكها الألسن ولا تدركها القلوب.. وكل الذين نحبهم ماهم سوى كائنات ورقية يفسدها التجسّد بعد أول مصافحة لاتليق... أو هم يغادرون سريعاً كي نُفجَع بهم.

تعبت يا أبي.. ولأن الطفل النزق لاتزال طفولته تكبر في داخلي، قررت الاستسلام. تعبت ياأبي فاعذرني.. سأسلّم مركبي للريح وأستريح. تكشّف زيف الأحلام، واتّضحت عبثية اللهاث. خذ ماتشاء أيها العالم الصلب من ليونة عمري الذاوي. فقط، دعوني أسترح.

تعبت يا أبي.. فلا الحب حب، ولا الصدق صدق، ولم يعد للصداقة معنى. بدأت الأمور تتساوى في داخلي، والظلام يلفّ أعماقي، والوحدة تشتد. حقوقي تتسرّب مع مجاري المياه، وواجباتي تراكمت كجبل يستريح على صدري.. حتى تعبت. اعذرني ياأبي.. أيها العالم الجميل اعذرني.. يامن تحبونني اعذروني، لم أعد قادراً على الصمود. خذوا ماتشاؤون أيها الراغبون، خذوا كل مالدي كي أستعيد سكينتي.

آهٍ كم أرغب أن أستيقظ ذات صباح.. أتناول قهوتي.. أعدّ حقائبي.. أودّع الأصدقاء وأعتذر لكل الذين

أسأت إليهم لأنني أسأت فهمهم.. أجمع أسرتي.. أكتب الوصية ثم أغادرهم بسلام. ولكن ليس هنا، وليس الآن.

لايمكن أن أموت قبل أن أصرخ بملء فمي: سقط بشار حافظ الأسد..الحرية لنا..هذه بلادنا.. أرضنا التي درجنا عليها. مَنْ هؤلاء الأوغاد الذين يحتلّون أرضنا، ويتحكّمون بمصائرنا؟ لقد عشنا، بسبب وحشيتهم، في رعبٍ دائم. إنهم لايشبهوننا. لايحملون سماتنا. ليست لديهم ملامح إنسان يحلم ويحب ويتعاطف ويغضب، ثم في لحظة حزن، يعبّيء كلّ غضبه في دمعتين ويسارع إلى الاعتذار حتى ممن أساؤوا إليه. إنه حمقٌ بشريٌّ لايشبه عواء هؤلاء القَتَلة. إنّهم يسحقون رؤوس البشر تحت بساطرهم العسكريّة بدمٍ باردٍ. زرعوا الرعب في نفوسنا طوال أربعين عاماً.

أخاف عندما أكتب، وعندما يُنشر لي مقال، وعندما أطلب وثيقة رسمية من إحدى دوائر الدولة.. وذلك لأن كل تلك الأفعال تستوجب السؤال عني.. وتستدعي أن أملأ استمارات كثيرة عن حياتي الشخصية، أسجّل فيها حتى الدقائق الصغيرة، فضلاً عن الأحزاب والجمعيات التي أنتمي إليها، والمدارس التي تنقّلت فيها، والشاعر الذي أحبّه، والصحف التي أقرؤها، والألوان التي أفضّلها. ولأن

الجهات الأمنيّة التي يهمها أمري كثيرة، فإن ذلك يتطلب مني الحديث مع أربعة أو خمسة أشخاص من دوائر الأمن، كما يتطلب مني –كلّ مرّة– ملء الكثير من الاستمارات التي أدوّن فيها الشيء نفسه حتى أكره عمري نتيجة تذكّري المستمر للمآسي التي مررت بها عبر العقود الماضية. وأخاف من عيون الأقرباء والأصدقاء والجيران الذين يسألهم المستفسرون عني ويظنّون في كلّ مرة أنني ارتكبت جريمة أو قمت بعمل شنيع. ولأنّ كثيرين لم يكونوا يحبّون هذا الخوف المستمر حتى لاتتشكل لديهم عقدة الاضطهاد، لذلك أمتنعوا عن تقديم طلب للحصول على هاتف، أو ساعة كهرباء، أو حتى صندوق بريد.

هذا عن حالة الرعب التي تجعل الإرهاب صورة دائمة التراقص في مخيّلتي، أمّا عن لحظات الذل، فهي كثيرة، بدءاً من ركوب الحافلة، مروراً بالحصول على مواد بطاقة التموين والراتب الذي يدفعونه لنا. ورجال الأمن، الذين يشكّلون هرماً يطحننا، يعرفون مصلحة البلاد العليا وهم الذين يوزّعون الأعمال والأدوار وما علينا سوى الطاعة. كل المؤسسات تقول: بيننا وبينك عقد إذعان... يمكننا أن نقطع عنك كل شيء متى نشاء، لكنك إذا لم تذعن ولم تدفع فإنك تضطّرنا لنقطع عنك: الماء.. الكهرباء..

الغـذاء.. الراتـب. وأحمـد الله أنهـم لم يبتكـروا – بعـد – صيغةً لجباية استمتاعنا بالهواء. يكاد أن يكون الأكسجين هو الشيء الوحيد المجاني في سوريا.. صحيح أنه ملوّث بما يشاؤون... ولكنه مجانيّ في نهاية المطاف.

يـاحيف.. يـاحيف.. لمـاذا لم أحفـظ تلـك الأغنيـة؟ سميح شقير بدا لي عاديّاً فيها، لم يقدّم مايوازي الفجيعة الـتي نعيشـها. لكـنّ كلماتـه الآن تلـحّ علـيّ كنسـمة هـواءٍ أحـاول اسـتجرارها مـن بـين بـراثن بـاب الزنزانـة الحديـدي الصديء الذي يضاهي في قبحه ماكنّا نراه في غونتانامو، عبر شاشات ترينا ظلم أمريكا ومايفعله العالم الغربي بنا. كـانوا يقولـون: أنـت مسـلم؟ إذن أنـت إرهـابي في نظـر الغـرب. الآن مـاذا؟ أنـت مسـلم ؟ يعـني أنّـك شـيطان في نظر السلطة.

لقـد حـذّرونا: الصـلاة ممنوعـة. لا.. ليسـت الصـلاة وحـدها، ياويـل مـن يجـرؤ علـى الوضـوء هنـا. إذن كيـف تكون السلطة مسلمة في مجابهة الغرب، وكافرة في مجابهتنا نحن الضعفاء الذين أدركنا من البداية، بل جَعَلنا اليافعون نـدرك أننـا وحدنا في هـذا العـالم، وأن ثورتنـا لـيس لهـا مـن سَنَدٍ إلاّ الله.

....

أستلقي على البطانيّات، أضع كفّيّ تحت رأسي وأرفع رجليّ إلى الجدار.. أتذكّر ماقاله الطاهر جعّوط: ستموت إن كتبت.. وتموت إن لم تكتب.. فاكتب ومت.

لاأدري كيف قادني غبائي لأكون بكلّ هذه الجرأة؟ كنت، منذ الصغر، أخاف من المرض، ولاأقوى على احتمال الألم، فقلت في نفسي: لماذا لاأكون جريئاً وأكتب بحريّة وأنا وسط هذا الكمّ المتراكم من الاستبداد، فيقومون بإعدامي وأنا في ريعان الشباب فأتجنّب الألم، وأنقذ نفسي من أمراض الشيخوخة.

كيف لم يخطر في بالي أنهم سيرمونني، هكذا، في حفرةٍ تحت الأرض، ككلبٍ منسيّ.

ولكنْ، لماذا أنا هنا؟ ليس بسبب جرأتي. وليس بسبب كتاباتي، فقد مرّتْ على غبائهم ونُشرتْ أمام أعينهم منذ سنوات، ولم يلحظوها.

لماذا إذن أنا هنا؟ لاشيء يمكنهم اتّهامي به، وإثباته عليّ. من الغباء أن أستسلم في لحظةٍ كهذه، بعد عشرات الكتب، وعشرات الندوات، والمحاضرات، ومئات المقالات التي مرّرتُها عليهم.

أقف، فجأةً، من غير أدنى تفكيرٍ بخطورة ماأنا مُقدِمٌ عليه. أقرع الباب بشدّة. فوجيء الحارس بجرأة الطرق على الباب فصاح بتوجّس:

– مين مايدقّ ولاااا.

– احداعش.

فتح الطاقة، ولمحت انبهاره من نحافة الطارق الذي لم يبالِ بنتائج فعلته الوخيمة. قال:

– شو بدّك.

تحرّكتْ شفتاي:

– أريد أوراقاً وقلماً.

قال وابتسامة شاحبة صفراء ترتسم على وجهه مفتعلةً السخرية:

– مشان إشّو الوراق.

– لديّ أقوال أريد أن أكتبها.

– بدّك تعترف؟ عرفت. بهالوقت عنّا هين مافي مجرم يدخل إلاّ مايعترف؟

هـزرت برأسـي موافقـاً. تـرك الطاقـة مفتوحـة وذهـب. لم يتسّع رأسي فيها، فقرّبت وجهي للتعرّف على الممرّ الضيّق وأرقام الزنزانات التي فيه. أمامي رقم 8 حيث طبيبي ياسر.

كوّرتُ كفيّ حول فمي وهمستُ له:

– ياسر.. ياسر.

رأيته ينطّ ليصل إلى مافوق طاقة زنزانته، حيث القضبان الحديديـة. اسـتطعت أن أرى وجهـه لحظـةً خاطفـة. في سقف الممر بواري حديد مستطلية الشكل، تشبه بواري مطـاعم الشـواء الكبـيرة، وبـدا أنهـا للتهويـة. سمعـت وقـع خطـواتٍ تقـترب، يرافقهـا صـوت سـوطٍ جلـديّ يضـرب الجدار بقـوّة، فيصـدر قعقعـةً عاليـة. ثبّتـت نفسـي مكـاني، ورحـت أعـبّ بكـل مااستطاعت فتحتـا أنفـي تنشّـقه مـن الهواء. الخطوات تقترب أكثر. ابتعدت عن الطاقة.

***

رسالة إلى المحقّق

رمى السجّان إليّ ورقتين وقلماً:

- بس خلصت دقّ الباب.

- إذا دقّيت بس ماتسبّ.

(انتبهت إلى أنني أمسيت أتحدّث بلغة القاف، مثلهم).

وهو يغلق الطاقة، قلت له:

- ممكن تتركها مفتوحة؟ هنا عتمة، بدّي شوية ضو لأشوف.

لم يأبه لما قلت. تناولت الورقتين والقلم، بلهفة، وبدأت الكتابة.

السيد المحقّق في فرع المخابرات العسكرية:

لماذا تحرمونني من الشمس؟ لم أقترف أيّ خطأ يستأهل كل هذا الذي أنا فيه. كنت دائماً واحداً من الَّذين يفضّلون الاعتزال في صومعة الذات، فهل ذلك يعني أنني يمكن أن أسيء إلى الآخرين؟ لا... فأنا أحبّ النآس

ولكنّني لست اجتماعياً بما يكفي كي أتبع فضولي في محاولة اكتشاف كيف يحيا الآخرون.

أخرج إلى الشارع في أضيق الحدود الممكنة، ثم أعود مسرعاً إلى مملكتي الضيّقة لأستمتع بتحرّكات أسرتي الصغيرة وأعاني من شغب أطفالي الجميل. العالم الذي أحبُّه، هو العالم الرسميّ الذي أتعرّفه من الكتب والمجلاّت ووسائل الإعلام التي يمكن أن تتوافر في منزلي، ومن الزّائرين الصّامتين.

وهكذا أَخْتصر الطريق لأنّني أعرف نفسي سمكة صغيرة مسالمة لا تحبّ أن تأكل أحداً، ولا أن يفترسها أحد. ولا يتحقّق ذلك إلاّ بالعمل المتواصل بعيداً عن علاقات الصدام مع أسماك أخرى مسكينة يمنعها اللهاث المتواصل، خلف لقمة العيش، من الابتسام. كنت دائماً أرحّب بالرجل المسالم الذي يمثّل دور الذين يحيون، يمارس لعبة الكلام المنمّق، ويرسم على محيّاه ملامح رجل سعيد، بالرّغم من أنّه وصل إلى مرحلة الموت من القهر.

أحيي الذي ينحني لعامل المصعد.. ولسائق الباص.. والخباز.. وعامل المقهى.. وحين أصادفه.. ينحني، ويمدّ يده، من بين أكياسه الثقيلة، مصافحاً وهو يقول: أهلاً يا

أستاذ.. والله الدنيا لا تعاش بغير شهادات. مرحباً أيهّا الرّجل الذي أصادفه ويظنّ أنني (باشا) هذا الزمان، وما ذاك إلاّ لأنّني أضع ربطة عنق، وأحمل في يدي حقيبة ثقيلة تضفي عليّ بعض الهيبة، لأعوّض عن خيبتي بشهادة لم تُتح لي الحكومة بعد فرصةً للاستفادة منها كما يجب.

مرحباً أيها الرّجل الذي أتحمّل عنه وعنّي، لأننّي أدرك بعض ما نعانيه معاً، ويظنّ أننّي بخير. ولكننّي في الحقيقة، مثل الألاف الذين يتعذّبون مرّتين، مرّة لأنّنا نعاني من واقع مأزوم، ومرّة لأنّنا نعي أننّا مأزومون.

تماماً كما قلتَ لي حضرتك في ذلك المساء.. نخاف من أن يسيطر الشبيحة أو المتطرّفون على البلد. ولكنْ مابيدي حيلة.

فمن يدرك عذاباتنا نحن الذين نراوح بين الحلم والكتابة؟ نرسم أحلاماً زهريّة مغرقة بالأمل، لأننّا نعيش واقعاً يطفح بالألم.

نتلفّت حولنا فيصفعنا اليأس من كلّ جانب. نهرب إلى مفرزات التقنيّة، ونجثم أمام التلفاز ساعات طوال فتشتدّ علينا نَواصي الحصار. متى نتخلّص مما نحن فيه وينزاح الكابوس الجاثم فوق صدورنا؟

أتوقّف لحظةً عن الكتابة. أسند رأسي بيدي وأنا أرقب ظلال بصيص ضوء قادم من السماء خلف القضبان. ثم أكمل: مرحباً أيّها النّور الذي يشعّ ليبقى الوطن عزيزاً في داخلنا، ومرحباً أيّها الوطن الذي لا يستكين. حقّاً، قد نحمي بيوتنا ومصادر عيشنا، بكل الالتواءات الممكنة، لكننا نعجز عن حماية أرواحنا من التعفّن الذي يتراكم فوق الصدور.

نشعر بغربة قاتلة ونحن نحاول أن نحلّ معضلات مشكلاتنا اليومية، التي قد يصيبنا تأمّلها بقرف عارم، لأنها مشكلات تجاوزتها الكائنات الحيّة التي تُعدّ أدنى مرتبة من الإنسان.

وتستمر عذاباتنا في التحوّل أمام أعيننا من غير أن نجد حلاً جذريّاً لها، لأننا غير قادرين على ممارسة إنسانيتنا في واقع يفرض علينا اضطهاداً لم يَخبره أجدادنا. وما ذاك إلاّ لأننا نعيش في ظلّ نظام قِيَمي استهلاكي لا يعبّر عنّا، ولا نستطيع مقاومته، فنغرق في دوّامة حاجات اصطناعية نريد إرواءها فتستهلك أرواحنا.

أمازلت تريد مني الكلام أيّها المحقّق؟ لقد تعلّمت ياسيادة الضابط، من (دون كيشوت) ألاّ أحارب طواحين

الهـواء، كـي لا أبـدّد قـواي الـتي أحتاجهـا لإنقـاذ انسـجامي الداخلي.

وتعلّمت، على طريقة جبران، أن أصمت حين لا أجد موضوعاً يمسّ إنسانيتي في الصميم، كي لا أجترّ نفسي في دوّامة طواحين الكلام.

كنت على الدوام كائناً ليلياً. حاولت أن أكبت شهوة الـروح كـي أتسـاوى والـذين تكمـن قـوّتهم في إطفـاء جـذوة الجسـد، لكنّـني لم أسـتطع تعبئـة روحـي في قمقـم الحاجـة، لتتحوّل إلى نفاية الإشباع.

عبثاً حاولت أن أسكب نفسي في قالب الرتابة اليومي، لأمثّل دور الرجل المثالي الـذي يـذهب إلى عملـه مبكّـراً ثم يعود محملاً بأكياس، سرعان ما تتحوّل إلى قمامة.

أحدّق إلى نشرة الأخبار، مفتعلاً رزانة لا أستطيعها إلاّ في الشـارع. ولايـدوم الأمـر طـويلاً حـتّى أنفجـر لأداعـب طفلتي الصغيرة، وأدلّل دبّها القطنيّ الأنيق.

في آخـر الليـل أنـزل إلى الشـارع مسـتقبلاً مطـر الربيـع بفرحـة طفـل اسـتعاد جنونـه الأليـف. أذكـر، ذات ربيـع، تحسّسـت يـدي ثم تحسّسـت بهـا ألـق انتعـاش صفصـافة

الروح، وانطلقت أغنّي بصوتي الأجش، وبدأ الليل يتناسل من عروقي.

ذلك الليل الذي لم أعرف سواه إلاّ قليلاً من أيّام السنة. إنّه أنا حين يشبّ حزني فأفرح به كفراشة تتقن موتها لتنسكب هائنة في الجلال. وهنا ندرك كيف تُشافه الوردةُ فراشاتِ الاحتراق، من غير أن نعي منطق تراسل الاشتياق.

وماحاجتنا إلى المعرفة ما دمنا نحدس بشعورنا ونطمئنّ إليه. ليس كلّ ما يُفهم جميلاً، وليس كل غامض غريباً.

الآن، ماذا أغنّي؟ ياظلام السجن خيّم إنّنا نهوى الظلاما. ولكنّني بين أهلي، لستُ أبحث عن تبرير وأنا في سجن مستعمِر. أيها المحقّق المثقف لاحِقوا القَتَلة واتركوا الينابيع تلحق الماء ولا تدركه، واقصفوا ذاكرة الدائرة. ليس كلّ ما يُستعاد تاريخاً، وليس كلّ ما يؤلم فجيعة. وليست الذاكرة هي التي تعبّيء أرواحنا في أكفانها، بل هي النسيان المؤقّت.

النسيان هو ذاكرتنا الوحيدة، ومن يتذكّر نسيانه تهرب منه آلام العالم، ومن ينسى ذاكرته الراحلة يتعذّب مما لا يستحق التأوّه.

ياسيّدي حاولت أن أتمسّك بذاكرة وعود الجِد، وعد التوقّف عن الكتابة، وعد التحلّي بمنطق الواقع، لأكسب رزقي ورزق سواي، كما يفعل الآخرون، فاقتادني النسيان إلى ذاكرة اللهو، حيث اعتدت أن ألعب دور الكائن الليلي الذي ينسى نفسه في عالم من الورق الملوّن والكلمات النابضة لأعيش في الحلم أكثر من حياةٍ على أرضٍ تنسف أبناءها، وفي زمن يغتال ثوانيه.

وأخيراً نكتشف أنّ الحياة حلم قصير، وأن الحلم حياة غنيّة. كيف نختار حياة تغتالنا، ونضيّع حلماً يغنينا، ثم ننفي عن أنفسنا تهمة الغباء ؟!.

بالفعل، أنا كما وصفتموني تماماً، غبي. الآن أكتشف مقدار الغباء الذي يكتنفني. ولكنّني أتساءل: هل ينبغي لكم قتل الأغبياء؟

إنني، ياسيدي، كما أخبرتكم، خرجت منذ وقت قصير، من عملية تجريف المثانة التي اتّضح أنّها تحمل مرضاً خبيثاً، وأحتاج إلى جرعات علاج، وقد حان موعد أخذ الإبرة في مشفى الحميّات (زاهي أزرق). وقريباً تتأكّد لكم براءتي، وأنّني أحب وطني، ولم أفعل أيّ شيءٍ يسيء إليه. يمكنك التأكد من الدكتور ياسر الذي هو معتقَل معي،

ومن الدكتور حنا كوركيس رئيس القسم الذي أجرى لي العملية. إن لم آخذ أبرة العلاج بعد غد فستفقد العملية قيمتها، ويعاودني المرض الخطير.

انتهت الورقة. لم يعد هناك متّسع لما أريد أن أقوله. أقف أمام الباب وأدقّ. يأتي السجّان:

- خلصتْ.

- لا.. أريد أوراقاً أخرى، لديّ الكثير مما أريد أن أقوله.

عاد بثلاث ورقات أخرى:

- ياويلك لو كان الحكي فاضي.

أتناول الأوراق بلهفة وأستمرّ بفضّ شهوة الكتابة، في ظلال ضوء خافت.

السيّد المحقّق:

شيء ما في داخلي يقول لي: ياولد.. كفاك عبثاً ولهاثاً.. مهما عانيت كي تقفز إلى الصفوف الأمامية، فإنّ ذلك لا يجديك.. ولهذا أسمّيك عابثاً مثل قطّة تحلم بالطيران. الطريق أمامك مسدودة ولا مجال لتسلّق السلّم

الاجتماعي. فأضحك عليه وعلى نفسي وأجيبه: لا شك أنك مبعوث الشيطان، أو أنك مدفوع من قوىً معادية تهدف إلى تثبيط الهمم من خلال تحطيم أحلامنا كي نستسلم لعبثيّة لاترحم. ولكنَّ هذا الذي في داخلي لايستسلم لاتّهاماتي، بل ينظر إليَّ بطرف عينه هازئاً: أيها المدعو "كمال حدّاد".. ياصديقي اللدود.. ألم تتعب بعد من الدعوة إلى المساواة وتكافؤ الفرص؟ ألم تضجر من سذاجة المطالبة بأن يكون الثواب على قدْر العمل؟ ألم يَئِن الأوان كي تفهم اللعبة فتلعب على الحبال مثل الحواة الذين ترى أنّهم يتصدّرون المحافل لأنهم أتقنوا الازدواجية فمارسوا التملّق، وأمسوا يطالبون بالمشاركة وهم يمارسون السطوة. يُظهرون التهذيب ويمضون في الرذيلة، يمنحون القليل في العلن ليستولوا على الكثير في الخفاء.

شيء ما في داخلي يلكزني كي أكفّ عن التفاؤل بغدٍ مشرق قريب، ويحثّني على النّدم لأنني اخترت طريق المثقّفين الصعب، وطريق الكتابة الذي تحفّ به الأشواك من كل جانب. شيء ما في داخلي يدفعني إلى الإقرار بأن العلم لايُطعم خبزاً، ولا يأمن صاحبه من جوع ولا خوف.

شيء ما في داخلي يفجعني بي متسائلاً: ماجدوى ماتؤمن به وما تحمله من أفكار، وما جدوى ماتعلمه

مادمت غير قادر على إيصاله إلى الآخرين كي يتحوّل إلى عمل. الأظافر التي تعتني بها دائماً كي تنشبها في مستنقعات التعفّن لم تعد تحدي لأنّها أدمنت التقليم بدعوى الصراحة القاسية، والمباشرة الفجّة، والعين الوقحة التي تريد أن تقاوم المخرز.

شيء ما في داخلي يحاكمني أمامي ويدينني متحدّياً: هل تستطيع حقّاً أن تكتب من الفكر والقلب متجاهلاً موقف الناشر الذي يخاف ممّا يصدر عنهما؟ وإذا فعلت، هل يجرؤ فيوافق على كيّ جراح الأمة كي تلتئم، أم يراعي حرصه على الراتب من خلال انصياعه لرقيب داخلي شرس لا وجود له في الواقع، فيؤوّل كلّ ماتكتبه إلى شأن سياسي، ويحيل كلّ ماتكتبه إلى علبة القمامة وهو ينظر حوله ليتأكّد من أن أحداً لم يضبطه وهو يقرأ كلاماً صريحاً لاينقذ الأمّة سواه؟

شيء ما في داخلي يدعوني إلى أن نحكّم ضمائرنا ونقول مايجب أن يُقال قبل أن يفني الخوف الزائف بقايا الأمة التي نحرص على عودتها "خير أمّة أخرجت للناس" كما قلتم، تماماً، في ذلك اللقاء الذي اتّضحت لي فيه ثقافتكم الكبيرة.

لهذا أرجو إعلام رئيس الفرع بضرورة ذهابي إلى المشفى قبل أن تكتشفوا أنني متّ من غير سبب وجيه. أشكر لكم حسن التفهّم، وموعد ابرتي بعد غد.

...

أترك الأوراق قربي، وأشعر بالارتياح، بعد أن كتبت. لعلّ شيئاً مما كتبته يحفّز المحقّق ليعمل على إطلاق سراحي. ماهم ولهذا المهلوس المريض الذي لم يثبت عليه شيء مما نُسب إليه. بعد مواقفه والتحقيق معه، وطريقة ردود أفعاله، مالفائدة من بقائه هنا؟

***

الأكتع

لم يطل تأمّلي كثيراً بسعادة إفراغ مالدي وترجمته إلى حروف، حتّى عادت فكرة الموت تسيطر عليّ. إذا متّ هنا هل سيرموني في القمامة؟ هل سيرموني على الطريق كما فعلوا بالعشرات الذين صار يُعثر عليهم بالحاويات؟ أو كما فعلوا بالدكتور صخر حلاق وأطلقوا حوله الشائعات؟

ثلاثة أيام استغرق البحث عنه حتى وجدوا جثّته على طريق السفيرة*.

ولاأنسى أول شهيد في حلب، محمد أكتع الذي قتله الشبيحة في سيف الدولة، في 17-6-2011، قبل شهر من الآن، وجاء تقرير الطبيب الشرعي أن محمد توفي بالسكتة القلبية، ولايوجد أي آثار أو كدمات تدل على ضربه. أهل الشاب محمد زغردوا لهذا العريس، وزوجه

* شارك الدكتور صخر حلاق، إخصائي تغذية، في منتصف نيسان، بمؤتمر طبي في مدينة ميامي ولاية فلوريدا، بأمريكا. في 25 أيار اعتقلته المخابرات للاستجواب حول سفره. بعد ثلاثة أيام، عُثر على جثته، على طريق السفيرة، مشوّهة. عيناه مقلوعتان ويوجد جرح كبير بخاصرته. ولم نسمع بأي تحقيق حول مصرعه.

الحامـل وأولاده الثلاثـة كـانوا ينتظـرون جثّتـه. بـدأ المعـزّون بالتوافـد، وممـا لا شـك فيـه أن نصـفهم مـن الأمـن، حيـث كانوا يُطَمئِنون جميع أهل حارته في حي السكري أن محمد توفي بسكتة قلبية. كـان مـن بـين المغسّلين رجـال أمن لمنع التصوير. وكـان من المقرر الصلاة على الشهيد في مسجد الصحابي خباب بجانب منزله ، ولكنّ الأمن المرافق للجثّة منع ذلك، واستقلّ المشيعون سياراتهم بسرعة كي لا يصدر أي تكبـير. وأجـرى تلفزيـون الـدنيا مقـابلات، بـدا خلالهـا سرور الأهـل لأن ابنهم محمد توفي بسكتة قلبية، ووضعت الأعـلام السـورية كخلفيـة للتصـوير، وبـدأ هتـاف الأمـن والشبيحة: بالروح بالدم نفديك يابشار.

حـين ذهبنـا للتعزيـة، التقيـت بأبيـه وأخيـه وأحـد أقاربـه، وسألت عن ملابسات استشهاده، فأكّدوا وفاته الطبيعية. ومن المؤكّد أن الأمن سَبقَنا إليهم، ويبدو أنّهم تلقّوا تحذيراً شديد اللهجة. هناك التقيت، على انفراد، بأحد الأصدقاءِ المقرّبين للشـهيد، وأكّـد واقعـة موتـه إثـر الضـرب بالعصـي الكهربائية على رأسه. وقال إنّ صديقه كان يتمتّع بصحّة جيدة، ولايعاني من أي أعراض قلبية. تبادلنا أرقام الهواتف ووعدني أن يزوّدني بالتفاصيل، بعيداً عن السكّري. لكنّه لم يفعل. وللمصادفة كان طبيبي "ياسر" هو المسعف بالمشفى

في ذلك اليوم. وعدته مع عدد من المحامين، في مطعم السفراء بحلب، ليكتب لنا تقريراً عن حالة الشهيد ويبيّن لنا أن الوفاة نتيجة الصعق الكهربائي أعلى الكتف، لنتمكن من رفع دعوى للتحقيق بالواقعة.

آآآآه يبدو أنني لاأستطيع التركيز. أو ربما تتداخل الصور في ذهني. لاأدري لماذ تلحّ عليّ فكرة الموت؟ والآن أعيش تفاصيل الطريق إلى المطعم في بستان كل آب.

كان الوقت بعد العشاء. كنت مع لفيف من الأصدقاء في منتدى حلب الثقافي. الحديث عن الثورة كان في أوجه. ياسر يجلس إلى إحدى الطاولات في زاوية المقهى يكتب تقرير الحالة الطبيّة للأكتع حين كشف عليه. كنت أجلس إلى الطاولة الرئيسة مع عدد من الأدباء والمحامين والقضاة نتدارس دورنا في حال حدوث الانفلات الأمني في المدينة، ونحلّل ماحدث في درعا، وأساليب التظاهر في حمص. حين انتهى ياسر من كتابة التقرير، انطلقنا من المنتدى إلى موعدنا في المطعم، باتّجاه شارع بارون الرئيسي.

القرار الصعب

-1-

صَدَم الدكتور ياسر مارأيناه. توقّف فجأة، مبدياً دهشته مما يرى. محل فلافل الفيحاء يحتل نصف الشارع بأدواته التي ينشرها فيه، بما في ذلك طاولة مليئة بالمخللات واللبن، حيث يأكل المارّة ويرمون بالبقايا وسط شارع مزدحم. والرصيف لامكان فيه إلاّ للذين يتناولون وجبة فلافل، والمطاعم المجاورة تحذو حذوه، حتى بات الشارع وقفاً لهم. تتصدر المحل عبارات تدعو إلى التقوى، إلى جانب صورة كبيرة للرئيس.

قرّبت فمي من أذنه وهمست له ونحن نقطع الشارع:

- هؤلاء معظمهم شبيحة.

مررنا بفندق بارون الشهير، ثم وصلنا إلى منطقة "بستان كليب"* ، الشارع الذي تطلّ عليه الواجهة الخلفيّة للفندق.

* اللفظ الشائع لبستان كل آب.

وهي منطقة تمتد من باب الفرج الى الطرف الغربي لجادة الخندق. كان الوقت بعد العشاء، وقد بدأت وفود الغانيات تهلّ إلى ملهى "الفلك" في أول الشارع. مررنا بمحلات "الطورنجية" التي تشغل جانبي الشارع، وقد احتلّت مولدات الكهرباء معظم الأرصفة، بعد أن ازدادت فترة انقطاع الكهرباء إلى درجة لاتُطاق.

أمام مطعم النورس الذي يعلوه وكرّ للقمار بحراسة الأمن والشرطة، يقبع مقصدنا، مطعم السفراء الذي تحتل واجهته لوحة كتب عليها: المشروبات الروحية ممنوعة بأمر من الله. صعدنا إلى الطابق العلوي الصيفي، وبدأت تنعشنا نسائم حلب القديمة وسط أصص الزهور المنتشرة في المطعم. الكبة النيئة تصدّرت مطالبنا، ولم يعد، بعد ذلك، بدّ من الشواء الذي لايمكن دخول مطاعم حلب من غير أن يلحّ عليك طلبه.

ماتحدّثنا عنه كثير في ذلك اليوم، من مناقشة التقرير الطبي وإمكانية رفع دعوى على القاتلين، وفضح عملية القتل إعلامياً. وكيفية تهريب حاتم بدران، الذي بيّن لنا أخوه المحامي علي خطورة بقائه في تلرفعت. كما قمنا بجولات مكوكيّة بين المقاهي للمّ شمل المتظاهرين والتنسيق فيما بينهم. كم كانت تحرّكاتنا صعبة، وباءَ كثيرٌ مما خطّطنا له

بالفشل، فقد كان انطلاق الثورة مفاجئاً لنا ، ولم نكن نتقن تنظيم التكتلات، لأننا لم نكن نهتم بالسياسة، وإنّما انصبّ جلّ اهتمامنا على الثورة الفكرية – الورقية. وعلى حين غرّة صرنا وجهاً لوجه أمام غياب من يقوم بتلك المهام. فقد كانت أحزاب المعارضة التقليدية منشغلة بتقاسم الكعكة، وكان المعارضون القدامى قد فقدوا الثقة بنهوض الأمة بعد ماعانوه في سجون الظلم عبر عقود مضت.

..

-2-

لم أجد ثمرة رسالتي للمحقّق، فلم يردّ عليّ أحد. الضيق أمسى يزيد الخناق عليّ أكثر. عاودتني نوبة التفكير بالموت، هذا الحاضر الغائب.

لاشيء أقسى على الإنسان من الشعور بأنه كائن وحيد، وأشد ماتكون الوحدة قسوة تلك التي يعانيها وهو في جحر زنزانة، يتأرجح فيها الموت بين عينيه كلّ ليلة. حين يُحتضر المرء يشعر بأنه يموت وحده، وأن الحياة بعده مستمرة، هذا مايجعل الموت مخيفاً. لكنّ التذكّر الدائم أن كثيرين ماتوا قبله، وأنه سيذهب إلى حيث يجد آخرين، وأن الذين يرقبون موته هم أيضاً سيلقون المصير نفسه، ذلك

يخفّف عبء المأساة عليه. غير أن الموت الذي يداهمه يشتد ثقله حين يتذكّر واجباً مهمّاً لم يقم به بعد كي يجعل موته مطمئنّاً. لذلك تطول فترة الاحتضار على قِصَرها. الاحتضار لحظة خاطفة تطول في الزمان الذاتي وكأنها دهر بأكمله، حيث يمتد شريط ذكريات الإنسان عبر حياته كلّها، كما يحدث معي الآن. يستحضر ذاته ويراقبها وكأنها موضوع خارجي، فيرصد أفعاله ويحكم عليها بحيادية صارمة، ينتقل بعدها إلى الشعور بالرضى أو يكابد آلام مااقترفته يداه. والموت، هذا الحاضر الغائب، هل يكون التفكير فيه ترفاً فكرياً لامبرّر له، أم أنه من لزوميات الحياة؟ وهل نهجر التفكير فيه لأننا منشغلون بالتفكير في الحياة، أم لأننا لانستطيع أن نقتحم أسوار الغموض العالية؟

قال لاروشفوكو، قديماً: "ثمة شيئان لايمكن أن يحدّق فيهما المرء: الشمس والموت". مخطيء هذا الفيلسوف، فالإنسان الذي استطاع أن ينفذ إلى بعض أسرار الشمس من خلال تقنيّات العصر، يمكنه أيضاً أن يقارب موضوع الموت دونما خوف أو وجل.

التفكير الطبيعي في الموت، وتأمّله والاستسلام له، يبعث على السكينة والهدوء، أما التفكير فيه إلى حد الوسواس

فهو ناتج عن إحساس المرء بأنه فشل في الحياة، ولم يستطع تحقيق كثير من إمكاناته وأمانيه.

أن نموت بعد أن نشعر بأننا / قد عشنا / يختلف عن موتنا حين نكون مانزال نستعد للحياة بعد. إنه شعور بالتقصير أو الإثم تجاه حياة لم نجعلها ممتلئة بما هو متاح. هل الموت هو النهاية وهو الفناء، أم أنه جسر انتقال إلى عالم الأبدية والخلود؟ هنا يكمن الفرق بين الإيمان والعبثيّة.

بما أنني راضٍ عمّا أنا فيه، سأوغل في تحقيق إغاظة الأمن والسلطة الاستبدادية.

لقد تمكّنت طوال الوقت، منذ وعيت حتى الآن، من تجاوز المخاطر وإيصال كلمتي حتى وأنا في جوف الثعبان. فلماذا لاأختار موتي أيضاً ليتأكّد لهم أن الحريّة ليست مطلباً مترَفاً، وإنّما هي خاصية بشريّة اختارها الله للإنسان، ولهذا كان الثواب والعقاب.

حين قفزت الفكرة إلى رأسي، ضحكتُ، في سرّي. تصوّرت مواقف زملاء الاعتقال ودهشتهم التي ستختلط بالإكبار. بالطبع، لم أكن بالشجاعة التي قد يتصوّرونها عنّي، بعد أن يسمعوا نبأ ما أقدمت عليه. لكنّني أحسب المسألة على النحو التالي: أنا مصاب بسرطان المثانة،

والعملية التي أجريتها لن تؤتي ثمارها ما لم يستمرّ العلاج المقرّر لها. وبدلاً من أموت موتاً مجّانيّاً، لماذا لاأوظّف موتي في خدمة الثورة؟

قرعت الباب بقوّة وثبات، وقد تراءت أمامي نتيجة ما أنا مقدِم عليه، فلم يعد للحذر أي أهميّة بعد ذلك.

بين قسطل الحرامي وغرفة التعذيب

-1-

غدا مطلبي الملحّ أن أفرغ المثانة علناً، رغم استياء عناصر الأمن منّي في كلّ مرّة أدقّ فيها الباب. وبدأت تتجلى فكرة الموت الجميل.

عرفته أوّل مرة حين واروا جدّي لأميّ. لم تكن لديّ معه وقفات كثيرة، ولكنّ ماعرفتُه فيه كان كافياً كي أحبّه.

حين كنّا نزورهم في بيتهم الوقفي الكبير على كتف المخفر في قسطل الحرامي، يمسك بيدي ويصطحبني إلى الجابرية حيث محله للبقالة الذي بقي مصرّاً على تسميته مكتبة النجمة.

وللنجمة حكاية طريفة ومحزنة. كان جدّي وأخوالي ناصريين، ككثير من السوريين الذين بهرهم قائد عربي بخطاباته الحماسية، وتعبيراً عن حماسه الوطني، أو ربما بإيعاز من السلطة، أو للدلالة على اسم محلّه، كان جدّي يفرد عَلَماً كبيراً يرفرف عند مدخل المكتبة. وذات يوم اقتحم عناصر من الأمن المكتبة، بعد الانفصال، وكان

خالي الكبير يجلس على رصيف المدخل، فأخذوه وضربوه "فلقة" بحجة أنه ضد الانفصال، لأنه يخفي نجمة من العَلَم السوري ذي النجمات الثلاثة، كي يبدو عَلَماً مصريّاً، أو عَلَماً للوحدة.

كنت أزور المكتبة على مدى سنوات بشكل متقطّع، كلّما اصطحبني جدّي إلى هناك. المكتبة كانت واحدة من مصادر سروري. زبائن من كل صنف ولون، يمطّ رأسه طفل مثلي ليرى وجوههم وحركات أيديهم وماذا يطلبون. معظم زبائن جدّي يافعات تزيّن صدروهن صلبان مختلفة الألوان والأحجام، وكنّ يلاطفنه ويلاطفهنّ. قليلات هنّ كبيرات السن اللواتي لفتُّ نظرهنّ فقلن لجدّي: - من هذا الشاب الحلو؟

كانت أيديهن تتنقّل بين الكتب، فقد تميّزت تلك المكتبة بأنها بقالية متنوّعة، من أساور البنات المزيّفة إلى أكلات الأطفال ومؤن البيت من زيت وسكّر وشاي وبرغل، كما أنها المكتبة التي أتاح فيها جدّي ميزة استئجار الكتب، مع خدمة تبيين محتوى كل كتاب. حين تسأله إحدى الفتيات عن "قصر الشوق" أو "السكّرية" ماذا فيه، كان يلخّص لها محتواه، فتستأجره أو تصرف النظر عنه إلى سواه حسب اهتمامها في تلك الفترة.

أكثر مالاحظته وأنا لاأتجاوز عشرة أعوام، هو أفواه البنات التي تغدو مفغورة وهو يحكي لهنّ عن كتب إحسان عبد القدوس مثل "أين عمري" و"الوسادة الخالية" و"النظارة السوداء" و"بئر الحرمان"، فتذبل أعينهن أو تبرق بشكل لم أكن أفهم سرّه.

وقد لمحت، ذات مرة، عينا فتاة تتحوّل إلى عينيّ قطّة شرسة وهي تستمع إلى ملخّص حكاية "لا أنام". فهي فتاة مولعة بأبيها، فقدت الأم وراحت تتقمص دورها لتهيمن على حياة أبيها وتنسج المؤامرات لامرأة أبيها كي تطردها من البيت. وكان جدّي يعرف أسماء زبائنه وأمزجتهم واهتماماتهم، فحين أمسك أحدهم كتاب "النظرات والعبرات" وبدأ يبتسم بثعلبية، قال له:

- تروك هالكتاب من ايدك... هاد مالك أسنان عليه.

قال الشاب:

- باينتو حلو.

سحب جدي الكتاب من يده:

- هاد كتاب أدب ممتاز مابيفيدك مشان رسائل الغزل، انت زلمة صايع.

كما كان بعض اليافعين مغرمين بمصطفى السباعي وجبران، وطه حسين والمنفلوطي؛ ويهمسون لجدّي كي يؤجّرهم الكتب الدينية والسياسية الممنوعة التي يخفيها في سقيفة المكتبة.

كان يأتي بعد الظهر إلى قيلولته اليوميّة، ونحن نلهو ببستان الدار الفسيح، بين أشجار الرمّان والكبّاد، وشجيرات القراصيّة، ثم ندخل الغرفة المخصصة لـ"الولي"*.

غرفة صغيرة فيها ضريح كُتب عليه اسمه، ولم أعد اذكر سوى كنيته شرف الدين السبسبي، وللغرفة نافذة صغيرة مشبّكة بالقضبان يشرف الشارع عليها، حتى إذا شاء المارّون السلام على "الولي"، يطلّون من النافذة عليه. وكم كان المشهد بديعاً حين كنت أخرج إلى الشارع بالليل ويرفعني خالي لأرى المقام من النافذة، وقد أضيئت باللون الأخضر الخافت.

كانت النسوة يأتين إليه، وتقوم المأذونة بفرد ذيل قميص النوم الداخلي لهنّ على حافة الرفات، تضع مسماراً على طرفه وتطرق رأس المسمار بحجرة صغيرة مخصصة لهذه الغاية. عرفت، فيما بعد، أن من تقوم بهذا العمل ينبغي أن تكون مجازة بعد إعطائها الأذن من العائلة السبسبية، وأن

* التقيّ الصالح، يتقرب به العامة إلى الله. له نوع من القدسية. الجمع أولياء.

تأتي الزائرة بنيّة صافية، وثياب طاهرة، وأن تُكثر من الدعاء داخل المقام، كي يحصل المطلوب.

واشتُهر هذا "الولي" بأن من تدقّ قميص نومها عنده يحدث حملها المستعصي، فتفي بنذرها عنده عندما تتم الاستجابة، فتجلب نعجة أو شمعاً أو مبلغاً من المال، يقوم جدّي عادةً بتوزيعها على من يخدمون الجامع.

دار جدّي يعرفها أهالي حلب باسم المعضّم"المعظّم" لوجود مقام الولي فيها، وكانت تتصل بجامع ملحق بها، بينه وبينها باب صغير، يمكن الولوج منه للجامع، فضلاً عن الباب الخارجي من الشارع.

على طرف الجامع كان هناك شجرة تين كبيرة، كثيراً ماكنّا نتسلّقها ونتلذّذ بثمارها الطازجة ذات القشرة البنفسجيّة، نبحث عن التينة الكبيرة الناضجة فتحكّنا أيدينا من الأوراق الخضراء التي نفكّ عناقها مع الثمرة التي نقطفها فتدبق أيدينا من الحليب الذي تفرزه الثمرة حين تُقطَف، وكأنّها تدمع لمفارقة مسكنها الذي نشأت فيه.

نكمل التسلّق إلى السطح المطلّ على معمل البوظ الذي يصدر صوتُه نفحاتِ شلاّل في الليالي المقمرة. نستلقي ورؤوسنا تلتفّ حول بركة الماء، نعدّ النجوم ونحن

نصغي إلى خرير الماء، حيث يحلو سماع الحكايات، والنسائم اللطيفة تعبر ثيابنا الخفيفة.

بعد قيلولة جدّي، ورغم أنني السبط العاشر له، كان يشبك يدي في يده ويصطحبني إلى مكتبته. طوال الطريق كان يحكي لي عن حياته:

- تزوجت جدتك وكنا نلهو معاً في بيتنا إلى أن صارت ناضجة. وشوف ياكمال انتبه من رفاق السوء. انا تربيت في منطقة فيها الكثير من المسيحيين، وكما لاحظت من سلاماتنا: بونجور وصباحو وسعيدة. معاشرتهم لطيفة، لكنني ابتُليت ببعض رفاق السوء فعلّموني عادات ذميمة.

من البداية، عندما تستقيم، يهون الأمر. أنا لم أنتبه إلى أهمّية البدايات حتى وقت متأخّر.

كان والدي يدعوني للصلاة فأقوم بحركاتها ولاأصلّي. الآن اكتشفت مدى سذاجتي. لماذا لم أكن أصلّي مادمت أتحرّك. رفاقي علّموني أشياء ضرّتني كثيراً. بعد ان مرضت صحوت وتركت كلّ شيء ذميم. حججت ولم أعد أقطع وقتاً للصلاة. فقط التدخين هو العادة السيئة الوحيدة التي أريد التخلّص منها.

...

-2-

بالرغم من مرور أكثر من أربعين عاماً على كلماته، لم تزل تحفر في ذاكرتي. أخذني مرّة إلى سينما رمسيس أو ربما اوبرا، لم أعد أذكر تماماً، فحضرت معه فيلم "ذهب مع الريح"، وبدا في غاية التأثّر وهو يشرح لي تفاصيل القصة وخلفيّاتها، فهي تحكي قصة الحرب الأهلية الأمريكية. لم أكن أفهم معظم مايقول، لكنّني كنت أحدّق في عينيه وفي شعره الكثيف الأبيض، باهتمام بالغ.

كنت في نهاية المرحلة الاعدادية حين جاءنا نبأ وفاته. ربما يكون هو أوّل شخص يضعني وجهاً لوجه مع الموت، ذلك الشيء الذي يغيّب من نحب إلى الأبد.

صرت أدخل إلى غرفته في الدار وأتأمّل صورته المتوضّعة في الزاوية العليا على المرآة الكبيرة المثبّتة على امتداد باب الخزانة التي تُفتح فأرى خلفها كلّ مايتعلّق به من حاجيات، وتعبق مع فتحها، الذي يُصدر صريراً، رائحة شاله المضمّخ بعطر الورد، وطربوش أبيه الأحمر ذي الشراشيب السوداء المضفورة كذيل حصان، والذي تفوح منه رائحة الغار المعتّق. إنّها خزانة ملابسه وأشيائه الحميمة التي يحتفظ بها.

باقي الغرف كانت لأخوالي وزوجاتهم. بقيت غرفة واحدة سمّوها غرفة العازبين. بعد وفاة جدّي أعيد تشكيل شاغلي الغرف، وتمّ تجديد ممرَيّ الحديقة الطويلين.

الآن يصلني النحيب الذي سمعته من جدتي وأمي وخالاتي وأخوالي يوم وفاة جدّي، وأرى أحد أخوالي يضرب رأسه بجدار الغرفة غير مصدّق أنّ والده رحل إلى غير رجعة.

..

-3-

بدأت أصوات الضرب التي أسمعها تشوّش تفكيري وتتداخل مع أصوات العويل القديمة، فأحسست برغبة شديدة للتبوّل. طرقت الباب بحذر. وبعد أخذ وردّ بيني وبين سجّان جديد، لم أره من قبل، ولم يتوانَ عن تسميعي الشتائم التي يبدو من خلالها أن جميع السجّانين تخرّجوا من مدرسة واحدة؛ سأل رؤساءه، وبعد ذهاب ومجيء، غير مرّة، يبدو أنهم سمحوا لي بالخروج.

كان التواليت القريب من زنزانتي مغلقاً لأسباب لم أعرفها، فأخذوني إلى تواليت على بعد ممرين. لم نكن نذهب إلى الحمام معصوبي الأعين ولامقيّدين، فكنت أرى

كلّ ماأمرّ به، بشكل خاطف، ومن طرف عيني. أوقفني أمام الباب وغادر، بعد أن أوصاني أن أبقي وجهي إلى الجدار، حتى يسمح لي أحد بالدخول.

كانت الأصوات في كل مكان، استقبال وافدين بالضرب والشتم، وإحدى غرف التعذيب تُفتح وتُغلق، فيرتفع صوت مابداخلها حيناً، ويخفت أحياناً. بعد طول فترة وقفتي اتّضح لي ان المسألة تعدّت السماح لي بالتبوّل إلى شيء آخر لم أعرفه. طلب صوتٌ ما من أحد المعتقلين أن يخلع ثيابه كلها والبقاء بالثياب الداخلية فقط. جعله ينبطح على الأرض. تركه ومضى.

في غرفة التحقيق لم يكن هناك شيء سوى الضرب. لم يكن ثمة استجواب إنما ضرب متواصل فقط. من شق الباب المواَرب رأيت أحدهم يُدفع على الأرض. ربطوا قدميه ورفعوهما وبدؤوا يضربونه بالكرباج، وكانوا كلّما صرخ زادوا وقع الضرب وسرعته أكثر.

بعد نصف ساعة رموه بين قدميّ اللتين لم أعد أقوى على ألمهما من وقفتي الطويلة. واللؤم الذي أراه أمامي منعني من طلب الاستراحة.

لم أعد أريد التبوّل. فقط أريد أن أعود إلى زنزانتي، فالعذاب الذي أراه أمامي وأسمعه، يحفر في مسامات

روحـي. نظـرت إلى قـدميّ الشـاب الـذي رمـوه أمـامي، رأيتهما متورمتين بشكل مخيف، لم أرَ مايشابه ماجرى لهما طوال حياتي.

جـاء شـاب صغير مـن السـخرة وهـو يحمـل "طشـطاً" متوسّـط الحجـم، يصـعد اللهيـب مـن المـاء السـاخن فيـه. غمـس قـدميّ المصـاب فيـه، فبـدأ يصـرخ صـراخاً مرعبـاً، أحسست معه أن شيئاً يُقتَلَع من قحف رأسي.

بعـد قليـل رأيـتهم يجرجـرون الرجـل المسـنّ "بكلابيتـه" الفضيّة. عمره يقارب أواسط الستين، ومن الأصوات التي كانت تتسلل من شقوق الباب، كنت قد عرفت أنه سائق متّهم بنقـل المتظـاهرين مـن عنـدان إلى حلـب، ومـن ثقـب طاقة باب الزنزانة كنت أراهم، كلّ يوم بعد منتصف الليل يسـحبونه مـن يديـه وتنسـحل رجـلاه اللتـان لايقـوى علـى السير بهما. الآن أرى علائم الكهولة على وجهـه. وضعوه داخـل التواليـت، وتكـرر ضـربه علـى قدميـه بجنزيـرة تحمـل حلقـات صـدئة، ثم طلـب منـهم شـخص مـن داخـل غرفـة التعـذيب أن يصـلبوه. ثبّتـوا يديـه ببـاب حديـدي، وتم رفعـه لتبقـى أطـراف أصـابع قدميـه تلامـس الأرض، وبـدأ التفـنّن بضربه من كل الجهات وبكل السُبل، بطريقة عشوائية تبيّن حقـداً عليـه، بـالرفس وبالصـفع وبالكربـاج. صـراخه تـواتر في

علوّه، حتى أنهم هم أنفسهم لم يعودوا يحتملون فظاعته، فكمموا فمه بلاصق عريض.

كأن صوت القيامة بدأ يهدر في دمي. صرخت بصوتٍ عالٍ:

- حااااااج.

خرج من باب غرفة التعذيب ثلاثة وحوش مدججين بالسلاح، والشرر يتطاير من عيونهم. أمرهم كبيرهم بأن يخفضوا السلاح. التفت إليّ وقال:

- إشو بيك؟ يا..حيوان

ارتبكت إجابتي، ولم أقل سوى كلمتين، بهدوءٍ شديد، وصوت منخفض متقطّع الحروف:

- ب دّي ت وال ي ت.

تفرّس في وجهي مليّاً ثم قال لهم:

- يكفي.

باب الأحمر

-1-

فتح السجّان باب التواليت، وأومى لي، بالرشاش الذي يحمله بيده، بأن أدخل. دخلت، غير أن الأمر الغريب، أنني بعد أن تهيّأت لإراحة مثانتي مما امتلأت منه، لم أستطع أن أبول. حدث استعصاء لم تنفع معه كلّ محاولاتي لفعل ذلك.

السجّان يستحثّني على السرعة. أحاول. أضغط أسفل بطني. يدقّ الباب بقبضة حديدية. أحاول. أهزّ جسمي كلّه كزنبرك. أعصر الخصيتين. لافائدة. صار ت تصلني شتائمه رشّاً، والعصبية تعصر حباله الصوتية. لافائدة. لم أستطع فك احتباس البول. خرجت خالي الوفاض.

أعادني السجّان إلى زنزانتي وفي عينيه نظرة تشفٍّ مما سمعت ورأيت.

هذه هي الغاية إذن. غيّروا التواليت عمداً ووضعوني بحيث أرى بعض مايجري من تعذيب ليبثّوا الخوف في قلبي. لايعرفون أنني سأسبقهم قبل الانصياع لمبتغاهم، وماذكرى الموت الذي يلحّ عليّ تصّوره سوى خطوة على طريق تنفيذ مانويت أن أفعله.

الموت.. المرة الثانية التي أطلّ عليّ فيها كانت يوم موت جدي لأبي.

كانت أكثر تأثيراً بي من الأولى، لأنني كنت أكثر التصاقاً به، وكنت بكر الأحفاد. وبقيت فترة طويلة المدلل في العائلة، فكنت ملازماً له في تجواله. خبرت كثيراً من مواقفه حين كنّا نسكن معه حيث ولدت، في باب الأحمر.

-2-

كأنّه حلمٌ أراه الآن. خرجت من زقاق حارتنا الضيّق إلى فرن السنكري في رأس الحارة، على الزاوية المطلّة على جب القبّة، لأشتري الخبز. لاأدري كيف أضعت ال 25 قرشاً التي أحملها. عدت أدراجي خائباً، وأنا أدعو الله طوال الطريق أن أعثر عليها، فاستجاب الله دعائي. عدت فرحاً إلى الفرن الذي طالما أحببت رائحة الاقتراب منه في ليالي العيد، حيث نحمل صواني الكعك السوداء المربّعة،

لنخبزها في الفرن. وفي طريق العودة نتحسس حرارة القرص بعجوة ونحن نتذوّق نكهة حرارته قبل وصولنا إلى البيت.

تلك الحارة الطويلة زرتها قبل أيام من اعتقالي، حين كنت أشتري مونة الجبنة من جب القبّة. تعلّمت أن أجنّب نفسي اللوم ماستطعت إلى ذلك سبيلاً، لذلك اصطحبت زوجي لتنتقي الجبنة التي تراها تحمل نكهةً تغري بتناول المزيد، وهكذا لايعاتبني أحد إذا لم أوفّق في الشراء. أشفقت عليها من كميّة نتف الجبن التي تذوّقتها حتى عثرتْ على أفضل الموجود. لم نكن راضين عنها تماماً، كما الجبنة التي كنّا نشتريها من أقرباء جدتي "بيت الكرمان" في سوق الهال، ولكن هذا أفضل الموجود.

كل شيء، قديماً، كانت له نكهة خاصّة ومذاقٌ لايُنسى.

بعد أن وضعنا الجبنة في السيارة، قلت لها:

– تعالي أريك أين ولدت.

حنينٌ شفيفٌ شدّني للعودة إلى الزقاق الضيّق في الحارة المغلقة. التففنا إلى الطرف الآخر من باب الأحمر حيث غدت دار الإفتاء (الزاوية الصيادية) ببنائها الجميل وزخارفها التي تسحر الألباب، على يميننا. سألتها:

- هل دخلتِ دار الفتوى يوماً؟

- لا.. شكلها أخّاذ كقصر ملكيّ مستقلّ عمّا حوله، وتلك الإطلالة على القلعة تغمر المشهد بما يشبه السحر، ولو أن محافظاً عاقلاً ويده طائلة، رأى روعة هذا المشهد وشعر به، لجاهد كي يحتفظ بالسراي القديمة مقرّاً لعمله، وعرف روعة شرب القهوة على شرفة هذا المبنى.

- لو ترين الباحة الداخلية حيث الإيوان والغرف الكبيرة المحيطة بالباحة على الطابقين. هذه الزخرفة في البناء متأثرة بالعمارة الأوروبية، وقد استُعملت مخرّمات خشبية في الأسقف المستعارة. انظري إلى الدربزونات الحديدية المشغولة وإلى المخرمات الحجرية والمقرنصات والزخارف النباتية فوق مدخل القبلية وفي كورنيشه.

دخلنا الحارة المقابلة لنا، مارّين بحمام باب الأحمر، التي كنت أتحمم فيها كلّ خميس، مع جدتي ومن يرافقنها من نسوة العائلة، قبل دخولي المدرسة، ثم مع جدّي وأخيه وصحبه، بعد اجتيازي الصف الثاني الابتدائي. أكثر ما كان يمتعني فيها الكبّة النيئة الحادّة مع مخلل اللفت والرمّان اللفان، ونحن في مقصورتنا

الخاصّة، بعد أن تتعرّق أجسامنا في بيت النار، بالجوّاني. أمّا كازوزة ستيم على المصاطب بعد أن يلفّ الحمامي أجسامنا بالمآزر النظيفة الملوّنة، فهي تعادل مال قارون.

بعد باب الحمّام يأتي ملحقُها حيث الوقّاد وهو يجلس على كُوَم من الروث ليزوّد مواسير المياه بالجلّة لتسخين الماء.

تجاوزنا الحمّام وماتزال تسكن في أنفي رائحة الصابون الغار والدريرة التي تحرص جدّتي على تأبّط صرّتها، مع قطع البيلون التي كنت أحبّ تمريسها في طاسة الحمّام. أمّا الجرن فقد كانت لعبة إفراغ مائه بيديّ على وجوه الآخرين تستهويني.

في منتصف الحارة قنطرية على يمينها قبو يحفّه الغموض. الرجل المسن ذو الشعر الكثيف الأبيض واللحية الكثّة، دائماً يجلس هناك، وبالرغم من مظهره الأليف، كنّا نخاف من الاقتراب منه.

قبل نهاية الشارع بقليل ندخل الحارة. يبهرني ضيق المكان. هل حقّاً كنت أمرّ بهذا المكان الضيّق واظنّه رحباً واسعاً. هي ثلاثون خطوة وأصل إلى نهاية الزقاق الذي كنّا قبل نهايته بقليل ننصب أحجار "الشيش" أو نجهّز خشبة

"التوش"* ونبدأ اللعب. أوننجّر بعض الأخشاب، على أشكال مسدّسات، ونفاجيء بعضنا في تلافيف منعطفات الحارة:

- وليمن.

بلعبة البوليس والحرامية. يطارد بعضنا بعضاً، ثم نربط من يتم القبض عليه على جذوع الأشجار.

أضحك بصوتٍ عالٍ وأنا أتجوّل في المكان، تسألني زوجي:

- لماذا تضحك.

أحكي لها أنني، حين انتقلنا إلى بيتنا الجديد الملاصق للحمام، وحين كنا نلعب لعبة البوليس، فإذا جاء دوري أن أكون الحرامي ليبحثوا عني ويعتقلوني، كنت أتسلل إلى البيت. أراقبهم من النافذة الصغيرة المطلّة على الحارة. أتناول الطعام والحلوى وأرتاح، وبعد وقت طويل، أعود لأثبت وجودي في الحارة، فأصل قبلهم، إلى المكان، فيقرّون بفشلهم في العثور عليّ بالوقت المحدد ويخسرون

* ألعاب شعبية حلبية، يلعبها الأطفال في الحواري القديمة.

اللعبـة، بعـد أن يكونـوا فتّشـوا منعطفـات الحـارة، وتجـاوزوا الفرن، وبحثوا في حديقة القباقيب القريبة الموازية لجب القبّة.

قبل نهاية الحارة أنعطف وزوجي يميناً، فيصير باب دار جـدّي أمـامي تماماً ولاتفصلني عنـه سوى عشر خطوات. أسـير ببطء وأنـا أسمـع صـوت وقـع الحـذاء علـى أحجـار البازلت العتيقة. ألمس البـاب.. أحسّ بدفئه ويتراءى لي أنه ينـبض.. أبحـث في الجـدار عـن إشـارات بـائعي الحليـب والسوس الـتي كانـا يخطّانهـا كإشارات على كميّة مشـترياتنا منهما.

لوهلـةٍ يخطـر لي ان أدقّ السـقّاطة لأدخـل وأرى المـزراب الـذي كنّا نتعمّد المرور من تحته، لنبيّن سرعتنا في التخلّص مـن سيله فوق رؤوسنا ونحن نـرتعش مـن انـزلاق المـاء على شعرنا فيبلل الثيـاب. لاشـكّ سيظنّ سكّان الـدار الحـاليين أنـني مجنـون. كيـف يمكـن لعاقـل أن يطـرق بابـاً ليلقـي نظـرةً علـى دار كـان يسكنها منذ خمسين عاماً؟ لم يكـن المـزراب وحده يرسل إليّ إشارات صوت المطر في تلك اللحظة. بل أراني وأولاد عـم أبي نضـع أيـدينا وركباتنـا علـى الأرض، ونزحـف من أول أرض الحـوش إلى آخرهـا، حـين تقـوم أمّـي بشطفها. هي تسفح الماء من السطل الكبير، ونحن نجذّف بأيدينا فرحين.

تنبّهني زوجتي إلى أننا يجب أن نعود إلى البيت قبل أن يشتدّ الحرّ. أنسحب وأنا ماأزال مبحراً هناك. حيث صحن الدار وفسقية ماء تتوسط الصحن، وبجانب الفسقية صهريج ماء يتم جمع المياه فيه ويتم تجديده باستمرار. والإيوان ذو السقف الخشبي المزخرف مرتفع ويزدهي بألوان رائعة، تحيط به كتابات فيها حِكَمٌ للحياة. صوت ماء البركة العذب يعزفُ الآن في أذني أنغاماً لايطالها النسيان. القبو كان واسعاً وجدرانه سميكة، يُدفِيء في الشتاء، ويرطّب في الصيف. ومليء بالمؤن وبعض الأواني النحاسية. غرفة الضيوف في الجهة المقابلة للإيوان، سقفها خشبي مرتفع مزخرف بألوان رائعة تتداخل معها رسوم بماء الذهب، ويتوسط السقف خمسة ثعابين خشبية ملتفة حول بعضها لدرء العين الشريرة، ويزدان السقف بكتابات رائعة. جدران الغرف كلّها مكسوّة بالخشب المشغول وأسقفها العالية مؤلّفة من خشب مبروم، أما المربّع فهو مكان لَهوِنا الرئيس.

القاعة الرئيسة المعدّة للضيوف (غرفة الخطّار) فيها مد دمشقي مصدّف، وسجادة عجمية كبيرة ذات ألوان بديعة، وصندوق فيه جهاز عرس جدتي، وهو من الخشب المصدّف، إضافة إلى أواني ولمبات كاز مذهّبة. وعلى الجدار

سجّادة كبيرة عليها صورة فطوم المغربية تشرب القهوة مع صويحباتها في البستان.

ثم غرفة للمد العربي القروي ويتألف من فُرُش متوضّعة فوق البساط على الأرض، ومنقل كبير يتوسّط الغرفة للتدفئة، ومنقل صغير لعمل القهوة العربية، وملعقة كبيرة لتحميص البن ومن ثم طحنه بـ"المهباج".

في المطبخ أباريق ومطعميات وأدوات الطبخ النحاسيّة. وغرفة خاصة بأعمال العائلة فيها النول اليدوي لنسج الأقمشة وقوالب لطبع الزخارف الملونة عليها، وآلة لسحب الخيوط الفضية والذهبية، وبعض المكاوي القديمة وماكينات الخياطة اليدوية الواطئة من نوع سنجر، وواحدة فقط منصوبة على طاولة وتتحرك بالرِّجل، وهي خاصّة بجدتي. وهناك مكواة تعمل على الفحم. كثير من المرايا القديمة الكبيرة داخل برواز خشبي مزخرف تنتشر في كل مكان. وكنت أنطّ حتى أستطيع أن أرى وجهي في مرآة سكرتون جدتي العالية.

ضحكتُ وأنا أشغّل محرّك السيارة، فقالت زوجتي:

- خير إن شالله... اشفي كمان؟ اش تذكّرت؟

- تذكرت عندما كنت زائراً عند بيت جدي، متربّعاً على سرير جدّي الحديدي العالي، وبعد حكاية "علي

بابا"، في وقت متأخّر من الليل، قدّمت لي جدّتي صحن مهلبيّة في السرير. اهتزّ في يدي، لكنّ شيئاً منه لم ينسكب. أغرتني سماكته باختبار مداها. قلبت الصحن رأساً على عقب وأنا ألمس نعومة الحليب الجامد، فانسكبت محتويات الصحن على الوسادة المطرّزة والشرشف المزهّر. ضحك جدّي بملء فيه ضحكةً عالية. جدتي كانت هادئة الطبع ومن النوع الصبور إلى أقصى مدى. وتحبّني حبّاً يفوق الوصف، وكثيراً ما أثار دهشتي. اقتربت وهي تبتسم:

- معليش ابوي فداك.. فدا (...ك) هلء بغيّر طقم التخت وبجبلك غيرو تقبرني.

نوبة الضحك لم تغادر جدّي، بل زادها كلام جدّتي وتمهّلها في إعادة ترتيب السرير. حين خفّ ثقل الضحك قال لي:

- صار وقت النوم ياكمال بكرا قدامنا شغل كتير من الصباح الباكر.

كنت أرافقه إلى الأوضة التي يملكها في الطابق العلوي من "خان الوزير"، وهناك تعلّمت شغل التريكو. كان جدّي محمد صالح مشهوراً بأشياء كثيرة في الخان. هو

المرجـع الأوّل في التفصـيل، وفي ابتكـار مـوديلات جديـدة للألبسـة القطنيّـة. وكانـت رائحـة شـايه تفـوح حـتى بـاب الخان الحديدي الكبير المرصّع بطريقة فنيّة بمسامير كبيرة.

....

-3-

صـوت عـواءٍ آدمـيّ رهيـب داهـم سمعـي، وقطـع علـيّ الاستغراق في التفكير:

- والله العظـيم مظلـوم.. ماكنـت بالمظـاهرة.. دخيـل الله حاااج.. كرمال محمد.

تلك الاستجداءات لم تكن تزيد السجّان إلاّ إمعاناً في التعـذيب، وتسـريع الضـرب وازديـاده. وبـين الحـين والاخـر يتجدّد الصراخ بقسوة.

لم أستطع الاستمرار في التفكير. بل لم أستطع الهروب إلى الذاكرة، كي لا أشعر بدرجة عذاب من يستفردون به. وضـعت أصـبعيّ داخـل أذنيّ ودفنـت رأسـي في البطانيّـة، وبدأت رحلة مجابهتي لصوت ضرب السوط وصداه بالرحيل إلى خارج المكان والزمان.

أغمضت عينيّ بقوّة ورحت أحدّق في باب الخان الكبير، الذي يتوسّطه باب صغير، يتّسع لدخول الأشخاص، من دون البضائع أو الدواب.

الخان كان أيضاً مكاناً أثيراً لديّ. يتميّز بنوعية زخارفه والرنوك على الواجهة الأمامية، والزخارف المحيطة بالنوافذ في الواجهة الداخلية الشرقية، وهي تتعانق مع أشكال زخرفية حديثة. كنت مغرماً بالأعمدة المضفورة في واجهته الداخلية، والتناوب في المداميك في الواجهة الخارجية، والمزررات والمقرنصات التي تزيّن نوافذ الغرفة التي تعلو مدخل الخان، وقد سقفت بقبّة وتحيط بها حنفيات ماء متعدّدة.

كنت أتجاوز حجب الأبنية المعاصرة التي أدّت إلى حرمان الخان من إطلالته الجميلة ومن صلته البصرية بالقلعة، من خلال صعودي إلى سطحه والاستغراق في المشهد، واللعب على العشب المترامي على أطرافه، وبعض مداخيله التي تشبه القلعة.

جدّي صالح كان متجبّراً في مشيته، ويخشاه كل من يعرفه. حكت لي جدّتي أنه كان يعاقب العامل الذي تشتكي زوجه من سوء معاملته لها. كان جسمه ممتلئاً،

ويرافقه أخوه . شريكه في العمل بشكل دائم، لكنّ الكلمة الحاسمة كانت لجدي، حيث يبدو أخوه شخصيّة ضعيفة أمامه، كتابع دون كيشوت.

ذات ضحى كنا نحن الثلاثة، نسير قرب ساعة باب الفرج من الشارع الممتد من الكتّاب وموازي بستان كليب (كل آب)، وكان يحكي جدّي لأخيه وحفيده ذي السنين العشر، حكاية الطبيب هشام السباعي ونحن نمرّ من تحت عيادته. وفجأةً دَهمتنا حافلةٌ عامّة، صعدتْ الى الرصيف مسرعةً باتّجاهنا. كان أخو جدّي منشغلاً بقراءة لوحة الطبيب، ولم يلحظ لحظة هجوم الحافلة علينا. انحرف السائق بها ليتجنّبنا، غير أن الدولاب الخلفي مرّ فوق ساق جدّي الذي مايزال ممسكاً بيدي. حاولت أن أجرّ جسده الضخم بيدي النحيلة غير أنني لم أفلح. راقب أخوه المشهد بذهولٍ جعله يجمد في مكانه.

لحظة البتر

ماهي إلاّ دقائق معدودة حتى صرنا في عيادة الطبيب الذي كان يتحدّث عنه جدي. الصعود إلى الطابق الأوّل كان صعباً ونحن نصعد الدَرَجَ الملتوي داخل جدارين ضيّقين.

لم أعد أذكر سوى أن رِجلَ جدّي بُترت من الركبة، وبعد أسابيع وصف أحد الأَطباء المشهورين الطبيب الذي قرر البتر بالحمار.

تأقلم جدّي مع الوضع الجديد وغدا، مع مرور الوقت، أكثر مرحاً من ذي قبل.

بعد نجاحي إلى الصف الرابع، نقل والدي مدرستي من عمرو بن العاص، قرب قبو النجارين في البياضة، إلى مدرسة الوليد بن عبد الملك في الاسماعيلية، تمهيداً لانتقال مسكننا، في الفصل الدراسي الثاني إلى الاسماعيلية. كان عليّ أن أمسك بأيدي أخي وأخواتي للذهاب إلى المدرسة كلّ يوم. نصعد من أول خط الترام " الطراماي" عند الباب الخلفي للقصر العدلي المقابل لجامع الأطروش، وننزل

في آخـر الخـط بالجميليـة. ثم نكمـل الطريـق مشـياً إلى مدارسنا. رحلة الترام، كل يوم، ذهاباً وإياباً، كانت متعةً لنا ونحـن نراقـب مسـاره مفترشـاً سـكّته الحديديـة، وملتحفـاً الأسلاك الكهربائيـة الـتي تمـدّه بالطاقـة، ولايمكنـه الانحـراف عـن أيّ منهمـا. جـرس الـترام اليـدوي يـدقّ عنـد كل محطّـة توقّـف. أنـاس يصعـدون وآخـرون ينزلـون، ونحـن نُـدهش مـن اختلافات ثيابهم، والأشياء التي يحملونها.

بين الدهشة والخوف كنّا نرى من يتعلّق بمقدّمة الترام، ونـرى تشـبّث مـن يعتلـي الدراجـة العاديـة (البسـكليت) بمقـبض أحـد أبـواب الـترام، لـيريح نفسـه مـن عنـاء إدارة العجلات برجليه، ويجعل خطّ سيره متوازياً مع الترام ذي اللون الأصفر. كان استقلال الترام عيداً يوميّاً لنا، ولايفوق ركوبه متعةً سوى وصولنا إلى البيت، وتحلّقنا حول المائدة، بعد إنجازنا معركة حضور حصص المدرسة المرهِقة.

بعـد فـترة، انتقـل سـكن جـدي إلى الاسماعيليـة أيضـاً، وانتقلتُ للسكن مع جدي وجدتي. وهكـذا كنـت حاضـراً لحظـة وفاتـه المؤثّرة. وأمسـى البيـت الواسـع مخلخـلاً بغيابـه، وبـدأت طبيعـة الحيـاة تختلـف للجـدة والحفيـد. وتواصـلت أمواج الموت بالاقتراب أكثر حتّى بدأت أشعر بالألفة مع كائن غريب يمدّ يده كلّ فترة ليقتطف واحداً ممن أحبّ.

الموت يهيمن وأنا أرى أننا كوكباً كوكباً نفقدُهم، أولئك الذين يُنيرون ليالينا باللّهاث خلفَ أحلامِهِم التي تجعلُ الحياةَ ممتعةً حتّى للمعذّبينْ. ليلكةً ليلكةً تعرى حدائِقُنا من وجوهٍ أليفة، طالما طوت ابتساماتُها كثيراً من متاعِبنا. ولكنهُّم، أيضاً، ينطفئونَ لِتُشِعَّ أعمالُهم في سماءِ أيَّامنا، وتكسِرَ أرجلَ العتمةِ التي يصطنعها متسلقونَ بلا ملامح. وأنا أيضاً عليّ أن أعبر جسرَ الأبديةْ وأتخلّصَ من ثوبي الطارئ، ومن أعباءِ الجسد، من غير أن أجزَعَ. إنني أدركُ أنَّ الموتَ لايعني خاتمةَ المطافْ إلاّ لأحزاني.

يحاول الموت أن يذكّرنا بقرب مجيئه فنذكره ثم نتناساه. كلما اصطدمنا بحالة موت إنسان عزيز أو قريب منّا نقف مدهوشين، وكأنّها المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا الشيء الغامض. نتصرف دائماً وكأننا قادرون على إيقاف واقعة الموت، لكنّني الآن أريد أن أستعجله: سئمت تكاليف الحياة، ومن يعش خمسين حولاً —لا أبالك – يسأمِ.

يمرّ الموت في وقت محدد لكل نفس فيقطفها، بحيث لايوفّر أحداً على مدى الدهر، ليجسّد المساواة الكاملة بين البشر، من غير استثناء ولا وساطات، وحتى الأنبياء ذاقوا هذه الواقعة التي تكاد تكون الفعل الديمقراطي الوحيد الكامل الذي لايقبل الرشاوي، ولا تنفع معه الحيلة، ولا يملك مكيالين ليفرّق بين غنيّ وفقير، أو حاكم ومحكوم.

لايمكـن أن نسـتهتر بـالموت أو أن نتناسـاه، وإنما يحسُـن بنا أن نستعدّ له بوصفه جسراً للانتقال من عالمٍ إلى عالم كما ينتقـل الجنـين مـن رحـم الأم ليغـدو طفـلاً في عـالم أرحب. حين ينتقل الطفل إلى عالم الحياة يبدأ بالبكاء على محيطـه الـذي أَلِفَـه غـير راغـب في مفارقتـه، لكنّـه يتلقـى الصدمة الأولى بالانفصال عـن حبل السرّة، فإذا جاء إلى الدنيا ألفها وأحبّها ورغب عن مفارقتها حتى أنه يتهيّب من فقدانها والانتقال إلى عـالم آخر تصفه الأديان بأنه الأجمل (الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور) لكنّه يبقى عالماً رهيباً، وتنبع رهبته من كونه عالماً غامضاً يجب أن نحبّه رغم غموضه، بدلاً من محاولة الهرب منه من غير جـدوى: ومـن نزلـت بساحتـه المنايـا فـلا أرض تقيـه ولاسماءُ. لقد جرّب / جلجامش / أن يهرب من الموت، ويبحـث عـن سرّ الخلود، بعـد أن فُجـع بفقـدان صـديقه /أنكيـدو/، لكنّـه فشـل. وفشـل كثـيرون قبلـه وبعـده في التملّص من تلك الكأس الواجبة على الكائنات جميعها، والـتي هـي رحمـة لهـم (محبـة أبديـة أحببتـك مـن أجـل ذلـك أدمـت لـك الرحمـة). الأحـرى بنـا أن نرحّـب بتنـاول تلـك الكـأس فـرحين، لأن الحيـاة الـتي لاتنتهـي تصـيب المـرء بالضجر، تماماً كما الكتاب الضخم الذي يستغرق زمناً

خرافياً لقراءته، وكالعمل الطويل المرهِق الذي ابتلي به /سيزيف*/ في رحلة عذاب أبدية.

ألا تصبح الحياة الطويلة مصدر إزعاج مستمر لنا، تحفّ بها الأمراض من كل جانب ونعتاد خلالها العالم حتى الضجر؟! بل ألا يتمنى، حينذاك، كل من حولنا، بأن تنتهي حياتنا لنتخلّص ويتخلّصوا معنا من حياة معذّبة لاجدوى منها؟ الغريب أننا، جميعاً، نقرّ بحتميّة الموت وبكونه رحمة للإنسان، لكنّنا نستبعد، ضمناً، أن ذلك سيحدث لنا ذات يوم.

الموت واقعة حتمية ولاأخاف من حدوثه، بل سأهيّئ الأسباب لحدوثه.

اليوم.. الآن، ستكون بداية النهاية التي اخترتها.

حين فُتح باب الزنزانة ورموا لي نصف خيارة مع رغيف خبز، جمعتهما ومددت يدي بهما إلى السجّان:

– مابدي.

– قال وهو يرمقني بنظرة غضب:

– - إشّو مابدك ولاااا.

* عاقبه زيوس بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل إلى القمة تدحرجت إلى الوادي، فيعود إلى رفعها ، ويظل هكذا حتى الأبد.

قلت بهدوء شديد وثبات:

- أنا ممتنع عن الطعام.

- لطيزي.. لاتاكل.. بس اتركن عندك.

- بدي كمان أوراق وقلم.. عندي شي أقوله لرئيس الفرع.

بدا مندهشاً وحائراً منّي وهو يغلق الباب.. بهدوء.

الصمت كان يخيّم على المعتقَل، على غير العادة.

بقيت واقفاً أمام طاقة الباب أتامّل البلاط من الثقوب. أحسست بضيق يمنعني من التنفّس. شيء ما يغلي داخل رأسي. أفكّر: تُرى هل اعتقلوا عدنان فلاحة أم هرب قبل أن يصلوا إليه؟ لاشكّ أنّه هرب. لو كانوا أمسكوه كنت عرفت. لابدّ، حينذاك، أن يعيدوا معي التحقيق بناءً على المعلومات التي قد يضطر لإفشائها لهم. فلأمت إذن قبل ذلك.

أسمع حركة وافد جديد. أغمض عينيّ لأستطيع التركيز على الصوت. أرى طاولة الأمانات وقد وقف أمامها شخص يسألونه:

- شو معك؟ بس هدول؟ إشّو اسمك؟

- حازم(ل).

سمعته يلفظ اسمه بثبات لايُداخله خشية. حواسّي كلّها تستنفر لمعرفة مايحدث. أهرع لتسلّق الجدار، كقرد يتدارَك مَن سبقَه، كي أصل إلى النافذة العليا القريبة من الممر الطويل. الآن، إذا اعترف حازم، سينكشف عدنان وأنكشف أنا، ويتّخذ التحقيق مجرى آخر غير الذي كان مطمئِناً لي مادام محصوراً بالتنسيقية.

يسلّم حازم أماناته. يكتب سيرة حياته في الأوراق التي دفعوا بها إليه. أكثر من ربع ساعة طال الأمر. نزلت خلاله من الجدار لأرتاح انتظاراً لعودة الصوت كي أتمكّن من معرفة مايدور.

- من هون ولاك يا... ،

هنا عرفت أنّ السجّان يقوده إلى غرفة التحقيق، التي يبدو أنهم تركوا بابها مفتوحاً، كي يعاقبوا المعتقلين، من خلال سماعهم أصوات صراخ الموقوف تحت التعذيب.

لم يصلني أي صوت غير وقع السياط على جسدٍ يبدو متماسكاً إلى درجة أن حامله لم يُصدر أيّ صراخ سوى تأوّه مكتوم.

ساعة كاملة، بدا لي خلالها أن وقع الضرب يطال جسدي، فأتألم مع من تتنوع أصوات الضرب على جسده. الكرباج.. العصا الغليظة وهو مقيّد إلى الدولاب. أشعر باحتراق خاصرته وهم يطفئون سجائرهم في جسده. قرقعة السلاسل الحديدية تشي برفع جسده على البلنكو، وكيّه بالعصا الكهربائية، وهو معلّق بين السقف والأرض. ساعة كاملة من العذاب المتواصل، ومن الصوت الذي يكتم الألم. مفاصلي لم أعد أشعر بها. تلوح بين عينيّ الكتلة التي ظهرت فجأة على رقبة جدّي، وراحت تكبر بسرعة مذهلة، حتى غدا غير قادرٍ على التنفس. بعد فترة وجيزة، لم يعد يصدر عنه أيّ تنفّس.. ماااات.

تُرى ماالذي يحدث بجسم حازم بكل هذا الضرب الذي لم تقطعه استراحة استجواب أو حوار؟

انقطع صوت السياط.

الدّين ممنوع

توقّف الضرب. عببت الكثير من ماء الطاسة، ثم سكبت ماتبقّى فيها على البطانية المحاذية للباب. وضعت فوهتها على الجدار القريب لمصدر الصوت، وضعت أذني على قاعدة الطاسة ورحت أصغي بكل جوارحي:

- اكتب التعهد يا (...) ولاتورينا خلقتك مرّة تانية. إذا شفناك أابدنا نشنقك غير من خصاويك.

بعد دقيقتين، سمعت خلالهما حركة بناديل كل ساعات العالم، برتابتها وإيقاعها المخيف، اتّضحت لي حركة تسليمه أماناته. أصوات أبواب يتوالى صرير فتحها وإغلاقها، ومع كل باب يبتعد الصوت أكثر. ثمّ عاد الهدوء. ارتميت كالقتيل على البطانيّات، ورحت أتنفّس بسرعة من يحسّ بوشك نفاد الاوكسجين.

بطلٌ حازم هذا، تلقّى التعذيب بشجاعة، ولم يعترف بشيء، ولم يُبدِ أيَّ ضعف أمام وقع السياط. الحمد لله.. لن تنفتح إذن ملفّات جديدة تعيدنا إلى بداية عذاب آخر.

أصغي إلى نداء الروح الداخلي وأنا أتحسّر على مَن يحبّون بلادهم، فتَحول السجون بينهم وبين أحلامهم: ياظلام السجن خيّم.

الغريب أن روحي تنبض سعادةً فيملأ المكان نورٌ غامض. تُرى هل استُجيب دعائي حتى أمسيت أشعر بالسكينة، أم هو إدراكي لغياب الفرح عن سجّاني الذي لايغادره الخوف، ولايفارقه القلق. يسجُنُ جسمي فأسجن روحه.

يدور في رأسي لحن " ياحيف" وتغيب عنّي معظم الكلمات. مالي أحسّ أن ذاكرتي تضعف؟ لم أعد أذكر الكثير مما أعرفه. تلحّ عليّ أبيات من الشعر، وآيات، واقوال لفلاسفة، فلا أتذكّر سوى شذرات مما أعرف.

الآن أريد أن أتذكّر؟ ومافائدة ذلك، إذ صمّمتُ أن تبقى لي أيام معدودة في الحياة؟. أتذكّر الحديث الشريف: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها.

ولكنْ، ماالذي يمكن أن أغرسه هنا؟ مالي غير الصلاة. الدعاء الذي بات ملحّاً، كي لاأموت من القهر هو: اللهم أسعدني. يارب اجعل نفسي آمنةً مطمئنّة. أقوم فأصلّي. لاأدري. ساعة.. ساعتان.. ثلاث؟ لاأعرف.

يفيض دمعي بلا سبب وأنا أردّد بحرقة: اللهم إنّي أسألك الشفاء من كل داء، والنصر على الأعداء، وتخليصي من كل بلاء. كثير من الأدعية التي كنت أردّدها نسيتها، ولم يعد لديّ سوى أدعية أبتكرها، وتناسب ماأنا فيه.

النبي يونس: ماكان دعاؤه الذي نجّاه من بطن الحوت؟ ولكنني لست في بطن حوت يلهمه الله مايفعل. أنا في بطن وحوش لاتعرف الرحمة ولاالشفقة. لا.. بل لاتعرف معنى الإنسانية. اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى.. واعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال.

الدّين.. الدّين. أتذكّر الكلمة وأضحك.

عندما كنت في روضة النسر السوري، تعلّمتُ الكثير من الحروف والكلمات، ونَمَتْ لديّ عادةُ تهجئة اللافتات. لاأترك جملةً مكتوبة في الطريق إلاّ أحاول قراءتها، بل وأرسم شكلَ حروفها بأصبعي في الهواء: مـ مـ نـو ع... مـ و قـ

ف. غير أنّ الجملة التي استعصى عليّ فهمها، وغدت تشكّل هاجساً لديّ، هي الجملة التي أراها منتشرةً على نطاق واسع في واجهات معظم المحلاّت التجاريّة، وخاصّة محالّ البقالة: الدّين ممنوع. بقيتُ فترةً طويلة أقلّبها في ذهني، وأفكّر فيها، وأهجّي حروفها.. ولكنّني لم أفلح بالاقتناع بها. كيف يكون الدّين ممنوعاً؟ ومَن منَعَه؟

ولم أعد أذكر: هل اكتشفتُ السرّ بنفسي، أمّ أنّ قلقي في فهمها دعاني للاستفسار عن سرّ تواترها؟

المهم، اتّضح، أخيراً، أنّ المقصود هو الدَّين(بفتح الدال، لا بكسرها) وصار منطقيّاً أن يكون الدَّينُ ممنوعاً. من يومها أضحى لضبط الكلمات بالشّكل، أهميّة خاصّة عندي.

يعاود دعاء يونس بالإلحاح على ذاكرتي: ماكان دعاؤك يايونس؟ قل لي.

نعم، هذا هو: (لاإله الاّ أنت سبحانك، إنّي كنت من الظالمين). ولكنْ.. فقط هذه الكلمات هي دعاء يونس؟ لا أعرف.. هناك شيء آخر ليكتمل الدعاء. لاأذكر ماهو. ولكنّني لست من الظالمين. أنا من المظلومين. من المسحوقين. زمرة من الأغبياء يقولون: مكّننا الله في

الأرض. هل حقّاً يمكن أن يمكّن الله الفاسدين المفسدين؟ هل غرقتُ بالخطايا لأنال العقاب؟ هل يمكن أن يكون أيّ واحد من هؤلاء الذين يملكون زمام رقابنا في هذا السجن أفضل منّي؟ يبدو أنني أسترسل في الشطح. مافائدة هذا الكلام؟

أصيح بصوتٍ عالٍ، من غير أن أنتبه إلى المكان الذي أنا فيه، فأنا غارقٌ في بئر الظلمات:

- ياااارب... ياخالق السموات والأرض نجّني. مالي غيرك يا ألله.. يا ألله.

اسمع وقع شحاطة تجحف، فأتذكّر أنني في زنزانة من لايرحم. أعود إلى الصلاة حيث قدّرتُ القِبلة باتّجاه الباب. أواصل الصلاة وقتاً طويلاً، وليس ثَمّة فائدة من عدّ الركعات. حين كنت ساجداً، وكنت أطيل السجود، فُتحت الطاقة الصغيرة، فاضطجعتُ بسرعة إلى جانبي الأيسر، متظاهراً بالاسترخاء. رمى شخصٌ ما ثلاث ورقات وقلماً وهو يقول:

- بعد الفطور تعطينا إيّاها مليئة بالاعترافات. ماتكتوووب شي عالحيط ولاا.. قرد.

جاءت الأوراق في وقتها، لعلّ الكتابة تسرّي عنّي، ولعل ماأكتبه يلقى استجابة.

السيد رئيس فرع المخابرات العسكريّة المحترم

تحية عربية طيّبة وبعد

إنّني هنا منذ أكثر من أسبوع، بل عشرة أيام كما أظن. وجرى معي التحقيق مرّات كثيرة، واتّضح أنني لم أفعل شيئاً يؤذي وطني الذي أحبّ. وينبغي أن أكون صباح اليوم في مشفى "الحميّات"، لآخذ ابرة علاجي من السرطان. ولاأدري مافائدة احتجازي هنا. لو أنني كنت في الخارج وأقنعتُ كلّ يوم ثلاثة أشخاص بعدم جدوى التظاهر، وأنه ينبغي أن ننضم جميعاً للحوار، لكنت خدمت البلد وساهمت في إنقاذها من الضياع، بدلاً من بقائي هنا مهمَلاً بلا فائدة. وأنا هنا أقدّم اعتذاري إليَّ، لأنّني عبر خمسين سنة كبحت جميع شهواتي، وعنّفت نفسي، كي أحافظ على تاريخ نظيف لاتشوبه شائبة. ماأعرفه كثير، وما أعانيه أكثر، وبالرغم من ذلك لاتتغيّر قناعتي بأن الحلم سيّد الأخلاق، وأن التدرّج خير الوسائل لتخليص أنفسنا، وتخليص الأمة من أوثان العصر، ومن وحل التردّي الذي نعانيه في علاقاتنا اليومية.

أعـرف أنـني مـن (الكتبَـة) الـذين يثرثـرون بمـا يـوحي للآخـرين أننـا نمـارس جعجعـة ولا ننـتج حبّـةً مـن طحـين. ولكنني - ككل البسطاء القانعين - لاأطلب مالاً كثيراً ولا أطمـع في منصـب أو وجاهـة. ولكنـني - أيضـاً - ككـل الذين يبحثون عن مظلّة أو رابطة تقيهم غدر الزمان والتيه في الأوطان، بادرت للانتساب إلى اتحاد الصحفيين، واتحاد الكتّاب العرب، وجمعية العاديات، ونادي التمثيل للآداب، وجمعيـة العلـوم، وغيرهـا... ، كـي أحتمـي مـن آكلـي لحـوم البشـر، الـذين لايتورّعـون عـن خطـف اللقمـة مـن أفـواه الجـائعين، ليغتنـوا. وتوهّمـت أن شـرف الانتسـاب إلى تلـك الـروابط والاتحـادات، يعزّز كرامتي ويقيني من أسماك القرش البرّيـة، مـن خـلال إدراكهـا أنـني لسـتُ وحـدي مـن يواجـه الكبار الذين يحاولون أكل صغار بني جنسهم.

ولكـنّ الـذي حـدث أن بيـتي قـد اقتُحم بطريقـة غريبـة واقتادوني إلى هنا، وكأنني مجرم.

خمسـون عامـاً تحمّلـت خلالهـا الآلام النفسـية والجسـدية وأنا أعاني شظف العيش، متوهّماً أن طلب العلم أشرف من طلـب المـال، وأن التضـحية في سـبيل العلـم تلقـى صـدىً جيـداً لـدى الآخـرين، فيُكـبِرون صـاحبَها ويصـدّون عنـه

الأذى والمهانة، فكل الأمم تكرّم علماءها وتحافظ عليهم وتمنع عنهم الأذى.

أذكر أنني عندما قدّمت أعمالي إلى مُجَلِّد الكتب، قال لي:

- إنّ كتاباً واحداً من هذه الأعمال كفيل بمنحك (فيللا) في أوروبا، تقدّمها البلدية عادةً للكتّاب مع راتب جيّد كي يتفرّغوا للكتابة.

أقدّم اعتذاري للمجلِّد، لأنني خجلت أن أقول له، بأن الدولة في مدينتي، لم تتورّع عن إرسال كتيبة لاعتقالي. أسلوب اعتقالي أثبت لي أنني لا أساوي في بلدي فردة حذاء قديمة. الكتّاب، عندنا أيضاً، يُعاملون معاملة متميّزة!.

أقدّم اعتذاري لأبي الذي كان يعتزّ بابنه صاحب الشهادات التي تملأ جدران البيت. كان يحمل الصحف والمجلات ليدور بها على أصدقائه ويريهم صورتي واسمي. كان هو وأمي يتّصلان بالأقرباء، حين تظهر صورتي في إحدى الندوات أو المحاضرات، ليقولا لهم:

- تابعوا الشاشة على القناة الفضائية لتروا "كمال".

بعد أن غدوت هنا، لاشكّ أن أمّي تنشغل بالتسبيح لفكّ أسري، ولكنَّ أبي لم يعد يحتاج إلى كتمان خيبة أمله، فقد سبقني إلى الله، وسألحق به قريباً إن لم أخرج من هنا.

أقدّم اعتذاري إلى مدينتي التي أحببتها بشغف، ودعوت الآخرين كي يحافظوا عليها، ثم رأيت التجّار يدوسونها بمتاريسهم، وهي صاغرة راضخة، بفضل موظّفين، تعمي الأموال بصائرهم، فيغضّون الطرف عن كل أذى يلحق بها، ولا أتمكّن من الدفاع عنها أو عن نفسي، أمام مفتاح كان سارياً منذ قرن مما جعل الكواكبي يصف الوضع آنذاك: "ارشِ تمشِ".

أقدّم اعتذاري، لكل المساكين الذين غششتهم من خلال دعواتي المتكررة للحفاظ على الصدق والأمانة والاستقامة. لم أكن أعرف أن الأمر سهل هكذا.. تملك المال بأي طريقة ممكنة.. ثم تعيد كتابة تاريخك من جديد.

أي كاتب صغير، يجعل منك بطلاً، مقابل حفنة من الدولارات.. تشتري الجاه والكرامة والاحترام.. يمكنك أن تبني مسجداً باسمك.. تحصل على الرخصة.. تأخذ أضعاف المواد اللازمة للبناء بأسعار زهيدة.. تُقدَّم لك المنح والهدايا والهبات.. تبني الجامع وتجني الأرباح.. تعمّر

من فائض مال الجامع ثلاث عمارات ضخمة... تبيعها بأغلى الأسعار.. ويتبرّك الناس بك.. إنّك رجل تقي.

أقدّم اعتذاري لكم أيها السادة المحترمون الذين غرّرت بهم، وأرجو أن تصدّقوني، هذه المرّة فقط، بأنني لم أكن أبيّت لكم أيّ تضليل. ولكنّني -كنت مثلكم – سيادة رئيس الفرع، أظنّ أن قيم الخير مازالت موجودة، وأن الجمال لاتستطيع قذارة العالم أن تمحوه .

هل - حقّاً - العالم قذر، أم أنّ الطاعون تفشّى في مدينتنا وحدها؟. هل غدا العالم مقبرة للجمال، أم أنّ مدينتنا - وحدها - مسؤولة عن نهايات القيم؟ أم تُراه ظلماً وقع عليّ، ولم أقوَ على ردّه فانقلبت من الشيء إلى ضدّه؟

سيادة رئيس الفرع.. بعد أن اطلعتم على ملفي وتأكد لديكم أنني بريء ومظلوم، أرجو تعجيل الإفراج عني لأكمل العلاج، وإنني ممتنع عن الطعام حتى يُطلق سراحي أو أموت. ويتأكد لديكم، بعدها، أنني بريء من أي تهمة. وأعيد لأذكّركم بأنني يجب أن أكون صباح اليوم في مشفى الحميّات، لآخذ علاجي من السرطان.

ملاحظة: أحتاج الى التبوّل كل ساعتين بسبب مرضي. أرجو تنبيه الحراس إلى هذا الأمر.

شكراً لحسن تجاوبكم

الزنزانة المنفردة رقم 11

بعـد انتهـائي مـن كتابـة الأوراق كلّهـا، انتبهـت إلى أن حفلة التعذيب اليومية قد بدأت. أسمع صوت ارتطام رأسٍ بجدار زنـزانتي. أتمـدد على الأرض لأنظر مـن فتحـة أسـفلَ الباب.

جلسة خاصّة

ثلاثة عناصر يجرّون رجلاً ضخماً، يخلّف وراءه دماً غزيراً، ترسمه جراحه من يديه ورأسه وساقيه. تبدأ رحلة عذاب صمّ الآذان عن الأصوات التي تمدّ يدها لاقتلاع الأحشاء. أضع كفّيّ على أذنيّ وكلّابيتي تغطّي رأسي. كيف للسجين أن تغمض له عين، وهو يعاني من وصلات الصخب الليلية، حيث يتداخل النحيب والنواح والصراخ والزعيق مع أصوات أدوات التعذيب المختلفة، ووقعها على الأجساد.

كيف يُسدل له جفن وهو يتوجّس من فتح باب الزنزانة، فيكون دوره التالي في التعذيب.

إن للجنون أسباباً كثيرة، من بينها الأصوات المزعجة بشكل دائم.

المعتقَلون يعانون من تعذيب يحفر رؤوسهم من خلال الأصوات المزعجة العالية التي يتعمّدها السجّانون، وهي

جزء من عملية تحاول دفع السجين إلى الجنون، أو إلى اليأس من حياته، التي يغزوها الصخب.

مع خيوط الفجر الأولى، التي بتّ أتخيّلها ولاأراها، بدأ فتح أبواب الزنزانات لتسليم الفطور. عندما جاء دوري، وقفت أمام الباب. بسطت كفّي عمودياً تجاه السجّان وقلت:

- مابدّي.

رمقني بنظرة ازدراء رافعاً حاجبيه باستنكار. رمى رغيف الخبز بقوّة فاصطدم بجدار صدر الغرفة بليونة، وتهاوى على الأرض، منطوياً على نفسه.

قال بنزق:

- مابقى تعطينا الوراق والقلم، والاّ بدك تنام معهن؟

مددت يدي له بها، وقلت وهو يغلق الباب بغضب، ولم أدرِ إن كان قد سمعني:

- أصلاً عشاء أمس مايزال كما هو.

تسلّلتُ إلى الرغيف. كان ساخناً طازجاً، كالمرّات القليلة التي يأتونا فيها بخبز شهيّ. رائحته أنعشت روحي، بعد ليلة قاتمة.

وضعت الرغيف على كفّيّ ورحت أدلّله. أتملّى تلويحة وجهه الضاحك. تسرّبتُ، مع الشعاع الخفي الذي يصدر منه، إلى خارج المعتقّل.

كثير من صباحات العُطَل كنت أستقلّ السيّارة، بُعيد صلاة الفجر، على صوت فيروز الناعم أصل إلى فرن الرازي، أشتري كثيراً من هذه الأرغفة الساخنة. ثم ألتفّ إلى الجميلية لإحضار شعيبيات "مهروسة" وفول "أبو حسن" وأقفل عائداً إلى البيت وأنا أتنشّق عبير صباحات حلب المشمسة النديّة. أتأمّل جمال الأبنية، وروعة هدوء الشوارع، وفيروز تصدح: فايق عسهرة وكان في ليل وندي.

عندما أدخل البيت يبدأ الصخب. أفرد الأرغفة على الطاولة الكبيرة وأنا انادي أولادي، مستعيناً بالتصفيق:

– يلله حاج كسل.. أوام عالدّوْرة* .

---

* نزهة . مشوار للتريّض.

بعضهم يتململ، وآخر ينتفض مسرعاً، كمن داهمه عيدٌ مفاجيء، بمن فيهم أم ثائر التي كانت تصحبنا، في بعض الجولات، ما لم تكن تنتظر زيارة أخوتها لها.

ينهمك الجميع بتحضير حاجيات الانطلاق، وخلال اجتماع خمس دقائق نقرر وجهتنا. الرحلات الصباحية كانت متنوعة، منها الحديقة العامة أو السبيل أو المحلّق أو محيط قلعة حلب. وكم كانت تُدهَش "رؤى" من توأمها "رواد"، عندما تراها تلتقط ضفدعاً في الحديقة العامة وتداعبه، بينما تقفل النوافذ على نفسها، حين تسمع مواء قطّة تتسلق جدار بلكون البيت. وفي حين يكون ثائر هادئاً يلعب دور الرجل الصغير المتّزن، كانت نور الصغيرة تبتدع الألاعيب المضحكة، إما بتغيير نبرة صوتها لتصدِر أصوات طفلة تلثغ، أو ببث روح الحماس، للجري وراء الكرة، أو السعي للتفوّق في ريشة الطائرة. حتّى أنها ذات مرّة، كنّا في مطعم الياسمين في حي الجْدَيدِة، وأحببت أن أريهم أقبية المطعم الذي يضم قبواً بداخله قبو، ورحت أشرح لهم كيف أن الأقبية، في زمن الاحتلال، كانت تُفتح على بعضها في البيوت الحلبيّة، ليتمكّن الثوّار من التنقّل خلالها، أو نقل السلاح والمواد الغذائية. وحين كنت أشرح لهم معالم المكان ذي الإضاءة الخافتة الشاعرية، رأينا نادلاً

ينتفض فتقع من يده صينية العصير والكاتو، وتصبح الكؤوس شظايا. واكتشفنا أن نور الصغيرة هي السبب، فحين كان النادل يمرّ، خرجت له بشكل مفاجيء، من أحد تلك الأقبية، فأصيب بالرعب من كائن يخرج من الجدار.

أعود من حلم اليقظة، على عَجَل، بمداهمة حارس لي. يقيّدني ويطمّشني فأسير معه ببنطّال السجناء الأزرق الفضفاض، وقميصي القطني الداخلي الذي كان أبيض اللون، واصفرّ مع الزمن. بعد منحي هذه البدلة غدت كلابيتي والسترة الزرقاء هما وسادتي، فلم أكن أطيق ارتداء السترة في هذا الحرّ الشديد. هذه المرّة أدخلني الحارس إلى غرفة. نزع الأصفاد من يدي، وحرّر عينيّ من أسرهما. بدأ الخوف يدبّ في فرائصي.

كنت أستقوي بإخفاء عينيّ. أواري كذبي عليهم وراء الطمّاشة. هم يظنّون أنهم يرهبوننا بعصابة العينين وتقييد اليدين. العكس هو الصحيح، نتخيّل مانشاء ونحن مغمضو العينين. أعرف نفسي، لاأستطيع الكذب وأنا انظر بعينيّ محدّثي. أتوهّم أنه يرى مارأى حين يباغتني بالسؤال. قال لي في تحقيق سابق:

– كنت أنت وياسر وأبو فادي في بيتك.

تصوّرت المشهد مباشرة. ولأنني كنت معصوب العينين، حوّلت المشهد لديه إلى شخص دائم الحركة والانشغال بالضيوف بين الغرف. هذا ساعدني على تقطير المعلومات لهم، بمقدار ماأريد. هكذا كان يحدث عند قراءتي رواية ما، ثم مشاهدتها على الشاشة، ولامرّة تطابق تصوّري مع تصوّر المخرج للمكان.

بعد تحرير عينيّ رأيت غرفة صغيرة تبدو كغرفة جلوس في قريةٍ نائية. الرائد، كالعادة، بلباسه المدني. لكنّه هذه المرّة مضطجع، وقد أسند ساعده بوسادة على الأرض. استغربت للوهلة الأولى: كيف أدخل ويبقى مضطجعاً ولايقف لدخولي. غير أنني استدركت صواب التفكير، حين تذكّرت أني سجين. ذلك الاستدراك لم يُفِد في إخفاء ابتسامة خفيفة شعرتُ بارتسامها على وجهي. قال، بغيظ، شخص آخر التقط تلك الإشارة:

– ليك مجرم ومايضحك.

عسكريان، ببذات رسمية، كانا يقفان مستنفرَين، في صدر الغرفة. أشار لي الضابط بأن أجلس إلى كرسي بلاستيكي أبيض كان متوضّعاً مقابله. تحدّث الرائد

والشخص الآخر مطوّلاً عن أنني شخصٌ معروف ومحترم وتبيّن أنني لم أقم بأي عمل إجرامي، وأن يديّ لم تتلطّخا بالدماء. وأشارا إلى مرضي الخطير، الذي اكتشفوا أنني صادق فيما قلته، وتحققوا منه، من خلال الاتصال بالطبيب المعالج والمشفى.

أصغيت باهتمام وأنا أستنشق رائحة الدخان التي امتلأت بها الغرفة من ثلاث لفافات، لم تتوقّف عن بثّ الدخّان. أصغي وأفكّر ماالذي يمكن أن يكون وراء هذا الكلام. تابع المتعاونون على شرح الوضع الحسّاس لي، فقد علموا أنّ لديّ لقاءات تلفزيونية، ومحاضرات، وأشعار. وكل من تحدّث عني قال بأنني رجل عاقل، أعرف مصلحتي. وشرحوا لي مايمرّ بالبلد، والمؤامرات التي تُحاك من أعداء الوطن. وبيّنوا لي تعاطفهم معي، وأن اللواء، رئيس الفرع، يستعجل الحصول على المعلومات، ويأمرهم بوضعي على الدولاب، لأخبرهم بكل ماأعرفه عن المخرّبين؛ لكنّهم يعاملونني معاملةً جيّدة، ويتجنّبون إهانتي، مراعين مكانتي وسنّي، وأنّهم أقنعوا رئيس الفرع بأنني (آدمي).

الامتناع عن الطعام.. وتدجين فاشل

-1-

بعد مايقارب ثلاث ساعات، توصّلوا إلى خلاصة القول، وتبيّن لي مطلبهم.

يريدون منّي أن أزوّدهم بأسماء ناشطين، وأن أظهر على التلفزيون السوري لأتحدّث عن المؤامرة، وأنّه قد غُرّر بي ثم اكتشفت حجم المؤامرة الدولية التي تُحاك ضد المقاومة والممانعة التي يقودها الرئيس. وبالمقابل فإنّهم يطلقون سراحي بعد بثّ اللقاء التلفزيوني، ويعيدوني إلى العمل الذي فُصلت منه في جريدة تشرين، وتبقى أبوابهم مشرعة لي لنبقى على تعاون من أجل سلامة البلد.

لم يكن طلبهم مفاجئاً لي، وقد توقّعته بعد مالاحظته من سلسلة اعترافات تبثّها قناة الدنيا، ومن الواضح أنّها إمّا لشبيحة يمثّلون دور ثوّار تائبين، أو لموالين يبشّرون بأعطيات السلطة وفضائلها، أو لمعتقلين أُجبروا، تحت الضغط والتعذيب، أن يحفظوا ماينبغي عليهم قوله أمام الإعلام.

كان كل مَن الغرفة ينتظر تقديم امتناني لهذا العرض السخي الذي سينقذني من استمرار الاعتقال. الرائد يبدو في عينيه الصغيرتين الزرقاوين تحفّزٌ لانطلاقة فرح متوثّبة لإعلان انتصاره في مهمته بالحصول على مادة إعلامية تدعم توجّهات النظام بانتزاع تصريحات منّي وإعادة بثّها مراراً مما يُعدّ طعناً نافذاً في قلب الثورة.

أحببت تلك اللعبة، وجاء دوري للّعب بأعصابهم قبل أن أرمي بهم إلى هاوية الخيبة. قلت لهم وأنا أُخرج الكلمات ببطء شديد، أتلمّظ بها قبل نطق الحروف، لأبقى، أطول فترة ممكنة ممسكاً بخيوط أعصابهم المشدودة التي باتت تستجدي الخلاص من موقوف يسير على رمال متحرّكة، أمام عسكر مدجّجين بالسلاح، ممايجعل عملية قنصه شبه مستحيلة:

- ماقلتموه صحيح ومقنع ولايتجاوز حدود المنطق. وأنا بالفعل ممتنّ لكم لمساعدتي كي أستعيد حياتي الطبيعية بعيداً عن هذا المكان الذي لايناسبني. أنا لم أدخل مخفراً في حياتي إلاّ بوصفي صحفيّاً للتحقيق في شأن عام.

صمتٌّ برهةً، متلذّذاً بقساوة مرورها عليهم، وهم يراقبون حركة شفتيّ لأشفي غليلهم بموافقتي. أتابع بالبطء نفسه، مع اتّكاءة تفكير بين الجمل. لم أكن أفكّر، في محطات صمتي، بما سأقول، إنّما أمهّد ليكون وقع الصفعة أقوى عليهم، وأشدّ إيلاماً لهم. أريد أن أصدمهم بأقصى ماأستطيع. أعرف أن الامتناع عن الطعام يصيب الجسم بالهزال، وبعد ستة أيام يصبح الإنسان غير قادر على استمرار الحياة إلاّ بالسيرومات، فينقلونه إلى المشفى أو يموت. وبما أنني ممتنع عن الطعام، لن يطول مقامي بينهم، فلِمَ لاأشفي غليلي منهم. شبكتُ أصابع يديّ وقلت:

- ماذا كنت أقول، نسيت.

قال إثنان منهم بالوقت نفسه:

- كنت ماتقول مادخلت مخفر.

- نعم، وأنا أحب بلدي جداً، وأريد أن أنقذها، من كل ما، وكل مَن يتربّص بها.

(زادت متعتي باستعمال كلمات بسيطة عصيّة على فهمهم..أعرف أن كل ذلك لايعنيهم، هم يريدون موافقتي وحسب، لذلك لم يقاطعوني ولم يعترضوا على ماأقول). تابعت:

- لكنّ هناك أمرين لاأستطيع أن أساعدكم فيهما. أوّلاً، ليس لدي أسماء سوى من أخبرتكم عنهم في نداء حلب، لأنه لاصلة لي بسواهم. الأمر الثاني ظهوري على التلفزيون لن يكون مقنعاً، بالعكس سيعود بفقدان المصداقية على الإعلام. الناس يعرفون مواقفي. يعرفون أنني مع الحوار، وأنني لاأريد أن يحلّ الشبيحة مكان الأمن، وسيقولون أنيّ مجبر على ماأقول إن تحدثت بما يخالف مايعرفونه من آرائي. والنقطة الثالثة المهمة أنّه لايمكنني قبول صفقة معكم. إن قبولها يعني إقراري أنني مذنب وأريد التكفير عمّا اقترفتُه، وأنا لم أقم بأي شيء في السر. كل ماأقوم به هو علني، ويعرفه كلّ من يعرفني. في رأيي لافائدة لكم من بقائي هنا، وإذا لم تشاؤوا الإفراج عنّي.. اعدموني، على الأقل تخلّصونني من أعباء المرض والعلاج.

عندما صمتُّ تبيّن لهم أنه لافائدة من محاولة إقناعي، وساد سكونٌ رهيب، وغدوا، كأنّ على رؤوسهم الطير. تبادلوا نظرات الدهشة، ثم قال الرائد:

- خدو الكرّ. هالحيوان أابقا يفهم مصلحتو.

نكزني أحد العناصر من كتفي بأخمص رشاش يحمله، ودفع بي أمامه، ولاأدري لماذا لم يهتموا بتقييدي وتطميشي وأنا أعبر الممر باتّجاه زنزانتي.

من المؤكّد أنّ شيئاً ما غائبٌ عنّي ولاأعرفه. لماذا يزبدون ويرعدون، وحين أتوقّع انفجارهم يهمدون من غير سبب منطقي، وبما يخالف ماعرفته من وحشيتهم وتعطّشهم لإراقة الدماء.

طقوس التعذيب اليوميّة التي تخترق آفاق أرواحنا، بقسوة، تنبئ عمّا يختزنونه في أعماقهم من حقد.

تُرى هل يكون الضغط الخارجي عليهم من أجلي كبيراً، فيتلقّون توجيهات عليا بعدم تعذيبي جسديّاً، أم أنّ والدتي وأسرتي وأقربائي يتوزّعون حصص قراءة القرآن والدعاء لي ليضع الله الرعب في قلوب أعدائي ويصّدهم عنّي؟ لابدّ أن ينكشف السرّ عمّا قريب.

عاد الوقت سلحفاةً تقضم العمر، وعدتُ نملةً تبحث عن قشّة تنقلها من أول الغرفة إلى آخرها ولو من غير جدوى، على الأقل لترى نفسها تقوم بعملٍ ما.

وهاأنا أتنقّل من فكرةٍ إلى أخرى، ومن ذكرى إلى ذكرى.

أذهب من أوّل الزنزانة إلى آخرها بأربع خطوات قصيرة وأعيدها عشرات المرّات.

كان السجين في أحد الأفلام يمارس الرياضة اليومية كي لايفقد لياقته، وأنا أقوم بحركات مختلفة كي لاأنسى مامعنى الحركة، وكي لاتتراكم الشحوم في جسمي. ولأقضي الوقت.

الوقت؟ أيّ وقت هنا؟ وماقيمته؟ في السجن لايُقاس الوقت إلاّ بالحركة الداخلية للسجين.

أذكر أنني كتبت قصيدة عمّا أنا فيه الآن، كتبتها منذ ثلاثين عاماً، وهاأنا أجاهد نفسي كي أتذكّر شيئاً منها. نعم لابدّ أن أتذكّر. إن استمرّ الوضع بهذا الشكل قد أفقد عقلي. لابدّ أن أحرّك الجسم والعقل هنا. لابدّ أن تستمرّ الروح بتلقّي إشارات الشعور كي لاأتبلّد.

أقضي باقي اليوم مركّزاً كي أستعيد ماكتبت. إنه يشبه ماأعيشه هنا الآن. مرّ الغداء ولاشأن لي به، ثمّ جاء العشاء ولم أمسّ لقمةً واحدة. حتى الرغيف الشهي، أعدته كما هو، مع كثير من الجفاف. فلاشيء يشغلني عن التذكّر. تبدأ القصيدة بتناسل الكلمات، ثم تهب الجمل نفسها إليّ، واحدةً بعد أخرى:

سدٌّ.. نهاياتٌ.. وبابْ
حاصَروا صوتَ الضبابْ
استكشَفوا:
من يريد الانقلاب ؟
حربٌ.. بداياتٌ.. وغابْ
مشرَعٌ صوتُ العذابْ
دورٌ محاصَرةٌ وأشلاءٌ.. ظلالْ
والجندُ تبحثُ عن رجالْ
بين أمتعةِ السؤالْ
وقد سألتُ فأبصروني
واقتادَني السجَّان مبتهجاً
إلى.. السردابْ.

*   *   *

-2-

مرّ اليوم حافلاً بكلّ شيء. لايختلف عن تنوّع العالم الخارجي إلاّ بالحركة المستحيلة.

كنتُ كلّما ضاقت بي الدنيا أخرج إلى الشارع، أتلمّس الانعتاق في حفيف أوراق الشجر، وفي مطر يغسل أدران الروح، وروائح شوارع حلب القديمة بما فيها من تاريخ ينتشر في كل مكان.

البلاط البازلتي الأسود الذي يُصدِر المرور عليه أصوات وقع خطوات اجتازت نواصي الحزن لتبني ماصرنا نفخر به.

الحجارة التي تتعانق لبناء أبنية تتلامس بودّ. أمرّ بالأسواق لأرى الحركة الدؤوبة للمشترين والبائعين. نداءات أصحاب المحلات وهم يدعون الزبائن للحصول على أطواق الفرح من منتجاتهم.

المصلّون يحملون أحذيتهم ويجوبون المسجد متأمّلين. يتضرّعون بخشوع كي يكونوا في العباد الصالحين.

ياالغرابة استهتارنا بما يفرّ من بين أصابعنا من زمن جميل. في زمن سابق، مع خيوط الفجر الأولى، يبدأ أصحاب

المحلاّت برشّ الماء أمام متاجرهم فتفوح رائحة تعشّق الماء بالأرض، والأصوات تدعو ببراءة:

- يافتّاح يارزّاق.. ياكريم.

الآن، غدت تلك الجملة، تعني تذمّراً من شخصٍ ما، يطلب طلباً سخيفاً أو يوجّه توبيخاً في غير محلّه، فيجيبه المخاطَب: يافتّاح يارزّاق. أي أنّ اليوم يبدأ ليس كما ينبغي.

أشعر بالوهن الشديد نتيجة الجوع، فلم أتناول كسرة خبز منذ يومين ونصف، لكنّني أشعر بجسمي رشيقاً، وروحي تحّلق كفراشةٍ تستنشق شذا البساتين المترامية بانسيابية، من غير أن تجني منها شيئاً، فلا حاجة بها للغذاء وهي منتشية بالرقص فوق الألوان.

بعد توزيع الغداء، وحين كنت أسبح في نعيم التخلّص من عبء الاهتمام بالجسد، فُتح باب الزانزانة بعنف، وبدا خلفه شخص ضخم الجثّة وعلائم الغضب تعلو حاجبيه تحت شعر حليق. يحمل في يده خيزرانة مبرومة، لاحظت ابتلال مقدّمتها بالماء. ترك الباب مفتوحاً، ولأوّل مرّة يتجرّأ سجّان فيتجاوز عتبة الباب ليملأ بضخامته الزنزانة،

ويحجب بحجمه بصيص الضوء الخافت الذي كان، ويحلّ مكان بعض الأوكسجين الذي بالكاد يصل إليّ.

رفع خيزرانته عالياً وهو يسأل بارتجاف شخصٍ قرّر بدء معركةٍ، قبل أن يسمع الجواب:

- مين قال أابدو ياكوول؟ ولاا... كاتب لرئيس الفرع اِنْك ممتنع عن الطعام؟ وقالو إنك مامَتاكوول.. لك أابتعرف أنو بالفرع اللي مايقول هيك علاك منطعميه السبّاط؟

إنه أضخم مني بكثير، وبيده خيزرانة متعطّشة لقرع الأجساد بقسوة حتى تسيل الدماء، وخلفه جيش من المسلّحين، ويبدو أنّه مشحون بعُقد نقصه الفائضة عن إمكانيات البشر.

قبل أن أفكّر في طريقة لمجابهة ريحه العاتية، لاح هلال رمضان بين عينيّ فوقفت أمامه وقلت:

- أكلت.

نظر إلى طاسة البرغل والرغيف الذي يتحاشى مسّها وقال:

- هالقصعة لمين. كيف ماتقول إنك ماتاكل؟

- لا... أمعائي تؤلمني، حين يخف الألم سآكل.

بداكبالون ينفس منه الهواء، وهو يكفر بالرب ويكيل الشتائم للحلبيين. منحني خمس دقائق، وتوعّدني بأنه سيعود بعدها، ولايجد أثراً للطعام.

رمضان هو الذي أنقذني، فقد سمعتهم يقولون إن رمضان غداً أو بعد غد.

أقنعت نفسي أنه لافائدة من الإضراب مادام جاء موعد الصيام.

تناولت ربع الرغيف، وحين جاء موعد الحمّام دسست صحن الطعام المليء بين الصحون الفارغة في الممر أمام دورة المياه.

في اليومين السابقين كنت أُخرج الطعام، الذي لم أمسّه، بعيداً عن الفوارغ، وأضعه بتؤدة، محاولاً التأكّد من أن الحارس يراني، وأنا أعيد صحن الطعام ممتلئاً.

كما كلّ يوم جاء شخصٌ ما لإجراء التفقّد بالسؤال عن الاسم واسم الأب.

السجن داخل سور، وخلف كلّ باب هناك باب آخر، وكلّها مزوّدة بالأقفال والحرّاس. وبعد كل ممر باب آخر،

ولكل زنزانة باب. ولاشكّ أن المكان كلّه مرَاقَب بالكاميرات، ممّ الخوف إذن؟ هل يمكن أن يأخذ السجين إجازة أو يهرب من غير أن ينتبهوا له؟ وهل يمكن وضع سجين مكان آخر؟ لِمَ إذن كل هذا التدقيق؟ ليس هناك سوى تفسير واحد: لاأحد منهم يثق بالآخر. نظام أمني اتّضح لي اهتراؤه من الداخل أكثر من ذي قبل، وبانت عورة بنائه مما يتّسم العاملون به من غباء لايمكن تصوّر مداه. الضرب هو الحل. يثقون بقدرتهم على ضبط الناس بالعنف فلا حاجة إذن للتفكير واستعمال أساليب المخابرات في الدول الأخرى. عملية التحقّق من أيّ أمر ممكنة من خلال أدوات التعذيب المتوافرة وبمدّة قياسية، فلماذا يُتعبون أنفسهم بالمتابعة والرصد واستخدام علم النفس للحصول على معلومات مؤكّدة بعملية شاقّة تحتاج جهداً ووقتاً؟

ربما أكثر من خمس مرّات، دار شخص ما على الزنزانات ليعرف من منّا موظّف، مع أنّ هذه المعلومات دوّناها بالتفصيل في الأوراق التي ملأناها أثناء (الاستقبال)، ومعظمنا كتبها ثلاث مرّات على الأقل. هل يمكن أن تتبخر المعلومات من أوراقهم، كما من رؤوسهم، أم أنها تضيع في زحمة الملفّات؟

عالمٌ فظيعٌ تتّضح وحشية العاملين فيه، وتتناسب طرداً مع مقدار البلَه الذي لايفارقهم.

في آخر الليل، وعلى وقع أصوات التعذيب المستمر، دار السجّان على الممرات معلناً بدء رمضان. بالطبع لم يكن فرح الأمن نابعاً من ممارسة طاعةٍ حان موعدها، بل كلّ مايقرّب إلى الله أو يدعو إليه ممنوع، غير أنّ لرمضان فائدة وحيدة لديهم هي توفير وجبة طعام.

بعد عدّة ساعات من وصلة التعذيب، وزّعوا وجبة السحور على من يريدون الصيام، وكنت منهم.

تشريفات المشفى

لم تكد تستند شفة الشمس على كتف الفجر حتى فتح سجّان، لم أره من قبل، باب زنزانتي. قام بالطقس المعتاد من تقييد وتطميش، ودفعني أمامه كنعجة.

تجاوزنا الممر الصغير أمام زنزانتي، ثم الممر الطويل. صعدنا دَرَجاً متخفّياً خلف باب، ثم دَرَجاً آخر، بدت لي، من تحت الطمّاشة التي رفعوا طرفها لأرى موقع قدميّ، آثار دماء وقذارة تنمّ على تراكم الأوساخ فترة طويلة عليه.

بعد باب آخر، شعرت بدفء الشمس يداعب عصابة عينيّ. لأوّل مرّة، بعد عشرة أيام، أتنفّس شيئاً يشبه الهواء الذي كنت معتاداً عليه في صباحات حلب. وضعوني في الكرسي الخلفي لسيّارة بيك آب، لمحت رشّاشاً تحت زاوية الباب.

جلس شخصٌ عن يميني وآخر عن شمالي، وراحا يتبادلان الحديث عن إمكانية شراء سيارة بالتقسيط، لكنّهما توصّلا إلى حلّ سَرَّهما، وهو أن ينتقي كلٌّ منهما

أي سيارة تعجبه في الشارع، يزيل لوحتها، ويركّب لها جرة غاز ليستعملها كوقود. انضمّ شخصٌ ثالث إلينا وجلس في الكرسي الأمامي إلى جانب السائق.

لم أكن أعرف الوجهة التي يأخذونني إليها، ومالسبب. لم يكن أيّ شيء في ذهني بهذا الخصوص. كلّ ماركّزت عليه أن أعبّئ رئتيّ من هواءٍ صحّي بالمقارنة مع ماكان يدخلهما تحت طابقين، ويختلط بجفاف تفوح منه رائحةٌ عفنة. بعد ربع ساعة تمّت فيها إجراءات اجتياز الحواجز الداخلية للمبنى بعرض المهمّة على حرّاس الأبواب، انطلقت السيّارة بنا. حرص حارسا اليمين والشمال على إبقاء رأسي منخفضاً ويلامس ركبتيّ، كي لاأرى الطريق. فهمت من الحوار الذي دار بين من يرافقونني وحرّاس الأبواب أنّ المهمة هي الذهاب إلى المشفى.

استأذن أحد العناصر بإشعال سيجارته:

- بتسمحلي ادخّن سيدي؟ بقى أنا ألافيني صوم. بتدخّن سيدي.

لم تصدر إجابة، غير أن رائحة الدخان الذي تبع القدح جعلني أوقن أن الضابط أجابه بإشارة من غير صوت. تساءلت في ذهني: هل يمكن أن يكون الضابط خجل من

التصريح أمامي بأنه مفطر أيضاً، أم أنّه لايريد أن أعرف مَن يرافقنا في تلك الرحلة، لذلك حجب صوته عنّي؟

سمعت السائق يشتم سائقين آخرين وهما يتجاوزانه، وينعتهما بأنهما "حمير في السواقة".

أكثر من عشرة مطبّات، وثلاث حفر، جعلت السيّارة تهتزّ وتكاد تخرج عن المسار، قبل أن تتوقّف لحظة، سمعت بعدها صرير باب كبير يُفتح. وماهي سوى بضعة أمتار حتّى توقّفتْ السيّارة تماماً. فكّ الحارس الأصفاد ونزع العصابة من عينيّ، وأخرجني من السيارة.

ياإلهي.. رأيت ثلاث سيّارات مصفّحة تحتلّ ساحة مشفى الحمّيات (زاهي أزرق) في منطقة عين التل، المشفى الذي أتلقّى جرعة العلاج فيه. إلى جانب إحدى السيّارات يقف الرائد ذو العينين الصغيرتين الزرقاوين، بلباسه العسكري الميداني، وحوله عدد من الجنود المدجّجين بالسلاح.

السيّارات الأخرى التي يبدو أنها سبقتنا إلى المكان قبل وقت طويل، يلتفّ حولها بعض الضباط والجنود.

نبّهني أحد الضبّاط إلى أن أمشي من غير أن أرفع بصري إلى شيء، وحذّرني من أن أتحدّث إلى أحد. قادوني إلى

الجناح الذي كنت آخذ الحقنة فيه كلّ يوم اثنين، والجنود يحيطون بي من كل جانب، وحرصت على ألاّ تُصدر الشحّاطة الزرقاء التي أسير بها أيّ صوت كي لاألفت النظر إلى أنني معتقل. فكّرتُ في ماقد يفكّر به المارّون بي، وقلت لن يبدو لهم أنني معتَقَل، فلباسي عادي، قميص قطني أبيض داخلي، وبنطال أزرق فضفاض لايبدو من النظر إليه أن حزامه مشدود بعروةٍ تمّ إيلاج الزر الرابع من البنطال فيها كي أحافظ عليه من الانزلاق.

مَن قد يكتشف حقيقة مايجري من المرضى والمراجعين، سيدعو لي بالخلاص من أيدي القَتَلة، وآخرون سيرثون لحالي لتورّطي بجريمة مفترَضة، والموالون للسلطة سيتشفّون برؤية من استطاع الجند القبض عليه تنفيذاً للقانون.

دخلنا باب الجناح الذي كان محروساً بعدد من الجنود، وفي باحة المبنى الداخلية اكتشفتُ أن المبنى قد أخلي تماماً من كل المرضى والأطباء والطاقم الطبّي، وكان في استقبالنا عند مدخل غرفة العلاج ضابط وحارسان ومدير المشفى زاهر بطل الذي يعرفني. حين اقتربت منه ابتسمت وهممت بالسلام عليه، لكنني وجدت وجهه خالياً من الملامح، وتذكّرت تحذير الضابط لي من أن أكلّم أحداً.

منذ أسبوعين التقيت مدير المشفى في نقابة الأطباء حيث حضرنا محاضرة عن الثقافة ألقاها الدكتور محمود مرشحة رئيس رابطة الحقوقيين، وقد أشار فيها إلى كتابي الذي كان يحمله" المثقّف وديمقراطية العبيد" وقد أراد أن يختم اللقاء بحديث لي، فدعاني إلى الكلام بعد انتهاء حواره مع الحاضرين. تحدّثت مايقارب ثلاث دقائق رأيت خلالها تلوّن وجوه نقيب الأطباء وبعض مسؤولي الحزب الحاضرين من جرأتي على إيضاح فكرة التدجين التي نُساق إليها في بلادنا، ماعدّه كبيرهم، جمال حاوي، نقداً لاذعاً للسلطة التي يمثّلها، فطلب الكلام بعد انتهائي من الحديث، وأطال في شرح الآفاق التي ننعم بها في ظلّ الحزب القائد الذي دعا الدكتور مرشحة في أحد محاور محاضرته إلى نزع صفة القيادة عنه.

بعد أن طال الكلام الفارغ للمسؤول شعرت بحاجتي إلى التقيّؤ، خرجت من القاعة وأشعلت سيجارة في البهو. تبعني عدد من الأطباء، واقترب أحدهم منّي معرّفاً نفسه، وتحدّثنا برهة عن الواقع المرير الذي نعانيه.

هذا أحدث لقاء كان لي مع مدير المشفى الحزبي الذي كان يتلوّن وجهه مع المتلونين، ويبدو أنه في لحظة التقاء عينيّ بعينيه أمام باب غرفة العلاج، قال في نفسه: منذ

ذلك الوقت كان ينبغي القبض عليك. أشحت بوجهي عنه والتفتّ للضابط:

- يجب أن أدخل التواليت، لأن المثانة ينبغي أن تكون فارغة أثناء تلقّي حقنة العلاج.

بعد إشارته، سارع الجنود إلى تفقّد المكان والتأكّد من خلوّه. كان هناك مريض مقعَد يوشك أن يبدأ التبوّل، فأخرجوه. دخل اثنان معي إلى دورة المياه، ووقف اثنان على الباب. دخلت الى المرحاض وهممت بإغلاق الباب فنهرني أحدهم:

- قعيد وخللي الباب مفتوح.

جلست أفرغ المثانة بأقصى ماأستطيع، وهم يراقبون ماأقوم به، بالتفصيل. استعجلوني حين كنت أغسل يديّ بعد الانتهاء. عدنا إلى غرفة العلاج. تمدّدت على السرير. فككتُ الزر الوحيد الذي أستعمله في البنطال. أرخيت البنطال إلى أسفل قليلاً.

اقترب ممرضٌ غير المختصّ الذي كان يزقّ الإبرة لهذا المرض عادةً، ودنا الضبّاط والعناصر الأربعة الذين ملأت أجسادهم باب الغرفة. أفرغ الممرض الدواء الوردي في الحقنة التي بيده، وربط آخر(......).

حلب – 18 آذار 2014

حتى هنا انتهت الأوراق التي زوّدَته بها أم علاء. لم يبقَ أمام شهم سوى زيارة بيت كمال، ليرى صديقه محمود الكاتب، لعله يعثر على بقيّة المذكّرات هناك.

. ...

رنّ هاتف شهم المحمول. فرك عينيه. مدّ يده إلى الهاتف متثاقلاً. رقم لايعرفه. حين فتح الخط وصل إليه صوت أليف بادره بالسلام، ثمّ عرف بنفسه:

– اسمي سراب وأنا صديق الدكتور كمال. أنت لاتعرفني لكنني سمعت أنك تسأل عنه. ربما تكون لدي معلومات تفيدك. أنا في حلب اليوم فقط.

التقيا في مزرعة نائية على طريق الباب. حدّثه سراب عن تعرّفه إلى كمال الذي كان شريكاً في منشرة للحجر، وكان سراب يستجرّ الحجر المميّز للمبنى الذي يشيده في حي الخالدية. قال:

– أخذت عيّنة من الحجر وأجريت عليها اختبارات في جامعة حلب، فتأكدت من جودتها وصلابتها، غير

أنـي وضـعت نفسـي في موقـف سـخيف ذات مـرّة حـين جـاء يطـالبني بالـدفعات المترتبـة علـيّ. لكنـني عوّضـت عـن ذلـك، حـين أصـبحنا شـركاء في مجلـس إدارة جمعيـة العاديـات. أقمـت لـه وليمـة فـاخرة، دعـوت إليهـا مـدير المتـاحف في دمشـق، ومـن يومهـا أصبحنا أصدقاء.

حين انطلقت الثورة المباركة، عملنا معاً، في التنسيقية الأولى بحلب، إلى أن فرّقنا الاعتقال. لقد أمسكوا بي عند قبر ابراهيم هنانو، وأنا أقوم ببث مباشر إلى قناة العربية. لشدّ ماسررت حين وضعوه معي في الزنزانة، بعد حين. يومها تحدّثنا عمّن فقدناهم، وحدّثني عن شاب تعرّفت إليه حين صوّر محاضرة كمال في اتحاد الكتاب ورفعها على اليوتيوب. قال لي:

– هـل تـذكر عبـد الغـني كعكـة؟ أول يـوم تعـرّفتم عليه في المحاضرة، ثـاني يوم تعرّفتْ عليه مجموعتنـا في منتـدى حلـب، ثالـث يـوم التقـى مـع حـج بشـير في بيـتي، رابـع يـوم استشـهد. كلهـم قـالوا ياريـت لـو ماعرفنـاه. بكـوا عليـه كثـيراً. شـاب مثـل الوردة. كـان يصوّر المظاهرة في صلاح الـدين فتحلّق الأمـن حوله وأطلق عليه أحد الضباط النار فوقع فوق الكـاميرا .

هـو طالـب بكالوريـا، قـدّم الامتحـان والتحـق بالمظـاهرات . عنـدما أصـيب أخـوه في إحـدى المظاهرات، دمه وصل إلى قميصي. أنقذ كثيرين في مواقـف مختلفـة، وعنـدما أصـيب، لم يسـتطع أن يسحبه أحد من زخم رشقات الرصاص العشوائية حينها. في ذينك اليومين تحدّثنا طويلاً وتناقشنا عن الثورة وعن مقارنتها بالثورة الفرنسية، وعن الحرية، وعن القهر والزمان والحب والموت. ولكن للأسف، لم نقضِ معاً سوى يومين، نقلوني، بعدهما، إلى مكان آخر.

...

الفصل الرابع

حلب – آب 2012

موت أبي لجين

-1-

ذات نهار مشمس. قبل أن تأوي الشمس إلى مخدعها، تواعدا.

مشيا من حديقة الكواكبي سيراً على الأقدام باتّجاه (جبّ الجلبي) طلعة الزبدية. وصلا إلى دَرج عريض بمحاذاة الجامع. جلسا في منتصفه.

قال لها:

– لجين، أرغب بكأس من الشاي معك، هنا. هل تعرفين؟ هناك فيلسوف صيني يعيش في أمريكا لديه كتاب بعنوان: "كيف يحيا الإنسان"، فيه فصل خاص عن طقوس شرب الشاي.

– أشعر بالكسل، أنت جهّز لنا الشاي اليوم. اليوم يوم نشاط سراب.

ضحك:

- يااه ذكّرتني. هذا الكتاب نفسه فيه فصل ماتع عن أهميّة الكسل.

مع مغيب الشمس، وحثّ العتمة خطاها على سماء المدينة، ارتمت بين يديه. شعر أنه يسكنها حقاً. تتساقط أوراق خريف إلى أعماقه. مرّرت أناملها على جبينه. بالسبابة والإبهام راحت تمحو بهما تقطيب اليوم. سرت به رعشة مريحة تنفض التعب. فتحت كفّيها كدفّتي كتاب:

- اكتب فيهما ما تريد من القصائد. تتماسك أنت وتقوى وتستعيد عزمك، أما أنا فأتهاوى، فقد لمستك. أنا بيتك الذي تسكنه. حجراتك في قلبي تشغلها كما تشاء. اقترب حتى يتلاشى البعد ويستعصي على الهواء أن يمرّ من خلالنا.

أتعلم؟ بتّ أراك في كل مكان. أطالع وجهك في كل الوجوه. أتساءل هل من فرط الولع صرت أراك في كل وجه حولي؟ ما من مدينة سوى مدينتك تستطيع أن تحتوي غربتي. كأنك حلم لا أريد أن أصحو منه كي لايغيب.

رفعـت عينيهـا إليـه، بنظـرات منكسـرة، وقالـت ببرود شديد:

– أخبروني اليوم أن أبي مات.

سألها، باستغراب:

– ألن تذهبي لوداعه؟ ألن تحضري دفنه؟

أجابته، بلا مبالاة:

– لايعنيني بشيء.

لم تبدِ اكتراثاً بموت أبيها. هل يمكن أن يُعامل على أنه ارتكب جريمة لايمكن غفرانها حين تزوّج بغير أمّها؟ جريمة تجعلـه مهمَـلاً إلى درجـة مقاطعـة مواراتـه الثـرى في رحلتـه الأخيرة؟ لو أنّ قطّتها نفقت، أكانت تستقبل خبر نفوقها بنفس البرود، وتتعامل معه بهذه اللامبالاة؟

كـان لـدى نعـيم اليـافي، أسـتاذ الأدب العـربي الشـهير بجامعـة حلـب، قطّـة مدللـة، اسـتعاض بهـا عـن عـدم تتـويج زواجه بالإنجاب. أمعنت في خربشته ذات مرّة وهو منهمك بكتابة بحث عن الشعر لمعجم البابطين، نهرها غير مرّة فلم ترتدع، قذفها بفردة قبقاب الحمّام، فانكسرت رجلها.

انشغل وزوجه بها على مدى أسبوعين، بين عيادة الطبيب البيطري، ومتجر أغذية الحيوانات.

لم يطل الأمر بها كثيراً حتى نفقت. أقاما لها جنازة كلّفتهما خمسين ألف ليرة سورية، وهو مبلغ مهول في الثمانينات، عدّه اليافي نوعاً من التعويض، وتكفيراً عن ذنبه.

سرح سراب بعيداً في حيرته من موقف لجين من موت أبيها. تلك التي تبكي كلّ يوم، ألف مرّة، على الذين يقتلون ببراميل السلطة المتفجرة، أو بقذائف الهاون، التي يلقيها الجيش الحر.

في الشهر الماضي، سمع يوسف، المقيم في الامارات، بمرض أبيه، وأنه تمّ نقله إلى العناية المشدّدة في مشفى الرازي بحلب. كاد يجنّ جنونه. اتصل بكمال وقال له:

- أريد طريقة للوصول إلى مناطق النظام في حلب. لاأريد أن يدفن أحدٌ أبي ثم أقول له شكراً.

يوسف معارض للنظام، واشترك بتأليف كتاب" حكايات سورية لها علاقة بالاستبداد" مما يعني أن في سفره إلى حلب مخاطرة كبيرة، في حين أن والده موالٍ للنظام، أو أقرب إلى الرماديّة، يدافع عن ممارساته على اعتبار أنه ليس

بالإمكان أبدع مما كان، وأن ممارسات الثوار ليست أقل سوءاً مما يفعله النظام.

بالرغم من المشاحنات الدائمة بين يوسف وأبيه، والخلافات التي تصل أحياناً إلى حد الكفر، ولاتنتهي إلا بقرع كؤوس الوسكي، لتعود في اليوم التالي المناقشات نفسها، وتعود حليمة إلى عادتها القديمة. بالرغم من ذلك أراد يوسف المخاطرة بنفسه ليشارك في مواراة أبيه الثرى كما يليق.

بعد أيام، وقبل أن يتلقّى يوسف ردّاً بشأن طريقة السفر وتجاوز المخاطر، جاءه نبأ تجاوز أبيه مرحلة الخطر، وخروجه لانتقاء المازوات.

قضى يوسف تلك الليلة مع حليب السباع بصحة أبيه، حتى تعتعه السكر.

كيف إذن تمرّ لجين على موت أبيها، كمن سقطت أمامه ورقة شجرة صفراء ذات خريف، فداسها ومشى.

لاحظت لجين شروده عنها. كسرت حاجز الصمت بينهما:

- أنت بوحي المقطّر، المستخلص من تفجيري ينابيع مشاعري بين يديك. كيف سأذهب غداً للتوزيع وأنا هكذا. مسحوبة القوة مسلوبة الارادة؟

- لا لن تذهبي إلى أي مكان، إلاّ معي.

- يجب أن أنهي مهمتي. لن أتأخّر. أكون أنا، ومعي شاب عادةً. أنا غير مطمئنّة، ولكن أحاول أن أتوازن. أنت تحملت الاعتقال، بس أنا شكلي ما راح أتحمل إذا رحت زيارة. أنا اليوم ما حدا راح يتعرف عليّ بالشكل يلي أنا فيه، بس خوفي من البنت يلي معي. المرة الماضية ماكانت آخدة احتياطها. كشفتنا. في حملة النظافة بصلاح الدين، قرب المدرسة التي فيها حرائر، طالعة صورتها. ماكان معنا غير كم وحده يعني (متل العين المقلوعة) واضحة.

- في هذه الحالة تلغى المهام، وتوكل إلى شخص آخر. المهمة تنفّذ عندما يكون الشخص مرتاحاً، وتلغى في حال الشك، من أجل الأمان.

- ما في وقت لإلغاء المهمة، ولايمكن أن نذهب من دون رفيقتي، لأنها هي الواسطة.

يسمعان صوت انفجار. صوت إطلاق رصاص متقطّع. انطلقت منبهات سيارات الإسعاف والإطفائية. لاذت به. بدا الهلع على ملامحها وهي تقول:

- أستنشق رائحة الموت والدمار.

تلقّى سراب اتصالاً، علم منه، أنه تم استهداف بناية في سيف الدولة عند جامع النصر. أيضاً، بناية في بستان القصر. شهداء بالعشرات.

أغلق الهاتف وهو يتمتم:

- الله يستر وتنتهي على خير بسرعة.

قالت، بحسرة:

- جاءني أكثر من عرض للهروب من حلب. إلى الأردن أوتركيا او مشتى الحلو.

فتحت الموبايل وأرته رسالة وصلتها، فيها تفاصيل الدعوة.

استأنفت:

- أنا خائفة ومتوترة، تكتب رفيقتي أنه صار إطلاق نار بين فصائل الجيش الحر في صلاح الدين. أكيد

هناك اختراق بعض عناصر النظام للجيش الحر. الكهرباء مقطوعة وهم موزعون بين الحواري. يأتيهم الخبر أن قوات من النظام يقتربون من الشمال.. يطلقون النار فيصاب رفاقهم من فصيل آخر.

- ينبغي أن تكون أعصابنا هادئة. متوقع أن يحدث ذلك.. أصلاً في درعا وفي حماة حدث شيء مشابه..المهم مايتكرر. لابدّ أن تكون بين الفصائل إشارات، ليعرفوا العدو من الصديق. أنا منتظر أخبار تصلني من السكري وبستان القصر.. تأخّرتْ. الشباب اللي طلعوا من جامع ابي حنيفة لسا ماعرفت شوصار معهم كمان.

جاءته رسالة موبايل: هاجم الجيش الحر مبنى المخابرات الجوية.

سمعا صوت تفجير قريب.. تم تفجير الهجرة والجوازات والجسر، قال لها:

- هاهي الانفجارات تتوالى.. تعالي كي تلوذي بي.
- أنا خائفة. أشعر بالدفء والسعادة معك، ولكنّ الخوف يتسلل بينهما أيها العميق. تأخرت على البيت.

...

-2-

في اليوم التالي اجتمع سراب ومحمود وكمال مع ضباط من الجيش الحر في مدرسة بستان القصر، بعد محاولة لواء التوحيد اقتحام مبنى الإذاعة.

أربعون شاباً تحلّقوا حول المكان، ستة منهم فقط هم من اقتحموا المبنى وصاروا في غرفة البث. كان عملاً سهلاً. العناصر المكلفة بالحراسة أصيبوا بالهلع وشُلّت حركتهم عن القيام بأي عمل.

النقيب اقترح إذاعة بيان تحرير حلب والدعوة إلى النفير العام. ابتسم كمال مندهشاً وقال:

- طولوا بالكم ياجماعة. أصلاً نحن نعترض على دخول حلب. المعركة الأساسية هي في دمشق، وفي الساحل السوري. صحيح أننا خدمنا الجيش، ونعرف أنه جيش (أبو شحاطة)، لكنّ التسرّع قبل إعداد العدّة سيؤدّي إلى فواجع كبيرة. الحكم في دمشق جبان، والجبان يضرب خبط عشواء، كما حدث في حماة، في الثمانينات.

جلسة امتدت ساعتين، أبدى الضباط، في نهايتها، إعجابهم بما دار فيها.

قال الرائد:

- بالفعل نحن نحتاج إلى لقاء المثقفين، أمثالكم، لنتصرّف بحكمة. إنها بادرة طيبة أنكم جئتم إلينا. كان إفطاراً رمضانيّاً رائعاً، استفدنا فيه كثيراً من حوارنا معكم.

في نهاية الاجتماع تقرر انسحاب الجيش الحر من الإذاعة، حرصاً عليها من القصف، وبخاصّة أن المبنى الكبير المنشأ حديثاً، والذي لم يوضع بالخدمة بعد؛ تمّ تصميمه ليكون استديو قابلاً ليكون مسرحاً لتصوير الأفلام والمسلسلات.

لم يكن لواء التوحيد واحداً، ولم تكن فصائل الجيش موحّدة. إنها فصائل تتعاون في مهام محدّدة، ثم تعود إلى تشكيلها المنفرد، لذلك لم يتم تنفيذ الاتفاق على انسحاب المقاتلين من مدينة حلب، والاكتفاء بعمليات نوعيّة من أماكن متحرّكة.

حلب – 19آذار 2014

محمود الكاتب

يصل شهم إلى بيت كمال ليلتقي محمود الكاتب. رجل ستيني مربوع القامة يعاني من ألم في الركبة، لذلك يصلّي وهو جالس على كرسي، لا يستطيع الركوع والسجود، كما أنه مصاب بتحسس ربيعي. هو مدرس اللغة العربية الشهير. يتحدث بالفصحى مع طلابه. بعد انصرافه من المدارس، التي يعمل بها، ينتقل إلى الدروس الخصوصية، ليتمكّن من تأمين الطعام لعشرين فم يعيلها.

وهو أيضاً يمارس الكتابة الأدبية. صدرت له دواوين شعرية ومجموعات قصصية.

يعيش في منطقه فقيرة هي حي الكلاسة. اضطر إلى هجر بيته، والنزوح إلى الجميلية. استأجر هناك قرابة عام، حتى وصلته رسالة من كمال يوصيه فيها أن ينتقل إلى بيته، في الجانب الغربي من المدينة، عند جسر الإنشاءات.

بعد أقل من عام من بداية الثورة، انقسمت حلب إلى شرقية، حيث تمركزت المعارضة، وغربية تمسّك فيها النظام، ومنها راح يطلق القذائف على الثوار، بالإضافة إلى رميهم بالبراميل المتفجرة من الطائرات.

بيت كمال يتألف من خمس غرف كبيرة، وشرفة واسعة، في منطقة فوق متوسطة في حلب. الآن، باتت الكلاب الشاردة، تعوي طوال الليل، وهي تهيم، لالتهام الجثث المترامية، في كل مكان. الرصيف المقابل الذي كان مزيّناً بالأشجار والورود، غدا حاوية لمولدات الكهرباء الخاصة المتناثرة على الأرصفة، نتيجة انقطاع الكهرباء الدائم. وعلى بعد أمتار تجد، في النهار، الباعة المتجولين، بأصواتهم العالية الصاخبة، يبيعون أردأ الأنواع بأغلى الأسعار. يسأل شهم:

- كيف الأحوال في حلب؟

يجيبه محمود بفتور:

- تجد الناس في الشوارع وكأنّهم جُرّدوا من إنسانيتهم. لا تستطيع أن ترى ملامح إنسانية في الوجوه. إنه خوف، وترقّب، وتوجّس، من انعدام الأمن، وإعدام الأمل.

تـزوغ عينـا محمـود، وهـو يتأمـل المكـان، وكأنـه يـراه لأوّل مرّة، ويتابع:

- بعد شـهر من غياب الدكتور، صادفت أحد زملائه في التنسـيقية، الـتي شـكّلوها في بدايـة الثـورة، لتنظـيم المظاهرات، فقال لي:

- قام الأمن بحملة اعتقـالات كبيرة. حين علـم الدكتور بـأن معظـم مـن كـانوا معتقلـين معـه سـابقاً أعيـد اعتقـالهم. زوّدنـا بـأجهزة اتصال وكـاميرات مخفيـة كـان يسـتعملها. كمـا سـلّم نسـخ عـدد جديـد مـن نشـرة كانـت تصدرهـا الثـورة، وغـادر. وقـد أوصـانا بإخبـارك أن بيتـه بيتـك، تسـتطيع الانتقـال إليـه مـتى كنـت مسـتعداً. لقـد علمنـا أن منطقـتكم طالهـا القصـف، وأنكم نزحتم إلى مناطق أخرى، وأنـت صديقه، وخير مـن يسـكن الـدار. ويوصـيك أن تسـتعمل مكتبتـه، وكل الأثاث، والأدوات الموجودة، لتسهيل إقامتك.

شرد محمود. كحّ كحّة خفيفة متقطّعة ثم أكمل:

- من يومهـا لم نعرف إلى أين ذهـب. لا نعرف عنه أي شـيء. ياسـر وعمـر ورشـيد أعيـد اعتقـالهم. سـراب

ذهب إلى المناطق المحررة، والتحق يالجيش الحر. أيمن سافر إلى السويد. زكي إلى ألمانيا. آخرون إلى تركيا.

يدخلان المكتب. قسم كبير من المكتبة محجوب بخزائن حديدية، حُشيت بأدوات كهربائية عاطلة عن العمل. بطانيات مهترئة. طاولات وسط صغيرة مترامية.

يُخرج محمود حاسوب كمال القديم، من إحدى الخزائن. يستعينان بابن محمود المهندس، ليبحث لهما عن مذكرات كمال، إن كان هناك شيء منها على الجهاز. مع آخر رشفّة من فنجان شهم، يشير وائل بسبابته إلى شاشة الحاسوب، ويصيح بصوتٍ فَرِحٍ:

– ها هي.

يناوله شهم ذاكرة صغيرة (فلاشة تخزين):

– من فضلك خزّنها هنا.

...

شعر شهم براحة شديدة، وألفة في البيت، لم يعرف مصدرها. هل هي روح كمال التي تسري في المكان، أم تلك الألفة جاءت مما ورد في اليوميات عن البيت والمحيط؟

ربما يكون ذلك من الجلسة الحميمة مع محمود، ولهذا لم يجد حرجاً في سؤاله:

- كيف وضعك هنا؟

داهمت محمود نوبة من السعال، ظنّ شهم أن مصدرها، هو السؤال الكبير، في جملة قصيرة. بسمل وشرب ثلاث جرعات ماء من الكأس أمامه ثم قال:

- في جلسة هادئة أحاول أن أحصي المقرّبين منّي، والمحصلة أنني وحيدٌ وغريبٌ عمّن حولي. لاأجد سوى فنجان القهوة، وقلّة من الأصدقاء، الذين تتّفق قيمُهم مع قيمي.

بالرغم من أنه لايدخّن. أشعل لفافة بطريقة مفتعلة، ثم تابع:

- أمامي مهمّة صعبة، للحفاظ عليهم.

كان شهم يصغي إليه ببصره وبصيرته وسمعه، وعينا المتحدِّثِ ترمقانه، وترميان بسيلٍ من التّهم الصامتة. ألم يتحدّثوا عن فعالية لغة العيون؟ في سرِّهِ كان يقول: ما الذي يريبه منّي؟ لا أعرف سرَّ هذه النظرات المتفحّصة.

علت الدهشةُ عيني شهم، وهو يصغي إلى اندفاع محمود المفاجيء للكلام:

- لاوقت للحلم، لا وقت للتأمُل. لا وقتَ للتقدّم. لا رغبة في الحياة، ولا وقت للكتابة، ولا وقت لتبادل رسائل الحبّ ونسج الأحلام واختراع اللّحظات المسروقة. كلّ الوقت مرهون بإرادة الموت المجّاني. وبعث إرادة الدمار. هذا جانبٌ من معظم شريط حياتنا الحافل، والمبتهج بالدّم والثأر والقتل، فتأمّلْ إن وجدْت متَّسعاً وحريّةً للتأمّل. إذا استطعتَ جمع هذه الأسئلة بسؤال واحد، فهل تقدر على فهمها، واختصارها بجواب واحد كافٍ وشافٍ. إذا امتلكْتَ أعصابك ومشاعرك في حضرة العالم المجنون والمشحون بتيارات الكيد والأنانيّة، ولم تستنكر، ولم تتأفّفْ، ولم تُبدِ انزعاجاً، ولم ينتبْكَ استغرابٌ، فأنتَ ممّن يضعون أصابعهم في آذانهم وقلوبَهم في جمّادة. هل ضايقتُكَ بأوصافي؟ إذا قبلتَ الإقدام على مغامرة البحث عن وسائل، تُفيدك في كسب سُبُل التطنيش، فهل تساعدني على كسب الخبرة والمهارة، أم أنّك ستحتفظُ ببراءة الاختراع لنفسك؟ عندها ستراني إنساناً آخر، خلعَ ثوبه واسمَه وفكرَه، وخلع ما

تبقّى من رُؤاه وأحلامه. فهل تحزن؟ وهل تستطيع فكّ العقدة التي حلّت فيه؟ أما زلْتَ تذكرُ اسمَكَ، واسم مدينتك، واسم حيّك؟ إنّها مسرحيّة لا فصول ولا مشاهد لها. مَن المخرج؟ ومَن الممثّلون؟ أما زلْتَ تعتبرُ نفسك من الأحياءِ الكرام، الذين لم يُعكِّرْ مزاجهم الموت العصريُّ، الوافد إلينا على رقعة الشطرنج، ونحن البيادق. لماذا لا تساهمْ بمحاصرة الملك؟ أما زلتَ تقرأ أبراجكَ في الصّحف، وتسمعها من الإذاعة، وتتابعها مع زوجتك على الشاشة الشفّافة التي تجعل كلَّ سوادِ أيّامك، وجيوبك، ودموعك، بُحيرةً زرقاء؟

أخذ رشفة من القهوة المرّة التي لايستسيغها، واسترسل:

- ما زلنا نبني ممالك من الوهم والسراب والغبار، على أعمدة من الإسفنج والماء. آسف، يبدو أنني أفجّر الكبت أمامك. أحب القهوة حلوة.

أخذ رشفة أخرى. أغمض عينيه وهزّ رأسه يميناً وشمالاً بسرعة عدّة مرّات، مبيّناً امتعاضه من مرار القهوة.

- أنت السبب. جئت فشحنتني بعشرات الذكريات مع كمال، ومع غرفة المكتب هذه، التي كنت أدرّس

فيها أبناءه اللغة العربية. وهنا تناقشنا في كثير من القضايا، وحلّلنا الكثير من الكتب.

حبس دمعة تلوح في أفق عينه اليمنى، تشاغل بحركة فجائية، يبحث عن شيء ما. قدّم له كرّاساً صغيراً، وقال:

– انظر هذه هي بعض الرسائل المقتضبة المتبادلة مع كمال:

الأخ الغالي أبو ثائر

سلام الله عليكم. لكم تحياتي وتقديري. أحمد الله وأشكره، ولا ينتابني شعور بالشك، بما هو مرسوم ومقدّر. وأحمد الله أننا نحسن التعامل، قدر الممكن، مع ما يحيط بنا. وفشّة الخلق للأحبة، تخفّف الوطأة عن النفس. وهذا ما دفعني للفضفضة، بل بعضها، لكم، فأوجعت رأسكم وشغلت بالكم. نحن بخير. استيقظت اليوم قبل الفجر، ففوجئت بعدم التوازن في السير والحركة، مع تعرّق لا يوصف. ذهبت إلى الطبيب والآن أحوالي أفضل، والحمدلله.

...

السلام عليكم أخي محمود. ماأخباركم. إن شاء الله الأمور صارت أحسن أو أقل سوءاً. أعرف أنك مؤمن، وقد أُمرنا بالتفاؤل رغم كل الظروف. فلنجعل أنفسنا مطمئنة بما هو متاح. وأن نغرس الفسيلة ماأمكن إلى ذلك سبيلاً. والتواصل مع الأصدقاء، أحد أسباب تخفيف الأعباء. لك تحياتي.

. ...

العزيز المكرم إلى القلب، قبلاتي وأشواقي لروحك الطاهرة، وأمنياتي لكم وللأهل كل خير. أشعر أنّك إلى جانبي، وتقدّر طبيعتي وعلاقتي مع الاتصالات. وخطابي إليكم يبعث الروح. أشكر مبادرتكم. نحن بخير وهذا بفضل الله، نحمده ونشكره. تعرفون وضعنا ومانعانيه، ومعاناتي من الوجع مضاعفة، على أكثر من جهة، فأهلي وعالمي بين ضفتين، والخوف والقلق والمصير المفجوع بالضياع والشتات. الواقع مرهون بلطف الله. والقراءة القريبة والبعيدة تحدّدان ما ينتابنا ويقلقنا. نسأل الله الصبر والعون. وما للمرء مخرج من هذا الكابوس والطاغوت، إلا بمحاسبة النفس من منظور علاقة الإنسان بربه. الحياة صعبة بكل مسمياتها وظروفها. أبو ثائر أذكرك بكل خير، وهذا أمر مبني على قناعة، استوفت مقوماتها من المعايشة

والاقتراب. يقيني أن الله لن يذلك، ولن يسلمك للأوهام والشتات والضياع. لا أستطيع القراءة ولا الكتابة، أشعر بتفاهة من حولي، وكأن الظروف جاءت لتعرّينا وتكشف نفاقنا ورياءنا وقلة إيماننا. أحييك، وأبلغك تحيات الأهل والأصدقاء، وما أقلّهم. قبلاتي.

....

شهم، وهو يسلّم الكرّاس لمحمود، قال:

– أنا لم أزر حلب كثيراً. كل ماعرفه عنها هو مانسمعه من أصحابنا أو مانقرؤه. أنت ابن حلب المحب لها، ماذا تخبرني عنها، كيف كانت وأين أمست؟

يبدو أن السؤال أثار شجن محمود، وضرب على الوتر الحسّاس الذي يحبّه، فاسترسل بالحديث:

– إن دخول الآلات الحديثة إلى مدينة حلب، كان باعثاً للاستغراب والخوف والاستنكار في بعض الأحيان. والمتتبِّع لمسارِ مدينة حلب، عبر تاريخها المديد، يجد نفسه أمام مدينة لها خصوصيتها، عُرِفَتْ باقتناء أحدث المبتكرات والآلات الحديثة التي يلحُّ عليها الواقع، وتتطلَّبُها المصالح الخاصة تحديداً، ولم يأتِ هذا الأمرُ من فراغ. المجتمع الحلبي يبدو منغلقاً

على نفسِهِ، للوهلة الأولى، بسبب هذه الخصوصيات التي انفردت بها مدينته، وبسبب طراز عمران بيوتها وأبوابها القديمة وأسواقها، ولكنّ المهتمَّ يتوصَّلُ إلى عكس ذلك، فيراه مجتمعاً منفتحاً على الآخر، ويقبل الوافدين المقيمين والعابرين، لأنّه يشكِّلُ مصدرَ رزق الأغلبية.

هذه الخصوصية تشعَّبَتْ عنها خصوصيات، على مستوى الغناء والطرب، والطراز العمراني، والصناعات القديمة المتجدّدة، والمأكولات الشهيرة، والطباعِ، والعادات، واللهجة، وأهمُّ شيءٍ خصوصية التفرُّدِ بالتسامح والتعايش في بوتقة التفاهم والتعامل. أسواقها، وبيوتها ومساجدها وحدائقها وواجهات محلاتها، تشهد على ذلك، ويقرُّ بذلك الكثيرون من الزوار والقناصلة والوفود منذ القديم. يُرجع البعض هذه الخصوصية أن وراءَها عقلية تجارية وصناعية تتحكم بتسيير أمور المدينة، وفي كثيرٍ من الأحيان تتغلب على الفكري والثقافي وتطغى عليه. فالنشاط التجاري والصناعي مبنيان على علاقات اجتماعية تتوخَّى حاجة المجتمع ومتطلبات السوق، وهي علاقات لها ثوابتها وأصولُها، دفعَت تجّارها

ورجال الصناعة للبحث عن الجديد الوافد الذي ينمّي تجارتهم وصناعتهم ورأسمالهم. إن المجتمع الحلبي بتركيبته المتنوِّعة استقبل الوافد الجديد من المبتكرات والآلات بفرح وسرور ودهشة.

استقبلوا بفرح دخول المطبعة العربية لأول مرة إلى مدينتهم التي لها شرف الريادة والسبق على مستوى الوطن العربي، وشهدوا تطوّرها وتسابقوا إلى الطباعة وإنشاء المكتبات في دورهم، وأصبحَ من تقاليد البيوت الحلبية الكتبيَّات. غمرتهم الفرحة عندما أنشىء أول فرع للبنك الإسلامي خارج اسطنبول 1893 ولمَ لا يفرحون وهو يخدم مصالح أصحاب رؤوس الأموال ويسيِّرها. وينطبق هذا على إقامة أول غرفة تجارية تؤسّس في الشرق في حلب بعد العاصمة اسطنبول. ألا يدل هذا على مدى القدرة على التطوّر والاستفادة من مستجدات الحياة اللازمة لتنمية مصالحهم وهذا الأمرُ مستمرٌّ إلى الآن.

توقّف برهةً يراقب ذبابةً تحوم حول بقايا كأس الشاي البارد المنسي على زاوية طاولة المكتب. هشّها، وتابع:

- مما يدلُّ على أهمية حلب، بالنسبة للدولة العثمانية هو الخط الحديدي. تجمَّع الكثيرون من أهل المدينة لحضور حفل تدشين الخطِّ الحديدي، الواصل بين حماه وحلب، ومنه كلُّ المنفعة لتجارتهم وصناعتهم. وينطبق هذا على أوَّل طيّارة حلَّقت في سماء حلب وكذلك مع أوَّل دراجةٍ وراديو عُرِضتا. واستقبلوا أوَّلَ سيارة ركبها المشير زكي باشا الحلبي.

ثم توافدت هذه الآلات بكثرة وبدأت تؤثِّرُ في البنية الاجتماعية والفكرية، فانعكس هذا على الواقع الاقتصادي الذي يشكل عصب الحياة. هذه النهضة الحديثة التي واكبتها مدينة حلب كغيرها من المدن، كان لحلب السبقُ في البدايات فمازالت الصناعات الدقيقة والثقيلة المتطوِّرة تتمركز في حلب. عدّل محمود جلسته، لفّ ساقاً على ساق وقال: أنا دائماً أتساءل: هل كانت التقنيّة نعمة أم كانت وبالاً وهمّاً على المجتمع ؟ من وجهة نظري الخاصةِ أراها نعمةً في بعض جوانبها الاقتصادية التي سهَّلت لنا الكثيرَ وقدَّمت لنا الكثيرَ، ولكنّها لم تستطع أن تصل إلى العقلِ فتشعل فيه الضياء والإشعاع لدى الكثيرين. وكانت نقمة على ذهنية العربي

الـذي لم يعتـدْ عليهـا فقـد أثّـرت علـى الإبـداع الفـردي والحسِّ الجماعي الفنّي.

فـالآلات الحديثـة سَـرَقتْ منَّـا النّحـاتين والصُّـيَّاغ والخطـاطين والعـازفين البـارعين ونكهـة الطعـام اللذيـذة والـدفءَ الروحـي، وأبعـدَتْنا هـذه التقنيـاتُ الحديثـةُ عـن أهـم مصـادر الـوعي والنهـوضِ المباشـرة، فتراجعـت دور السينما وتقطّعت أنفاسـها واضـمحلَّتْ صـالات عـرض المسـرحِ وبقيـت للأفـراحِ والمناسـبات، وكانـت إلى وقـت قريـب، مـن معـالم حلـب ولهـا طقوسُـها البديعـة والجميلـة وأبعدتنا لحدٍّ بعيدٍ عن الكتـاب. فحلّـتْ محلَّ الكتبيّـات خـزائنُ التلفـاز والتحـف والزجـاج. وأماتـت الكثـيرَ مـن المكتبـات في قلـب المدينـة وأطرافِهـا، وبـرز مكانَهـا بـائعو العصير والمسجّلات و(الموبايلات) والأحذية.

تنـاول صـحن الفاكهـة مـن ابنـه، وضـعه علـى الطاولـة، وهو يقول:

- تفضل. هي ليس من النوع الممتاز، ولكنها الوحيدة المتـوافرة في الأسـواق هـذه الأيـام. آآآه الأيـام السـود. ياعزيزي آآسف، نسيت، ماقلت اسمك؟

- شهم.. اسمي شهم.

تابع محمود بسخرية مرّة:

- نتحدث عن حلب وكأنها مدينة. غدت خراباً بعد أن تكاتف عليها القاصي والداني. لم يبقَ أحد لم يقصفها بما تيسّر له. صاروخ، برميل، مدفعية، جرة غاز.

وقف. اقترب من النافذة المطلّة على الشارع، يراقب خواءه الكامل. قال، متحسّراً:

- النسيان من نعم الله علينا. وهذا يعني أن ينسى الإنسان الإساءة، وأن يتسامح ويسامح المسيء. وأن ينسى أتراحَه وأحزانه التي تلم به دون إرادته. هو غسيلٌ وتعقيم للنفس وتطهير للقلب. هذا جانب جميل ومشعّ من النسيان. ولكن هناك نسيان ينقلب على صاحبه، ويصبح نقمة وسبّة، تصِمُ صاحبَه إذا لم يحسن توظيفه، أو تسلح به لقضاء مآربه ومصالحه أو لتصفية الحسابات مع الآخرين. متناسيا ذاكرة الآخر الذي لا يغفر، والذي يسجّل الشاردة والواردة. وهيك، لاتؤاخذني، نسيت اسمك.

تنحنح شهم وهمّ بالنهوض. قال محمود:

- سعدت كثيراً بلقائك، والأهم أنني عثرت لك على المذكرات. أمانة عندما ترى كمال قبّله عني. لم يعد بيننا تواصل منذ مدّة. نحن هنا نخاف من التواصل مع أصدقائنا خارج سوريا، وبخاصّة الذين يصرّحون بمواقفهم تجاه السلطة. تعرف..كل وسائل الاتصال مراقبة، وكثير من معارفنا اعتُقلوا لمجرد وضع إعجاب على منشور لأحد المعارضين.

أردف، على عجل، كمن يستدرك مانسيه:

- تعرف. عندما كان معتقلاً، أو ربما حين وصلنا نبأ استشهاده في المعتقل، كتبت قصيدة رثاء له، سأقرأها عليك. أمانة. أمانة توصلها إليه عندما تراه. هو رآها بعد الإفراج عنه، ولكنّ التذكير مهم درءاً للنسيان: عنوانها" بين الشّفتين احتبستْ قصائدي" والإهداء: لمن أنتظرُ عودتَه، ويسكنُني صوتُه. طبعاً، لم أكن قادراً على التصريح باسمه. كما لاأستطيع الآن أيضاً، إلاّ أمام الأصدقاء. أقول فيها:

ثمّ انتظرْتكَ واجفاً متخوِّفا

النّار ترصدُ كوكبي

والبيتُ أيقظَ أخوتي

فالأمرُ كانَ كما ابتدا

والأمرُ أضحى غرفةً متحجّرةْ

تُعطيكَ من عفنِ الرّطوبة صمتَها.

وأنينُها وخزٌ وشتمٌ

والسّبابُ مموسقُ.

الوقتُ نزفٌ،

والجدارُ مراقِبٌ ومصوّرٌ

بل منصِتٌ

والعابرون إلى الضّياء تكوّموا.

...

هي قصيدة طويلة، هذا جزء منها. يمكنك قراءتها وإيصالها إليه. طبعاً، لم أكتب اسمي، وتعرف السبب.

الحياة في حلب

-1-

طلب شهم أن يتجوّل في شوارع حلب قبل أن يغادرها. ركب السيارة هو ومعتصم والسائق (قريب معتصم)، وبدأت الجولة من الصباح.

تدهشهم المفارقة العجيبة في حلب، عاصمة الثقافة الإسلامية، تلك التي تحمل البهاء التاريخي، والحضارات المتعاقبة، وطريق الحرير، والقلعة الشامخة، والشخصيّات الاستثنائية مثل السهروردي، سيف الدولة، صلاح الدين، الكواكبي. وحلب بحاضرها، بحيث تبدو مدينة بلهاء ميتة تلفظ ابناءها، وهي مجرّد أنقاض متراكمة. الخوف يسيطر على كل من فيها. كلهم يخافون من بعضهم، بما في ذلك الغرباء الغازين. هاهو العالم السفلي، الذي كان مخفيّاً، قد ظهر على السطح.

يتوارى تمثال الكواكبي خلف الشجيرات في حديقة السبيل. ونصف المدينة غدت مثل براكات الأرمن القديمة في قسطل الحرامي. نهر قويق بات مكبّ نفايات. رائحة المدينة نتنة كجناح مشرحة في الطبابة الشرعية. كرائحة روث البقر التي كانت تهب على المسافرين حين يصلون حدود منطقة السفيرة، أو حين ينفجر مجرى كهريز ضخم. كأن وباء البله انتشر في هواء المدينة فاصفرّت الوجوه وانعقدت الألسن وفقدت الحواس خصائصها. المدينة التي كانت لاتنام، تغطّ الآن في سبات عميق ساحق طوال اليوم. ليصفر، الريح الممزوج بعواء الكلاب والصمت المترقب الحذر، طوال الليل. مدينة تحتضر طوال النهار لتبدو ميتة مع مغيب الشمس. ولايبقى في الشوارع سوى الكلاب الشاردة من البشر والحيوانات.

تساءل شهم في سرّه: لماذا تحول الكلاب في أوروبا أليفة لاتخاف البشر ولايخافونها، بينما هنا الخوف متبادل طوال الوقت؟ من عوّد الكلاب – هناك -أن تأنس البشر، ومن جعل الكلاب -هنا - تعادي البشر؟ هل لذلك علاقة بالحاكم والناس؟ ولماذا يسمونه حاكماً ومحكوماً؟ من حكم عليه بلا جريرة أو ذنب؟ لماذا يكون محكوماً ولايكون مواطناً. لماذا لايُسمّى الملك أو الرئيس

خادماً للبلد. ومن منحه صلاحيات الملك والعطاء والمنع. من وضع في رأسه أن الرئيس هو أهم شخصية في البلد التي تسمّيه. وأين هو من الشيخ الرئيس ابن سينا. وأين هو من صفات الرئيس التي اشترطها الفلاسفة على من يستلم السلطة السياسية لبسط الأمان ومنع الأذى ومعاقبة المسيء؟

قطع معتصم شرود شهم بقوله:

- نحن الآن نتجوّل في أحياء حلب الغربية، وهي الأحياء الأكثر حظّاً، حيث كان يتمتع سكانها بخدمات أكبر، قبل الثورة، بسبب ارتباط مصالح بعض سكانها، من تجار وصناعيين، بالنظام. هذه الارتباطات أثّرت على موقف سكان حلب الغربية من الانتفاضة، وهذا لاينفي وجود بعض الشباب من حلب الغربية الذين شاركوا بالثورة منذ انطلاقها، حتى أن بعضاً منهم ذاق مرارة الاعتقال والتعذيب في سجون النظام، مثل الدكاترة كمال ومحمد نور مكتبي وأيمن حناوي. اثنان تم تهجيرهما، أما نور فقد تمّ ترحيله إلى الرفيق الأعلى. هذا الطبيب البشري الرائع الحاصل على إجازة في الشريعة الإسلامية

أيضاً، تمّ اعتقاله وتعذيبه، ثلاث مرّات، لاشتراكه في المظاهرات، والمساهمة بتأسيس المشافي الميدانية.

شارك السائق بالحديث حول ماتذكّره عن نور:

- تعرض، قبل الاعتقال، لاعتداء بالضرب من قبل عناصر أمن، على خلفيّة إصراره على إسعاف أحد المتظاهرين، الذي سقط أمام عيادته أثناء المظاهرات، التي كان يتكرر خروجها من جامع آمنة في حي سيف الدولة.

تابع معتصم، مؤكّداً رواية السائق:

- عندما اعتقله فرع أمن الدولة في شباط 2012 ، خرج مصاباً بارتجاجٍ في عينيه (عمى الألوان) وكدماتٍ في الوجه.

قبل أيامٍ من دخول الجيش الحرّ مدينة حلب تلقّى عدة تحذيرات، بأنه مطلوبٌ وأن خروجه من المدينة بات ضروريّاً، فتوجّه لزيارة مفتي حلب، الشيخ محمود عكّام، الذي كانت تربطه به معرفةٌ قديمةٌ وعلاقةٌ جيدة، لاستشارته في الأمر. اتصل العكّام باللواء أديب سلامة، رئيس فرع المخابرات الجوية بحلب، وتوسّط للمكتبي. وبناءً على ذلك طلب منه البقاء في المدينة، وطمأنه: «وضعك جيّد ولن يصيبك مكروه». عاد

إلى منزله لينام مع عائلته بعد غياب. في مساء اليوم التالي 2012/6/18 اقتحمت دوريةٌ العيادة واعتقلته، لتبدأ رحلة البحث عنه في الفروع الأمنية. بعد عشرة أيامٍ علمت عائلته بوجوده في فرع المخابرات الجويّة، ثم نُقل إلى المشفى العسكريّ بسبب تردّي وضعه الصحيّ وكسورٍ في قدميه نتيجة التعذيب. بعد خمسة أشهرٍ تقريباً، في 2012/11/14 تم العثور على جثة في المشفى الجامعيّ تحمل اسم «مكتبي». توجّه بعض أقاربه ومعارفه للتعرف إليها فلم يتمكّنوا، بسبب التشوّهات، فضلاً عن نحولها الشديد. ولكن طبيب الأسنان، صديق نور، عرفه من رباعية أسنانه الصناعية التي ركّبها له بيده.

مسح معتصم دمعة تهمي تحت جفنه الأيمن، ثم استأنف حديثه عن حلب:

– اليوم، كما ترى، يعيش سكان حلب الغربية حالة رعب وترقّب. هم يبعدون بضعة كيلومترات عن حلب الشرقية المدمرة بالكامل، وخوفهم جنحة أمام حالة الرعب التي يعيشها أبناء حلب الشرقية القابعين تحت رحمة البراميل والنابالم. هنا، أكبر مشاكل السكان هي غلاء المعيشة وعدم قدرة النظام على تأمين الخدمات كالماء والكهرباء والانترنت لهم. بينما

الأحياء الأخرى، تنهال عليها البراميل المتفجّرة، كالمطر.

تدخّل السائق شارحاً الوضع:

- تتركز في الغربية الأحياء الأكثر ثراءً في حلب، ونصف سكّانها من العرب السنّة، والنصف الآخر يتوزّع ما بين مسيحيين من الطوائف الأرثوذكسية، الكاثوليكية، والانجيلية، والأرمن، إضافة إلى نسبة، تزداد بتسارع، من العلويين والشيعة الذين ينقلهم النظام من قراهم إلى مدن ما يسمى "سوريا المفيدة"، كحلب الغربية ودمشق.

قاطعه شهم:

- انظر، إن أماكن السهر مزدحمة، الناس يتبضّعون، ومقاهي الأرصفة تعجّ بالنراجيل. هذا يعني أن الناس هنا مرتاحون.

حين يمرّون بحي الخالدية تخترق أسماعهم أغنية عن بطولات الجيش السوري. سأل شهم: - من المطرب؟

قهقه السائق: -"علي الديك"، مطرب الموالين.

قال معتصم: - منذ بضعة أيام نزلت قذائف من أحياء المعارضة على حي الفيلات "الراقي"، القذائف التي أنكرت المعارضة أنها أطلقتها، قتلت عشرة أشخاص، حلب الغربية ضجّت بالخبر وغضبت لأجل الضحايا المدنيين وكأن مقتل من يقطن في الفيلات يستحق الغضب والثورة، بينما مقتل المئات من الجياع يومياً في كل أنحاء سوريا بنيران روسيا والنظام السوري أمر عابر لا يستحق الوقوف عنده. هؤلاء يرون أن تهديم البيوت والمشافي والمدارس في حلب الشرقية الجارة، أمر شرعي فهؤلاء اختاروا الثورة أما نحن فاخترنا النراجيل، فلماذا نُقتل؟

يبدي شهم رأيه:

- سوريا بحاجة لعقد اجتماعي جديد يعطي كل السوريين حقوقهم على اختلاف طوائفهم، وينهي الفارق الكبير بالمستوى المعيشي والنفوذ بين سكان الأحياء الفقيرة والغنية، وبين الريف والمدينة.

يتأمل التناقض الذي يكشفه توغّل السيارة في المدينة. بيوت فخمة، وبالقرب منها مباني مدمّرة. يتابع حديثه ممتعضاً: كانت حلب واحدة من المدن الثقافية والتجارية

العظيمة، تزيّنها مدينة قديمة مدرجة على قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي.

يقاطعه معتصم:

– نعم. لكنها الآن بعد خمس سنوات من الحرب أصبحت مدينة مهدّمة، تنقسم إلى منطقتين غربية وشرقية، كما حدث في بيروت أيام الحرب هناك.

قال السائق:

– ضعنا. لقد فرضت قوات الحكومة، قبل شهر، حصاراً جديداً على المنطقة الشرقية، وشنّت هجمات شاملة بغية إحكام السيطرة بالكامل على المدينة مع تكثيف عمليات القصف الجوي التي أسفرت عن مقتل مئات المدنيين.

أشعل سيجارته. ألقى نظرة على شهم ومعتصم وهما في حالة سهو. ابتسم بمرارة. تابع بلهجة ساخرة:

– تنفي الحكومة وحليفتها روسيا استهداف المدنيين، وتتّهم مسلحي المعارضة بتنفيذ عمليات من مناطق سكنية. يشير بسبابته إلى الشارع أمامهم: ها نحن نتجه الآن إلى المنطقة الشرقية لترى الفرق أستاذ

شهم. لا توجد أي مجموعة مكلّفة بإدارة شرقي حلب، فهي منقسمة بين المعارضة التي تدعمها الولايات المتحدة وحلفاؤها، وقوات "جبهة فتح الشام" الجهادية، التي اشتهرت سابقاً باسم جبهة النصرة، وقوات الأكراد الذين يقولون إنهم لا يدعمون الحكومة أو المعارضة. هنا منطقة الشيخ مقصود الخاضعة لسيطرة الأكراد، مازالت الأسواق غنيّة بالبضائع، والأسعار مستقرّة، وفقاً لمبادرة "ريتش" التي تتواصل مع المواطنين مباشرة لجمع تقارير ومعلومات عن الحالة الإنسانية بصفة دورية. ويُفتح طريق من الشيخ مقصود، نهاراً، على نحو يسمح للمواطنين بالخروج ودخول البضائع، غير أن المنطقة تحيط بها نقاط تفتيش، ما يعني عدم إمكانية دخول مواطنين من مناطق أخرى تحت الحصار.

أخرج معتصم بضعة أوراق من حقيبة يده وقال:

- استمعوا.. هذه تقارير دولية عن الوضع هنا: في هذه الفترة تعجز وكالات الإغاثة الإنسانية عن الدخول إلى شرقي حلب بسبب الحصار. الدعوات إلى فتح ممرات إنسانية لا تجد استجابة من أحد. كانت تكلفة سبعة أرغفة من الخبز 15 ليرة سورية

قبل الصراع. والآن أصبحت قيمة الكيس المكوّن من ست قطع خمسمئة ليرة. ويشتري المواطنون المياه من الآبار. وشكا كثيرون من أن طعم المياه سيء، ولا يوجد أي ضامن يؤكد خلوّها من الأمراض. فر الكثير من الأطباء من المدينة أو قتلوا خلال المعارك، وبقي 35 طبيباً فقط في شرقي حلب. هناك خمسة مستشفيات فقط تعمل، بشكل جزئي. وتتعرض حياة المواطنين للخطر ليس فقط بسبب الضربات الجوية التي تهدد صحة وحياة المواطنين، بل أيضاً من نقص أدوية مرضى القلب والسكري والأمراض المزمنة الأخرى.

وقالت مبادرة ريتش إن الإمدادات الطبية طويلة الأجل يجري طلبها للحاجة الملحّة لها.

وأضافت: "إنها ليست أشياء يمكن تأجيلها، إنها تحظى بالأولوية".

كما أن المنتجات الصحية الخاصة بالسيدات، مثل الفوط الصحية، ليست متاحة بسهولة في حلب المحاصرة، باستثناء المناطق الخاضعة لسيطرة الأكراد. فالسيدات والفتيات خلال فترة الحيض يضطررن إلى

استخدام الخرق القديمة بدلا من الفوط الصحية التي تستخدم مرة واحدة.

قلّب معتصم في أوراقه:

– وهذه تقارير أخرى: نصف عدد الذين يعيشون في حلب المحاصرة هم دون سن 18 عاما، وقد أُغلقت مدارسهم أو نُقلت إلى مكان آخر. بعض الأبنية تعرّض للقصف، وأبنية أخرى تُستخدم كمراكز إيواء للنازحين، أو يستخدمها المسلّحون في الصراع لأغراض عسكرية.

قال السائق:

– لنوضّح لك الصورة أكثر. تبدأ حلب النظام، أي الغربية، من ساحة سعد الله الجابري، وحي العزيزية والسليمانية، ثم الجميلية وحي السبيل والمحافظة وصولاً إلى الجامعة وحي الشهباء وجمعية الزهراء، وحلب الجديدة والحمدانية وسواها. ويشمل القسم الثاني من حلب التي تسمّى شرقيّة، الأحياء الفقيرة، كالحيدرية، ومساكن هنانو، والشعار، والصاخور، والكلاسة، وبستان القصر، وباب النيرب، وقاضي عسكر، وحي صلاح الدين والمشهد، وسواها.

وهناك قسم ثالث من حلب، يتكون من حيي الشيخ مقصود والأشرفية، اللذين يخضعان لسيطرة مقاتلي «وحدات حماية الشعب» الكردية، التابعة لحزب الاتحاد الديموقراطي الكردي. وهم أكراد سوريون جاء معظمهم من خارج المدينة المنكوبة.

في حلب أصبح أيّ شيء ممكناً بواسطة المال، الشبيحة، العناصر الروسية والايرانية، عناصر الشرطة، الموظفون المسؤولون، كلهم يمكن شراؤهم بالمال، وهو همّهم الوحيد. نعم، حلب اليوم حَلَبان وأكثر قليلاً. شوارع مقفرة، تتكدس فيها القمامة، وتنتشر رائحة الموت في كل مكان تقريباً، ومع ذلك يواصل من تبقى حياته. إن حلب شهدت مولد التاريخ، فلا نكاد نعثر على حضارة قديمة إلا وفي حلب ما يدل عليها، أو غصناً أخضر يطل علينا من خلف القرون. فهنا قام صرح شامخ، وهنا جامع متفرّد في طريقة بنائه ودراسة واجهاته، أو كنيسة رائعة العمارة والزخارف، وهناك سوق ومدرسة و«بيمارستان» وحمام وخان... إلخ. لقد حوّل الصراع حلب إلى دمار طال المدينة القديمة وأسواقها،

واستُبدلت الحركة اليومية للناس بمناظر الحرائق والسحب السوداء.

قال معتصم منفعلاً:

- أهالي حلب يستيقظون صباح كل يوم على أنباء المباني التي دُمّرت، وعدد الذين قتلوا تحت ركامها. الطائرات المقاتلة تجوب الأجواء طوال النهار، والمروحيات تحلّق على ارتفاع منخفض قادمة من مطار حلب العسكري. ومع غروب الشمس، يحين موعد هطول القذائف من مدرسة المدفعية في شمال المدينة، أما أعمدة الدخان الأسود فهو أمر متوقّع رؤيته في أي لحظة. اليوم في حي طريق الباب سقطت قذيفة على مبنى سكني، دمّرت الطابقين العُلويين، بينما لا يزال السكان يسعون لالتقاط أي مؤشر على الحياة من تحت الأنقاض.

توجّه السائق إلى زقاق مجاور فوجدوا أنفسهم أمام مبنى تمّت تسويته بالأرض، يقوم أحدهم بتمزيق ثيابه من الغضب، ويصرخ آخر ليحمّل العالم كلّه مسؤولية مقتل الأطفال والنساء تحت أنقاض منازلهم، ويتساءل شيخ مسن:

- "أليس هذا ما تريده أميركا وإسرائيل لشعبنا؟".

يحاول بعض الجيران تهدئتهم، ويتشاجر الطرفان في جدال ساخن حول دور الإعلام في نقل ما يحدث، بينما يصرّ البعض على أن العالم يعرف الحقيقة لكنه لا يكترث. وتزداد سخونة الأجواء مع ارتفاع دويّ الطائرات التي تحلّق فوق المكان، ليصرخ بعض الشباب موصياً بضرورة التفرّق كي لا يغري تجمّعنا قائد الطائرة بإلقاء قنابله وقتل أكبر عدد ممكن من البشر. هنا أيضاً.

في هذا المكان، قبل عام، لاحقت طائرة سيارة عبد الرؤوف، قصفتها ثلاث مرات، أصيب هو وسراب الذي كان معه. نجيا ولكنّهما أصيبا إصابات بالغة.

وصلت السيارة إلى حي الصاخور. رأوا جثة رجل ما زال عالقاً تحت الأنقاض، وحدّثهم أبو محمد عن سقوط صاروخ على الدور الأرضي من المبنى الفخم، حيث انفجر الطابق كلّه وانهارت أرضيته على القبو، بينما لا يزال المبنى قائماً. وقال:

- لقد انتشلنا أربعين جثة، وما زال هناك أربعة على الأقل مفقودين. فالقصف بات عشوائياً في كل الأيام وعلى مدار الساعة. في حي مساكن هنانو المجاور،

أسقطت قذيفة مبنىً كاملاً من أربعة طوابق وأحالته إلى ركام.

قال السائق:

- بعد خمسة أيام من الحفر بين الحديد وكتل الإسمنت، أوقف السكّان عمليات البحث عن أربعة مفقودين نصفهم من الأطفال، لعدم توافر المعدّات الكافية.

بعد نهاية الجولة التي أصابته بالدوار، (تخيّل خلالها أنه يحضر فيلماً هوليودياً، فما رآه لايسهل تصديقه)، يغادر شهم حلب. تنهب إطارات السيارة الدرب، وتخلّف مشاهدَ عجوز، غضّنت الأيام جبهته ووجنتيه، يجلس أمام مبنى منهار وأمامه بضعة أشياء هي بقايا بيته: كرسي فقد أحد رجليه. منفضة سجائر معدنية. إناء نحاسي لِغَرْفِ الماء من جرن الحمّام "طاسة". بضعة مسبحات تضمّ حبّات ملوّنة. عربات خضار يجرّها أشبال ينادون على بضائعهم، بدلاً من ترديد أناشيدهم المدرسيّة. تطوي السيارة أيضاً أشخاصاً يسيرون بتكاسل وتعثّر، واحد فقد إحدى رجليه، وآخر بذراع واحدة، وثالث على كرسي متحرّك فقد بعض دواليبه. مشاهد تجعل قصيدة تميم البرغوثي عن القدس تدوّي في رأسه. حلب غدت

كالقدس، بل أكثر معاناة منها. هناك عدوّ يحتلّ، وهنا حاكم يدمّر:

مرَرْنا عَلى دارِ الحبيب فردَّنا عَنِ الدارِ قانونُ الأعاديوسورُها
فَقُلْتُ لنفسي رُبما هِيَ نِعْمَةٌ فماذا تَرَى في القدسِ حينَ تَزُورُها
تَرَى كُلَّ مالا تستطيعُ احتِمالَهُ إذا ما بَدَتْ من جَانِبِ الدَّرْبِ دورُها
متى تُبْصِرِ القدسَ العتيقةَ مَرَّةً فسوفَ تراها العَيْنُ حَيْثُ تُدِيرُها

بدت له صعوبةٌ في تذكّر القصيدة كلّها، فاكتفى بمايقفز إلى ذاكرته وهو يتحسّر على حلب التي غادرها كمال، ولم يتمكّن من رؤيته فيها: معه حقّ، كيف لايترك المدينة بدلاً من مواصلة البكاء على أطلالها:

أَحَسبتَ أنَّ زيارةً سَتُزيحُ عن وجهِ المدينةِ يابُنَيَّ
حجابَ واقِعِها السميكَ لكي ترى فيها هَواكْ
في القدسِ كلَّ فتى سواكْ
وهي الغزالةُ في المدى، حَكَمَ الزمانُ بِبَيْنِها
ما زِلتَ تَرْكُضُ خلفها مُذْ وَدَّعَتْكَ بِعَيْنِها
فَارفق بِنَفسكَ ساعةً إني أراكَ وَهَنْتْ

فِي القدسِ من فِي القدسِ إلا أَنْتْ

. ...

والقدس صارت خلفنا

والعينُ تبصرُها بمرآةِ اليمينِ،

تَغَيَّرَتْ ألوانُها فِي الشمسِ، مِنْ قبلِ الغيابْ

لا تبكِ عينُكَ أيها المنسيُّ من متنِ الكتابْ

لا تبكِ عينُكَ أيها العَرَبِيُّ واعلمْ أَنَّهُ

فِي القدسِ من فِي القدسِ لكنْ

لا أَرَى فِي القدسِ إلا أَنْتْ

–2–

في طريق مغادرة شهم حلب إلى لبنان يجلس الى جانبه بالحافلة شخص يعرّف عن نفسه بأنه أيمن ويحكي له بدموع تكشف الأسى الذي بداخله وحشرجة لا تفارق

حديثه عن حلب التي عاد منها بعد أن زارها لمدة أسبوعين، قال:

- منذ أن دخلت إلى الحدود السورية شعرت بانقباض شديد في صدري وبقلق لا أعرف سببه، رغم أنني كنت متحمساً لزيارة حلب مدينة أجدادي ومربى طفولتي وشبابي. وصلت إلى حلب وليتني لم أر عروستي التي ذُبحت من الوريد إلى الوريد على مذبح المجتمع الحقير الذي نعيش فيه.

في حلب لم تعد ترى الناس كما تعرفهم، فخالاتي وعماتي وأولاد أعمامي أصبحوا مختلفين، وكأنهم أغراب. مجرّد أشباح تسير في نفق مظلم أو مجرّد حبّات سيل تسير في مجرى نهر، لم يعودوا يعرفون معنى الحياة. الأحلام التي كانوا يعيشونها من قبل، ماتت وانتهت تماماً. يلهثون مثل الحمار الذي يحمل أسفاراً، فذاك يبحث في فروع الأمن عن قريب له لم يعد يسمع عنه شيئاً منذ أمد بعيد، وذاك يستعطف صاحب السوتير ليؤمّن له ماءً للشرب، والآخر يبحث عن دواء لولده، وآخر يبحث عن الطريقة التي يؤمّن بها غداءه أو عشاءه، وآخر لا يعرف كيف يداري فضيحة ولده الذي أصبح يسير في

الطرقات باحثاً عن رضا شيعة الحسين، وآخر لم يعد يتحكّم بابنته التي أضحت توزّع الابتسامات على رجال الحاجز الأمني. في خضمّ ذلك سرتُ فيما تبقى من شوارع حلب غير المدمّرة، نظرت مليّاً في وجوه القوم، فلم أر وجهاً مريحاً أنظر إليه، فأغلبهم من أصحاب الوجوه العابسة المرعبة، فسواد جباههم تدل على ما يدور في صدورهم من أسى. نعم أيها السيد، حلب اليوم مليئة بالروس والإيرانيين والأفغان والعراقيين وأصحاب اللطميات السخيفة، ولا تسمع في سمائها سوى أصوات النواح لمقتل الحسين والتوعّد بالانتقام من أبناء السُنّة القتلة حفدة القتلة.

يتابع الرجل حديثه غير وجل، وكأنّه فقد خاصّية الحذر، ولم يعد يأبه بأحد:

- الشبيح من الغرباء يتلقى راتباً من البنك التجاري السوري بقيمة ثلاثة آلاف دولار أي ما يقارب مليون وستمائة ألف ليرة شهرياً، بينما معاش الجندي السوري ابن البلد أربعين ألف ليرة أي حوالي ثمانين دولاراً. كما أنه يتم توزيع الطعام الفاخر للأصدقاء – الغرباء على الحواجز بينما لا يصل للجندي السوري سوى البرغل والعدس والبطاطا المسلوقة.

جلست مع بعض هؤلاء الذين يُسَمّون أصدقاء، من الروس والايرانيين، وأتاهم الغداء من جهة لم أعرفها، فإذا هو شرحات لحم، فتعجّبت كثيراً لمعرفتي بمدى الفاقة التي يعيشها الحلبيون، ثم تذكّرت أن هؤلاء هم الأصدقاء فزال عني العجب! في زيارة لمدير البنك التجاري فرع العزيزة وأثناء شرب القهوة معه ذكر لي أن الشهر الماضي صرف شيكاً للسيد جواد، وهو إيراني، ويُعتبر الحاكم الفعلي لحلب، حالياً، صرف له شيكاً لغطاء مصاريف شبيحته بقيمة مليار ونصف ليرة سورية، ويفتخر بأنّه سلّمه المبلغ لم ينقص ولا قرش. الخلاصة أن حلباً لم تعد حلبا، وأهلها لم يعودوا أهلها.

في استراحة الحافلة على الطريق جلس إلى طاولة شهم شخص. أشعل سيجارة وراح يتفرّس في وجهه. استجمع شجاعته، وقال بأسى:

– سمعت حديثك مع جليسك، المشكلة أكبر من ذلك. الذي صار بحلب هو أن الناس تغيّروا. لم تعد قابلة للعيش فيها في الظروف الحالية. لاماء ولاكهرباء، والغلاء فاحش، وقد انتشرت فيها أقراص التخدير والهلوسة تباع على مفارق الطرقات بعلم

الدولة وموافقتها. وصار الحشيش، والعياذ بالله، يباع كعلب الدخان، وغدا شائعاً بين الشباب، يتعاطونه في وضح النهار. لم يعد هناك احترام للكبير، وفقدت الحياة الزوجية قداستها، وتضاعفت حالات الطلاق لضيق ذات اليد من جهة، وشيوع الفاحشة من جهة أخرى. النساء يمارسن الدعارة علناً، وفي الدوائر الحكومية صارت ممارسة الجنس مع المدير أو معاونه أمراً مفروغاً منه، ومن متممات العمل للحفاظ على الوظيفة. تحرّش الرجال بالنساء في الحافلات والسرافيس صار علنيّاً ومن المسكوت عنه لمن يحمل سلاحاً أو ترافقه عزوته، ولاأحد يجرؤ على ردعه. وأمسى عاديّاً أن تتجول الفتاة مع صاحبها في الشارع عندما يكون من رجال الأمن أو من الشبيحة الذين سمّوا أنفسهم لجان الدفاع المدني، أو من الأجانب الروس أو الإيرانيين. في الماضي كنا نرى التحرّش الخفي بالبنات العابرات. تطوّر الأمر فغدا التحرّش وقحاً وبلا تمييز حتى لو كانت جارتهم. ثم تطوّر أكثر فغدا التحرّش بالأشبال ذوي المنظر المستحلى، عاديّاً، لايلقى ممانعة من أحد.

إلى طاولـة قريبـة كانـت تجلـس إحـدى العجـائز. تمـدّ أذنيها محاولة الإصغاء، بصعوبة، إلى مايقـال. جرّت كرسيّها وانضمّت إلى طاولة شهم:

– "لاتشـكيلي ببكيلـك" يـاأبني المشـكلة أكـبر في المنـاطق الخارجـة عـن سـيطرة النظـام، في المنـاطق الشرقية من حلب.

صاحت وهي تهزّ رأسها يمنة ويسرة:

– آآآآه ياحلب. شرقية وغربية. مثل بيروت أيام زمان، قسموها إلى شرقية وغربية. دكاكين. جعلوها دكاكين يبيعـون فيهـا السـلاح. تجـد الأسـعار علنـاً للبندقيـة والرشاش والقنابل والسواطير. قال محررة قال. عصابة "كل مين إيدو ألو" ماعاد نعرف نفرّق بين الجيش الحر والعصابات. كل حارة فيها زعيم و"تعا دبرّها إذا بتتدبّر" الشكوى لله بس.

بدت دموعها تطفر من عينيها. غادرت الطاولة وهي تلطم رأسها بيديها:

– راح ابني راح.. راح الغالي راح.

..

رحلةٌ من العذاب كابدها شهم قبل أن يتجاوز الحواجز ونقاط التفتيش، حتى وصل إلى لبنان، ومنها استقلّ الطائرة التي حطّت به في مطار عنتاب. استقلّ حافلة (هواش) التي تنقله إلى "يشيل سو" وهي في طريقها إلى المحطة الأخيرة في "غازي مختار"، قرب الجامع الذي سمّاه السوريون: "الجامع الأزرق"، تبعاً لغلبة اللون الأزرق على طلاء سوره الخارجي.

هذه المرة من غير موسيقى وبدون شاي. لا يريد شهم تكرار ما حدث. الماء يفي بالغرض. لا وقت الآن لديه ليتلقّى اللوم من أمّه التي لا يبارحها التذمّر وهي تقوم بتنظيف الغرفة اليتيمة. يفتح الأوراق التي حظي بها. يبدأ قراءة اليوميات، باهتمام:

حلب – القبو– تموز/ آب 2011

الإبرة في الإحليل

–1–

أرخيت البنطال إلى أسفل قليلاً. اقترب ممرضٌ، غير الذي كان يزرق هذه الإبرة للمرضى عادةً. دنا الضبّاط والعناصر الأربعة الذين ملأت أجسادهم باب الغرفة.

(يتذكّر شهم: نعم، هذه كانت آخر جملة في الأوراق الماضية التي زوّدَتني بها أم علاء. رائع أنّ انقطاعاً بين الأوراق لم يحدث. كنت سأموت من القهر لو حدث).

ينظر إلى السقف. يراقب أمّه وهي تغزل شالاً صوفيّاً. يبتسم. يدفن وجهه بين الأوراق:

أفرغ الممرض الدواء الوردي في الحقنة التي بيده، وربط آخر العضو تسهيلاً لدخول المسبار الذي يلامس الإبرة ويتم تفريغ محتوياتها فيه. في البداية لم يفلح الممرض، الذي

يبدو التشبيح من عينيه، في فعل المطلوب، فاستعانوا بطبيب يشرح له طريقة الزرق. يتمّ دهن المنطقة بمادة مخدّرة ويُلفّ محيط العضو بقطعة بلاستيكية مرنة، ويتم طيّ الساقين لتسهيل دخول أنبوب الزرق (المسبار) الذي تُفرّغ فيه محتويات المادة الكيميائية وتصل إلى المثانة عن طريقه. كنت مشدوداً من ألم إجراء العملية، بينما أعصاب الذين يرافقونني مشدودة منتظرين الانتهاء لمغادرة المشفى.

من الواضح أنهم أرادوا كشفي من خلال إحضاري إلى المشفى، فنظراً إلى خطورتي، التي لم يتمكّنوا من إثباتها، ويتغنّون بذكرها دائماً، كانوا يتوقّعون أن تكون هناك خطّة كبيرة لتحريري من الاعتقال. ولا يمكن الكشف عن شبكتي التي أديرها وأنظّم من خلالها المظاهرات في حلب وأقوم بإدارة تصويرها وبثّها عبر الفضائيات إلاّ من خلال هذه المخاطرة والإعداد لعملية كبيرة يُسجّل نجاحُها نقطةَ انتصار مهمة لفرع المخابرات العسكرية بحلب.

قبل مغادرة جناح المشفى قلت لهم أن يسألوا الطبيب عن موعد الحقنة التالية، وكنت أعرف أنه سيقول لهم بعد أسبوعين.

وُدّعتُ من المشفى بمثل ما استُقبلتُ به من حفاوة. تصفيد وتطميش. سيارات مرافقة وعدد كبير من العناصر مدجّجين بالسلاح. نزلنا طابقين تحت الأرض، ومررنا بكثير من الأبواب، قبل أن أمسي خلف باب الزنزانة الذي يكتفون بإغلاقه بمزلاج كبير يصدر صريراً قاسياً مزعجاً كلّما مسّته يد.

الآن بعد زيارة المشفى أمسى بإمكاني أن أطلب الذهاب إلى دورة المياه خارج الأوقات الرسميّة، فقد شاعت مسألة زيارتي للمشفى، ولاشكّ أن التحضير لتلك الزيارة كلّفهم الكثير من الوقت والجهد والمال، ولكنّه عاد بخيبة أمل كبيرة، فلم يحدث شيء مما خطّطوا له.

بعد دخولي الزنزانة رفعت رجليّ إلى الجدار، وكل ربع ساعة أتقلّب على أحد أطرافي تبعاً للتعليمات التي أعرفها عقب كل حقنة، ليتسرّب الدواء إلى كل جدران المثانة. وقد أوصاني طبيبي بضرورة تجاهل أي رغبة في إفراغ المثانة من محتوياتها، ولا يجوز فعل ذلك قبل ساعتين من أخذ الجرعة الدوائية.

وحيداً كما بعد كل مغادرة أعود. أتقوقع على ذاتي وأطلق العنان للتفكير. لا أصدّق شيئاً مما حدث.

هـل يمكـن أن يصـيبهم كـلّ هـذا الرعـب مـنّي، ولمـاذا؟ يُفـترض أن أكـون أنـا الخـائف وأنـا في قبضـتهـم، وخلـف أبوابهم وأصفادهم.

تُرى كيف ستكون ردّة فعل مدير المشفى، زاهر، عندما يـواجهني بعـد الإفـراج عـني؟ كيـف سيبرّر عـدم ابتسـامته في وجهـي وعـدم الإقـدام للترحيـب بي؟ ومـاذا سـيكون جوابـه حـين أسـأله مـداعباً: هـل أتـاكم مـريض للمشـفى أهـم مـني خـلال هـذا العـام؟ بي غـدا مشـفاكم أكثـر شـهرةً. هـل سبق واستنفر المشفى على هذا الشكل؟

بين استغراقي في الهذيان ودهشتي مما حدث، وإحساسي بتبلّد جلدي، أعاف نفسي. منذ وصولي إلى هذا الجحر لم ألامس الماء ملامسة حميمية. لم أسكب على جسمي قطرة مـاء تنعشـني وتجـدّد نشـاطي. لسـت مـن هـواة الاسـتحمام اليومي، ولكن لم يحدث أن يمر أسبوعان من غير استحمام. أسبوعان وسط محيط قذر وبطانيات اكتسبت صلابة نتيجة تـراكم الأوسـاخ عليهـا، فغـدت كأنهـا نُسـجت مـن خيـوط زجاجيّة. ألمس شعري فأراه قد فقد مرونته.

-2-

قبل خمسين عاماً أراد جدّي تقوية شعري فأخذني إلى الحلّاق وطلب منه أن يحلق شعري بالموس. كنت قصيراً على رؤية مرآته، وحين انتهت الحلاقة، طلبت من جدي أن يرفعني لأرى شعري، وكانت الاستجابة هي سبب بدء الموشّح. بدا رأسي أملساً، فلم أعد أعرف نفسي، فأجهشت بالبكاء. تواصل الصراخ والنواح والتذمّر رغم أنّه أخذني إلى دكاكين حجيج.. اشترى لي غزل البنات. أكلتها وتابعت البكاء. نادى على بائع المعلل. استمتعت بقضم التفاحة الصغيرة وبتلمظ المادة الحلوة الحمراء التي طُليت بها، وتابعت البكاء. لم يسكن عويلي إلاّ بعد أن اخترع جدّي حجّةً مقنعة. قال لي:

– نذهب ليلاً إلى حمّام السوق، وهناك ينمو شعرك بسرعة.

لاشكّ أن تلك الحلاقة كلّفته عشرات الليرات، فقد دعى الكثير من أقاربنا ومعارفه وأولادهم لحضور حفلة نمو الشعر السريع كي يرضيني، وحجز عدداً كبيراً من المقصورات، ليتّسع هذا العدد الكبير فيها. طوال بعد الظهر رافقته وهو ينتقل من السقطية إلى سوق العطارين وخان

الصابون وسوق العبي والقصابية موصياً على مستلزمات الذهاب إلى الحمّام. وكانت التوصية الخاصة للمستت بصينية كنافة بين نارين، قال له:

- بدّي صينيّة معتبرة.

المفاجأة التي جعلتني أستنكر ما يحدث هو تجاوزنا لحمّام باب الأحمر، فلم ندخل إليها، وسرنا مسافة طويلة جعلتني أشكّ بانه سينفّذ وعده بإعادة شعري إليّ بالحمام. قلت له وأنا أحرّك كفّي الصغيرة في يده الضخمة وأشدّها إليّ لينتبه إلى ما أقول:

- جدّي.. الحمّام راح، هلء صرنا نحنا بعيد.

قال وهو يبتسم:

- لأ كمولة مابدنا هداك الحمام، بدّي آخدكن على حمام النحّاسين.

بعد مسيرة عشر دقائق، مررنا خلالها بمحيط القلعة والزاوية الصيّادية والسرايا، وبعد أن دخلنا في سوق المدينة المسقوف، وصلنا إلى خان النحّاسين، فإذا بنور ينبثق من مكان منخفض عن سطح الشارع، وتبدو ثريّاته مبهرة متلألئة.

نزلنا الدرج فدُهشت ببركة ماء كبيرة وقبّةٍ مزينّة بفتحات زجاجيّة للإنارة، وبهرتني ضخامة حجم قاعة البرّاني. حمّام تختلط فيه عوامل البهجة وفرحة الاكتشاف الأوّل، روائح الغار تفوح في المكان، وانهماك النّاس بين لعبٍ وأحاديث وسكب ماء. الرجال الذين أنهوا استحمامهم مصطفّون بمآزرهم على مصاطب التنشيف، يشربون الشاي الساخن.

مازاد الأمر روعةً أنني كنت محطّ اهتمام المدعوين جميعاً، فراحوا يتسابقون إلى إسعادي بالتعرّف على المكان. هنا المكيّس الذي ينظّف أجساد الوافدين بكيس التفريك* حتى يحمّر ظهر الرجل تحت يد المكيّس الذي حين ينتهي من تنظيف منطقة، يضربها ضربة خفيفة كي يقلب زبونه إلى طرف آخر ليتمّ تنظيفه. المقصورات بلا أبواب ويتم تعليق المآزر على سيخ عرضي أعلى الباب للدلالة على أن المكان مشغول. حنفية الجرن الحجري لامفتاح لها فهي تبقى طوال الوقت تُخرج الماء من فمها، فإن طال عدم استعمال الطاسة النحاسية لغَرف الماء من الجرن، تفيض الماء كشلال على جوانبه، وتصدر خريراً يضجّ بحيوية الحياة.

* قطعة قماشية تُحك على الجسم لتساعد على إزالة الخلايا الميتة من البشرة وتنشيطها وتنظيفها.

زرت هذه الحمّام بعد تلك الرحلة العجيبة مرّتين، مرّة مع زملاء المدرسة الثانوية، وأخرى بمناسبة ليلة عرس أحد الأقرباء.

أين تلك الأيّام، رحمك الله ياجدّي، تُرى لو عرفت الآن أين أنا ماالذي كنت تفعله من أجلي؟ هل ستلفّ شالك الطويل المرصّع بالحلي، والمزركش بمنمنمات رائعة، وتستلّ سيفك الفضيّ من غمده الجلديّ المقوّى بموادّ صلبة، وتدعو رئيس الفرع للمبارزة؟.

حمّام النحاسين؟ حمّام يلبغا الناصري؟ حمّام باب الأحمر؟ لا.. لاأحلم بهذا البذخ، يكفي أن يسمحوا لي بفتح حنفية المغاسل لأصبّ الماء على جسمي.

-3-

لم أزل غير قادر على استيعاب أنني في مكان مغلق في قبو يتحكّم فيه بي ثُلّة ممن لايمكن أن يحلموا بأن أعيرهم أدنى التفاتة من طرْفي لو كنّا في مكان آخر.

صوت سجّان يلعلع في الممر: مين مفطر؟ صار وقت الغدا. أقول له رقم زنزانتي. يفتح الطاقة لائماً:

– لك موقلت إنّك مَتصوم.

– اليوم سأفطر.

رمى لي رغيف خبز وسبع خوخات صفراء بحجم (الكلال) التي كنّا نلعب بها في الحارة، وأغلق الطاقة غاضباً. بالطبع لم يكن يسيئهُ تفويت الجنّة علي، لكنّه لم يتمكّن من توفير وجبتي لنفسه.

كنتُ صائماً بالفعل، غير أن زيارتي للمشفى وزرق الإحليل بالدواء جعلاني أفتي لنفسي بوجوب الإفطار.

حتى حان موعد الإفطار خرجتُ مرّتين إلى دورة المياه، ولم يتذمّر السجّانان، اللذان تناوبا على مرافقتي، من طرقي للباب طالباً التبوّل. لقد وصلهم نبأ وضعي الخاص.

مكابدات الموت

بُعيد أذان المغرب، وفي أول يوم رمضاني، بدأت أصوات إحضار معتقلين جدد. أخرجوني مصفَّداً إلى غرفة لم أرها من قبل. قيّدوني إلى كرسي حديدي بدا لي ثابتاً، ورفعوا جزءاً من الطمّاشة ليتيحوا لي رؤيةً جزئيّة. تركوني في الغرفة وحدي.

رحتُ استكشف المكان، وأتوجّس من هذا الفعل الغامض. قرأت المعوّذات وأنا أرى آلات لم أرها في حياتي. شيء يشبه الرافعة الحديدية التي كنا نستعملها في معمل النسيج لنرفع السديوات (بكرات الخيوط الضخمة) من الشارع إلى محلّنا الذي يرتفع عنه سبع دَرَجات. سلاسل حديدية على بَكرة معلّقة في مستطيل حديدي مثبّت في السقف. هراوات مرميّة بشكل عشوائي ذكّرتني بمرابط الخيول في خان الوزير. دواليب شاحنات مختلفة الأحجام. كتلة من أسلاك نحاسية مغلّفة ببلاستيك يشبه الخرطوم، وكلّها خضراء اللون.

الإضاءة كانت ضعيفة موجّهة من بؤر محدّدة في السقف، كتلك التي رأيتها في فيلم الجلاّد القرمزي الذي

يحلو له تعذيب الناس في قبو ناءٍ يشبه الكهف. برميل كبير يحيط بحوافّه الصدأ. أبواط عسكرية مهترئة مكوّمة في زاوية الغرفة. كان الأشد وقعاً في الغرفة من كلّ مارأيت، صورة كبيرة للرئيس معلّقة في صدر الغرفة، أثارت لديّ شعوراً مزدوجاً يجمع بين الغضب والقرف.

شعرت برغبة في التقيّؤ. لو كان الأمن يدرسون فنون التعذيب بأساليبه الحديثة الأشدّ وقعاً، والتي لاتدينهم جمعيات حقوق الإنسان عليها، كانوا وضعوا صورته في زنزاناتنا. أشحت بوجهي عن الصورة وهممت بأن أتفل. دخل سجّانٌ حرّك الطمّاشة بحيث لم أعد أرى سوى أرجله والأرض ذات البلاط الملوّن بدماءٍ جافّة. سمعته يقول:

– تمام سيدي.

بدأت أصوات الأرجل تتوالى إلى الغرفة بسرعة، بعضها يصدر صوت أقدام ثابتة، وبعضها خطوات متعثّرة مضطربة ومتردّدة. هواء الغرفة يزداد اختناقاً على أصوات سلاسل تتحرك من حولي. قال أحدهم، يخاطب معتقلاً مركيّاً على الأرض:

– هنت ليش مَتزور ياعر(.)؟

بدأ يركل رأسه بحذائه ركلاً متتابعاً، ويدوس على رقبته بقسوة. مع صوت وقع العصا على العظام من الطرف الآخر، رأيت جنوناً ينتشر في أرجاء الغرفة. بسطار يُحشر في فم شخصٍ ملقىً على الأرض، وأصوات شتم متلاحقة ومن مصادر مختلفة، وكأننا في ورشة عمل. الغاضبون منهمكون في مايقومون به:

- بدي مَوتك يا عر(.) يا ابن الش (...)ة، بَدَّك تموت بطل ماهيك؟ بَدِّي مَوتك فطيس.

خيزرانة تنهال على جسم شخص آخر من ناحية، ومن ناحية أخرى يتفنّن سجّانٌ في تنويع الضرب بين الرأس والصدر والأرجل. ضربات متلاحقة على أقدام حُشرت داخل دولاب، لم أرَ وجه من يضرب، ولكنّني رأيت قسماً من العصا ينكسر.. يرتفع في فضاء الغرفة ثمّ يتوضّع عند قدمّي. تناول السجّان الخرطوم الأخضر واستمر يضرب بعنف شديد، والشاب يتلقّى الضرب بصراخ حادّ أحسستُ أن الغرفة تتزلزل من شدّته. لم أعد قادراً على متابعة ما يجري. بدأت أشعر بدوار. تداهمني رغبة شديدة في التقيّؤ.

الكلمات التي سمعناها، في التلفاز، والجنود يدوسون الناس ويرقصون فوق أجسادهم تتكرّر الآن في غرفة التعذيب، يسألون وهم يواصلون الضرب بقسوة:

- مين ربّك، شو دينك، مين دافعلك، مع مين أمك(...)، مين اللي (...).

ارتفعت وتيرة غضب أحد الضباط فصاح:

- عطيني الكماشة ياعر(.) بدي (...) أخت هالش(..).. بأيّ اضفر بدك نبدا ياأخو ال(...) قول ولاك.. خرست؟.

أسمع صراخاً حادّاً يخرج من قحف رأسي بشفتيّ من أتخيّلهم يقلعون أظافره بالكماشّة والدم ينفر من أصابعه. صرخة واحدة شديدة كزلزال غاب بعدها الصوت تماماً، لاشكّ أنه فقد الوعي. لم أعد أحتمل. حاولت رفعت يدي طالباً الإذن بالكلام، لم تتحرك فهي مثبّتة بالكرسي. أحدّق في صورة الرئيس، بمخيلتي، لأنني لم أعد في وضعية تمكنني من رؤيتها، أحدّق بغضب نمر يريد أن يلتهم صاحبها ويمزّقه من دون أدنى إحساس بالدم الذي يمكن أن يسيل. لايمكن أن يكون لديه أو لدى هؤلاء أيّ نقطة دمٍ آدمية. أسمع صوت لدغات متلاحقة يتبعها صراخ قصير.

بدأت، إذن، العصي الكهربائية بالعمل. يصيح أحدهم برجاء:

- مو من هون سيدي.. مشان الله مو من هون، أنا لسا ماتجوّزت.. دخيلك ياسيدي.

يلدغون الأماكن الحسّاسة من الجسم.

يااارب ماهذه الجحيم. تصلني رائحة أجساد تحترق. يأمرهم صوت أجش:

- صار وقت الرقصة مين مايرقص منيح؟

ألمح الأرجل تتقافز فوق الأجساد الملقاة على الأرض. يقفزون بقوّة متنقّلين من بطنٍ إلى بطن من غير أن يلامسوا الأرض. تفوح روائح كريهةً. يبدو أن أحدهم يتغوّض لاإراديّاً من عنف القفز على بطنه. أول يوم رمضان ورقص على البطون، وتعذيب بكل هذه الوحشية؟ أي حرمة تعني هؤلاء؟ أي دين يؤمنون به؟ أحسّ أمعائي تتقطّع وكأنّ بركاناً يفور داخلي من مشاريع تقيؤ فاشلة. مطرقةٌ تدقُّ رأسي. لاأدري كيف غدت رجلاي تراوحان وأنا مقيّد بالكرسي. فاجأتني صفعة قويّة سمعت خلالها قطارَ إسعاف يصفّر في خدّي عابراً إلى القفص الصدري. بردّة فعل عاجلة أسندت نفسي على كتفي الأيسر وأنا أسقط مع

الكرسي من وقع الضربة. شممت رائحة فم كريحة كبالوعة في جحر جرذان حين اقترب مني سجّان وهمس في أذني التي تلقّت الصفعة:

- هنت ماتتحرك يا(...) شوبَدّك؟ أدكلّك خازوق؟

قلت:

- محصور، بدي أروح التواليت.

قهقه طويلاً كعاهرة رخيصة مسنّة، وقال هازئاً:

- سيدي قال بدو يروح التواليت. بتسمحلي (...) عليه؟

وسط استمرار الضرب في كل ناحية، وتعالي العويل، ساد في داخلي صمتٌ كريح تصفر في صحراء ممتدة. يدٌ خشنة كمنشار فكّت ارتباطي بالكرسي وأنا مضطجع، أنهضتني، سارت بي إلى الممر خارج الغرفة، ورويداً رويداً خفتت الأصوات التي كانت تحفر رأسي مثل دقّاق الحفر (كمبريسا).

كما في المرّة الماضية، لم يحدث. قلت في نفسي، وأنا أسكب ماء الخرطوم، لعلّ ذلك يساعدني: إنّ الصورة التي رأيتها في غرفة التعذيب كفيلة بأن تفعل أكثر من جعلي

أتبوّل فلماذا لايحدث ذلك الآن؟ قولة* حج بشير صورة بت(...). عدتُ إلى الزنزانة وكأنّي عائدٌ من رحلة عمل شاقّة إلى منتجع للراحة.

كلّ هذا التعذيب يتلقّونه شبّان لمجرّد أنهم أرادوا أن يتظاهروا؟ أن يعبّروا عن آرائهم؟ أن يطالبوا ببعض حقوقهم كمواطنين؟ ماأقبح هذه السلطة التي تعامل الناس كأعداء.

مايزال يشغلني شيء غامض. بالرغم من العذاب الذي أعانيه من خلال وجودي في هذا المكان، ماالذي يجعل هؤلاء القتلة الذين لايتورعون عن كلّ سوء، يُحجمون عن تعذيبي جسديّاً كالآخرين؟ سرّ لابدّ أن يكون وراءه شيء كبير. تُرى هل يردّهم عملٌ صالحٌ قمتُ به، وشاء الله أن ينجيني من أذاهم المباشر؟ الله... لاشكّ أنّ الله أمام كلّ شيء، ووراء كلّ شيء.

أقوم للصلاة بقلبٍ خاشع فيسجد كلّ مافيّ وتغمرني سعادةٌ غامضة. أدعو مطوّلاً لأولئك الذين يُعَذَّبون بضراوة، أن يخفّف الله عنهم الألم، ويصيب معذِّبيهم بالضعف والوهن كي يكفّوا عنهم. دموعي تنهمر بغزارة

* كما يقول.

وأنا أتضرّع إلى الله بقلبٍ محروق، سائلاً إيّاه قبول دعائي، فقد وعد سبحانه ألاّ يردَّ دعوة مظلوم.

وأنا أصلّي.. غاب باب الزنزانة، وغابت الجدران. ذهب الغمّ وانشرح صدري ولاح أمام عينيّ نور الكعبة المشرّفة بحلّتها الحريرية السوداء المحلاّة بعبارات إسلامية على حزامها الذهبي الذي يعلو جيدها كعروس تحفّها الملائكة من كل صوب، تعلّق قلبي ببابها وستارته، فصلّيت طويلاً أمامه.

رأيتني أصلّي أمام الكعبة والحجّاج يطوفون، فاطمئنّ قلبي وسكنت روحي. لاأدري كيف غفوت ولم أستيقظ حتى موعد السحور.

برقيّة.. وبريق الذهب

طلبت من السجّان ورقةً وقلماً، ركل باب الزنزانة ركلات صاخبة متعدّدة وهو يصرخ:

- شو كل يوم والتاني بَداآك ورق، مايكون مفكّر فاتحين مكتبة وطنية وماعم نعرف.

- ورقة واحدة فقط، هناك شيء مهم أريد أن أقوله.

حدّقت بالورقة طويلاً: هل من الصواب فعل ذلك؟ ليس كلّ مانفعله صواباً، ولكننا ينبغي ألاّ نوفّر طريقة لمحاولة الخلاص، فلعل مالا نأخذه بعين الاعتبار يكون هو الطريق إلى الحل.

بدأت بكتابة برقية إلى رئاسة الجمهورية قلت فيها إنني منذ وعيت لم أعرف محبّاً لبلده أكثر مني، وعملت جاهداً أن أفيه بعض حقّه ومحاربة المفسدين فيه، وقد كتبت، فيما كتبت، كتاباً عن رصّ الصفوف لمجابهة الصهيونية والدول الغربية التي لاترانا سوى نعجة لغذائها أو مناجم لطاقتها. لم أتجاوز دوراً للحصول على الخبز أو حصّة التموين، وكنت أقول إنّ بلادنا في حالة حرب وعلينا أن نشدّ من

أزرها ونتحمّل أعباء المقاومة. وكنت ممن طالبوا بإيقاف العمل بقانون الطوارىء كي لا يتمّ اعتقال شخص بريء من غير تهمة واضحة. وهاأنا، بعد تكرمكم برفع حالة الطوارىء، يتمّ اعتقالي بطريقة مخالفة لنهج التطوير والتحديث. أرجو إعطاء الأمر الفوري بالإفراج عنّي لأنني غير مرتكب لأي خطأ، أو تحويلي إلى القضاء لتتم محاكمتي، بل حتى ليتمّ إعدامي إن ثبت أنني قد قمت بأي قول أو فعل لم يكن في مصلحة الوطن والمواطن. لقد حزت جوائز عديدة في سورية والوطن العربي، وطُبع لي في سورية وخارجها خمسةً وثلاثين كتاباً من تأليفي، وكان جزائي الرمي في زنزانة خانقة من غير أن يكون لي أي ذنب. لستُ حَدَثاً فيُغَرّر بي، ولست نكرة فأُنسى، ولست ممن يفسدون في الأرض فأُعاقب. لم يحترم مَنْ أَمَر بالقبض عليّ مكانتي وعلمي وسنّي، ولم يحترم أنني في مؤسسة تشرين الرسمية وأفكاري معلنة ولاشيء أخفيه. لذا أرجو تحويل ملابسة اعتقالي إلى القضاء، كي لاأصاب بخيبة أمل من استمرار الإساءة من صغار الموظفين الذين يظنّون أن خير البلاد يكون بتحقير العباد. ختمت برقيتي بأمل حسن الاستجابة وسرعتها.

رميت الورقة بعيداً عنّي وكأنّها آفة أريد التخلّص منها. كانت شرّاً لابدّ منه، وذكّرتني بتفاهة البرقيات الإجبارية التي كانت تُوجَّه إليه عقب كلّ ندوة دولية في سوريا.

لاأدري كم طال بي الوقت حتّى تمكّنت من كتابة صفته، من غير أن تطاوعني يدي بكتابة اسمه. لم يسبق أنني ذكرت اسمه في أي مناسبة عامّة أو خاصّة.

حتى في هذا المكان أرى أن كتابة اسمه تجعلني أشعر بدونيّةٍ لاأقوى على قبولها ولو رياءً.

أتقوقع في زاوية الزنزانة المنفردة وأنا أرمق البرقية بتوجّس وكأنّها ستنقضّ عليّ في أي لحظة.

طرقت الباب لأتخلّص منها، ومأأن خرجَتْ من غرفتي حتّى شعرت بالارتياح.

رائحةٌ منعشَةٌ تنبعث من الممر، وعبر فتحة التهوية المشتركة. رائحةٌ تشبه المسك أو قرن الغزال. كان قريبنا، حج محمود والي، الذي يتصدّر متجره خان الوزير، يصيح مبتهجاً:

– يللا ياشباب طلعت ريحة المسك من شاي معلمنا "أبو نديم".

يقصد جدّي محمد صالح، وكان يبدأ بإشعال بخور ليحاول أن يطغى برائحته على رائحة شاي جدّي المطعّم بالمسك.

حج محمود هذا هو أول شخص ركبتُ سيارته، أيام كان التلفزيون" أبيض وأسود"، ولايوجد في كل البيوت. كنّا كلّنا نذهب إلى بيته لنرى مباريات محمد علي كلاي. لكنّ ذلك كلّه تبخّر حين طبّقت دولة الوحدة التأميم في سوريا. لم يسمحوا له سوى أن يأخذ معطفه ويغادر(أوضته) في خان الوزير، مخلّفاً البضائع والكاصّة المليئة بالمال.

لم يجنّ تماماً، لكنّه غدا كالأبله، ولم أعد أشمّ رائحة بخوره في الفيللا الخاصّة به خلف مشفى الكلمة في حي السبيل. تتسرّب إليّ الآن رائحة باب خان الوزير الكبير.. رائحة صنابير الماء حول بناء يتوسّط الخان.. رائحة العشب على سطحه.. رائحة أسرجة الدواب، والشعير الذي يشكّل متعتها الكبيرة.

هل يُعقل أن تفعل بي ذلك مجرّد رائحة؟ ليست الرائحة وحدها، بل رقيب الأمن المجنّد، نقلني جوّاله إلى

عالم آخر جميل، وشعرت بنعومة الصباح حين بدأت فيروز تصدح من جهازه: ليالي الشمال الحزينة.. اذكريني.

الأغنية بقيت يتردّد صداها في داخلي فترةً طويلة، ومع رائحة البخور ركبت أمواج دخان سيجارة حج بشير فجرَ نهارٍ بارد. في طريقي إلى سوق المدينة، أسمع الصقيع يُصدر صوت زجاج يتكسّر تحت وقع أقدام العابرين. أنفخ في كفّيّ لأخفّف وخز البرد لأصابعي.. ألمح بخاراً خاطفاً يطير منهما، فيتسرّب الدفء إلى روحي. لم تبدأ حركة السوق النابضة بعد، بضعة أشخاص يتهادون إلى متاجرهم، وآخرون يفتحون أبواب محالّهم وهم يتبادلون الأحاديث مع جيرانهم. الأرض تزدهي برائحة الماء الذي يرقص فوق قطَع البازلت الأسود. أصل إلى سوق الصيّاغ فيلوح لي حج بشير خلف طاولة محلّه منهمكاً في صهر قطعة من الذهب وسيجارته في فمه، بينما يملأ صوت عبد الباسط، المنخفض، انتباه صاحب محل مجاور:" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ". أقف بصمت على باب المحل. أرقب حج بشير وهو منهمكٌ في عمله.. حين ينتبه إليّ، يقف مرحّباً كعادته:

- ومية السلاااامة.

يحضّر لي كرسيّاً وهو يصيح:

- تعا ياولد.. بكري... بكريييي.. ولك وين بتغطس.

يوصيه على عصائر متنوّعة ويدعوه للتركيز على تتابع الطلبات، كلّما أنهينا شراباً يأتي مابعده، من غير انقطاع.

سعدتُ بيومٍ حافل وأنا أرى تفتّح السوق كامرأةٍ تفتح عينيها في مخدعها، ثم تتمطى في السرير، قبل أن تدلّي ساقيها على طرفه تمهيداً للوقوف. كلّما غذّ الوقتُ السيرَ يزداد السوق لمعاناً، وتبرق واجهات المحلاّت بأطواق وأساور الذهب المشغولة بعناية فائقة. تكثر الحركة. ترتفع الأصوات. تتتابع الزبائن على حج بشير الذي يقتني آلة لتعيير الذهب، لايوجد مثيل لها إلاّ في كلّية العلوم بجامعة حلب. خبرة الحجّي في معدن الذهب نادرة، وفي توقيعه على الظرف الذي يختمه، القول الفصل. يضع القطعة المطلوب فحصها داخل ظرف صغير، يكتب عليه العيار والوزن، ويوقّع. بعد الاستمتاع بحركة سوق الذهب، وانتهائنا من العصائر، سألني:

- ايه اش بدنا نعمل اليوم؟

- مظاهرة صينية.

من غير أن يسأل ماالذي تعنيه هذه الجملة، قال:

- توكلنا على الله، معناها (بوجّنا) عالسَّقَطيّة* .

شقڤنا طريق المدينة الضيّق بسيرنا وسط سلامات متنوّعة بحسب مستوى علاقة حج بشير بأصحاب المحلّات وعابري السوق. مازح الكثيرين ممن عبرنا بهم، وكان يتذوّق بعض المكسرات والزبيب ويلتقط حبّات من الصنوبر، ويطلق بعض التعليقات على الأسعار وعلى اختلاف نكهة الأطعمة بين أمس واليوم.

***

* بوجّنا= بوجهنا(أي نسير فوراً) . السقطية: من أسواق حلب القديمة، تباع فيه اللحوم.

مظاهرة صينيّة

في طريقنا إلى القصّاب حدث شيء غريب. نكزني بيده لأنتبه إلى مايحدث مع فتاتين تسيران أمامنا وسط زحمة سوق العطارين. فتاتان تترافقان تبدوان في الثلاثينات إحداهما محجّبة. كنّا وراءهما مباشرةً. شيءٌ ما يلامس مؤخّرة بنطال الجينز لصاحبة الشعر الطويل. تحوّل خطواتها بشكل مفاجىء لتبتعد عمّا يلامسها. مرّة أخرى تشعرُ بلمسٍ وراءها فتسارع خطواتها بارتباك، في الملامسة الثالثة ترفع حقيبتها وتستدير لتضرب من يتحرّش بها، لكنّها بدلاً من ذلك ترخي الحقيبة وتبدو على وجهها علائم متناقضة بين ضحكة مكتومة، واحمرار في الخدّين، ودهشة من مفارقة الموقف، حين تكتشف أن مايلامسها هو ذيل جحش يزاحم الناس في الطريق، والبضائع مكدّسة على ظهره وفي الجِلِيْل (البردعة) على جانبيه. بقينا أنا وحج بشير نضحك طوال اليوم كلّما تذكّرنا هذه اللحظة المباغتة.

عند القصّاب استلم حج بشير مهمة التعارف بيننا ثم قال:

- حبيبنا بدو مظاهرة صينية وهلء بيشرحلكن شلون بدنا نعملها. كو بدنا شي معتبر يبيّض الوجّ (الوجه).

حين شرحت ماأريد ببساطة ، رفع حج بشير الخشبة المتّصلة ببسطة القصّاب التي تفصل المحل عن الزبائن، دخل وأعادها إلى مكانها ثمّ رفع أكمام قميصه وانهمك بالعمل كأنّه معلّم الملحمة. في هذه الأثناء وصلت القهوة . جلستُ أمام المحلّ أراقب حركة المارّة وانهماكهم في البيع والشراء والأحاديث التي ترافقها حركاتُ الأيدي وتغيُّرُ قَسَمات الوجوه إمعاناً في التعبير.

- شغّل هالفيديو ياولد وصوّرلنا هالمظاهرة، صاح حج بشير، وهو يقدّم لي قطعة من الكبّة النيّئة التي حضّرها بنفسه، وقال:

- دئلي هالتقطوعة (تذوّق القطعة) وشوف.. مو نَغَمْ؟.

تولّى أبوعلي مهمة تصوير الفيديو بجوّاله، وكان بين لحظة وأخرى يتحرّش بالحجي ليسمع تعليقاته.

أثناء وضع الكباب وشرائح البندورة والفليفلة الخضراء في الصينية على البابور، حكى لي صاحب المحل ماحدث

معه قبل قليل، بعد أن عرف أنني من ناشطي الثورة. فقد ذهب إلى باب جنين واشترى من بسطة لتهريب الدخان كروز جيتان طويل بسبعمئة ليرة. فتحه أمام البائع الشبّيح فرأى محتواه دخان غرناطة ذا المئتي ليرة، وحين واجهه بما رأى، قال له:

- أنا بعتك الكرتونة وأنت وحظك، افرقنا قبل مأأعمل وجهك خرايط.

بالرغم من بنية القصّاب القويّة وملامح الشجاعة في وجهه، وأولاده الكثر حوله، لمحت حزناً منكسِراً في عينيه وهو يقول:

- نحنا مالنا خبزة مع متل هيك أنذال.. هدول صنيعة الأسد.

من وراء صينية اللحمة التي يتابع خطوات نضجها حج بشير وهو جالس على كرسي قش واطىء، التفت وقال لي:

- دبّرو عمّي أبو ثائر.

قلت للقصّاب:

- صف لي البائع ومكانه بالتفصيل.

حين بدأ الشرح، مرّ بائع العرقسوس، بلباسه التقليدي، حاملا على ظهره وعاءه النحاسي الضخم الذي صنع خصيصاً ليحافظ على برودة العرقسوس، يطرق طاستيه النحاسيتين بلحنٍ يحيل إلى أجواء رمضان: "شفا وخمير ياسوس..ارو عطشك وقوِّ قلبك".

- قال له: صبّلنا.

ونحن نشرب العرقسوس البارد، وصف لي بسطة الدخان وهي عبارة عن مفرش منزلي، أمامه طاولة كبيرة معروض عليها أنواع الدخان، مع ساطور موضوع تحت الطاولة وعدد من العصي المبرومة، واضح أنها مخصّصة لمجابهة أي محاولة تظاهر في المنطقة.

لم يكد ينهي القصّاب وصفه لبسطة الدخان التشبيحية التي تمارس الغش علناً وبوقاحة، حتى صار أمامنا شاب يلهث. قال له القصّاب:

- اشفي ابني.

قدّم لي الشاب جوّاله وقد فُتح على صورة لبائع الدخان في باب جنين، وقال:

- هذا هو.

من غير أن يتحرّك حج بشير من أمام صينية اللحمة رفع ساعديه عالياً وراح يصفّق صفقات كسولة متباعدة، ملتفتاً للقصّاب:

- هيهيه... هيهيه.. خالصة.. اعتبرها منتهية.. وصلك حئّك (حقّك) أبوعبدو.

نقلت الصورة لجوالي عبر البلوتوث. وقبل أن نغادر السقطيّة، أوصيت القصّاب على لحم العجين عينتابي وقلت له:

- بدنا ياه مع الصينية.

رفع حج بشير نظارتيه قليلاً عن عينيه ونظر في ساعة يده وقال:

- الساعة أربة (الرابعة) تمام بدنا يكون طلبنا مع كلاكيشه (ملحقاته من السلطات والمقبلات) بالمنتدى، والصينيّة بحالها كوهه.

سلّمنا على آل القصاب وغادرنا. ذهبنا إلى المكتبة الوقفية لأنجز عملاً مع الشباب هناك، قبل أن نتوجّه إلى المنتدى.

خرجنا من مدخل سوق النسوان في المدينة وصار سوق الزهـراوي مواجهـاً لنـا، انعطفنـا يسـاراً عكـس الاتجـاه إلى القلعة وخان الوزير. المكتبة على زاوية سوق النسوان، وهي قطعة من كتلة الجامع الأموي، وتقع تحت ساحته وحديقته الخارجية. وقف حج بشير متأملاً سورها المكوّن من قضبان حديدية. وضع يديه على خصره. مال برأسه إلى الخلف وقال مستنكراً:

- هلء هيك صارت واجهة الجامع والمكتبة؟ اشو هاد ياااه؟ ناشرين تفريعات* على حيطان الجامع..وعلى شبك الحديد.. معقول! أمام الجامع الكبير والمكتبة. هـاي هيـه الحضـارة؟ ويـن الدولـة؟ وإلاّ قـل لي هـنن هيك بدهم. حسبنا الله ونعم الوكيل.

نزلنـا دَرَج المكتبـة الأساسـي. دُهـش حـج بشـير وهـو يتجول في أقسام المكتبة ويراها بتجهيزاتها الفخمة وقاعات المطالعة والمعلوماتية ومخطوطات المصحف الشريف النادرة، والأرشـيف وأجهـزة تصـوير المخطوطـات. تركتـه يشـرب الشـاي، في غرفـة الإدارة، وتسـللت إلى الاجتمـاع. تـأخّر الوقت بانشغالي مع الشباب حول الإغاثة والإعلام وترتيب

* ملابس نسائية داخلية.

حركة حلب وتقسيمها إلى مناطق. لاحظ حج بشير امتداد فترة غيابي فتلفن لي، ومن غير سلامات، قال:

- بدها حركة.. صارت مظاهرتك الصينية باردة، وأبوعلي قلنا له نصف ساعة منكون مشاركين بالمظاهرة، هلء بيكون عبيحكي بالمقلوب.

تهبُّ نسمةٌ أخرى من رائحة جديدة تخترق جدران السجن. مساحيق شطف الأرض تنقلني إلى أجواء الاستعداد للأعياد. أنتقل إلى تقويمي الذي أحرص على مراجعته كلّ يومٍ مرّات ومرّات.

اليوم ينبغي أن أكون منهمكاً في حبك مؤامرة مع الأولاد لنفاجىء أم ثائر بهدايا عيد ميلادها وتحضيرات الاحتفال بالمناسبة التي تنساها أحياناً، ونلمح في عينيها تناسيها حيناً متحسّرةً على تفانيها في بناء الأسرة كما هي عليه، الأسرة التي ينشغل أفرادها باهتماماتهم وينسون يوم ميلادها. نحن نتغامز لانتهاز اللحظة المناسبة لمفاجأتها. تكشف بناتها في أول الليل الغطاء عن قالب الكاتو الذي تصرّ نور على اختياره من عند حلويات فرنسية، وسرعان مايبرق الفرح وسط تتالي الهدايا والبدء بإطفاء الشموع والغناء. أعرف أنني هنا في هذا المستنقع، ولايمكن أن يخطر

في بالها أنني الآن أفكّر في طقوس ميلادها. ولن يخمّن ثائر بأنني أفكّر في هديّة ميلاده بعد شهر إلاّ يوم. تُرى هل أكون معهم للاحتفال به. من المؤكّد أنهم سيتناسون كلّ الأعياد مادمت أنا في السجن.

فتح السجّان الباب وقال:

- تعال معي.

لأوّل مرة بعد اثنين وعشرين يوماً يلامس جسمي الماء. كنا أربعة، أعطانا السجان ثلاث دقائق وبروة صابونة، كالممحاة، لنتبادلها، نتحمم بها بالتناوب، ونغسل مانريد من ثيابنا. قادنا إلى باب رأيت وراءه غرفة طولها خمسة أمتار وعرضها ثلاثة، مررنا عبر ممر عرضه متر وإلى يساره ست فتحات يفصل بينها خمسة جدران تحجب الفتحات عن بعضها ولاسقف خاص بها(كبائن)، اخترت آخر غُريفة. ليس ثمة جرن أو طاسة. فتحت صنبور الماء الواطىء فلم يعمل الدوش. الماء ينزل بطيئاً وخفيفاً (صنصولة). جثوت. وضعت رأسي تحت الحنفيّة، ورحت أتحايل كي يتّسع باقي جسمي ليصله الماء. أخرجونا بسرعة، فتذمّر عبد الرؤوف. خرج من غُريفته قبل أن يرتدي أيّ شيء، وقال:

– لسا مابلّينا شي.

بدأت الشتائم تنهال علينا، وطلبوا بقية بروة الصابونة. أدخلونا إلى تواليتنا المعتاد حيث آلة الحلاقة الكهربائية المعلّقة في الردهة. قالوا:

– كل واحد يحلق لحية التاني عالسريع.

كان هذا صاحب كلمة "عالسريع" المساعد أحمد كيوان الذي يردّد تلك الكلمة آلاف المرّات كلّ يوم. كان نحيفاً وطويلاً وشديد اللؤم. قال لنا:

– البسوا ثيابكم وامشوا بهدوء.

قلت في نفسي: – إنه الإفراج إذن، وبدت شفاهنا جميعاً تمارس حركة الامتداد عرضاً، الشيء الذي لم نفعله منذ اعتقالنا. دنوت من الصوفاج، مددت يدي إلى الكيس. قال لي السريع:

– ماذا تفعل؟

– سآخذ دوائي معي.

رمقني بنظرة غضب، ورفع حاجبه الأيمن تعبيراً عن وصمي بالجهل، وقال:

- اتركو هون.

مضينا حيث قادنا إلى باب حديدي مطليّ باللون الفضّي. صعدنا دَرَجاً. تجاوزنا باباً آخر. صعدنا دَرَجاً طويلاً إلى الطابق الأول، ثم إلى الطابق الثاني. وضعونا في غرفة صغيرة فيها سرير حديدي من طابقين، يرقد على أحدهما عسكري فتي بلباسه الرسمي، ويبدو أنه من المقرّبين المدعومين. ثمة تلفاز صغير على يمين الغرفة وأمامه كان الرقيب مالك سلامة، قريب اللواء، ورقيب مجند من مسيحيي السويداء اسمه ثائر. هم يضحكون من مشاهدة مسلسل سخيف على الفضائية السورية، ونحن نتطلع في وجوه بعضنا متسائلين عمّا يحدث، ولماذا نحن هنا، ومالذي ينتظرنا. وأكثر ماكان يغيظني هو الشريط الإخباري الذي يتحدّث عن القبض على عصابات مسلحة إرهابية وملاحقة فلولها التكفيرية القاعدية. مرّ الوقت بطيئاً كديناصورٍ يتدحرج، لمحت خلاله أحد العناصر يُدخل فنجان قهوة إلى غرفة كُتب عليها: يمنع الدخول بالموبايل والسلاح. نحن في الرابع عشر من رمضان والوقت مابعد الظهر.

زيارة الشيخ وأمل الإفراج

بعد مايقارب نصف ساعة دخل المساعد "أبو يعرب"، مدير مكتب اللواء وأشار لي برأسه لأتبعه. دخلنا الغرفة ذات اللافتة التحذيرية.

كنت كالمذهول حين وقف شخصٌ واتّجه نحوي، سبقته رائحةٌ أعرفها وهو يعانقني. رائحةٌ آدمية ممتزجة بعطر غاب عن تنفّسي فترةً طويلة. فيه شيء من العالم العلوي.. العالم الحقيقي الذي لاتغيّبه الأقبية.. شيء يشبه العمل الصالح الذي يأتي لينقذ المرء، وهو على الصراط المستقيم.

عرفت العمامة، غير أن الرأس التي تحملها فاجأتني. الوجه الذي توقّعت أن أراه اختلف.

في مثل هذا الموقف وهذا المكان توقّعت أن أرى مفتي الجمهورية الذي تربطني به علاقة قديمة في جامع الفرقان ثم جمعية العاديات وجامع زكريا، ثم احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حيث أدرت إعلامَها. كنت أتوقع أن يحفظ العِشرة وهو يعرف، عن قرب، من أكون، وماذا لديّ، وماحجمي في المدينة. لكنّ الزائر لم يكن هو.

بقـي "أحمـد حسـون" يـدور في فلـك السـلطة بعـد أن استغرق في التصاغر والانحناء، فغدا التسبيح بحمد الرئيس بديلاً عن عبادة الله الواحد.

مع اقتراب زوال مفاجأة الانتقال من العالم السفلي، بدأت ملامح (صهيب) تتضح ويذهب التوهّم أنه ليس هو.

بدايةً ظننت أنني أرى ابنه. فلا أثر لشيب أو عامل من عوامل الزمن. لابشرة مجعّدة، ولاتغضّن في الجبهة. جملتان منه كانتا كفيلتين كي أتأكد منه:

- كيفك دكتور كمال.. نحنا يمكن ماالتقينا كتير، بس أنا متابعك من زمان.

ثمّ قدّم لي الشخص الجالس خلف المكتب:

- العميد أديب سلامة رئيس فرع الأمن الجوي بحلب.

كـان مربـوع القامـة يعلـو رأسـه الشـيب، تقـدّمت لمصافحته وسمعت المساعد أبو يعرب يصحح:

- سيادة اللواء.

ردّ الشيخ الذي، كعادته، لايوفّر فرصةً لتأويل مايقول بدلاً من الظهور بمظهر الشخص الذي لايبالي بالآخرين، أو يقع في الخطأ:

- هو لواء، لكنّني أراه عميد الأمن في البلد.

بدأ الشيخ يشرح لي طبيعة زيارته. انتبه بعد برهة إلى وجود المساعد، التفت إليه وقال:

- لو سمحت خلّيك برّا.

نظر المساعد إلى اللواء، لما رآه لم يعقّب على ماسمع، رمق الشيخ بنظرة حقد خاطفة، وخرج.

نقل الشيخ جلسته إلى مقعد أقرب إليّ، وأكمل شرحه:

- ذهب وفدٌ من علماء حلب إلى القصر الجمهوري، وطالبوا بالإفراج عن الشخصيات المعروفة من المعتقلين، وعن التنسيقيات التي اقتصر دورها على التظاهر السلمي، وعن الشباب الذين لم يرتكبوا مايسيء إلى البلد وإنما كانوا يعبّرون عن آرائهم، ويطالبون بمكافحة الفساد. وكان رأي الرئاسة أن هناك فريقين: فريق السلفيين، وفريق التنسيقيات.

السلفيون تابعون لمخطط خارجي تكفيري، ولايمكن الصفح عنهم، وأهل التنسيقيات مغرّر بهم، ويمكن دراسة أوضاعهم. وكان القصر الجمهوري متشدّداً ومستاءً بشكل خاص من الأشخاص المعروفين، الذين ينبغي أن يقوموا بدور التوعية لمواجهة الهجمة الغربية على سوريا، لا أن يشكّلوا قيادات للمعارضة والتخريب. بعد تعدّد الوفود، وزيارتي للسيد الرئيس، طلبتك منه أنت وبعض الأشخاص المعروفين بوطنيتهم، فكلّفني بزيادة السجن واللقاء بكم وببعض الأشخاص لمعرفة دورهم في الأحداث، وإقرارهم بأخطائهم، والحصول منهم على تعهدات وكتب استرحام تمهيداً للإفراج عنهم. أريد منك دكتور كمال أن تنسى أمر التحقيق واحكِ لي ماالذي حدث معك بالضبط.

رنّ هاتف الشيخ:

- أهلين أبو سليم..

بعد بضع جمل، فتح الشيخ باباً جانبياً وغاب فيه، من غير أن يستأذن أحداً. بقيتُ أنا واللواء. سألني عن اجتماع التنسيقية في المزرعة، ومن كان فيه وماذا حصل. حكيت له

ماكنت قد كتبته خمس مرات على الأقل، حتى بات محفوظاً لديّ.

ضمّ اللواء سبّابته إلى إبهامه. وضعهما وسط شفته العليا وراح يباعد بينهما وهما يمرّان على شاربيه حتى التقيا مرّةً أخرى وسط شفته السفلى ثم فاجأني ببعض المعلومات التي لم يتطرق إليها المحققون في اجتماع المزرعة، فبدوت أمامه جاهلاً بما كان يحدث حولي. وبيّن لي أن ملفّي أمامه، وأنّه حضر كثيراً من جلسات التحقيق معي، وأنه يعرف مايجري.

حين عاد الشيخ من الغرفة المجاورة، وقفتُ، متعمّداً تلك الحركة، فاضطر اللواء للوقوف. قال وهو يحمل جوّاله مغلقاً بيده:

- هاد أبو سليم من القصر، حكيتلو أنو الشباب كويسين. وعبيسأل شو صار معنا.

تابع اللواء حديثه معي (وهو يعيد تمسيد شاربيه، بالطريقة نفسها، ويبدو أنها عادته كلّما همّ بالحديث):

- يعني أنا مستَغرَب. السيد الرئيس شفاف كتير، ومامنلاقي متلو بالعالم، وهو أصلاً مامدوّر على منصب.. بس أخلاقو العالية تخلّيه يضحي وأافيه

يريّح حالو ويترك البلد فوضى، وتفرط المقاومة ضد الصهاينة. مابقول لازم تحبّو..المحبّة مامنقدر نجبر حدا عليّا، بس أنا بشوف أافينا مانحبو. رافع راسنا ومحترم، وهيبتو معباية الجامعة العربية. هو مايمثّل قلب المقاومة. بعدين بدي قلك شي. بلدنا خيراتها كتير. ومامنلاقي غير بسوريا والسويد تفتح الحنفية بتشرب ماء.

(لأوّل مرّة أعرف أن الماء العذب من منجزات الحركة التصحيحية).

بعد صمت قصير يعاود الشيخ الكلام:

- بدي تحكيلي كل شي صار معك ورح نعتبرو ماكان، أنا معي ضو أخضر من فوق. بعرف كتير ناس بدهم يسقّطوا النظام. ليش مستعجلين. النظام بدو يسقط، بدو يسقط، مافي شي رح يتمّ على حاله، بس كل شي بأوانه. الكون كلّه رح ينتهي. وكل شي بيد ربّ العالمين. ايه دكتور احكيلنا وماتخاف من شي. بس بدنا نشرح اللي صار، والإفراج عنك رح يكون قريب. أنا أخدت وعد.

لاحـظ الشـيخ أن وجهـي بـدأ يغبـق، وأن دمعـةً تـراود عيني، وهي على وشك السقوط، فقال:

– نحنا هلء برمضـان اعتبر حالـك معتكـف. هـي فـترة اعتكـاف. وعلى كـل حـال عرفـت أنهـم هنـا يعتنـون بـك.. رحـت عالمشـفى أخـدت العـلاج، وبعـد غـد رايح عالمشفى موعد الجرعة التانية.

– يعـني يـومين تلاتـة منطلـع؟ والله طقّـت روحنـا. أنـا أسبوع تاني بجنّ.

طـرف الشـيخ عينـه موافقـاً وغـامزاً، كعادتـه الـتي تجعـل محدّثـه مطمئنّـاً، كلّمـا سـأله أحـدٌ عـن شـيء يحتـاج إلى الموافقة.

– عـرض علـيّ اللـواء إن كنـت راغبـاً بفنجـان قهـوة أو شيء آخر فأخبرته أنني صائم.

عاد الشيخ إلى موضوعه الأساسي:

– احكيلي.

حكيـت لـه ماكنـت قـد حكيتـه عشـرات المـرات، وقلتـه للـواء قبـل قليـل. رأينـا الشـباب يتظـاهرون، درسـنا مطالـب التظاهر وأفضـل شـكل للتظـاهر السـلمي. اشـتركنا بتأسيس

نـداء حلـب لأجـل الـوطن. شـاركنا في دراسـة الدسـتور وتعديل بعض القوانين.

طلب الشيخ الباقين. أدخل المساعد علينا الدكتور عبد الرؤوف والدكتور ياسر وعبد القادر جليلاتي، وبقيوا واقفين إلى أن طلـب إلـيهم اللـواء الجلـوس، واسـتعان أحـدهم بكرسـي بلاسـتيك أضـافه المسـاعد للغرفـة. اسـتمرت الأحاديـث على المنـوال نفسـه، كـل شـخص يتحـدث عـن دوره في الثـورة، والتنسـيقيات والمظـاهرات. ويحـاول اللـواء توعية الحاضرين. وفجأة سألَنا اللواء، على مسمع الشيخ:

- كيف شايفين الوضع عنّا؟

قلت: - شلون رح يكون الوضع، لو جنّة ماهي مقبولة. سجن.. شلون رح يكون منيح؟ مافي سجن منيح. وخاصة نحنا المظلومين مافي علينا شي ومالنا ذنب.

طلب ياسر أن يوفروا لنا نسخة من القرآن، فضحك اللواء ملء شدقيه.

نقلونا، من الباب الجانبي، إلى غرفة أخرى ، بدت أكثر اتساعاً، مما مكّن الباقين من الجلوس المريح.

بعد حوالي ساعة من أحاديث متكررة، وملء الأوراق التي وزّعوها علينا لكتابة الآثام التي وقعنا فيها، واستنكارها، والتوبة عنها؛ بشّرنا الشيخ بما أثار سخريتي المكتومة، فاللواء سيزودنا مساءً بـاِبريق شاي كبير، وينظر في احتياجاتنا لينفّذها. وأن الشيخ سيذهب الى دمشق ويعود بأخبار طيّبة.

طلب الشيخ أن يغادر الجميع وأبقانى أنا وجليلاتي.

اكتشاف المكان وجرعة مرار أخرى

-1-

خرج الجميع وبقينا نحن الأربعة. قال لي:

- احكِ مع أهلك وطمّنهم عنّك.

وقفت إلى طرف طاولة اللواء، وهي كبيرة جداً، بحجم زنزانتي، وعليها شاشة مقطّعة إلى أربعة وعشرين مربّعاً، يبدو من خلالها شارع الفرع، وساحته، والممرات، وغرف التحقيق، والدَرَج، وأماكن مختلفة. إنها كاميرات مراقبة ترصد حركة الفرع وماحوله. اتصلتُ ببيتي. رنّ الهاتف. كانت أم ثائر على الخط، سلّمتُ وسألتُها عن الأولاد، فلم تتعرف إلى صوتي. غياب أقل من شهر جعلني مضطرّاً

إلى تعريف نفسي لزوجي. شعرت بنبضها وهي ترحّب بي وتبيّن شوقها. سألتني بلهفة: -أين أنت؟ هل خرجت؟

شعرتُ بغصّة في حلقي. لم أعد قادراً على نطق حرف. طفرت من عيني دمعة. قلت لها:

- هنا الشيخ (صهيب) زارني، كلّميه.

مددتُ يدي بسماعة الهاتف داعياً الشيخ للكلام كي أنقذ نفسي مما أُرتِجَ علي. قام إلى الهاتف متثاقلاً. تناول السماعة:

- نعم أختي نعم.. السيد الرئيس الله يخليلنا ياه وعدنا خير.. المهم ادعيلو ادعيلو. سوريا تمر بأوقات صعبة، ومهامه كبيرة.

قال كلمات أخرى كنت خلالها أرقب المكان من النافذة. لم يكن مأراه جامع العباس مقابل الأمن العسكري. صح.. الشيخ قال قبل قليل: رئيس فرع الأمن الجوي. وهاأنا أرى اتساع ساحة المكان وسوره لايشبهان فرع ذلك المكان.

أعطاني الهاتف لأكمل حديثي. سألتها عن أمي وعن عملية عينها، فأخبرتني أن أمي في بيتها، وأنها لم تشأ أن تجري العملية حتى أكون معها.

لم أعد قادراً على مزيد من الحوار من غير أن أبكي. أنهيت المكالمة.

برمت من طرف طاولة اللواء وعدت إلى مكاني.

قام عبد القادر للاتصال ببيته. كلّ الذي رأيته أنه قال: أهلين بابا... وانفجر في البكاء.

خاطبت اللواء والشيخ:

- كل هالفترة أنا بالأمن الجوي، وأنا كنت أظن أني بالأمن العسكري؟ هلء شفت من الشباك، نحنا بدوّار قرطبة. هاد الأمن الجوي. كنت بكتب رسائل وبرقيات للأمن العسكري وانتو بتضحكو علي أنو هاد مو عرفان الله وين حاطّو.

ضحكا، وتميّزت ضحكة اللواء بالخبث.

في المساء وفى اللواء بوعده. أخرج مَن في الزنزانات المنفردة فترة تنفّس قبيل موعد الأفطار الرمضاني. تجوّلنا في باحة داخلية مساحتها حوالي أربعين متراً، تبدو منها

السماء خلال سقف من الشبك الحديدي، وتطلّ عليها شبابيك الدَرَج وبعض الغرف العلوية.

أعيد المساجين إلى زنزاناتهم، ثم دارت أنصاف كؤوس الشاي البلاستيكية الصغيرة على المساجين، وكانت هي الوعد الذي وفى به رئيس الفرع، ولم يتكرّر إلاّ بعد مشوار مطالبة جديد، وبعد وقتٍ طويل.

طوال الليل كانت تشغلني بعض شعرات في رقبتي لم اتمكن من حلاقتها مع اللحية، نتيجة ملاحقتنا من الرقيب"السريع". بالرغم من انشغالي ذاك وضيقي منه كنت أضحك من نفسي: شعرات خفيفة تؤرّقني وأنا في قعر المدينة أتوه بين الأفاعي ولاأعرف أين المصير. يالتفاهة الإنسان.

-2-

تأخرت عودة الشيخ. قال يوم أو يومان وأعود لكم بالخبر المفرح. لكنّه لم يعد.

بعد سحور ذلك اليوم بساعتين فتح سجّانٌ يحمل وشم "سيف علي" المعكوف على ساعده، وقال:

– تعال. اليوم موعد الجرعة.

- أريد دخول التواليت.

- ايه دخول تاماتعمُل فينا متل المرة الماضية.

مضينا.. المشوار نفسه والأدراج نفسها، والأصفاد والتطميش، إلى أن وصلنا إلى الساحة أمام المدخل الأساسي الكبير للفرع. سارت بنا السيارة، هذه المرة بحذر أقلّ، ولايبدو أنّ هناك سيارت مرافقة كثيرة، ولم أسمع نبرة ضابط.

سألني النحيف نفسه الذي رافقني المرة الماضيّة في السيّارة:

- لمين أنت مقدّم الكشف الطبي؟

- أنا ماقدّمت شي لحدا.

صفعني على خدّي بحقد، وقال، وهو يرفع طرف الطميشة، ويضع ورقة أمام عيني:

- هاد مو اسمك؟

قرأت التقرير الطبّي بعجالة، يصف أنني مريض وبحاجة إلى جرعات في المشفى وفيه توقيع طبيبي.

حين أعاد إحكام العصبة على عيني، قلت:

- ايه هاد اسمي.. بس أنا كيف بدّي أعمل تقرير وأنا بالسجن؟ بيكون أهلي طلبوا من الطبيب يعمل تقرير حتى تصدقوا إني بحاجة للعلاج.

أحسستُ أنّه أدرك غباءه الشديد، ولاشكّ أن رفيقه السائق سرّته تلك الحالة.

حين دخلنا الباب الكبير للمشفى، لم يفكّ الأصفاد كما في المرّة السابقة، إلاّ أنه رفع الطمّيشة من عيني إلى جبيني لأرى الطريق. لم يكن الجناحُ مفرّغاً، وحركة الناس عاديّة. دخلتُ غرفة الحقن، الممرض القديم نفسه الذي يحقنني جاء وقام باللازم بيسر. همست له:

- بدّي تشرح للطبيب وضعي وتطلب مهدّيء، وسألته: ماعندكم قبو؟

رأيت عينيه تتحركان بتوجّس. ابتعد بحذر، وكأنه يراني أنزلق إلى القبو وأختفي فيه، فيتحوّل المشفى إلى حالة طوارىء، وتُطلق صفارات الإنذار.

نهضت من نقّالة الحقن. ساعدني ممرض في رفع البنطال وإحكام زرّه الوحيد. ذهبنا إلى غرفة طبيب العيادات، همست له إنني بحاجة إلى الدواء الذي قال لك عنه الممرض. كتب اسم الدواء بأصابع راجفة. نتش الورقة منه

سجّان مرافق، وسأله: منين؟ دلّه الطبيب على صيدلية المشفى. خرج وهو يقول لرفيقه:

- راقبو منيح ماتخلّيه يتحرّك.

لمحت ابني يطلّ من ممر الجناح. اقترب مني.. دخل الغرفة كأي مراجع. قرّبت فمي من أذنه وهمست:

- اسأل الشيخ ايمتى بدنا نطلع. ماقال ايمت؟

تحدّث من غير أن ينظر إليّ، وشغل نظره بالمراجعين الواقفين أمام الطبيب:

- شي كم يوم.

انتبه السجّان المرافق إلى شيء ما يدور حوله. بقي يراقب ابني منتظراً عودة زميله. تسلل ابني خارجاً. عاد السجّان الآخر . قادني إلى ساحة المشفى وأمام السيارة تبادلا الهمس مع زميليهما. كان ابني، بقامته الطويلة واقفاً وسط الساحة ويتكلّم بالهاتف. بدأت حالة الطوارىء لدى المرافقين، استلّوا أسلحتهم وحاصره اثنان منهم، وبقي اثنان معي. جاؤوا به إليّ. أخذوا الموبايل من ابني وأخرجوا البطارية منه. بعد اتصالهم بقيادتهم ، وضعونا في الكرسي

الخلفي للسيارة محاطين بالرقيب صاحب الوشم وعسكري آخر. جلس عسكريان آخران إلى جانب السائق.

لم يصدر أيّ فعل من المرافقين المذعورين الذين يشعرون بأنهم غنموا بصيد كبير عندما قبضوا على ابني، وكشفوا عن مؤامرة وشيكة.

وصلنا إلى ساحة فرع الأمن. أدخلوا ابني من الباب الأمامي، بينما أنزلوني الأدراج من الباب الجانبي. أوقفوني في ممر أمام غرفة التحقيق. سمعت صوت الرائد يؤنّبني:

- ولك اعترف بكل شي ولاتورّط أحد معك. هيك ورطت ابنك؟ إذا كنت تحمّلت وماقرّيت بشي. ابنك مارح يتحمّل. ماعندو القدرة عالصبر متلك. عرضنا عليك كل مساعدة ممكنة وهنت ماكنت تقبل. هلق لنشوف شو بدك تعمُل.

ثائر في قبضتهم

كـان نهـاراً عصـيباً، فماالـذي يمكـن أن يفعلـوه بـابني ليحصلوا على معلومات؟ وماذنبه إذا جاء لرؤية والده بعد أن علـم بموعـد زيـارة المشـفى؟ لابـدّ أن يكـون الشـيخ قـد أعلمهـم بتلـك الزيـارة. ولكـنْ كيـف يُعلمهـم وهـو لايعـرف بيتي. هـل أخبره ابن عمته – جاري، بعنواني؟ كنت أظنّه قـد زارني بعـد طلـب منهم بالتدخل، وتبيّن أن ذلك كـان بسبب مطالبة أعلام حلب بي.

بدا الحقـد مستشرياً من لهجة الرائد القـذرة التي لاتمتّ للإنسـانيّة بصـلة. هـدّدني بتعـذيب ابـني ورأيـت القـيح يمـلأ فمه لأنه لم يحصل منّي على شيء.

قلت:

– اسـأل الشـيخ الـذي جـاء لزيـارتي بنـاءً علـى طلـب القصر الجمهوري.

رميـت الجملـة في وجهـه ليكـفّ عـن المزيـد مـن التحـاقر. أعرف أنه لايعدو أن يكون ربطة حذاء في قدم آمريه. الممر مراقب. واللواء نفسه بدا مستسلماً أمام هيمنة الشيخ الآتي

(مـن فـوق). هـذه هـي العقليّـة الـتي نشـؤوا عليهـا. عنـدما تتمكن من فهـم طريقة تفكيرهم المتماثلة تستطيع أن تأسر آسـريك. صـاغراً ككلـب يلـفّ ذيلـه، أشـار إلـيهم كـي يعيدوني إلى الزنزانـة. ربما تكون هـذه أصعب لحظات قلق تمـرّ علـيّ. أريـد أن أعـرف ماالـذي يجـري مـع ابـني. هـل احتجزوه؟ هـل تركـوه يـذهب بعـد أن دسستُ اسـم الشيخ (الآتي من فوق) بما يوحي أنه أذِنَ له أن يراني في المشفى؟

ثائر.. كـان استجابة الله لي. لم نكن نفكّر بالإنجاب، كان مايزال الوقت مبكراً على ذلك. لكنّني كنت أريد ذكراً أوّلاً ثمّ أنثى. حتى إذا نبّـه أختـه إلى مايجب عليهـا لايكـون ذلك لأنه ذكر وحسب، بل لأنّه يكبرها سنّاً.

حضـر الخـروف إلى فسـحة البيـت الأرضـي الـذي كنّـا نسكنه في شـارع شـوقي بالاسماعيليـة قبـل أن يحضـر بـاكورة الأطفـال. الاحتفـال دام أسبوعاً في بيتي، فهـو البكـر للابـن البكر في العائلة.

كان لـديّ قفص ذهبي فيه كناريّان أصفران. عندما يسألني أحد عن لون شعر ثائر كنت أقول: بلون هذا القفص.

أمّا العصفوران فطالما اشتريت غيرهما لأنه كان يحب فتح البـاب لهمـا كـي يحلّقـا بعيـداً. وللصيصـان حكايـة أخـرى،

تعلّم كيف ينقر الأرض فتدبّ إليه. حين أكون مشغولاً عنه، يصيح لي وهو ممسك رأس الصوص بكفّه الصغيرة: بابا... الكوكو.. نام.

ذات مرّة سمعته يبكي في غرفته بعد شهور من ولادته، ذهبت إليه فإذا بي أرى ماءً على وجهه ورقبته. كانت أمّه قد فرفدت عنه قماطه. نظرت إلى السقف لأرى إن كان يرشح بالماء. لاشيء. كلّ مافي الغرفة جافّ ولا أثر لماء، وليس هناك سواه مستلقياً على سجّادة ملوّنة. استغرق اكتشاف ماحدث برهةً قبل أن أنفجر بالضحك وأنادي أمّه لأسألها حلّ لغز الماء على رقبة الطفل. استجاب لنداء الطبيعة وهو يحسّ بنسمات هواء تداعب أطرافه الحرّة فأحدث نافورة شبه عامودية انصبّت عائداتها عليه.

أطرافه الحرّة؟

تُرى أين الحرية من أطرافه الآن؟

أهديت ديواني الأوّل له ووعدته بالحريّة.

هل هذا ماوعدته به؟ هل قيّدوه فلم أعد قادراً على الوفاء بوعدي حين كتبت له قصيدة "فرح البكرى"، وحمّلته راية الرفض.

أيُّ فاجعة تصيبني إذا مالمسوا ظفره أولئك الأوغاد.

على جمر النار أتقلّب وكلّي إصغاء لأسمع نأمةً تدلّني على أنه بخير.

...

بدأت أبواب الزنازين تُفتح تباعاً.

قال السجّان: - تنفُّس.

مضيت إلى الباحة المغلقة ذات السقف المزنزن العالي الذي يحجب عنّا التحليق إلى السماء. بقيت منشغلاً بهاجسي ولم تعنِ لي فرصة التنفّس أيّ انفراج. بقيت طوال الوقت أدور في الباحة مطأطىء الرأس مشغول البال، إلى أن رأيت شخصاً ملتحياً نحيف الجسم يتحدّث إلى حلقة من المعتقَلين، معرّفاً نفسه بأنه أحد المحققين الذين شاركوا في كل جلسات التحقيق معنا. وأنه يعتمد على علم النفس بالتحقيق. طريقته في الحديث تدلّ على أنه يريد أن يُظهر نفسه بمظهر المتعاطف معنا لكشف الحقيقة فقط، بعيداً عن اعتماد وسيلة التعذيب. دنوت منه وسألته:

- أين ابني؟

...

الفصل الخامس

عنتاب 2014

أسند شهم رأسه إلى ظهر الكرسي ذي الحافّة المرتفعة. وضع كفّيه على وجهه. حرّكهما باتّجاه جبينه وشعره: ياالله. ماهذا الذي يحدث؟ من أين جاءهم كلّ هذا الحقد؟ أغلق كفّه اليمنى. راح يضرب ظهرها بباطن كفّه اليسرى بحركة رتيبة متكرّرة. لفت صوت الربت العالي نظر أمّه. هزّت رأسها يميناً وشمالاً وهي تفتل أصابع يدها اليسرى بالقرب من صدغها، بما يشير إلى أن ابنها فقد عقله. ازدادت ريبتها عندما رأته يحدّث نفسه بصوت مسموع:

– نبدأ الآن مشواراً آخر للبحث عن بقية المذكرات. لا بأس. حتى الآن تسير الكتابة بشكل جيّد، لكنني لا أريد رواية مبتورة. لابد أن أعرف ماذا بعد.

***

انبثاق نور

____

لغز حياة كمال شكّل هاجساً لشهم. كانت المذكّرات عنده، في البداية، وسيلة لتجديد نشاط الدار. اختلف كل شيء الآن. لم يعد كمال مجرّد حبر على ورق..إنّه لحمٌ ودم وتاريخ.

قال له كلّ من قابله بخصوص كمال أن محرك البحث google يعجّ بصفحات عنه وعن أخباره، بالإضافة إلى ماهو منشور في اليوتيوب.

فتح الانترنت للمرة العشرين. وجد أخباراً كثيرة عنه. وجد صفحات وحسابات باسمه على تويتر وفيسبوك، لكنّها كلّها قديمة، تشير إلى أنه لم يدخل الانترنت منذ عامين. وآخر مكان نشر منه هو حلب. بريده الالكتروني حلب. رقم هاتفه المحمول سوري. صندوق بريده حلب.

في غمرة بحثه، هذه المرة، بَحلَق في شاشة اللابتوب. فرك عينيه. هزّ رأسه للأسفل، باهتمام زائد، عندما وجد رسالة تحمل عنوان: "مذكرات". فتحها: " الأستاذ شهم المحترم. أعرفك ولاتعرفني. يمكنك وصفي بعراب الدكتور كمال. لا أستطيع الآن التوسّع في الرسالة. المهم أنني أرسلت إليك

مرفقاً، فيه يوميات من مذكرات الاعتقال، وأعرف أنك ستستفيد منها كثيراً. لك تقديري. المخلص نور".

أصابعه تنقر بعصبية على أزرار الحروف في الحاسوب: "الشكر الجزيل لك. أرجوك اتصل بي عندما تستطيع. الأمر هام. سأترك لك حساباتي على الانترنت وأرقام هواتفي المحمولة في البلاد التي أتنقل فيها. ملاحظة: ضروري ضروري ضروري أن أعرف أين الدكتور كمال. وأين أنت. مع حبي وتقديري وامتناني. شهم / دار شهم للنشر/ تركيا مؤقّتاً".

لفّق لقاءاته. أجّل مواعيده. استقلّ سيارته متّجهاً إلى مطعم دوشلار في ماثال بارك. اختار ركناً بعيداً عن الرواد، وعن المذياع الداخلي في المطعم، وجلس يقرأ.

....

حلب – أقبية المخابرات الجوية– أيلول 2011

فسحة للتنفّس

-1-

رأيت شخصاً ملتحياً نحيف الجسم يتحدّث إلى حلقة من المعتقَلين، معرّفاً نفسه بأنه أحد المحققين الذين شاركوا في كل جلسات التحقيق معنا. وأنه يعتمد على علم النفس بالتحقيق. طريقته في الحديث تدلّ على أنه يريد أن يُظهر نفسه بمظهر المتعاطف معنا لكشف الحقيقة فقط، بعيداً عن اعتماد وسيلة التعذيب. دنوت منه وسألته:

– أين ابني؟

أسند ذقنه بكفّه. نظر في عينيّ اللتين راحتا تمسحان المكان بسرعة خاطفة: خمسون سجيناً متحلّقين حول الفسحة السماوية مسندين ظهورهم إلى الجدران، وعشرة يدورون أمام الجالسين ليحرّكوا أطرافهم من صدأ الجلوس الطويل في مكان ضيّق، ويتعثرون بين حين وآخر بثياب

الجنود المعلّقة بشكل عشوائي على حبال الغسيل. توزّع ثلاثة حرّاس في الوسط ليراقبوا عدم إجراء أي حديث أو همس بين الموقوفين. الرقيب منشغل بجوّاله. المساعد أبو صالح يستند إلى كُوَم من البطانيات وأمامه صحن عنب، ويستمتع بنفث دخان نرجيلته. المساعد النحيف الذي سألته يجلس على كرسي واطىء. بعد صمت قصير قال:

- قلنا بالفرع أنْك بتكون قلقان عليه، بس اتطمّن ماطوّل عنّا أكتر من عشر دقايق وفَلّ.

حينها انضممت إلى حلقة الجالسين إليه وأنا أتنفّس الصعداء. حدّق في وجهي ثم قال:

- هنْتْ فكرك إحن مصدقين اللي حكيتو بالتحقيق؟ ايه واللهِ مامصدقين شي من اللي مَتحكيه.

المساعد أبو صالح من وراء نرجيلته وجلسته (المنجعية) حرّك الخرطوم (النربيش) من فمه مشيراً به باتجاهي وقال:

- كلنا مَنعرفو.. هاو الرافضي.

مضى وقت طويل وأبو صالح يتنقل من تسمية إلى أخرى: هسّي.. سكوتي.. تحتاني.. لئيم.. حتى عثر على

اللقب الذي رآه مناسباً لي فغدا اسمي لدى طاقم الفرع (الكتوم).

سألني النحيف الملتحي:

- هلق أابقا في تحقيق. احكيلنا عن دورك بالتنسيقية وكم جهاز اِرسال عطيتو للمندسين.

- قلت: مالي دور بشي.. أصلاً ماكنت أعرف شو عبيشتغلوا. صح أروح وأجي معهم.. بس ياغافل الك ألله.

قال عبد الرؤوف(أبوكرم) وهو يحني رأسه باتجاهي، وينظر إليّ من تحت حاجبيه:

- أبو ثائر حارتنا ضيقة ومنعرف بعض. مو كنت أخبرك تجي عالمكتب ونخططّ للمظاهرات؟

- قلت: أجي لعندك صح.. بس مو مشان المظاهرات. شايك طيّب، ومكتبك قريب من بيتي، وأنت شخص لطيف.

صاح المساعد أبو صالح من بعيد:

- مَقلكن لئيم.. لئيم.. مَينكر كلّ شي.

لاحظ النحيف بقايا قلقي، وحاول التقرّب منّي من خلال إعادة تطمينه لي بأن ابني صار في البيت من زمان. نظر في ساعة يده، وتابع:

- هلق بيكون مَيتعشى.

لمحت شخصاً جالساً وظهره مسند إلى جدار بعيد، أشار لي بسبابته وإبهامه واضعاً إياهما أمام عينه التي غمز بها. فهمت أنه يريدني لحظة. وقفت، مفتعلاً اللامبالاة، وبدأت أمشي داخل إطار الباحة. حين وصلت إليه جلست. همس لي:

- دكتور كمال. أنا (حسان)، تعمّدت المشاركة في مظاهرة اليوم، واتفقنا أنا والشباب في حال اعتقال أحد منّا أن نراقب بدقّة مايجري هنا، ونتعرف على طبيعة المكان. ونخبركم أننا لاننساكم، والثورة ماشية منيح.

نقل لي (حسان) أن الشباب يطالبون بنا أنا والتنسيقة بشكل كثيف. وأن برنامجاً باسم "بصمة حرية" يُعرض يومياً على قناة أورينت، يعرّف بي ويطالب بالافراج عني، وقد تناقلت البرنامج فضائيات أخرى. كما أن لافتة رُفعت على مبنى كلية الصيدلة تطالب بالحرية لي ولطبيب الأسنان

الدكتور أيمن حناوي. وقامت مظاهرة طيّارة مسائية أمام دار الكتب الوطنية حملت لافتة بالحرية لي.

سأل حسان عن الدكتورين ياسر درويش وغياث الضللي ليخبرنا أمامهما أن اعتصاماً جرى في مشفى الرازي يطالب بالإفراج عنا. كما أن تل رفعت حملت، في مظاهرة الجمعة الماضية، لافتة تطالب بالإفراج عني وعن الشيخ حاتم بدران. سأل ياسر عن صفحات الفيسبوك فقال لنا حسان:

- ييي كتيرررر... ولجان حقوق الإنسان طالبت. وأول ماظهر خبر اعتقالكم أنّ السلطات السورية تلقي القبض على تنسيقية حلب وتضم عدداً من الدكاترة والمثقفين وأساتذة الجامعة، استنفرت الفضائيات.

هذه الفسحة، بل هذا اليوم، بكل مافيه من صعوبات وأحداث، الذهاب للمشفى.. القبض على ابني.. انقباضي النفسي حتى مابعد العصر، كلّ ذلك حمل في طيّاته مايثلج الصدر، بعد سماع نبأ ترك ابني بسلام وأنباء أنّ من هم في الخارج لم ينسونا، ويعملون مابوسعهم للإفراج عنّا. كلّ ذلك خفّف عبء ماأنا فيه من ضيق شديد. غير أنّ تلك الأنباء أصابتني بامتعاض، لأن بعض المعتقلين الذين كان

لهـم دور كبـير في تحريـك الثـورة سيُصـابون بخيبـة أمـل لأن أسمـاءهم لم تـرد بشـكل فـردي في معـرض المطالبـة بـالإفراج عـن المعتقلـين، ولم يُنشِـىء لهـم أحـدٌ صـفحات خاصّـة بهـم. عـاد شبح القبـض على حـازم يؤرّقني فسـألت حسـان عنـه، ماالذي حدث معه وأين هو الآن؟ قال:

- بعـد اعتقـالكم بأربعـة أيـام سـافر إلى تركيـا. شـعر بالخطر ولا مجال للمخاطرة.

أكّدت عليه: - بعد أربعة أيام؟

قال: ايه.. ليش؟

لم أجبـه، لكـنّ لحظـة معانـاتي حـين سمعـت اسمـه أمـام طاولـة الأمانـات عـادت إليّ، كأنّهـا تحدث الآن. كيـف كـان ذلك؟ بعد أربعة أيام؟ وأنا بعد أسبوع من اعتقالي اعتقدت أنـه دخـل الفـرع وعُـذّب ولم ينطـق بحـرف ثم أفرجـوا عنـه. كنت أتوهّم إذن. وكان هو في تركيا في ذلك الوقت. كان وهماً وظيفياً مني، كنت أخشى أن يعتقلوه وهو يعرف مع من أعمل ويعرف عني أكثر بكثير مما يعرفه الـذين اعتُقلوا معي. لـذلك، بـاللاوعي الـدفاعي لـدي، جعلتهم يمسكونه ويعذبونـه ثم أطلقـت سـراحه وارتحـت إلى فكـرة أنـه بعـد تعذيبـه وإخـلاء سبيله سيهرب إلى مكـان خـارج سيطرتهم،

من غير أن يتمكّنوا من معرفة شيء عن نشاطي. غير أن الذي حصل أنّه هرب قبل أن يتمكّنوا من اعتقاله، والذي كان يتعذّب هو شخص آخر لاأعرفه، وتوهّمت أنني سمعت اسم حازم حين كان يسلّم أماناته.

حين سمع حسان مني هذه القصة قال:

- يا إلهي.. كيف الشخص بيخلق آلية دفاع عن النفس وبيرتاح، يعني بخيالك خليته يصير معتقل.. تعذب وطلع وانت ارتحت. وبتعرف؟ في معلومات اجت لحازم أنك حكيت عنّو.. يعني اعترفت عليه، مشان هيك عجّل بالسفر. ابتسمت وقلت له:

- لا.. اطمئن.. هاد كلام بيسربوه المخبرين. بالتحقيق ماذكرت اسمه إطلاقاً. بل لم أذكر لهم أيّ اسم. كيف أورّط نفسي.

انتهى التنفّس وأعادونا إلى قعور الزنازين. عدت إلى مراجعة ماحدث في فسحة التنفّس. وبخاصّة ماقاله حسان. لم أعد أستغرب، بعد كل ماسمعت من مطالبة بي، لماذا لم يعذبوني جسدياً مثل غيري. الآن بتّ استغرب لماذا لم يطلقوا سراحي فوراً وهم يعلمون ماالذي يحدث في الخارج من مطالبة بي وبأمثالي.

تأكّد لي أن الأمن أجّج الثورة من خلال أفعاله الاستفزازيّة المستمرّة. يعتقل الناس لفترات طويلة بدون سبب، وبعد إيقاف العمل بقانون الطوارىء، وينتقي الأشخاص الذين يحرّك اعتقالهم الرأي العام ليوسّع الهوّة بين السلطة والشعب. وأعلم أنه اعتقل بعض الموالين وعذّبهم، فقلب حتى الموالين إلى أعداء. من الواضح أنّ من مصلحة الأمن، ولضمان بقاء عناصر الأمن مهيمنين، أن تشتعل الاضطرابات بالبلد وتستمر. تماماً مثل فيلم بنت الحارس حيث قامت فيروز ببعض أعمال تخلّ بالأمن ليدرك أهل البلدة حاجتهم إلى حارس يسهر على راحتهم، وهكذا أعادوا أباها إلى عمله.

إنها الدولة الأمنية التي طالب الدكتور طيب تيزيني، مع كثير من المثقفين، بضرورة تفكيكها. أيّ سلطة عاقلة تعتقل طيّب تيزيني لأنه اعتصم مطالباً بالسماح بعودة المغتربين المهجّرين؟ وأيّ سلطة تلك التي تعتقل صحفياً بجريدة تشرين الرسمية، شغل مناصب اجتماعية وإعلامية فاعلة، وله عدد من المؤلفات، وينتسب إلى عدد من الاتحادات المهمة، ومصاب بمرض خطير، وأنكر كلّ ما اتُّهم به ولم يتمّ إثبات أيّ شيء عليه؟ كيف يبقى رهن الاعتقال التعسّفي، ونقول إن الأمن يريد استتباب الأمن؟

...

-2-

بدأ التعذيب باكراً هذه الليلة. إنه يوم جمعة، والوفود تتوالى، حتى كأن السجن غصّ بالمعتقلين.

مفجع أن تعتاد أصوات الذين يصرخون من الألم وكأن أصداء الآلام تأتي من مسلسل مللت من متابعته. لم يعد لي قلب أن أتسلّق الجدار لأراقب مايحدث في الممر. أصوات صراخ جافّ يخترق جدران السجن بقسوة، أدفن رأسي في البطانيات، رغم قذارتها، لأنني لم أعد أحتمل كل هذا الوجع.

يصرخ شابٌّ يبدو يافعاً بصوتٍ عالٍ محيّياً الرئيس للأبد ويصفه بكل النعوت التي يريدونها، ومع ذلك يستمرّ التعذيب بلؤم يوصل صوته حتى إلى الطوابق العليا في السجن. يستجير بالله وبالأنبياء وبالكتب المقدّسة وبالرئيس، ويستمرّ الضرب. أكثر من ساعة ونصف، وبالرغم من اختلاط أصوات أدوات التعذيب وولاويل الذين يُضرَبون، بقي استنجاد هذا الشاب هو الأعلى والأكثر حفراً في الروح.

فُتحت زنزانتي، ورموا فيها كلاّبيّة ممزقة وملطّخة بالدماء تضم جسماً مصبّغاً بالعصي والسياط، تعلوه لحيةٌ خفيفة وعينان غائمتان. أما الوعي فهو شيء تركه هذا اللاهث خارجاً قبل أن يُرمى بين قدميّ، وآثار أحذية لطّخت خدّيه وجبينه.

يرتجف الشاب كدجاجة على صفيح من جليد. ألبستُه سترتي الزرقاء وغطّيته بالبطانيّات الثلاثة التي لديّ. سقيتُه بعض الماء. بلّلت كفّي ورحت أنظّف له وجهه وجبينه. وضعت يدي على رأسه وقرأت بعض آيات من القرآن. بقي يردّد: جزاك الله خيراً، جزاك الله خيراً، حتى غفا.

صحونا على سحور فجر السبت وحكى لي قصّته: بعد انتهائه من صلاة الجمعة في جامع "أبو بكر" بحي الصاخور رأى الشبيحة مصطفين على جانبي الباب حاملين سيوفاً معكوفة. وتَوزّع بعضُهم على أسطحة المنازل، بمؤازرة من سيارات الأمن وعناصر حفظ النظام. الشباب كانوا متحفّزين لمظاهرة رمضانيّة، لكنّ المشهد المرعب جعلهم يتهادون عائدين إلى منازلهم. تذكّر أحد معارفه من الشبيحة الذين يصرّون على ترديد أنهم يدافعون على البلد بمواجهة العصابات المسلّحة. قرّر أن يصوّر له فداحة المشهد. أخرج جوّاله وبدأ يصوّر مايراه وهو يسجّل

لمن يصوّر له: هدول شبيحة الأسد اللي بتئول عنن مسالمين ومامعن أسلحة. شوفن... شوف اش بدن يواجهوا شوية شباب وأطفال بدن يئولوا بدنا حرية.

لمحه أحد الشبيحة يصوّر فجنّ جنونه وهجم عليه فتبعه آخرون وبدؤوا يضربونه بشكل عشوائي ولئيم. هو من الصاخور وكل أهل الحارة يعرفون بعضهم. كي يخففوا عنه عبء الهجمة، صرخ أحدهم: الله أكبر. وهكذا بدأت المظاهرة. حاولوا تخليصه من أيدي الشبيحة، لكنّ الذي حدث أنّ عدداً كبيراً من مرتادي المسجد حشرهم الأمن في سيارات أجرة واعتقلوهم. محدّثي أحمد الشيخ عمر فقد نعله تحت وقع اللكمات. مزقوا كلابيته، وماتبقّى منها طُبعت عليه نعال بساطيرهم حين داسوا عليه. صادروا جوّاله. سألته:

– أنت كنت تصرخ من التعذيب طوال الليل؟

– ايه انا... وتدخلت عليهن.. وقلت الرئيس كويس وللأبد.

تعجّبت منه:

– كيف تصوّر بالجوّال بشكل مكشوف، ولماذا؟ هل تنشر التسجيل ؟

– لا. صوّرت لأري رفيقي الشبّيح ماذا يفعل زملاؤه.

لم يكن يدرك حجم المخاطرة من أجل شريط يلهو به.

مايقارب الشهر لم يلامس صوتي سَمعَ أحد يمكن الاستئناس به، في زنزانتي، ولهذا كنت شغوفاً للاستماع إلى حكايته، وكنت على استعداد لأن أجيبه عن أي سؤال، على غير عادتي، باستفاضة واسترسال.

تزوّج منذ ستة أشهر، ولم تحمل زوجه بعد. إنه يحبّ أمّه كثيراً ولهذا انصاع لرغبتها في خطبة من اختارتها له عروساً، وتخلّى عن حبّه. حبّه لفتاة من الحارة، وحين سألته عن طريقة تعرّفه إليها وهم في حارة شعبية يُرصَدُ فيها دبيب النملة. باح لي بسرّه الكبير. لمح مرّة عينيها من تحت النقاب فشغف بها، وعلى مدى شهور استطاع أن يلمحها ثلاث مرّات أخرى ويرسل لها شعاع غرامه. لكنّه لم يكن متأكّداً من أنها تلقّت إشاراته تلك. وبالرغم من حبّه الكبير استجاب إلى رغبة أمّه. زوجه طيّبة وتحاول إرضاءه بشتّى الوسائل، لكنّه لم يتمكّن من حبّها بعد.

في الأيام الأولى كان شديد الحنين لأمّه. بعد قضائه عدّة أيّام في القفص، أقسَم أنّه حين يخرج سيقبّل يديّ

زوجه ويلبّي لها جميع طلباتها، فهي تعاملهُ كأمير، ولم يكن من الإنصاف تجاهل تفانيها في خدمته.

هو يملك دكّاناً أصغر من حجم الزنزانة، استخرجها من بيت أهله. يبيع فيها الدخّان الوطني، وعنده آلة صغيرة لقهوة اسبريسو(اكسبريس). يحصّل قوت يومه، ويسكن مع أمه وأخيه وزوجتيهما. حفظتُ رقم هاتفه وجعلته يحفظ رقم جوال ابني، بحيث لو أن أحدنا خرج قبل الآخر يُطَمئِن عائلة الآخر.

أسررتُ له بأنني أنتظر زيارة أخرى من الشيخ الذي وعد بإخراجنا، ولكنّني لم أستطع الوثوق به. هل دفعته السلطة للحصول على معلومات لم يستطيعوا معرفتها منّا؟ أم يريد التوسّط لإخراجنا كي يكسب صفّ الثوّار عندما تنجح الثورة؟

لم يكن ذلك مهماً بالنسبة لي. أهم نقطة، ومهما كان الدافع، أنني تمكّنت من مهاتفة أهلي، وغدا لديّ أمل مغادرة هذا الجحر.

بناءً على قراءتي تواريخ المسجونين قبلنا، رصدتُ أن تدويناتهم للتواريخ تنقطع، على الغالب، بعد خمسة عشر يوماً من التدوين. فاطمأنّ أحمد إلى أنه سيتلقّى العيد

خـارج الزنزانـة. سـألني عـن تهمـتي فقلـت إنـني متّهم بأقـل الجوانب التي عملت عليها في الثورة. فأخبرني أنه سمع خبر اعتقـال أعضـاء التنسـيقية في الفضـائيات، وأنـه يـذكر أنّ التنسـيقية فجّـرت بركـان حلـب. ابتسـمت وأنـا أحكـي لـه قصّة بركان حلب.

بركان حلب

في عصر أحد أيام حزيران اجتمعنا في مزرعة أحد الأصدقاء، كنّا عشرة من الذين يديرون محاور التظاهر في المدينة، وكلٌّ منّا لديه مجموعات ينقل إليها الحركة اللازمة في المناطق التي تكفّل بضبط حراكها السلمي بما يضمن أقلّ التضحيات الممكنة. قرّرنا إرباك الشبيحة والأمن بثلاثة أيام من المظاهرات المتتالية في أنحاء مختلفة من حلب لإنهاكهم قبل يوم الخميس حيث نفاجئهم بمظاهرات تشمل محاور متعدّدة وفي غير يوم جمعة، لعلّنا نتمكّن من الوصول إلى الساحات الرئيسة في حلب، بحيث نهيّء الظروف المواتية لجمعة تهزّ أركان النظام وتبيّن دور حلب في ثورة الكرامة. الشعار الذي آثرت تعميمه (ياحلب ثوري ثوري هزّي القصر الجمهوري).

يومان من التحضيرات سبقت يوم الخميس الذي كان حافلاً بالأحداث التي تلي جمعة "سقوط الشرعية" وتسبق جمعة "ارحل". المحاور التي اتّفقنا عليها تبدأ عشوائياً على أن تتواتر صباحاً وظهراً ومساءً حتى السيطرة على

الساحات الرئيسة، هي: محور الجامعة – باب الحديد – الأشرفية – الشيخ مقصود– ساحة باب جنين– الجميلية – المشارقة – الخالدية – شارع النيل – هنانو – سيف الدولة – صلاح الدين – شارع فيصل.

يومان كنت وسراب نستقلّ سيارة مخابرات بيجو استأجرناها بمبلغ كبير. ملأناها بالمعدّات اللازمة من لافتات وأعلام وأجهزة تصوير واتصال، ورحنا ننسّق العمل بين الحواري، ونوزّع منشورات، نصوّرها محليّاً، وتبيّن مواقف حلب من الأحداث. وحينما يستدعي الأمر، في حركة سير متعسّرة أو في مقابل حاجز طيّار، كنّا نُطلق زمور النجدة الخاص بالأمن، فيوسّعون لنا الطريق الذي نشقّه بسرعة جنونية، لنتجنّب أيّ تفتيش محتمل.

يوم الأربعاء كان مخصّصاً للجولة مع الدكتور ياسر، لتجهيز العمل غير المعلن، الذي لم يكن يعلم به سوى بضعة أشخاص من التنسيقية، وكانت كل تظاهرات المحاور، تغطيةً لما سنقوم به، فيهزّ أركان النظام في حلب، بشكل يحوّل الأنظار إلى ماتقوم به حلب نصرةً للمدن المنكوبة، التي يركّز النظام عليها، بعد أن ضمن حسون(مفتي الجمهورية) ومرتزقة النظام من مشايخ وتجار

أن تبقى حلب موالية وبعيدة عمّا يحدث في درعا وحماة وحمص.

بدايةً ركبنا سيارة "لانسر" قمنا بها في جولة إلى مساكن هنانو وحلب الجديدة والمحلّق، تواصلنا خلالها مع أشخاص وأعطيناهم شرائط مسجّلة لرفعها إلى الفضائيات ومواقع الانترنت. ثم وضع ياسر عدسات لاصقة زرقاء شفافة بين جفنيه، وخطّ سكسوكة على ذقنه، تمهيداً لاستئجار سيارة "سيراتو" باسم مستعار، كي لايتم التعرّف عليه بعد القيام بالعملية.

يوم الخميس كانت بداية الجولة مع عبد الرؤوف في محيط الجامعة لنرقب سير انطلاق التظاهر منها. كان عدد الشبيحة وعناصر حفظ النظام واتحاد الطلبة الموالين، أكثر من عدد المتظاهرين الذين تمت ملاحقتهم وحشرهم في السيارات. الضرب بالهراوات لم يتوقّف، والمطاردة من الجامعة إلى نزلة أدونيس.

الميدالية التي كانت معي ركّزتها على النافذة ورحت أصوّر مايجري حولي معتمداً على تحرّك السيارة بدلاً من تحريك يدي كي لاتظهر الكاميرا. في منتصف نزلة أدونيس استطعنا نصب حاجز مؤقّت بين عدو المتظاهرين وعناصر

حفظ النظام الذين يطاردون فلولهم. واستطعنا أن نقلّ اثنين من المتظاهرين ونهرّبهم باتّجاه شارع اسكندرون ليلتحقوا بالمتظاهرين هناك.

قال لنا أحدهما: - ابو رامي، متعهد مقصف كلية هندسة الكهرباء سلّم كثيراً من المتظاهرين للأمن، ليتكم تنشرون الخبر ليحذَره الآخرون.

تابع عبد الرؤوف جولته بين الجامعة والجميلية والتحقت أنا بسراب لأرى سير التظاهر في شارع النيل، ثم محور باب الحديد. الهدف المعلن كان التحرّك من كل المحاور الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ومحاولة الاتجاه لتصبّ كل التظاهرات في ساحة سعد الله الجابري، تمهيداً لغايتنا الأساسية التي كان توقيتها في الثالثة. وتطلّب تنفيذها أن يتمّ الاتفاق مع 12 شخصاً من التيرب (أتارب) ليقوموا بالعمل، ونقوم نحن بحمايتهم من خلال مجموعات، ضمّت كل مجموعة بين أربعين وستين شخصاً ليبلغ عدد من يقومون بالتغطية ستمئة شخص.

من الذين تولّوا عملية تحويل الآخرين إلى الساحة المقصودة: رأفت وعلي ومروان وصبري وأبو فادي وأبو زيد وأبو الجبن وجليلاتي. كلّ منهم كان يصور ويغطّي

الأحـداث ويرفـع التسـجيل ويتواصـل مـع الفضـائيات. لم نستطع تحقيق الهدف، ولم يتمكنّ أي محور من الوصول إلى ساحة سعد الله، حيـث مكثنـا برهـة في الفنـدق السـياحي، وواكبنا سير المظاهرات ونحن نراقب الساحة من الشرفة.

إسقاط الرئيس

-1-

كـان يومـاً شـاقّاً وطـويلاً، تخلله كثير مـن المخـاطر. مـع ذلك كنّا مصرّين على تحقيق الهدف.

قبيل المغرب، تواصلنا من جديد مع محاور التظاهرات في الانطلاقة المسائية لتتجه كلّها إلى القصر البلدي، كي نحوّل النظر عن الهدف الأساسي الذي نعمل عليه وهو إسقاط تمثـال الـرئيس في سـاحة بـاب جنـين، قـرب حديقـة عبـد الناصر.

مررت إلى المنتدى، قلت لحج بشير:

– وعـدتنا الصـبح إذا سـقط تـذبح خـاروف. الصـبح ماتوفّقنا. المسا شو؟

– لك بدبح جمل بس يسقط.

طبعا هو يقصد الرئيس ونحن نقصد تمثال الأب (الذي صـار اسمـه هُبَـل)، وأعـرف أنـه سـيبارك السـقوط، حـتى

لتمثال، وهو خطوة مهمة في حلب، التي أشيع عنها بأنها صامتة في الثورة. إن سقوط التمثال يشكّل تحوّلاً جذريّاً في مسار الثورة بحلب.

كان أحد الناشطين(صبري) في خلاف مع زوجه، وقال لنا ونحن في طريق العودة من اعزاز، بأن "راسها وألف سيف" مابترجع ليسقط.

يومها قال حج بشير:

– أوووف والله كتير.. لسا بدك تصبر عشرة أيام؟

بعد حوالي شهر من تلك الرحلة جاء بركان حلب، لاليبرهن على كثرة عدد نقاط التظاهر وحسب، بل ليُسقط الصنم.

لم نعد نذكر كم مرّة دخلنا المنتدى ذلك اليوم (نروح ونرجع) نراقب الطريق ونحشد التظاهرات لتنطلق باتّجاه القصر البلدي لتغطّي على عملية نشر التمثال بالصاروخ.

كنا خمسة أشخاص حول السيراتو مع الدكتور ياسر وناشطة (سبور)، أمام مدخل الكراج القديم حين التقينا علي بدران وهو يلف سيكارته بالتتن الوطني، ويمشي، كما يتحدّث، برويّة. سيارتا بيك آب كانتا تتوقفان بالقرب منّا

وفيهما المهدّات والصاروخ لنشر الحجر، ويتوزع حولهما جماعة الهدم. خريطة بناء التمثال كنّا قد درسناها بعناية، وكان الوقت المخصص لنشر التمثال لايحتاج أكثر من خمس دقائق. أحد رؤوساء المجموعات المكلّفة بالتغطية فقدنا الاتصال به، فقد أرسل جوّاله مع صديقه إلى البيت خشية اعتقاله ومعرفة أسماء الناشطين من خلال قائمة الأسماء، وهكذا لم نعد نعلم شيئاً عن تحركات مجموعته. المحامي زكريا الذي همس لي:

- لاأعرف صاحبك، لكنني مع أربعين شخصاً متأهّبين وسنستعمل الشنتيانات حين الحاجة.

أيضاً فقدته هو ومجموعته في طلعة البنك. بضعة شباب من بينهم عمر والغول وأبو محمود هتفوا ثم التفتوا فلم يجدوا حولهم أحداً من الأربعين شخصاً الذين كان ينبغي أن يكونوا حول التمثال، لذلك تركوا الساحة وأسرعوا بالابتعاد. الغول ركب، على الماشي، حافلة تمرّ وهو يوميء لي ويصيح بضحكة يخالطها اليأس:

- شاهد ماشافش حاجة.

حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً كنت أتهادى مع علي بدران حول ساحة التمثال ننتظر قدوم مجموعات هاتفناهم

لينضمّوا إلينا في الساحة بحثاً عن الفرصة السانحة، يبدو أنهم يقتربون ويرون هذا العدد الكبير من الحرّاس فينسحبون. حكيت له أنني منذ يومين رأيت مجموعة من التلاميذ بثياب بيضاء يطوفون، ظهراً، حول التمثال، وكأنّ أحداً وشى بما سيحدث. والآن، المنطقة مطوّقة بالكامل، وسيارتا شرطة تجاوزتا الرصيف وصعدتا الدرجات حول التمثال لحمايته.

فكّرنا أن نقدّم لطاقم الحراسة صندوقاً من العصير الذي يحتوي على مادّة مخدّرة، لكن الوقت تأخّر لفعل ذلك. لم أكن مصدّقاً أن يذهب كل ترتيبنا سدى لأسباب تافهة. كان مجموعة من الشباب وعلي بدران يتولون مهمة دعوة الناس من ريف حلب للمساهمة في البركان، شباب تل رفعت ومارع وحيان واعزاز، جاؤوا يوم الأربعاء وناموا في العراء على المحلّق قرب الأمن العسكري، تحسّباً للحواجز ومنع المرور والتفتيش الذي يصبح دقيقاً كلّ خميس لتفادي التجمّعات يوم الجمعة.

كنا ندرك أن أكثر الأماكن أمناً للص أن يرسم خطته ويعقد اجتماعاته على سطح المخفر.

اتصلت جماعة علي به فتركني وذهب.

اقتربت وحدي من التمثال وأنا مغتاظ من حرّاسه. كانت معي حقيبة ملأى بكل شيء خَطِر، لذلك اخترت أن أجلس إلى جانب إحدى النساء الوحيدات على كرسي حجري في الحديقة أمام التمثال. يبدو أنها تجلس هنا لغاية ما، إمّا التسوّل المهذّب أو غاية أخرى. الجلوس إلى جانبها آمن، فلن يهتم الأمن بمسائل المواعيد الغرامية وأشباهها. تحدّثتْ إليّ كثيراً، وهي ترتّب (الايشارب) بين الإخفاء المفتعل لشعرها، وإظهار بعض خصلاتها ليبدو لون شعرها المصبوغ بالحنّاء وهو يلمع تحت مصابيح الساحة الصفراء. حاولت أن (تطبّقني) بغنجها وحركاتها وأسئلتها الكثيرة، وكنت أردّ على أسئلتها باقتضاب شديد. ثرثرت كثيراً، وهي تحاول الاقتراب منّي ولمسي من خلال إيماءات يديها المترافقة مع الحديث، غير أن ماركّزتُ عليه هو مدى معرفتها بالمنطقة، سألتُها، بالتفصيل عن ذلك، فحكت لي أنها تسكن في الأشرفية، وأنّها تأتي – يوميّاً–إلى هنا. ولفت نظرها هذا العدد الكبير من التواجد الأمني، في هذا المكان. وعلى غير العادة، لأوّل مرة يدخل الشرطة سياراتهم إلى داخل الساحة. طال مكوثي من غير جدوى، وحين هممت بالنهوض، قالت لي أنها تريد الذهاب إلى البيت ومشوارها طويل، وسألتني أن أوصلها. فتحت

حقيبتي.. ناولتها أجرة تكسي وأوصيتها أن تنتبه إلى نفسها فأولاد الحرام، في هذه الأيام، كُثر.

عدت أدراجي إلى المنتدى وأنا أجرّ ذيول الخيبة.

مسكينة هذه المرأة، لاشكّ أنّها وحيدة. كم هو الفرق شاسع بينها وبين جدتي.

أتذكّر، في الطريق، حكايات جدّتي عن نفسها. كانت تقول لي:

– أبي، الله يرحمه، طبّق وصيّة الشيخ.. قال له.. دير بالك كوهه.. هي بنتك "أمينة" كتير ذكيّة.. يعني إذا بتحطّا بالمدرسة مابتعود بتلحقها. جَوّزها أريحلك. وهيك تعتّرت ياابن ابني. وعلئت علأة مشحوَرة. بتعرف.. جدّك مابيتلحألو.

وبين فترة وأخرى أراها تطلق هناهينها لكل مناسبة وتسميها (شدّيّة):

– هاها ياخوخ بغبارو/هاها ويا ورد بزرارو/هاها واللي مابيحبك ياكمال/ يما تخرب ديارو.

وعندما كانت تسمع برفع أسعار الوقود تقول:

- هاها يا مازوت ويا كاز هاها ويا بنزين ممتاز هاها واللي بيرفع الأسعار هاها تفأع في وجهو جرة غاز.

قلّما نعود من عند إحدى معارفها من غير أن تعود لتحوّطني من العين:

- تعا كمّول أسكبلك فَضَاضة.

تأتي بقماشة تضعها على رأسي وفوقها إناء نحاسي كبير مليء بالماء. وتأتي بقطعة رصاص من النوع الذي تُختم به ساعات الكهرباء وتُرصّص منعاً للتلاعب بالعدّاد. تذوّب قطعة الرصاص بالملعقة على النار ثم تسكبها في الإناء فتفرش وتتخذ شكلاً معيّناً تبعاً لحالة الصب. تُبيّن انبهارها وهي تقول:

- يالطيف.. مبينة عين كبيرة.. ياعين الحسود طقّي. ريتو تنبء عينو اللي بيرميك بحسد.

أصل إلى المنتدى. لم يكن فنجان قهوة اسبريسو يعدّل المزاج، غير أن الخائبين مثلي انضمّوا إلى طاولتنا المعهودة في المنتدى، ورحنا نكشف لحج بشير سر السقوط الذي كنا ننتظره.

أتنحنح وأنا أحكي لرفيق الزنزانة، يقول:

- مبيّن عليك متضايق كتير.

- نعـم، أنتظـر الشـيخ ليرجـع نشـوف شـو صـار معـو مشان الإفراج.

أقبع في الركن صامتاً. ليس سهلاً أن تكون متأرجحاً بين أمرين تتساوى فيهما الاحتمالات. ربما يعود الشيخ بالإفراج، وربما يعود بخفّي حُنَين، وربما لايعود.

قلت:

- ياأحمد.. قرّب المغرب... شلون قراءتك للقرآن؟

- منيحة.

- سمّعنا مما تحفظ.

بدأ يتلو "سورة يس" بصوت جميل، وأخطاء واضحة. بعد دقائق بدأت جَلَبَةٌ في الخارج وهرج ومرج تنبيء عن قرب موعد الإفطار.

. ...

-2-

بعد أربعة أيام على زيارة الشيخ ونحن، في الغرفتين المتقابلتين 8 و11 نتساءل، عبر طاقات الزنازين، عن نتائج تلك الزيارة، وثمراتها. أربعة أيام ونحن نحلم بالإفراج عنّا.

سأترك الكلابية، التي غسلتها، نظيفة، فلا ألبسها إلاّ أثناء مغادرة السجن. أتابع تراويح بقيّة رمضان في الجامع الكبير، جامع زكريا "الأموي". سأحذّر كلّ المتظاهرين أن ينتبهوا: الموت ولا الاعتقال.

الوقت يمضي ببطء، ونحن نحاول أن ننشغل بما يدفع اليأس عنّا، وماينسينا أننا نقبع في غرفة ضيّقة كالقبر، على مسافة طابقين تحت الأرض، مثل غيابة الجبّ.

كتابات متناثرة على الجدران: ماشاء الله كان. دع الأيام تفعل ماتشاء. إن الله مع الصابرين. قطعة من مغلاق سحاب بنطال كنت قد وجدتها وأخفيتها لكتابة تواريخ الأيام التي تمضي عليّ في هذا الجحر. وقطعه حجر صغيرة. التقطهما أحمد وفاجأني بخطّه الجميل ولغته الرديئة. راح يخطط بهما على الجدران بحجم كبير.

قلت له: - لا تدع الخط واضحاً فالأنذال يتحيّنون فرص عقاب الموقوفين.

تابع الكتابة باستهتار وكأنّ شيئاً ما يدفعه لتفريغ القهر بالكتابة: الله أكبر.. وبشّر الصابرين.. أشتاق إليكي ياأمي.. وللحرية الحمراء باب. استطعت أن أصحح له الأخطاء الإملائية، لكنني لم أتمكن من إقناعه بتصغير الخط ومداراته، قال لي: - وأنا متمدّد أريد أن أرى ذكر الله لأطمئن.

وكما تعوّد، كلّما ضاقت به الحال وامتلأت المثانة، يرجوني أن أطرق الباب طالباً التبوّل، متذرّعاً بأنهم يحترمونني ويلبّون طلباتي.

طرقت الباب مراراً حتى جاؤوا. ماأن فتح السجّان الباب حتّى فوجيء بالكتابات الواضحة المتوزّعة على الجدران، وبدلاً من أن يسمح لنا بالخروج إلى الحمامات استدعى سجّاناً آخر ليرى المدوّنات، وكانت الطامّة.

فكّ حزامه الجلدي العريض المرصّع بدوائر حديدية وانهال على أحمد بالضرب المبرّح. أكثر من ربع ساعة من الضرب المتواصل، انهار بعدها أحمد، تماماً.

أخرجني إلى الحمامات وقال له:

- معك عشْر دْقايق بدي أرجع شوف كل الكتابات ممسوحة بتيابك.

صادر أدوات الجريمة وصفق الباب خلفه بقوّة. لم يتمكّن أحمد من الخروج للحمامات، وحين سألته أجاب بأنه أصيب باحتباس، ولم يعد يريد سوى أن يتركوه وشأنه. بدأ يلوم نفسه لأنه لم يستمع إلى نصحي.

تلك الليلة ساد صمت غريب. أقفل السجانون باب الممر الخارجي، ويبدو أنهم انشغلوا بشيء ما، وبدأ صوت غناء يصلنا من زنزانة ياسر وعبد الرؤوف، المقابلة لنا: اعطني حريتي أطلق يديّا. لم نقصّر بدورنا، أحمد وأنا.. بدأنا بتغيير كلمات أغاني أم كلثوم وعبد الحليم ووردة: قالت ياولدي لاتحزن فالسجن عليك هو المكتوب.. بحياتك ياولدي سجّان نمرودٌ..نمرود، والسجن كبير ياولدي وكلاب تحرسه وجنود.. من يدخل زنزانة ياولدي مفقودٌ مفقود.. من يطلب حريّة مفقود.. مقدورك ياولدي أن تُحبس في سجن بلادك كالموؤود.

صاح ياسر:

- وطّوا صواتكن ياشباب عكّستو علينا، هلء صواتكن بتوصل لبرا ومنتبهدل.

لم ندرِ كيف جاءتنا الجرأة لنرفع وتيرة الغناء ونندمج بهذا الشكل.

قال لي أحمد:

- احكِ معهم.
- كنت أجمع البطانيات وأضعها فوق بعض لأصل إلى الطاقة التي أراهم منها، وأحدّثهم. البطانيات الآن صارت مشتركة بيننا.

جثا وأحنى ظهره وقال لي:

- اصعد.

وقفت على ظهره ورحت أكلّمهم. تحدثنا فترة لا بأس بها، وحين شعرت بحركة في الخارج، نزلت بسرعة خاطفة، وأسندت ظهري إلى الجدار. فتح السجّان الباب ووجد أحمد جاثياً، لم ينتبه إلى الحركة، وأنا واقف يكاد رأسه يلامس ركبتيّ. بدا الوضع مريباً. سأله:

- ماالذي تفعله هنا؟

انتصب واقفاً. امتقع وجهه. أسند ظهره إلى الجدار، ولم ينبس ببنت شفة.

عودة الشيخ

-1-

أخرجني السجان ثم أخرج "ياسر وعبد الرؤوف وأبو الجبن والجيلاني"..أخذونا لنحلق لحانا ثم إلى التحمم وأوصونا أن نرتدي ثيابنا النظيفة.

(هه ثيابنا النظيفة؟ كنت محتاراً أي لون قميص أرتدي. وهل آخذ الطقم البني أم الزيتي، أم يكون الكحلي أوجب؟ هل أضع ربطة عنق، أم أجاريهم بالتخلّي عن ربطة العنق لأنها مستهجنة لدى (أشقائنا!) الإيرانيين؟ . أيّ ثياب نظيفة أيها الأبله؟ وهل نملك غير مايستر أجسادنا؟)

فرح أحمد وتأكّد من أنني أحفظ رقم هاتفه الأرضي لأُطمئِن أهله عنه.

قادونا إلى الطابق الأرضي ثم صعدنا إلى الطابق الثاني من غير أصفاد أو تطميش. أدخلوني وياسر وعبد الرؤوف الى الغرفة التي كُتب على بابها: يمنع ادخال الجوّال.

في الغرفة رأينا الشيخ (صهيب) واللواء رئيس الفرع (أديب سلامة)، دارت أحاديث مكررة عن الوضع السوري، وعن تعاطف الشيخ واللواء معنا، والقيادة الحكيمة التي تريد الإفراج عنّا. بعد قليل أدخلوا معنا الجيلاني وأبا الجبن.

وزع المساعد علينا أوراقاً وأقلاماً بطلب من الشيخ الذي نصح لنا بأن نكتب كلّ ماجرى مع كل واحد منّا ودوره في الأحداث التي جرت في حلب ونشاطه بالتفصيل. نقلونا إلى الغرفة الأخرى الواسعة، واحتلّ كلّ منا ركناً وكأننا في قاعة امتحان. في خمسة عشر سطراً كتبت ملخص ماكنت قد قلته في التحقيق وختمته بأنني أرجو الإفراج عني لأنني لم أقم بما يستوجب التوقيف وأنني- هنا - عاجز عن خدمة الوطن وعن قيامي بواجبي فيه.

أخذ مني الشيخ الورقة ومررها للواء، لم يتناولها اللواء، بل أبعدها عنه كمن يتجنّب وباءً، وقال للشيخ:

- حافظو وحافظ اسلوبو بس مَقلو يحسّن خطّو مامينقرا منيح.

نظر الشيخ في أوراق عبد الرؤوف الثلاثة، بعد لحظات تبادلا نظرة استغراب، فبادر عبد الرؤوف إلى طلب أوراق أخرى. طوى ماكان قد كتبه وبدأ من جديد. أنهى ياسر كتابته وسلّم الأوراق للشيخ. حين أنهى القراءة، اقترب منه، هامساً:

- كاتب شغلات بتروحك، عدّلها. بعدين مو أنت ابن شهيد وتعلمت بمدارس أبناء الشهداء؟ اكتب هالشي.

أخذ ياسر أوراقاً جديدة وبدأ يكتب، في حين ناول عبد الرؤوف الأوراق للشيخ الذي مررها للواء. بعد أنهى قراءتها قال له:

- أهم شي ماكتبته وين الكلام عالتنسيقية؟

قال الشيخ: ضيف سطر عن التنسيقية، وبعد أن قرأ ورقتي قال:

- لم تكتب بأنك تلتمس العفو، وأنك لن تعود إلى تنظيم المظاهرات والتحريض عليها.

- لم أرتكب أي تجاوز على القانون فكيف أطلب العفو عمّا لم أفعل، إنّ طلب العفو إقرار بالإدانة.

بدا لي أنه واللواء يئسا من مناقشة فذلكاتي فطلبا أن نوقّع على أوراقنا. رنّ اللواء الجرس، سلّم الأوراق للمساعد وطلب منه تصويرها، أبدى الشيخ احتجاجاً على هذا الإجراء، فهذه الاسترحامات مخصّصة للقصر الجمهوري، فأجابه بأنه لابد من الاحتفاظ بصورة عن كل مايصدر من الفرع. لمّ المساعد حتى المسودات وخرج.

بدا الجميع مرتاحين من هذه الجلسة، وعاد اللواء إلى مكانه خلف طاولته، يمسّد شاربيه،ويمرّر أصابعه على شفتيه، وبدأ يعظنا، ويتحدّث عن بطولاته وحكمته في إدارة شؤون حلب. حدّثنا أنه منذ بضعة أيام جمع، في هذه الغرفة، فتياناً وفتياتٍ من المتظاهرين، وحذّرهم من أن أفعالهم ستؤدي إلى تقسيم سوريا، بحيث سيحتاجون إلى فيزا عندما يريدون التصييف في الساحل. لذلك عليهم عدم الاشتراك في المؤامرة الكونية على بلد الصمود والتصدي.

تفرّس في وجوهنا ثم بدأ يؤنبنا على اشتراكنا في خراب البلد، وهاهي منطقة الصاخور تعجّ بتوزيع الشنتيانات والسيوف لقتل عناصر الأمن الذين يحافظون على البلد.

لم أكن أعلم ماالذي تعنيه " شنتيانه"، وحين سألته، أمر بإحضار واحدة من المصادرات.

دخل المساعد.. وقف على بعد ثلاثة أمتار منّا، وفي يده سلاح أبيض يشبه السيف، أرانا كيف يلتوي بمرونة ويبدو كالشفرة الحادة، وأرانا كيف يمكن لفّه حول الخصر بسهولة لإخفائه. حدّثنا اللواء أنهم صادروا كمية كبيرة منه كانت توزّع مجاناً على حاملي كلمة السر، تلك الكمية كانت موضوعة في كيس يوزّع مافيه شاب صغير، أمام جامع أبو بكر، وحين انتشر رجال الأمن في المنطقة ترك الكيس وهرب.

سررت في سرّي لأن الشباب بدؤوا ينجحون في حماية المتظاهرين من بطش الأمن والشبّيحة، كما أنّ توسيع نطاق التظاهر يمكن أن يساهم في تبرئتنا، لأنهم كانوا يظنون أن اعتقالنا يوقف التظاهر في حلب.

طبعاً لم تخلُ الجلسة من الحديث عن حكمة القائد الفذ وقوّته وممانعته، وعن أبيه الخالد الذي بنى سوريا الحديثة.

أعادونا إلى الزنازين وكلّنا أمل بأننا سنرى النور قبيل انتهاء رمضان، كيف لا.. والشيخ مبعوث من القصر الجمهوري لإتمام المهمّة.

فوجيء أحمد الشيخ - شريك الزنزانة - بعودتي، وبدأ ينهال عليّ بأسئلة متواصلة عمّا جرى، وكان يستمع بلهفة.

هكذا انقضى يوم حافل توّجت نهايتَه رائحةُ صندل انبعثت من أرجاء الممر. حان موعد الوصلة القرآنية في زنزانتنا قبيل الإفطار. لم تنقضِ عشرون دقيقة حتى بدأت أصوات صرير مزاليج الزنازين بالفتح والإغلاق يتبعها أصوات صراخ تهزّ أركان السجن.

ألمٌ في كل مكان، وترقّب ممن لم يأتِ دورهم بعد في التعذيب. غير أنّ الذي جعل معدتي تنقبض بشدّة، مشهد الرجل السبعيني الذي جرّوه في الممر ولم يبقَ من جلبابه الفضيّ الممزق سوى بقايا تستر بعضاً من جسده. صوت صراخه يدوّي في أرجاء الممر وهو يصرخ:

- أنا سائق مالي علاقة بأحد.. لا أعرف من يصعد معي بالسيارة.. أشتغل على خط حلب - عندان من عشر سنين.

لكنّ أيّاً مما يقول لم يكن يخفّف عنه وطأة الضرب الشديد. من وقع الضربات والصراخ تبيّن لي أنه يعاني من اللكم والرفس والضرب بالعصا. أسمع طقطقةَ تكسّرِ عظامه تحت وقع العصا بلؤم فظيع. لم أتمالك نفسي. وقفت. ركلت الباب بيديّ ورجليّ وصوت صراخ العجوز يصبّ كالرصاص في أذنيّ.

كالعادة، توالت الردود البذيئة على الطَرق حتى توصّلوا إلى مصدر الصوت. انهالت عليّ الشتائم من كل العناصر الذين هرعوا للمكان. ألفاظ السخرية المرّة لم تمنعني من القول:

- لوكان لديه شيء كان اعترف بعد كل هذا الضرب، العجوز يكاد يموت بين أيديكم ولا نستطيع النوم من صراخه.

بدت الدهشة على كبيرهم، فشدّني من شعري وأخرجني من الزنزانة وأوعز إلى رفيقه:

- شوف المعلّم.

لم يكن يسمح لي برفع ناظريّ، ومع ذلك أحسست أن كل من في الزنزانات المجاورة يتلصصون على ما يحدث، ويرون شعري في قبضة السجّان. بعد قليل جاء ثلاثة

أخرون واقتادوني إلى قبو مجاور. بالرغم من توجّسي، خفّت حدّة الضيق الجاثم على صدري، لأنني لم أعد أسمع صراخ العجوز. يبدو أنهم انشغلوا بي عنه.

قال لي أحدهم:

- شو باين مَتزعجك الصوات وبدك حبس خمس نجوم.. اليوم بتتسلى معنا.. عنّا حفلة بتغيّرلك جو.

كبّلوا يديّ إلى كتفيّ ووضعوا العصبة على عيني من الجهة العليا بحيث أرى ماحولي على مستوى جلسة القرفصاء، ولا يتسنى لي رؤية وجوههم.

قال أحدهم:

- دير بالك ما تتحرك أو ترفع راسك بقصف عمرك.

كان القبو غارقاً في عتمة لايخترقها سوى بصيص ضوء أحمر قادم من إحدى زوايا السقف. بضع كراسي مبعثرة.. سلاسل حديدية مدلاة مما يشبه سكة حديد مثبّتة بالسقف، كتلك التي كنا نستعملها في معمل النسيج لإدخال بكرات الخيوط الضخمة (السديوات) التي نثبتها على آلات النسج.

طاولـة حديديـة مثبتـة إلى أحـد الجـدران، كتلـك الـتي يسـتعملها الحـدّادون لوضـع أدوات الحِـدادة، تحتـوي علـى مطـارق وكماشـات وأدوات لحـام وجـرة غـاز كبـيرة وكـابلات كهربائية موصولة بمشابك سوداء وحمراء.

خطّافـات مـدلّاة مـن السـقف كتلـك الـتي يعلّـق عليهـا الجزارون الخرفان أثناء السلخ. أنابيب مياه معدنية مرمية في أرض القبو، وعـدد كبير مكوّم في زاوية الجدار الـذي يرشح مياهـاً تبـدو آسـنة مـن رائحتهـا وصـوت انزلاقهـا مـن أحـد الأنابيب الموصولة بالجدار بما يشبه الأنين المنتظم.

نصـف سـاعة أتعبتـني خلالهـا الجلسـة الـتي لاأسـتطيع تعـديلها أو تحريـك أطـرافي، فقـط عينـاي كانتـا تجـولان في أرجـاء الغرفـة بحـدود الرؤيـة الممكنـة. العتمـة تتبـدد شـيئاً فشـيئاً، وتمسـي قـدرتي علـى الرؤيـة أكثـر وضـوحاً، ويغـدو القلب أكثر ارتجافاً من انتظار مالايمكن التكهّن به.

تتعالى الأصوات في الخارج تدريجياً. تصبح أكثر قرباً وكثافـة.. وتختلط الجَلَبـات: شـتائم.. لكمـات.. صـرير أصفاد.. تكّات أقفال..انصفاق أبواب زنازين.. خيزرانات تلامـس أجسـاداً طريّـة، وأخـرى يقابلهـا اصـطكاك عظـام. عشـرات المعتقلـين يُرمـون في أرض القبـو مكللـين بالـدماء

والأصفاد، وقد غابت رؤوسهم تحت ثيابهم.. جميعهم حفاة.

بدأت أصوات البسطارات تعج بالمكان.. عدد كبير من السجانين يتبادلون الضحك وتتشابك شتائمهم للوافدين. بأيديهم وأرجلهم كوّموا المعتقلين وسط المكان وصنعوا من أجسادهم تلالاً. تحلّقوا حولهم وأحدهم يحثّ رفاقه:

- بسرعة فرجولنا رجوليتكن.. خلينا نطهّر الكلاب.

مدّوا أكفّهم جميعاً إلى سحابات بناطيلهم، بحركة بدت وكأنهم قد تدربوا عليها لتكون متناسقة في وقت واحد. أصوات ارتطام البول ببقايا ثياب المعتقلين وأجسادهم أصابتني بالغثيان. رائحة كريهة انتشرت أسوأ من تلك التي خبرناها أثناء السفر حين نمر بمنطقة الزربة، أو حين نمر في منقطة مكشوفة من نهر قويق الذي جفّ ماؤه.

خدر بدأ يتسرّب إلى ساقيّ وسط اختلاق أصوات ضحك السجانين وتوسلات المسجونين الذين يستنجدون بالله ويحلفون به ليؤكّدوا براءتهم راجين من السجانين إيقاف نزيف البول. صرخ أحد السجانين بكامل طاقة صوته:

- قعدوا ولك حيوانات بسرعة.

انسابت التلال فجأة وبدا الجميع مقرفصين. ركل السجان أحدهم فاصطدم بآخر، تابع الركل وهو يقول:

- شايفو القدامك ولك حيوان؟

قال له: لا سيدي بلوزتي على راسي كيف بدي شوف.

- يقطع عمرك شو حيوان.. امسكو.. شيلو.. لا.. لفوق لفوق شيلو ياكر، شو بنت أنت ماعندك حيل.

رفع المعتقل من يلامسه إلى مستوى صدره. قال السجان بلهجة ساخرة:

- الحشو لنشوف وين تقدر توصلو.. الحشو قد ماالله يعطيك.

رمى السجين من يحمل فارتطم بالآخرين. سمعت صوت اصطكاك رأسين بقوّة، وانهار جسمه على آخَر، وكان نصيب الثالث قدمين. الأصوات تتالت:

- أأأخ... آآآآي.. أأأأأو...

وسط ضحك السجانين.

قال أحدهم: - ليك الع(.) ص مايتأووه متل ال(....).

دوّى صوت مثل تشغيل خلاط الفواكه أو ماكينة الكبّة وفرم اللحوم. شرارات كهربائية تصدر من ملامسة أكبال الكهرباء تلك الأجساد شبه العارية. أشعر بخدر في رأسي وبرد قارس في مفاصلي، أما أذناي فقد بدأتا تشعران بضغط مؤلم كما لو أنني في طائرة بدأت بهبوط مفاجئ، وراح الضغط يزداد كلّما زاد عدد الخيزرانات التي تنهال على المساجين بشكل عشوائي ويعلو صراخهم.

ياالله... هل هذا نموذج من عذابات يوم القيامة للظالمين؟ ولكنّ هؤلاء مساكين مظلومين. أليس هناك من ملائكة رحمة أو طير أبابيل تنقذنا مما نحن فيه؟ هؤلاء ليسوا أعداءنا.. ليسوا قتلة.. لم يقترفوا مايستدعي كلّ هذا العذاب. يارب.. كيف تسمح للظالمين من التمادي في غيّهم مع الذين يتّكلون عليك، وليس لهم من منقذ سواك.

تختلط مشاعري وترتبك أفكاري وأنا أغمض عيني كي أزيل الدماء التي تتنافر من حولي على وجهي. النار تتأجج داخلي ويزداد توتّري مع رفع وتيرة السياط والسلاسل الحديدية التي ترتطم بالأجساد الغضة من حولي. كأنني في ورشة تصليح سيارات ودكّان حِدادة ومسلخ بشريّ، كلّها

مجتمعة في مكان واحد، وتتوزع مهمات العساكر من حولنا على الانهماك في إشباع رغباتهم الساديّة وإثبات ذواتهم من خلال إذلال الآخرين والإمعان في قهرهم. مرّة، أخبرني أحد السجّانين بأنهم جميعهم جرّبوا السجن هنا. سجنوا إذاً.. وعانوا من الذل والقهر والدونيّة، وهاهم يأخذون بالثأر ممن سلّطهم الضبّاط عليهم. يصرخ أحدهم:

- قرّب هالكلب لشوف.. اشحطو شحط بدّي طفّي السيكارة بعينو.. وأخليه يبلعها.. ماحلوة ننزع الأرضية بعقوب السواكير.

تقفز إلى ذهني صفحات كتاب فرانز فانون " معذبو الأرض"، وتتلامح صور سيكولوجيا الإنسان المقهور لحجازي، وأرى غضب الكواكبي يتّضح بين عينيه وهو يصوّر نفسيّة المستبد ومن يقع عليه فعل الاستبداد. فالمستبدّ يودّ أن تطيعه رعيته كالغنم، ليس لهم من هدف إلا خدمة مصالحه. ويريدهم فئة عبيد لا يسعدهم إلا السجود أمام شخصه، وهو، لعلمه بسفالته، يحاول أن يغطّي قصوره ودونيّته بشتى الوسائل والأساليب. يحاول إخفاء خوفه، لذلك فإنه يستعين بأظلم الناس ممن يثق بأنهم مثله، لردع من تُسوِّل له نفسه دفع الظلم فينشئ جيشاً من المستبدّين الصغار، ويحرص على أن يكون أعوانه

من حثالة المجتمع، ويحفظ لهم مراتبهم الوظيفية على هذا الأساس، بحيث يكون أسفلهم طباعاً وخصالاً أعلاهم وظيفة وقرباً، ليتمكّن من تسليطه على رقاب الناس، وهو على يقين بأنّ هذا الشخص وأمثاله لن تأخذهم الرأفة بأحد، ولن (يعصوا) لمولاهم أمراً يشمّ فيه رائحة الدم والانتقام.

يدخل سجّان مرتدياً البزّة العسكرية وفي يده كيس نايلون ممتلئ بمادة سائلة.. يرشّها فوق الأجساد المرميّة أمامه وهو يجعر بصوت يشبه الخوار:

- ناشرها عالرمانه.. دق الماني دق الماني.. طولك ياعود الريحاني.. عيونا عيون الغزلاني.. دق الماني دق الماني.. تي رشرشر تي رش رش.. لعيونك بو حافظ دق الماني تيرشرش تيرشرش.

أشمّ رائحة شواط جلد. أشعر بحرقة فظيعة في عنقي..لاشك أن بعض رذاذ السائل وصل إلى رقبتي. أحرّك رأسي لأتحسس المكان، فيشتدّ الألم من القيد الذي جمع رسغيّ للخلف. ينسدل قليلاً غطاء عينيّ فأستسلم للظلام وأغمض عينيّ وصدى صوت آخر يصل كجواب لغناء زميله:

- يخرب بيتيك يخرب بيتيك ياوطفه تعاي عينيني نتفه.. واواواا وواااوووطفه... انتي بلووة.. يخرب بيتيك.

صحيح! حتى الآن لا أعلم: هل الأمن يتبعون وزارة الداخلية أم هم من ملاك وزارة الدفاع؟ لماذا عندما لا يبدي عنصر الأمن ولاءه المطلق يتم نقله إلى إحدى قطعات الجيش؟ وكيف يُفرز بعض المجندين للخدمة في الشرطة المدنية؟

أشعر بغبائي حين تتزاحم الأسئلة في رأسي ونحن في عداد الأموات، ما الذي يعنيه جواب تلك الأسئلة الآن؟ شيء واحد ينبغي التركيز عليه: كيف يمكن أن تنتهي هذه المهزلة، ومتى يتعب السجانون؟ رأسي يكاد ينفجر من الألم.. أشعر بضيق وكأن جبلاً يجثم على صدري. كان ينبغي لنا أن ندرك ما أرادوا تشريبه لنا ابتداءً من الاستدعاء للخدمة العسكرية التي كان عنوانها "مذكرة سوق". لم نكن إذاً في نظر السلطة سوى بهائم تساق، فكيف كنّا نتوهّم أن في لبس البزّة العسكرية شرفاً لايدانيه شرف؟!

سجّان آخر بالشورت يحمل خشبة غليظة.. يقترب من أحد المعتقلين الذين يصرخون من ألم الضرب، ويوغلها في

مؤخرته، بشكل متكرّر وهو يسأل، بصوت تفوح منه نبرة الحقد:

- مين ربك؟ شو دينك؟ يااا...

ويتلفظ بكلمات غاية في البذاءة، ولا ينتظر الجواب.. إنما يمعن في تكرار فعلته مع آخرين. حين كاد يفرغ السائل من الكيس، أشعله حامله وراح يمرره فوق الأجساد المرمية أمامه وهو يقهقه:

- هـبي بـيرس دو تـو يـو يـا(..) صـات... . حريّـة ياخونة ما هيك؟..انتو زبالة بهالوطن.

سجّان آخر علّق أحد المساجين من خصره بالخطاف وبدأ برفعه بوساطة جنزير حديدي معلّق في بكرة مدلاّة من السقف وبدأ عملية الشبح العكسي، ويداه مقيدتان للخلف. السلسال الحديدي يرتفع والشاب يصرخ بحرقة:

- ياسيدي انخلع كتفي.. ياسيدي شو بدك بعترف.. شـو بـدك بعمـل.. خلـص أنـا مجـرم.. أنـا ارهـابي ياسيدي اعدمني.

كلّما علا صراخه زاد حامل العصا الكهربائية صعقاً له في مواضع مختلفة من جسمه. وبحركة دائرية مسرحية دار

حامل العصا ولامس بها الأعضاء التناسلية لكل من وصلت يده إليه وهو يصيح:

– ماتبولو على حالكن ياحريم.. بَكدن حريّة ماهيك؟ انتو بدكن خ(...) ياش(....).

لم يكن الألم الذي يعانيه المعتقلون أشد مما أعانيه.. كانوا يتألمون ويغيبون عن الوعي وتتبلّد أطرافهم. أمّا أنا فقد كنت أتنقّل بين عذاباتهم وأشارك كلّ من أراه ما يعانيه، من غير أن أتمكّن من نيل شيء من الخدر.

لم يكن يخفف عني وطأة انسحاق الروح سوى محاولة التركيز على ما كنت قد قرأته عن الطغاة الذين يشكّل العسكر لهم جداراً من الهيبة في وجه البسطاء، يعلّمهم جيش الطغاة على العنف والقسوة حتّى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكي، فلا يلبس كُم السترة العسكرية إلاّ ويتلبّس شرّ الأخلاق فيتنمّر على أمّه وأبيه، ويتمرّد على أهل قريته وذويه، ويكظّ أسنانه عطشاً للدماء لا يميّز بين أخ أو عدو.

آآآآه أيها الكواكبي كم كنت بصيراً فلم ترَ من الجندية إلاّ جانبها السلبي، الجانب الحقيقي الذي أراه أمامي الآن. فليست هي المدافع عن حدود الوطن، ولا حامية حقوق

الأمة، وإنّما هي بلاء في بلاء يحرّكها المستبد كيفما يشاء. فتفسد أخلاق الأمة وتتعلم الشراسة والطاعة العمياء، وتغدو مجرد مَحرس للاستبداد.

حملني صوت صرخة عظيمة من شاب معلّق وقد ارتمت ساقه أمامي وهي غارقة بالدماء.. حملني ذلك الصوت وانتزعني من صفحات الكتاب التي تتراءى أمام عينيّ ورمى بي في هوّة سحيقة من عذاب الروح.

هاجت الغرفة وماجت عندما ارتفع صوت قعقعة السلاح في الخارج...

....

-3-

بعد الانتهاء من القراءة، أغلق شهم الحاسوب. رفع يديه للأعلى. تمطى طويلاً. فكّر بغرابة مشاعره المتناقضة التي يتدافع فيها الحزن والسرور.

حزين إلى حد المقت بسبب المآسي المتلاحقة التي تعجّ فيها المذكرات، ولأنها لم تكتمل بهذه الصفحات التي ظن أنها تكمل الرواية. سعيد لأنه استمتع بالنص، ولأنه عثر، من خلال نور، على خيط أمل يدلّه على بقيّة المذكرات.

حلب– 24 تموز 2012

رائحة الغار بين الحبّ والحرب

–1–

المظاهرات تتلاحق في حلب، وكذلك العنف يشتدّ. الجيش ينتشر في الحواري. الحواجز تملأ المدينة. المؤمنون بأهمية التغيير الجذري يغوصون في معترك البحث عن حلّ، وعن طرائق تقضّ مضاجع الحواجز.

سراب يرافق الشاحنة الصغيرة المليئة بالإعانات وربطات الخبز، من حي الميدان إلى منطقة الشيخ مقصود التي يغلب على سكانها التجمّع الكردي. كان لابد من وجود أشخاص يسهّلون وصول المواد إلى الطرف الآخر من المدينة نتيجة علاقاتهم الطيبة مع الأكراد. الطرف الذي نصب فيه الأكراد حاجزاً يفصلهم عن المناطق الأخرى، بعد أن اختلط الحابل بالنابل. وكانت السيارة نفسها تعود

بالبضائع التي يحتاجها سكان قلب المدينة. المواد الداخلة والخارجة كانت كلّها مجانية.

حين عودة سراب وصحبه واجتياز الحاجز، فوجئوا بحاجز لأمن الدولة. احتجز الشاحنة وكل المرافقين معها.

ثلاثة أسابيع عاشها سراب وأربعة معه، في جحيم المعتقل قبل أن تنجح الوساطات المتعددة بالإفراج عنهم. الوساطات التي تخللها دفع مبلغ مليون وخمسمئة ألف ليرة لمساعد في أمن الدولة.

منتدى حلب الثقافي استنفر روّاده خلال تلك الفترة في تنظيم المظاهرات، وتأمين الوساطات، وتجييش المحامين، للإفراج عن المعتقلين. لذلك كان طبيعياً أن يحتفل المنتدى بالمفرج عنهم، وكانت سهرةً حتى الصباح. تخلّص سراب من لحيته الكثيفة.. تحمم طويلاً بعد انقطاع عن العالم وعن الماء وعن الشاي.

-2-

جلس إلى شاشة الكومبيوتر وراح يقرأ رسالة لجين بتؤدة وتلذّذ. باشر بالرد عليها، وحرص في الرد على كل جملة من كلماتها. حدّثها عن اعتقاله الجديد.. وعن هواجسه ومعاناته خلال الأيام العصيبة التي قضاها هناك.

طالعته رسائلها، غضبي: العمى بقلبهم.. حريق بالسويقة. لاأصدق حتى الآن أن المدينة احترقت. وإذا صدّقت، من كل عقلي، بدي أفجّر حالي فيهم وأخلص. امبارح سوق المدينة وسوق العطارين، واليوم السويقة. كرمال الله يا حرّ، سوق المدينة، بتعرف شو يعني. يعني حلب القديمة، تاريخنا. ياريت كانو حارقيني بدل حلب القديمة. كنت كل يوم أمر من هناك. وكل ما أدخل أي باب من أبواب السوق أبكي. روحي معلّقة فيها. أرواح هامت فيها، عاشت ورحلت. هي ليست مجرّد حجر..هي تاريخ كامل. سماؤنا مثخنة بالدخان الأسود. الحرائق ترفع راياتها السوداء عالياً، فترى الدخان من أي بقعه تكون فيها بحلب. (شتّان.. كان هارون الرشيد يقول: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك). تفرّ أسراب الطيور المهاجرة زعراً من اجتياح الطائرات للسماء. لم يعد أحد يسمع الهديل.. الهدير صمّ الآذان. مايحدث مؤلم.. تفجير المشفى.. إعدام الجنود.. لا أنكر أن إعدام الجنود ميدانياً وتّرني. تفجير مشفى الحياة وما حوله وتّرني. أعلم أن إعدام هؤلاء الجنود لا يساوي شيئاً أمام تعذيب وقتل المعتقلين بالجوية ورميهم في الشوارع. وأعلم أن تهديم مشفى الحياة لا يشكل شيئاً أمام قذائف وبراميل النظام. ولكنك تتوقع دائما الأسوأ من المستبد، وتتوقع الأفضل من الثائر على الظلم. أعود وأقول

في نفسي من الممكن أن يكون من أعدم وقتل الأسرى أشخاص قد عانوا الأمرّين من جور النظام، لذلك هذا يعني أنهم تحرّكوا بدافع الانتقام، وتلك دوامة كبيرة لا خروج منها. أحزن لأننا ثرنا على الظلم والمفاسد، على الدموية، وهانحن نقع فيها. من يثور، عليه أن يتنزّه عن أخلاق وممارسات من يثور عليه.

ردّ سراب: سألت مطوّلاً، وتبين أن الثوار لاعلاقة لهم بالتفجير. السلطة هي فعلت ذلك. السلطة فرّغت المشافي وفجّرتها للإرهاب، ولمنع العلاج. تبنت العملية كتيبة، سألت عنها قالوا ليس هناك كتيبة بهذا الاسم.. لم أجد المسؤول عن الإعلام لأخبره بنفي العملية. أوصلت رأيي لمن يوصله. لكن لا أطمئن حتى أحدّثهم بنفسي، ولهذا لم أنم بعد.

أرسلت له رابط أغنية فيروز: ياأنا ياأنا أنا وياك. وكتبت: صرنا القصص الغريبة. ياالله اليوم غيم. السما بتجنن. الخريف عاد. شو رأيك ننزل نمشي بشوارع حلب القديمة. نلمس الورق الأصفر. نستنشق رائحة الهواء العبق برطوبة أحجارها الداكنة العتيقة. نضحك من نداءات الباعة المتجولين. نشتري قطعة غار صغيرة نفرك أيدينا فيها. نحملها معنا. ثم أخبئها في الخزانة بين ثيابي.

...

-3-

استسلمت للنوم. راحت تحلّق هادئة مشرقة على شدو الحساسين على أغصان قلبها، وجري الغزلان في البراري. رأت كواكب البهجة تنير منزلها، وقد اتّسعت أركانه وسع المدى. اقتربت من أحد الأسوار لتطلّ على ما خلفه وإذ بها ترى أحبّ المناطق لديها.. إنها حلب القديمة.. الأبواب الحديدية الشامخة بمساميرٍ تروي أفراح اللقاء وأحزان الفراق.. الخانات. طيور الحمام تطوف حول المآذن القديمة، وتردّد مع المؤذنين الأذان. مقاعد البائعين الخشبية الصغيرة تستكين على الأحجار السوداء القديمة التي صُقلت بتعاقب الخطوات المتلاحقة لأجيالٍ وأجيال. لامس النسيم وجهها، فتساقطت أوراق تشرين الشجيّة على شعرها خيوط ذهب، راحت تجمعها بألوانها الدافئة لتحيك بها شالاً تتدثر بأصالته من حاضرٍ فظٍ قاسٍ لا يعرف الرحمة. بدأت تجوب أرجاء البيت الواسعة، وهي تستغرب ذاك النور وتلك السماء الإضافية من الغيم، إلاّ أن صوتاً من الغيب أتاها هادراً كالرعد ينبئها بالسر، ويمحو عنها شعور التعجّب: انفضي عنك غبار الدهشة، فهذه زفرات السماء من الحرقة، نفثتها كمداً وغضباً على

ما عاثه المفسدون في هذه الأرض المباركة. هيا يا ابنتي. ستفتح طاقات النور وتتسلل شمس الحق، فاستعدي لتشهدي الشروق، وافتحي رئتيك لاستنشاق هواء الحرية. أخذت عيناها تجوبان السماء كمسجون أبديّ، والحر، للمرة الأولى يرنو فرحاً، والغبطة تسكن مقلتيه. لا حدود لمرمى نظره إلّا منتهى السماء. أخذت تراقب أسراب الطيور الملونة التي تحلّق في مجموعات صغيرة، ثم تتآلف بينها للانبثاق رسوماً سحرية بريشة الطبيعة المبدعة. ومن خلال الكم الهائل من الأفكار المتزاحمة في مسكن أحلامها، ومضت فكرة التقاط صورٍ لما ترى من جمال، وما تشهده من سكون، حتى ترسلها إلى أصدقائها المغتربين، عسى أن تطمئن قلوبهم التي تعبث بها نيران الغربة. فجأة رن الهاتف. استيقظت، وقلبها يقرع طبولاً أفريقية. تهتزّ بأجمعها على صوت صديق تائه في اختيار أسلوب إسقاط الخبر في وعاء هادىء. يتأرجح الحزن على حباله الصوتية، والدموع تمنع خطو الكلمات من الثبات والتماسك:

- نائمة؟

- لا.. لا .. فقط أهذي، ماذا هناك؟

- صديقنا محسن استشهد. البقاء لله، حاولي التماسك والبقاء على العهد.

اقفلت الخط والذهول يغيّبها عن الواقع. عادت إلى أصوات القذائف، والنواح، وأزيز الرصاص. ذهب الحلم، وعاد الفحيح.

عادت تكتب له: مشتقتلك ومتخباية بالممر، الدنيا قايمة قاعدة. ما أحلانا ونحن مبطوحين على الأرض. بتعرف أنو عم نشوف رصاص بالحديقة عنا. بات الموت أهون من رؤية سورية تتداعى وتهوي ليغنّي نيرون لحنه الاخير. عندما قُتل القذافي استنكرت انتهاك الثوار لحرمة جسد الميت.. الآن بتّ أستمتع بما فعلوه به، وأتمنى لكل من قَتل وشَرّد وهدم مصيراً أبشع وأقسى من ذلك. زرعوا وحوشاً داخلنا، ولطّخوا نفوسنا بثقافة الدم والثأر والانتقام. كيف أرتاح وأنا أستيقظ على عويل الأرواح التي تسقط من قصف الطيران. وأنام على تداعي المنازل التي تُهدم بالمدافع.

***

19 آب 2012

العيد

لم تكن المعايدة ممكنة إلاّ عبر السكايب، فقد بعدت المسافة بينهما. لمع اسمها على هاتفه في ثاني أيام العيد، ففرح به بقدر ماأدماه صوتها، وعيناها الغائرتان:

- صباح العيد سهرت لأسمع التكبير، لم أستطع. الرصاص صم أذنيّ. أشعر أن مزيداً من الدماء ستراق. مزيداً من الدمار سيحلّ. وستُدك الساحة بالقذائف. ولن نقف بها كما وعدتني. لن يغفر التاريخ ما اقترفه الجميع. كنت في أول أيام العيد، عندما أخرج للشارع، أرى حلب ساكنة كسولة هادئة بعد ليلة صاخبة، يقطن الفرح أحداقها. كنت أراها أولى أيام العيد كالعروس في صباح العرس. هذا العيد، وأنت بعيد عني، شهدت نفس السكون والهدوء، ولكن مثل الهدوء الذي يلي تشييع الميت، من داره إلى المقبرة. كانت أرملة. أمّاً ثكلى. أختاً مفجوعة. وحبيبة غرقى بالأسى. فعلنا ذلك كلنا.

هـم حقـراء ونحـن المتخـاذلون. هـم المسـتبدون ونحـن المستسلمون. عندي الجرأة للاعتراف أن سكوتي دمّر بلـدي. كـل رصاصـة أنـا سـاهمت فيهـا عنـدما كنـت أبلـع مـرارة كلمـة الحـق في حلقـي. غـداً سـأنزل إلى المرسـم. شـوق. تحـدي. انتحـار. سمّـه ماشـئت. أنـا جريحة اليوم. سامحني فقد لطخت قميصك بدمائي. في غيابـك كتبـت عنـك وعـني.. أريـد أن تقـرأ تلـك الصـفحات فهـي تعنيـك. سأرسـلها لـك اليـوم. عنوانها(الحرّ والعرّاب).

الطـائرات تحلّق في سمـاء المكـان.. صـوتها قريـب جـداً.. دوّي قصـف كثيـف. أجهـزة إنـذار السـيارات المتوقفـة في الشـارع تنطلق. يسـمعان صـوت ارتطـام في الغرفـة الأخـرى. الجلبـة تشـتد. تسـرع بارتـداء عبـاءة طويلـة، وتخـرج. انكسـر زجـاج نافـذة غرفـة الجلـوس مـن دويّ الانفجـار. اسـتيقظ الأولاد مرعـوبين. شـجرة الكبّـاد مالـت باتّجـاه الأرض. انكسـر جـذعها وتنـاثرت حبّـات الكبّـاد في ممـر الحديقـة. مـاالـذي يحـدث هنـا الآن؟ هـل قامـت القيامـة؟ تسـاءلت بحرقة، وهي تنزوي تحت الشجرة. انطوت على نفسها من قشعريرة برد داهمتها.

- أنت لا تشبه باقي البشر ولا تتكلم بما يشبههم. أنت أسطورتي فقط. خبئني بين أهدابك. سأسقي الطريق الذي يقودني إليك بدمي. يحدث أن أصير الماء. أتبخر منكَ، وأعود إليك غيثا يتساقط من غيم الشوق.

مدّت يدها إلى طاولة صغيرة قربها. نزعت الغطاء. تناولت كتابه (أوابدنا الحميمة). حضنته وهي تهمس:

- عندما اشتدّ القصف صباحاً خفت كثيراً، لكني بقيت بمكاني في الحديقة وبحضني الكتاب. انطلقت، على حين غَرّة، في حديثٍ آخر، كمن تذكّر شيئاً يقبع في حنجرته ويريد الانطلاق: كان القصف ثقيلاً. إضافة إلى أنني اليوم التقيت أرملةً مسنّة. الجيش الحر أخرجها من بيتها وأخذه. صمتت برهةً.. بلعت لعابها ثم تابعت: كتير زعلت عليها.

- لا... أكيد مو الجيش الحر.. بيكون عصابة.

- لا.. الجيش الحر وأخذوه لأن موقعه استراتيجي. سأقول لك شيئاً: مو الكل على مستوى أخلاقي واحد، والسبب أنهم خليط، وعند بعضهم الغاية تبرر الوسيلة. هاد شي طبيعي كونه مو الكل منشقّين. أنا

مقتنعة بهالشي. بس كمان بزعل على هالعالم يلي مالها دخل. حتى الإساءة يلي عم تطلع هم سببها، أربعون سنة ربّوا جيلاً كاملاً على القمع شو بتتوقع يطلع معو.

شعرت بالبرد. ارتسمت في ذهنه لوحة سريالية تختلط فيها رائحة ثمرة الكبّاد بصوتها المرتجف، فلمع بذهنه سؤال كأنّما تجلّى متأخّراً:

– صحيح.. لم تحدثيني، ولا مرة، عن الرسم. ينبغي أن يكون حبيبك مثقفاً، فنيّاً.

نقلها سؤاله إلى عالم آخر يؤرّقها، وتعشقه. جمعت قدميها على السرير. أغمضت عينيها محاولة استجماع قواها وأحاسيسها للانتقال إلى موجةٍ أخرى. اتّخذت وضعيّة الأستاذ، وقالت:

– اسمع يا سيدي. العمل الفني هو إحساس الفنان الذاتي وطريقته الخاصة في نقل مشاعره للآخرين. هذا عند الرومانسيين، أمثال ديلاكروا.

جمعت أناملها ووجهت كفّيها إلى صدرها:

– وأمثالي.

بعد هنيهة، تابعتْ:

– جاءت المدرسة الواقعية رداً على المدرسة الرومانسية، فقد أعتقد أصحاب هذه المدرسة، ومنهم كوربيه، بضرورة معالجة الواقع برسم أشكال الواقع كما هي، من دون أن يحشر الفنان أنفه في اللوحة.

تناولت رشفة من فنجان قهوتها الكبير:

– نأتي الآن إلى الكلاسيكيين، من أشهرهم (ليوناردو دافنشي) في الرسم و(مايكل أنجلوا) في النحت. فترة هؤلاء كانت العصر الذهبي، وهم، كما تعلم يا مؤرّخنا العظيم، في عصر النهضة. أكيد حضرتك بتعرف، مشيرة إلى نفسها، (الجيوكندا) يعني الموناليزا. وأشهر أعمال مايكل أنجلو، مشيرة إليه، تمثال موسى. بعدها التكعيبية، يعني تعقيد هندسي، يعني بيكاسو، يعني (الجورنيكا)، يعني مأساة الحرب الاسبانية، كما يحدث الآن في سوريا.

صمتت، تفرّست في عينيه:

– أنت تختبرني أم تضحك عليّ؟

– لا، عن جد، أريد أن أعرف.

- طيب، رح صدقك. منحكي كمان شوي وبس، مو معقول نقضي السهرة عالمدارس الفنية. رتّبلي محاضرة ياأخي بشرحلك كل شي. نأتي الآن إلى مدرسة حياتنا. السيريالية. الرسام يركّز على كل ما هو غريب ومتناقض ولا شعوري. فيها الخيال. فيها الأحلام.

رشفت قهوتها. رفعت الفنجان عالياً باتّجاه، تعني(بصحتك). قالت وهي تبتسم بخبث:

- أما مدرستنا، أشارت بالفنجان إليه ثمّ قرّبته إلى صدرها، المدرسة التجريدية، اللوحة فيها مثلثات ومربعات ودوائر. يعني البحث عن جوهر الأشياء والتعبير عنها بإيجاز.

أدارت رأسها في أرجاء الغرفة:

- أشهر الرسامات سابقاً لوي فيغ الفرنسية، وأشهرهن لاحقاً، حبيبتك، لجين السوريّة.

ضحكا. قال لها:

- بمناسبة الضحك، تذكّرت حكاية مضحكة ومؤلمة، لاأعرف إذا كانت صحيحة. هل صحيح أن فان

كـوخ قطـع أذنـه ووضـعها في علبـة كبريـت وأهـداها لحبيبته.

أجابت متحسّرة:

- أُعجبت إحدى بنات الهوى بأذنه فقطعها وقدّمها لها. كان شبه مجنون. يقال أيضاً، سكن فان كوخ وغوغان فترة مع بعضهما ثم نشب بينهما خلاف، فحمل كوخ سكّينه غاضباً، وبدلاً من طعن صديقه، حوّلها إلى نفسه، وقطع أذنه، ثم جال بها الشوارع قبل أن يقدّمها إلى بائعة هوى في مبغى.

خالط صوتها نبرة حزن:

- ماأروع لوحته ليلة النجوم. سأرسم مثلها، ربّما بعد حين.

..

الحُرّ والعرّاب

لم يكد ينقضي اليوم حتى وفت ماوعدت به، فأرسلت له نصّاً طويلاً، بيّنت فيه أنها أحبّت الالتصاق بالعرّاب، واستسلمت لحمايته.

لم يكن ينسى العراب أي مناسبة تخصّها فيبادر في كل مرة إلى إغراقها بالهدايا. ساعد الأسرة في دعوى الطلاق. وفي تسجيل البيت باسم لجين.. وفي تبديل أثاث البيت. عند حدوث أي عطل في البيت، كان يهرع ليحضر من يصلحه، بدون أي تأخير أو تذمّر.

حلويات العيد تصلهم قبل حلوله. (مونة) الجبنة وورق العنب وباذنجان المكدوس والحصرم. كل ذلك يصل في موسمه. في مرسمه غرفة خاصّة للجين.. فيها كلّ الأدوات اللازمة للرسم. حين بدأ استخدام الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، فتح للجين حساباً خاصّاً بها في الفيسبوك.. والسكايب.

حتى أنه وفّر، في غرفة مرسمها، جهاز كومبيوتر حديث وحفظ عليه كلّ كلمات السرّ لحساباتها المختلفة.

بالرغم من كل شيء كان العرّاب سلبيّاً تجاه تفتّح الأنثى أمامه. وهاهي تقارن علاقتها به، مع علاقتها بسراب؛ تصفه فيه، وتبسط علاقتها به، حتى قبل أن تبدأ فعليّاً: "كان الحرّ دائم الانشغال، وكنت أنا مدمنة الانتظار. هو يكتب وينشر، يوجه، يقوّم، يسأل، يجيب، يذهب، يعود. وأنا على نافذتي.. أراقبه، كعادتي، باهتمام. أحداقي في أقصى اتّساع لها لالتقاط التفاصيل، وشفاهي تفتح وتنبسط بشكل عرضي في مزيج من الدهشة والابتسام. أستند بمرفقي على حافة نافذة الصبر، فتحفر في نقاط ارتكازها عبارة: "انتظرتك". انتظار بقصد القرب.. انتظار يعطّر وقتي.. يلوّن ساعاتي.. يكلّلني بالرضا والسعادة، كونه هو درب لقائي به. وعلى قدر نفوري، طوال سنيني السابقة من الترقب، على قدر شغفي بانتظاره في أيامي الممهورة بطابع وجوده فيها. بات يومي يبدأ بظهور فارس الرسم بالنجوم.. الشاهد اليومي على انسحاب الليل مثقلاً بالتعب والظلمات.. وولوج النهار محملاً بالتجدّد، والرجاء بالسكون والراحة. كان رجل التناقضات والأضداد بكل معانيها: الجسارة.. والخجل / الورع.. والمجون /العفوية.. والخبث /الحزم.. والتراخي/ الطيبة.. والدهاء. كان آهات المحبّين، وأشواق العشّاق.. سيوف المحاربين.. ابتهالات وأدعية الشيوخ.. برَكة

القديسين.. ألوان الرسامين.. قلم الشعراء.. بلاغة الأدباء.. حكمة المتصوّفين.. توجيهات النصر من أفواه القادة الفاتحين.. ثبات الصحابة المباركين.. أصالة القدس.. جلال الأذان في المآذن.. حناجر الأحرار.. واصطفاء الأنبياء.. شوارع حلب القديمة الشاهدة على عراقتها.. حجارة أبنيتها الصفراء الصلبة.. أبوابها الصامدة.. عبق صابون الغار في سرر العرائس.. سحر القدود و طربها.. رائحة التبغ الأصيل في المقاهي القديمة المتعانقة مع رنّة النرد.

كان حزن يومٍ تشريني في حدائق مدينتي الدافئة. كان وطني.. وكان الحرّ والحرية. وكنت أنا... تلك القروية الفطرية أمامه.. أتلعثم بالكلام وأتعثّر بالتعبير.. أنتقي أحرفي انتقاء الدرر من بين الحصى في بحر اللغة، كي تليق به. وأضمّ كلماتي سبحات كهرمان حتى تتبارك بملامستها لمسمعه. أخشاه وأهابه إلى درجة البكاء. وأريده وأرغب به لدرجة النحيب.

كلّ ليلة أفكّ ضفائري من داخل عقصة الكفاح..لأسدل شعري ستاراً يفصلني عن واقعي. أخلع ثوب الأمومة، وأرتدي أثواب الأنوثة والدلال. أرمي ريشتي

وألـواني في أدراج النهـار، لأتحلـى بقلائـد الرغبـة وأقـراط الشغف. مسلوبة الإرادة أمام خيول الرغبة التي يعتليها.

ليلـة اختـبرت فيهـا اللحظـات الفاصـلة مـا بـين المـوت والحيـاة.. مـا بـين البقـاء والـدمار. لحظـات وضـعتني أمـام حقيقـة الإنسـان، ذاك الكـائن الضـعيف المتجـبّر. كانـت ألسنة اللهب تلتهم، بشراهة، الأشجار والأثاث في الحديقة الملاصقة لحديقتنا، بسبب إحدى الشظايا. أبت أشجارنا إلاّ أن تعـانق وليفاتهـا وأصـدقاء طفولتهـا وتتشـارك وإياهـا لظى النار.

انتقلت النيران إلى المنزل وبدأت بالاستعار. النحيب... الصراخ.. بكـاء الاطفـال.. الهلـع الـذي يعـزف عـلى أوتـار أصوات الرجـال، ومـن ثم اسـتراحة الرمـاد وتـنفّس الصـعداء بعد إطفاء النار.

كانـت ليلـة النـار والرمـاد هـي ليلـة الحـر الأخـيرة في حلـب.. قضـيتها بعيـدة عنـه.. بعيـدة عـن أوتـاد شـجاعته الراسـخة في أرض وجـودي. أوتـادٌ تثبـت خيمـتي في وجـه رياح الخوف، وتمدّها بالإقدام والقدرة على ضبط النفس.

كـان غيابه كافياً ليقضّ حياتي، ويحوّل ليلتي إلى كـابوس كلله الحريق. هاتفني صباحاً مودّعاً، وواعداً بأنّ الغياب لن

يطول. نهضت من سريري، بوهن، وأنا أشعر بالضباب يلفّني. يحجب عنّي كلّ مَن حولي، ويحجبني عن أعينهم.

شربت القهوة أنا وهو وفيروز (ولما على الباب يا حبيبي منتودع). تأمّلت فنجاني، كانت المرة الأولى التي أقلبه فيها، ولا أعرف لماذا.

ربما كانت عرّافة نفسي تحاول أن تخطّ في وجداني جملة (بالرغم من المواثيق والوعود بالعودة سريعاً، سيطول البعاد، فتهيئي له).

الحزن يسكنني.. رهبة صافرات السفن المغادرة.. بكاء النوارس يشجن روحي بدموع صامتة. قضيت يومي في أمل لقاءٍ غير محقق. اختليت في محراب الحرّ أناجيه بحروف شوقي وأملي بلقائه. خلدت إلى النوم وأنا أمنّي نفسي بلقائه في أحلامي.

وفعلاً صحوت على زقزقة حروفه على نافذتي تخبرني بأنه وصل الريحانية بالسلامة. كانت فرحتي عارمة، تشع بأكثر من جانب. عشت فيها فرحة تجدّد لقائي به.

كان الحرّ الحالة الفريدة في حياتي التي تسمح لي بالتواجد الدائم معها، الأمر الذي زاد من تعلّقي به. تُرى كيف هو بعد السفر، أين يقطن، ما هو شكل الغرفة التي

سيحادثني منها. أسئلة دارت في خلدي. أجاب عليها الحر ببساطة عندما أرسل لي بمكالمة الفيديو ليطلّ عليّ بابتسامته الساحرة.. بهدوئه واتّزانه.. بثباته الذي أعشقه.

اللوحة

يومياً كان الحر يشعل الحرائق في سفوحي، ويحيل اللؤلؤ الأبيض في أعماق الصدف، الذي أختزن به مشاعري، إلى مرجان متوهّج.

كنت بحاجة إلى قوة قاهرة استثنائية، تبعدني قسراً عن تأثير الحر.. أستطيع من خلالها التماسك، واسترداد القليل من مقاومتي المهدورة أمامه.

حاولت أن أبعد نفسي، قدر المستطاع، عن مدن الحر الخيالية، ومعاودة المسير في الدروب الجرداء التي توصلني الى واقعي. ويا له من هروب.. كنت أفتح صورة الحر يومياً عشرات المرات.. أشم رائحة يديه من صفحات كتبه. أشتري علبة من دخانه.. نحتسي القهوة معاً. أمشي في دروب مسيرنا المعهودة.

أستذكر أيامي معه بابتسامة ودمعة. أقحمه في كلّ الأحاديث التي تدور بيني وبين الآخرين، باسترسال. وكأني أستحضر وجوده.

تنبّهت لما أنا عليه.. فقدت قدرتي على التواصل مع أكثر المقرّبين إليّ. نسيت كيف كنتُ قبل أن يدخل الحر حياتي.

بتُّ أشعر بحاجتي إليه عند كل منعطف.. أفرح عندما نكون معاً، كما لم أفرح من قبل. أحلّق معه إلى سماوات لم أحلم بالوصول إليها. أذكره في كل مكان أليف، وكأننا كنّا هنا معاً. ويلوح لي وجهه في كل زمان يرفرف فيه الفرح أمام نافذتي التي تزدحم بالخراب والخيبات.

أيّها الحرّ

أنت أيضاً وطني. لاأقوى على الشرح والتعليل.. أراك عيدي.. كأول عيد يعيه الطفل.. مثل أول يوم مدرسة.. مثل أول فستان للبنت.. مثل مدينة جميلة أول مرة يدخلها مسافر.. مثل أول هدية من السماء. عندي شعور أنّ الحرّ مرتاح الآن معي، لذلك أطير فرحاً به. من قال بأن الوهم لايمكن أن يكون، في كثير من الأحايين، حقيقي أكثر من الواقع الذي نعيش؟ إنني أراه.. ألمسه.. أسمع صوته.. أعرف ماتقوله عيناه.

أيّها الحرّ، أنت وحدك من كانت له القدرة على احتوائي، واحتواء ألمي بين ذراعيك. إن باعدت مابيننا الدروب والحروب، لن تنجلي في فضاء الغياب.

بُعدُك بركان خامد بين أحشاء كلماتي، وحضورك هو الكون عندما يتجلّى بأبهى صوره، وقدسيته، وحبوره. أيها الحرّ.. أنا الحرّة الاستثنائية.. أهبك إيايّ.. وأنا أؤمن بقدسيّة الشغف الذي يعترينا، في كل حالات لقاءاتنا البكر المتجدّدة.

بنا يتلاشى الهامش الذي يفصل بين الفكر والروح والجسد، ويتبادل الخيال الحقيقة مع الواقع.

أيّ واقع أكثر عمقاً من أنني أصحو على بريق عينيك، وأغفو على أمل حضورك البهيّ، حتى في المنام".

الفصل السادس

الرياض 2014

رحلة البحث/ الرياض

حطّ شهم في مطار الرياض منتظراً "بشر". لم يدرِ حتى الآن، لماذا تلكّأ "نور" طويلاً في الإجابة عن رسائله، حتى أعلمه، أخيراً، أنه يجد "كمال" في الرياض.

لم يكن سهلاً تجديد جواز السفر، ثم الحصول على فيزا إلى الرياض. تسعة شهور حتى استطاع الوصول إلى هنا.

ولو لم تكن هناك فرصة مشاركة داره في معرض الكتاب بالرياض لما استطاع القدوم. ولكن لماذا يقابله "بشر" ولايقابله كمال أو نور؟

...

أربعة شبان كانوا بانتظاره في مطار الرياض. تمّ تبادل التعارف في مقهى كورسيني، وسط الرياض، في منطقة العليّا التي تدور حولها حكايات كثيرة. كانوا كلهم

مهندسين. قدّموا حسام عليهم بوصفه زوج ابنة كمال. تحدّثوا بالتناوب كيف انضم إليهم كمال في تنسيقية الرياض فور وصوله إليها.

ذلك كان في بداية الثورة، حيث كان بإمكانهم جمع التبرّعات، وتنظيم الإغاثة، وإرسال مواد غذائية، وألبسة، وأجهزة اتصال، إلى داخل سوريا. وكعمل رديف، أنشؤوا منظمة طريق النزاهة لمكافحة الفساد، فأقاموا الدورات التدريبية والمحاضرات. كما وضعوا الأسس الأوليّة لرابطة أبناء حلب.

على مدى ساعتين أخذ شهم فكرة موسّعة عن طبيعة إقامة كمال في الرياض. أين عمل. وماهي نشاطاته. والصحف والمجلات السعودية التي كان ينشر فيها. وعن مذكرات الاعتقال التي يعكف على كتابتها.

عدّل شهم جلسته. بسط كفّيه على الطاولة محدثاً صوتاً لافتاً، وقال:

– هنا بيت القصيد: أين الدكتور؟ وأين بقيّة المذكّرات؟

تبادل الجالسون إليه النظر في وجوه بعضهم، والحيرة تعتريهم، إلى أن بدأ حسام الكلام بتؤدة أشعلت النار في جوف شهم وهو ينتظر الجواب:

- غادر الدكتور منذ شهرين متّجهاً إلى دبي، حيث حصل على عقد عمل. طلبوه كي ينشيء مركزاً للأبحاث هناك.

قال شهم، متلعثماً:

- طيّب طيّب.. والمذكّرات.

قال حسام وهو يداعب إبهامه:

- كان يكتب كلّ يوم ثلاث صفحات من المذكّرات، قال لنا إن نور أرسل إليك الصفحات التي كتبها في "الرياض".

قال شهم، متحرّقاً:

- نعم. نعم. وصلتني. أسأل عن البقية. سافر. هذا يعني أن أمامي رحلة أخرى للقائه. إذا كان الدكتور غائباً عن وسائل التواصل لأسباب يقدّرها هو، فإن مالاأفهمه أن يكون نور، صلة الوصل بيننا، مقتِّرٌ وزئبقي.

قال حسام، مواسياً:

- كان بودّنا أن نخدمك، لكننا لانعرف نور. تحدّث عنه عمّي كثيراً، وعن المواقف التي أنقذه فيها، لكنّ الفرصة لم تسنح لنا للقائه. لديّ ،هنا، في جهازي المحمول بضع صفحات كتبها عمّي عن رأيه في مايحدث، سأحاول أن ألخّصها لكم: "من يتأمل الواقع السوري بعد ثمانية عشر شهراً على بدء الثورة، تصيبه الدهشة مما يحدث. نعرف أن السلطة، عبر خمسة عقود، دجّنت الفكر وشلّت الحركة السياسية، وعملت على تغييرات ديموغرافية تحفظ لها القدرة على استمرار التسلّط. ونعرف أن معظم السوريين تم غسل عقولهم من خلال مغريات الانضمام للحزب الحاكم، بحيث أمسى من غير المعقول أن تطالب بأبسط حق من حقوقك ما لم تكن بعثياً. وهكذا تورّط البعثيون في تشكيل طابور خامس يدافع عن مصالح الأسرة الحاكمة التي ورّطت العلويّين أيضاً فباتوا محسوبين عليها، وهم منها براء، إلا فئة قليلة لا تتعدى ألفي شخص يكنزون الأموال ويحظون بالجاه والسطوة. أسباب كثيرة جعلت من السوري مثاراً للسخرية لأنه مستكين إلى واقع مرير لا يستطيع منه فكاكاً. بعض السوريين خدعتهم شعارات الممانعة والمقاومة ومجابهة إسرائيل والأخوان المسلمين

والامبرياليـة الـتي تنتظـر الفرصـة للانقضـاض علـى أرضنا. وآخرون آثروا الأمن والأمان وتكيّفوا مع واقع لا يملكـون منـه شـيئاً، فيـدعون علـى المسـتبدين سـرّاً ويتملّقـونهم علنـاً. أمـا مـن كـانوا خـارج السـرب فهـم سوريون يقـرؤون الواقـع بدقـة ويعرفـون مكـامن الفسـاد ومصـادر الإفقـار والهيمنـة، بعضـهم قـاوم جهـراً ودفـع ثمـن ذلـك حياتـه أو جـزءاً كبيراً منهـا حيـث غُيّبـوا في السـجون سنوات طويلة. وآخـرون قـاوموا بمـا هـو متـاح مـن خـلال تمريـر أفكـارهم ومـواقفهم مـن غـير مجابهـة، وإنّمـا كـانوا يوارِبـون، ويسـتعملون أسـاليب لا يرقـى المستبدِّون إلى فـكّ رموزهـا، وليسـت لـديهم الحنكـة والثقافـة الـتي تمكّـنهم مـن قـراءة مـا بـين السـطور والمواقف. الآن بعد ثمانية عشر شهراً من بدء الثورة، غـدا مـن الـلازم أن نبسـط أوراقنـا جهـراً ونحـدد مواقفنـا تجاه من يمتصّون دماءنا، ولم يعودوا يتنقّبون بالدين أو بالوطن".

المقالـة مختتمـة بسـؤال: مـتى نصـل إلى مرحلـة يهتـف الثـوّار فيها: هذه الحكومة تمثّلني؟

....

نكءُ الجراح

دلّ الجمع شهماً على رجل ذي صلة بكمال، هو أحمد حمادة، يعمل في المجال الثقافي والمطبوعات، بمؤسسة أنشأها تحت اسم "سمارت فيجن". فسعى إليه.

لم يكن صعباً العثور على عنوان المؤسسة في "الرياض". كانت شقة أرضيّة في حي الملز، شارع الأحساء. تطالعك أكداس صناديق الكتب بدءاً من الممر، لتمتدّ حتى إلى رفوف المطبخ الصغير. الغرفة الواسعة التي تحتوي على أربع طاولات، تتصدرها واحدة تخفي الكتبُ المتراكمة فوقها الرجلَ المستغرق في العمل. بادره بالتحيّة، ومدّ له خيوطاً عريضة توضّح أسباب زيارته.

أجابه أحمد:

– في البدء كان الرجل بئراً مغلقة من الأسرار، وليس من السهل الحديث معه أو استجراره لحديث عابر،

فما بالك لحديث عانى منه الكثير، وكان سبباً في تشرّده في هذا العمر.

تلكّأ في الحديث. قلب المجلة التي كان يتصفّحها، تاركاً صفحاتها مفتوحة على سطح الطاولة لتسهل عودته إلى المكان الذي وصل إليه. نظر في عينيّ محدّثه برهةً، ثم استدرك الكلام:

- تبدو عليك اللهفة في الحصول على تلك المذكرات أو تكملتها، لكنك لم تقل لي كيف استدللت على عنواني.

ابتسم شهم، الرجل ذو اللهفة، وقال:

- الخيوط التي أوصلتني إليك متشابكة ومعقدة، سأحدّثك عنها لاحقاً، لكنّ المهم الآن أخبرني ما تعرفه عن هذا الرجل ومذكّراته.

أخذ أحمد رشفةً من الشاي الساخن، تلمّظها، تحدّث بأسىً:

- كانت تلك الليلة التي جمعتنا، ليلة ثقافية بامتياز، وكان اللقاء في مركز حمد الجاسر الثقافي، حيث ألقى كمال قصيدة عن معتقل في سجون دكتاتور غاشم.

تحدّث فيها بصوت متهدّج كأنه يأتي من خلف سنوات القهر والحرمان. كانت لغته التي نظم بها شعره حادّة كمشرط طبيب، كلّما غاص في جسد المريض استأصل الألم من داخله. لم تكن حشرجات صوته سوى بحر تضرب أمواجه على صخرة الفجيعة في بلاده، كان يهذي بآلام السجن ووحدته. يستذكر الجلاد بصوته الأجش، وسوطه المبلل بماء كانون الزمهرير، كأنّ يد الجلاد تهوي كمطرقة فوق بقايا جسده. اعتصر صوته كصوت أسد طال جرحه بعد معركة لا يملك فيها سوى خيار الصمود وتلقي طعنات المفترسين من حوله. تحدّثنا بشكل مقتضب قبل الأمسية، واتفقنا في الرأي أنّ تحطيم الإنسان لا يأتي بالسوط والركل بأحذية الجنود المهترئة الوسخة. تحطيم الإنسان يأتي بقهره حينما تسلّط عليه جنود قذرون ومنحطّون يسلبونه الوطن بكلمات قذرة ينعتونه بالفاشي والخائن لمجرد أنه يحلم بوطن نظيف، وبصوت حق يصدح بالعدل. لا شيء يعدل لحظة انتصار الوطن على هؤلاء أشباه البشر. لحظات ما قبل بدء الأمسية الثقافية كانت أشبه بهذيان رجل مهزوم من معركة بلاده (وراح يهجّي الوجع، وينكأ عذابات السجون، في مقاطع من قصائده).

نسي نفسه وأخذ يكرع الماء حتى كاد يغص به. نكأ ذلك اللقاء جراحه، فبدا موجعاً حتى البكاء، ذبل صوته في النهاية كنهر ضاع في حقول الياسمين، وتلاشى صوته بين أصابع الدهشة التي عقدت ألسنة الحضور، ثمة حنين يسكن نظراته لسماء لا تظلل طغاة. شوق مفرط في التفاؤل لأرض لا تضم أحذية جنود الطغاة. في اهتزازات صوته حنين يشرئب كأمواج عاتية تصفع كل من يقف بوجهه. كانت كلمات قصيدته خناجر سامة تتساقط من سماء غضبه على طغاة الأرض كلهم أجمعين.

"لم يبقَ إذا سرقوا الحلم، إلاّ اليقظة الجامحة ؟!" كانت تلك آخر جملة قالها صديقي الجديد في ذلك الملتقى، في تلك الليلة الخريفية التي جمعتني به، وكانت الشرارة الأولى التي أيقظت بي شعوراً كان شبه غائب، لأن القضية كانت تأتيني من بعيد، من خلف ضباب لا ينقل الحقيقة التي تشفُّ عن مأساة في بلادي. كنت أجهل صوت الداخل، وكنت أظنّه، رغم مآسيه، أشبه بالخيال. صيحات الألم التي كنا نسمع بها لا نراها ولا نعايشها، كأننا نشاهدها عبر شاشة سينما لا تمت للواقع بصلة، أمّا الآن فكل الألم هنا معنا؛ ينزف بوجع

مفرط في الحقيقة والوضوح. كغيمة تدلهم فجأة فوق قطيع من الإبل في صحراء بلا نهاية.

حين انتهت الأمسية، جلس على حافة الدرج ينفث دخان سيجارته. رجل خمسيني متوسط الطول أبيض البشرة جبينه مرتفع قليلاً، وعينان واسعتان كاشفتان تمتلئان بنظرات غامضة لا تستطيع قراءة عمقهما، في حين بدا الانف حاداً وبارزاً إلى الأعلى. كان مثقلاً بالوجع وهو يتحدث بلغة مقتضبة وإشارات غامضة توحي بتفاصيل مبهمة لا يدرك جوانبها إلا من عرفها وعايشها، بدت أطراف أصابعه داكنة مشبعة باللون البني وهي ممسكة بالسيجارة التي أوشكت على النهاية. جلست بالقرب منه، محاولاً حثّه على الكلام. تنهّد بصوت متهالك: جئت إلى هذه البلاد هارباً من جحيم الحرب التي أوقد أوارها ذلك الأرعن، لم يكن أمامي أيَّ خيار سوى النفاد بجلدي من موت محتّم، أو اعتقال لئيم، بعد أن وصلت الأمور في البلاد لهذه الكارثة. ذلك الطاغية دمّر كلَّ شيء. كان أمامه خيارات كثيرة، فلم يختر سوى الدمار لبلاده. لم يسجّل في صفحات تاريخه سوى الإجرام والقتل.

كانت البداية أصوات بريئة تطالب بالحرية وترسم مستقبلاً واعداً لجيل يتنفس طعم الحياة الجديد بنقاء، لكن ذلك المجرم حوّلها، ببطشه، إلى ثورة مسلحة، وعمل على قمعها، بعنف، فغرقنا جميعنا في مستنقع من الدماء.

في طريقنا إلى مكان سكنه، لاذ بصمت مطبق كأنه كهف من آلاف السنين. بدت ملامحه هادئة ومتزنة، على عكس ما كانت عليه أثناء إلقائه للشعر في الملتقى. بدت تفتر عن ثغره ابتسامة وضّاءة، حينما تحدثت له عن هذه المدينة الجافة واليابسة، رغم كل مظاهر الحضارة فيها. كانت الطريق التي سرنا فيها مزدحمة جداً، فاليوم عطلة والناس تخرج للحدائق والمتنزهات والمولات لكسر رتابة البيوت ووحشة الحياة البائسة. حاولت أن أفتح له شهيته في الحديث، أن أنكأ له جرحاً امتدّ عشرات السنين من المعاناة، لكن صوتي ذهب يتناثر في سماء بعيدة، وقلب لا يعي ما يدور حوله. أذكر أنني استدرجته في الحكي بطريقة فجة وغير لائقة لشخص لا يعرفني، ولسببٍ ما استرسل في الحديث.

قال:

- إن السجن قتل لكرامة الانسان، سحق لتفكيره السليم، شل قدراته الحياتية، وتحويله إلى كائن هش، مثل حيوان أعمى لا يدرك ما يحيط به. كانت تفاصيل السجن الصغيرة هي عالمي الذي أكتب على جدرانه تواريخ الأيام التي تمرّ من دون رؤية نور الشمس. للصيف إحراقه، وللشتاء الطويل في السجون تفاصيله الموحشة والقاتلة، يهاجمنا من جميع الجهات، وأكثرها فتكاً هي الأقدام العارية من الأحذية، يمضي البرد متسللاً من بين الأصابع، يلعقها بصمت دون أن تحس، ثم يقرّحها، يشقّ نفقاً بحجم الأظفر يبدأ ببث سمومه إلى أنحاء الجسد المتهالك، يتعالى ألمه إلى مؤخرة الرأس، فيأتي بك كرهاً حول حمى الموت. وأيام المربعانية المثلجة والمتجمدة، كانوا يسلبوننا كل شيء، وكنا نسير على بلاط متجمّد في الليالي الباردة حتى يصل معنا الأمر إلى أن نضع بطن القدم اليسرى ملاصقة ببطن القدم اليمنى لنخفف برودة الارض المتجمدة، وكأننا نخشى من باليس*. كانوا يقتلون السجناء ببرودة أعصاب. يتركونهم يموتون من البرد، وكان علينا أن نبتكر خدعاً لمقاومة لاعق الأقدام الأعمى والمهووس بدماء ضحاياه. كانت معجزة أن تستمر أنفاسنا حتى أواخر

* شيطان في الاساطير الفارسية، يهاجم اولئك الذين ينامون في الصحراء، وباليس يقتل ضحاياه بأن يلعق أخمص القدم إلى أن يمتص جميع الدماء الموجودة في جسم الضحية.

الشتاء، لأن عظام كثيرين منّا هشة، لا تستطيع المقاومة والبقاء على قيد الحياة.

صمت أحمد برهة عن وصف لقائه بكمال. حاول أن يواري دمعة وقفت على صحن خدّه، ثم قال:

- بحديثه هذا الذي نكأ جراحه فيه، توالت دفقات الألم فاستمر في اخراج قيح تجربته في سجون طاغية ما عرف قيمة للأدباء والمثقفين، فبدأ بهم لكم الأفواه وتجفيف الحناجر الهاتفة بزواله. حدّثني عن أحد معارفه، قال لي والأسى بادٍ عليه:

- كان إعلامياً شاباً، تخرّج توّاً من الجامعة، شارك معنا في بعض المظاهرات، وكان أساسياً في إرشادنا إلى مظاهرة مسائيّة بالشموع، كنّا نعدّ لها في منطقة سكنه "قسطل المشط". درسنا المنطقة، وكيفية إشغال نقطة الحراسة، حيث يقبع شرطيّ واحد داخل برّاكته. ورصدنا البيوت والأسطح التي يمكن أن تساعدنا في التواري عن الأمن. زياد عرفة، جاء إلى المنتدى يوماً وطلب نصحنا، قال: طلبوني إلى خدمة العلم. كان رأيي أن يبتعد عن الأنظار، وأن يقطن في الأماكن المحررة، فلا شك أنهم سيضعون أمثاله على نقاط التماس ليكون كبش فداء.

آخرون نصحوا له أن يلتحق ثم نرى مايكون، فالنظام على وشك السقوط. التحق بالجيش. فرزوه إلى أمن الدولة بدمشق. من هناك كان يتواصل معي ويخبرني بتحركات قطعته العسكرية. كانوا يفرزونه كل بضعة أيام ليقف على أحد الحواجز في مدينة دمشق. ذات مرّة كنا نتحدّث فسمعت صوت انفجار. قطعنا الاتصال. عاد بعد نصف ساعة وأخبرني أن سيارة انفجرت داخل المعسكر وهي في طريقها إلى داريّا، كان فيها ثلاثة ضباط سوريين، وضابطان إيرانيان، وبعض العناصر. الانفجار كان بسبب خطأ في قنابل موقوتة كانوا يحملونها. خفت عليه كثيراً، وعلى مدى أسبوعين كنت على تواصل مع أحد الثوار لتدبير تهريب زياد إلى لبنان. حين أخبرته عن كيفية التواصل الآمن مع شخص، حيث ينتشله من منطقة الحاجز الذي يكون فيه، طلب إليّ أن أتريّث يومين، فلديه راتب شهرين لم يقبضهما، ونحن في آخر يومين من الشهر. انقطع التواصل معه. بعد حوالي شهر أخبرني أخوه أن مجنّداً يخدم بالمكان ذاته، اتصل به وأخبره أن زياد معتقل. فتشوا الكومبيوتر الذي يعمل عليه ووجدوا مراسلاته، فاعتقلوه وعذّبوه حتى اضطروا إلى نقله للمشفى في حالة خطيرة.

مضى على ذلك شهران. اليوم اتّصل بي أخوه ليؤكّد لي أن أخاه توفي تحت التعذيب في سجون أمن الدولة، بالرغم من أنهم أنكروا ذلك مراراً.

...

بعد أن روى أحمد لشهم حكاية الشاب التي سمعها من كمال، وقف وهو يتصبب عرقاً. رمى السيجارة التي احترقت نهايتها بين أطراف أصابعه، ثم استأنف الكلام:

– "الرياض" كانت مرحلة مهمة وغنيّة في حياة كمال. إليها لجأ هارباً من جحيم الملاحقة الأمنية. كانت فترة للتأمّل، كما كانت فرصةً للتعرّف على آفاق جديدة، وأصدقاءٍ جددٍ. الأهمّ من ذلك كلّه أنّه كتب، هنا، قسماً كبيراً من مذكّرات اعتقاله، التي يشعّ منها لهيبٌ تحت الرماد.

.....

أيلول 2012

تحت الرّماد

ثلاث رسائل من لجين، في أوقات متباعدة، لم يتمكّن سراب من قراءتها قبل اليوم.

١- في الليل وقبل الخلود إلى النوم كانت الأسماء تهيم أمام ناظري وأنا في خطواتي الأولى لدخول الكرى، بعد طول أرق، أبدؤها بسيّد الجزيرة ذي الحدود الممتدة بين الحاء والراء، وأنهيها به. كثيراً ما يخطر لي أنني يجب أن أحكي لك عن حياتي. من باب الأمانه لازم تعرفها. لكنني عندما أتحدّث إليك أشعر أنني كالثوب الأبيض. لايوجد ولا نقطة أو محطة في طريق حياتي. بدايتي معك. لا شي يستحق التأريخ قياساً لتاريخ دخولك حياتي. ثم ختمت رسالتها بسؤال: هل قرأت ملف الحرّ الذي أرسلته؟ أحببت الحر أم لا؟

٢-إلى متى؟ إلى متى سيبقى الصباح المشرق بوصلة تشير إلى الفراق؟ لقد امتهنت الوادع إلاّ أنني لم أدمنه. في كل مرة أبكـي وانتحـب. ينـزف الألم مـن جروحـي حـتى المـوت. أكرهها ذاتي التي باتت قاعه كئيبة خالية من الحياة. تتزاحم فيهـا صـور الشـهداءِ المعلّقـة علـى جـدرانها البـاردة. اليـوم حسـان وقبلـه محسـن وقبلـه محمـد وقبلـه مـيس. طـارق هـذا الشاب الرقيق المثقف، استشهد قبل أن يشهد فجر الحريّة، قبل أن يرى العلم الأخضر وهو يرفرف فوق ساعة حمص. استشـهد قبـل أن يتـزوج مـن يحـب.. ويبـني لهـا البيـت الـذي كـان تصـميمه بـاكورة إنتاجاتـه الهندسية. استشهد قبل أن أحيك لـه البلوزة التي طلبهـا مني في يوم من الأيام بعد أن مازحني قائلاً:

- (تضـحكين علـيّ بأسـوارة. اعملـي كنـزة. بـدني قرمـد من وقفة الحاجز بالبرد والليل).

رحـل أول درع بشـري عرفتـه في حيـاتي.. رحـل مـن هـو الآن سبب بقائي حيّة. لن أنسى كيف ألقاني على الأرض، ورمى نفسه فوقي، في سوق الحشيش، عندما بدأ الرصاص يهطل علينا كحبات البَرَد المميتة من السماء، ساحباً إياي إلى الحـارة المقابلة حـتى نهرب مـن النيران. وعنـد زوال الخطـر

ضحكنا معاً ونحن ننفض الغبار عن ثيابنا. في البدء خجلت من شجاعته وشكرته، ضحك قائلاً:

- لك يا خويته أنت أُختي يلي تاركة بلدها حتى تنصر حومص، وياعمي إذا متحرجة رُديلي ياها بعُرسي.

لم أعد أريد أن أزفّ أصدقائي شهداء بالجنة، ما عدت أقتنع بجمال الحور العين، فما من جمال وفتنة ترافق الموت. أريد أن أزفّهم على الأرض، بين أهلهم ووسط زغاريد أحبائهم. أريد أن أرقص طرباً على فرحتهم. أريد أن أشهد تكليل الحب لرؤوسهم. لماذا كل شهر بشهيد.. كل زفره بشهيد.. وكل بقعه من سورية رواها دم شهيد. أصدقائي، كلّ منهم يستشهد مرة واحدة، أما أنا فأستشهد مع شهادة كلّ منهم.. تصعد روحي معهم.. تحمل حقائب رحيلهم الأبدي.. تبكي على المفرق الأخير.. وتعود إليّ تحمل ألم الفراق.. والسخط من جسدي الذي لم يُصَب وينزف.. لم تتقطع أحشاؤه لتصعد معهم إلى الأبد. لن أنساك ياصديقي فأنت أول صديق في الثورة. أوّل من علّمني كيف أعقد اللثام على وجهي، من أعطاني من قمصانه حتى ألبسها فيظن الأغبياء، حاملو النار، أنني شاب. طارق ذاك الشاب المقدام، من أوائل أصدقائنا الذين التحقوا بالجهاد في الرستن، من اشترى البندقية، بما

كان يوفره لشراء خواتم الخطبة، وحملها بشجاعة، مع أنه لم يحمل السلاح من قبل. صديقي الحيّ دائماً في مدينة الحرية.. صديقي الذي عندما هاجم الغزاة بابا عمرو، هاتفته لكي أرسل له ما يحتاجه. لم يطلب مني شيئاً لنفسه، إنما اكتفى بطلب الأكفان لأصدقائه الشهداء. يومها لم أستطع أن أرسلها، ولكني أرسلت له اليوم راية الحرية لتلفّ جسده في رحلته الاخيرة، وسأنهي حياكة البلوزة التي طلبها، وأرميها على أكتاف المرمر المقدس الذي يحمل اسمه وتاريخ استشهاده. أما أنا، سألف أشواك فراقك، أنت والاخرون، أشواكاً لألبسها درعاً يقضّ راحتي، ويحول بيني وبين التخاذل طوال عمري، وسأقول له: سوريا حرة يا طارق... سوريا حرة يا عريس.

٣-اعذرني، لا أريد أن ألقي بظلال يأسي وحزني على مجلسك. جبهة النصره تمتنع عن توقيع الهدنة وإيقاف الضرب لحين دخول الهلال الأحمر لإصلاح مضخّات الماء في حلب. الجيش الحر أخطأ بتغلغله في شارع النيل والمناطق المأهولة الأخرى. لايوجد تخطيط. وليس هناك مكاسب عسكرية، ويخسرون الحاضنة الشعبية لأنهم لم يستطيعوا الحفاظ على أبسط حقوق المدنيين. القصف العشوائي واضح، وهناك الكثير من الضحايا الأبرياء.

السبب أن الجيش الحر هو ابن الشارع وليس أباه. الله وحده هو القادر على ايقاف النزيف. ينقصنا التوحيد. كل طرف يتصرف من خلال الواقع الذي يراه. النظرة الشاملة والابتعاد عن المناصب ماتزال تنقصنا.

الفصل السابع

دبي 2015

محطّة في دبي

مقهى العريش في "دبي" ضمّ يوسف وشهم الذي مهّد للّقاء بقوله:

- أنا شخص شغوف جداً بالأبطال والمغامرين. أحرص، دائماً، في كل ما تنشره الدار أن أتابعه شخصياً، وألاّ يكون رتيباً مملاً مكرراً. أدرك، بخبرتي، أنه في حال اهتزاز المجتمعات والقيم، كما يحدث في سوريا الآن، ستكون هناك الكثير من الحكايات التي قد يولد منها روايات. بعد أن قرأت جزءاً من مذكرات الدكتور كمال، مصادفة، أحببتها. تقصّيت عنه في حلب، للحصول على بقية المذكرات. استطعت الحصول على جزء منها، لكنني لم أحظَ

بلقائه. تابعته أيضاً إلى الرياض، ووصلت متأخّراً، كان قد غادرها أيضاً. أخبرني نور أنه انتقل إلى "دبي". اغتنمت فرصة معرض الكتاب في الشارقة، وجئت كي يكتمل المشروع.

بادر يوسف، الشغوف بالكلام، بالحديث عن شخصية كمال:

- بالأساس، شخصيته متوترة كسطح الماء، فهو دائم التوتر، ربما بسبب نقص أحد الروابط الكيميائية، وهذا التوتر خلق عنده، منذ الصغر تمرداً على قيم المجتمع ومفاهيمه. تم تقليم هذا التوتر وتشذيبه بالعلم والمعرفة فخُلقت هذه الشخصية التي نتحدث عنها. سطح الماء - يا أستاذ شهم- فيه بعض الروابط الكيميائية غير مغلقة، لذلك دائماً تنزع جزيئاته نحو التحرر، وهذا حاله، فقد ولد ثائراً حراً.

شرد يوسف قليلاً ، ثم قال:

- آخر ماأعرفه عنه أنه يدير مركزاً للأبحاث في تركيا.

شخصت عينا يوسف لحظةً، وبدا كمن تذكّر شيئاً مهمّاً. فرك إبهامه بأصبعه الوسطى، ماأحدث فرقعةً:

- قبيل مغادرته الإمارات، دفع إليّ بظرف سميك مغلق، أوصاني بقراءته على مهل، حين أجد الفرصة لذلك، ثم أعطيه لمن يسأل عنه. نعم ..لاشك أنه هو ... كيف غاب عن ذهني؟ وضعت الظرف فوق الخزانة، ولم أفطن إليه سوى الآن.

ابتسم شهم وقال:

- افتح الظرف. إن وجدت فيه أوراقاً تتعلّق بمذكرات اعتقال، فهذا يعني أنني المقصود.

***

الخروج من الكهف

ينتقل كمال من عالم إلى عالم.

حلب، "جورة الهم" كما يصفها كثيرون، ذلك المكان الذي ولد فيه وألفه. خَبِر مكامن الفرح فيه، كما كابد ثغور الحزن والألم. هناك الأهل والأصدقاء. روائح الغار. الأوابد الشاهدة على العصر.

أما الرياض، بحرّها وجفافها، فقد كانت عالماً آخر. عالم رحب بعادات مختلفة.

تُشيع الفئة الحاكمة في سوريا أنها رائدة التقدّم والانفتاح، ومعقل الحريّة، وأن دول الخليج مجرّد بدو.

مالاحظه كمال أن خدمة المواطن، والتطوّر العمراني، والعناية بالطرقات، والمواصلات، والتقنيّة، ومستوى معيشة الفرد، في دول الخليج تفوق مئة مرة ماتدّعي الفئة الحاكمة في سوريا أنّها وفّرته.

كما أن الحرية المتوافرة في صالونات ومنتديات السعودية، وفي تناول الموضوعات ومناقشتها بلا رقيب، جعلته يقول: فعلاً هم بدو لكننا نحن في سوريا مابدينا. حتى أن طقوس الأماسي فيها مختلفة.

في سوريا أي تجمّع أو منتدى يحتاج إلى موافقات أمنيّة، ثم يُستدعى الحاضرون عند أي هفوة يُعتقد أنها تخترق سقف الوطن، والسقف يعني الحدود التي يرسمها الأمن. هذا لايعني أن الحرية متوافرة في الدول الأخرى، بشكل مطلق، غير أن التضييق لايمتلك الفجاجة نفسها. والتقتير فيها لايصل إلى التسييس حتى القبح.

في حلب كتب كمال دعوة لحضور أمسية له في اتحاد الكتّاب، وذيّلها بعبارة جاذبة: يتبع الأمسية حفلة شاي، مع ملاحظة: كلٌّ على حسابه. أما حمص، فقد أرسى الشاعر ممدوح سكاف، رئيس فرع الاتحاد هناك، عادة تقديم الشاي، مجاناً للحاضرين.

هنا، في الرياض، الأمر مختلف تماماً. عقب كل أمسية أو محاضرة أو لقاء، يكون العشاء، في مائدة مفتوحة، واجباً للحاضرين جميعاً. اللقاءات تتم في فيلّات فخمة. تُقدّم

مشروبات القهوة والشاي والتمر، أثناء الأمسية، وسط بخور يلفح المكان، وحين تنتهي الأمسية يكون العشاء.

كان هناك شخص من السودان يتتبع أخبار المحاضرات. لديه دفتر مذكرات صغير، يدوّن فيه أيام استضافة الصالونات. هناك صالونات ثقافية خاصّة عريقة لديها لقاء كل يوم ثلاثاء، بعضها الأربعاء، وهكذا طوال أيام الأسبوع. عندما يقرب انتهاء موعد الأمسية، يخرج السوداني إلى الحديقة، يتّصل بأخيه الذي لايحب حضور الأمسيات، لكنّه لايتأخّر وقت العشاء. اللقاء الثقافي الوحيد الذي يتخلّف عنه السوداني، هو لقاءات المركز الثقافي الحكومي، حيث لايكون هناك عشاء، بل مجرد (بوفيه) يضّم الكاتو والبيتزا وأنواع السندويش صغيرة الحجم، وبعض العصائر.

حلب حيث همس رئيس فرع الاتحاد، عبدو محمد، بأذن كمال بأنه مدعو إلى العشاء، هو وصديقه لؤي المحاضر الدمشقي فقط، كي لايكون هناك إحراج بقدوم آخرين. أما عندما شارك كمال في ندوة استمرت ثلاثة أيام، في مكتبة الأسد، شارك فيها حسن نصر الله، بدعوة من المستشارية الإيرانية في دمشق، دمشق التي هي في سوريا أيضاً، لكن الداعي مختلف، ويعرف ماذا يريد.

هناك، بعد انتهاء كل يوم كان يدعى جميع الحضور، وهم بالمئات، إلى العشاء، في مطعم كبير، قرب مبنى اتحاد الكتاب العرب في اوتستراد المزة. المدرّجات الخلفيّة تكون مكتظة بمئات اليافعات الملفعات بالسواد، ماإن تنتهي الندوة حتى يخرجن من باب المكتبة، فتتطاير الجلاليب، والجينز يرقص بين الأرداف، باتّجاه الحافلات التي تنقلهن إلى المطعم.

أما عالم الإمارات فقد كان نقلة أخرى، تمّ خلالها التعرّف على استخدام التقنيات الحديثة في التنقلات والمولات وفي طرائق العيش. اختفى السواد والنقاب هنا، لتظهر بدلاً منه آخر تقليعات الموضة الحديثة. نادراً مايظهر الإماراتي في بلده. دبي أمم متحدة يغلب عليها وجود الهنود والآسيويين. تنقسم الامارات إلى قسمين: العاملين والسائحين. مرسى دبي(المارينا) وجبل علي وبرج دبي عالم من حلم. غير أن كمال، أول وصوله إلى دبي أقام في منطقة الرقة. هناك، على طول الطرق تجد الفتيات يعرضن أنفسهن على المارة، ولكل جنسية تسعيرة. وهناك أيضاً مؤسسة سلطان العويس الثقافية القائمة فوق مقهى غرانو الذي ألفه كمال، يتناول فيه، مساء كلّ يوم، فنجان إسبريسو، لجماً للحنين الذي يعتريه نحو شارع بارون

ومقهى الثقافة الذي يجمع الأصدقاء. هنا، قلّما يلتقي بالأصدقاء، العمل متواصل لايرحم، ولابدّ من متابعته والتمسّك به، لمواجهة الغلاء. المرء في الإمارات إما أن يلزم البيت، أو أن يكون عاملاً في الصباح، وسائحاً في المساء. غرانو كان قريباً ومناسباً وغير مكلف. موقعه يتيح لكمال أن يتأمل العابرين، ويصادف بعض الأدباء الذين يرودون المؤسسة الثقافية التي تعتلي المقهى، في باب مشترك بينهما.

بعد فترة انتقل إلى الشارقة لتخفيف كلفة السكن، فتصادف سكنه قرب المركز الثقافي العربي، فغدا من روّاده أوّلاً، ثم أصبح من المشاركين في نشاطاته.

ضاق به السكن فانتقل إلى مكان أوسع، على الضفة الأخرى من البحيرة، فغدا المقهى الشعبي ملاذه شبه اليومي برفقة أصدقائه المهجّرين. اللقاءات خففت عبء الغربة، وحفلت بالأحاديث المفيدة الماتعة.

التنقل بين الشارقة حيث الإقامة، ودبي حيث العمل، كان يوميّاً، وسط زحام لايطاق. المدّة التي يستغرقها التنقّل صباحاً ووقت الانصراف قبل المغرب، كانت بين ساعة ونصف وساعتين، بينما لاتستغرق في

المساء أكثر من خمس عشرة دقيقة. هذه المسافة، في هذا الزمن القصير، كانت يجرّبها مطلع كلّ أسبوع، حيث يشارك في لقاء السبت، وهو لقاء ينظّمه السوريون في فندق "جلوريا الياسات"، يتبادلون فيه الرأي حول الوضع السوري، وتقام فيه محاضرة، أو ندوة، أو عرض فيلم يتبعه حوار.

جامع النور بالقرب من سكنه كان كفيلاً وحده بإحداث ثورة، على كذب الحكومات السوريّة، بروعة تصميمه العمراني على الطراز العثماني المشهور بكثرة قبابه، وبألوانه المتحوّلة ليلاً، فيتّخذ أشكالاً بديعة تبعاً لألوان الأضواء المسلّطة عليه، وتبعاً لأماكن إشعاعها.

الانتقال من حلب إلى الرياض إلى الإمارات، أعاد إلى ذاكرته نظرية الكهف التي أوردها أفلاطون على لسان سقراط. الناس في سوريا يعيشون مقيّدين في كهف، ولايدركون أن هناك شمساً في الخارج. ولن يصدقوا من يحدّثهم عن وجود الشمس ماداموا قابعين مستكينين في قيودهم.

تصوّروا فاجعة دهشة كمال عندما رأى ناطور البناء في دبي ينظّف منفضة السجائر بمحارم ورقية. علبة المحارم في

سوريا كانت مقدّسة. يتطلّب الحصول عليها أن يكون لديك جواز سفر أحد معارفك غير السوريين، لتشتريها من المنطقة الحرّة.

المحلّق في حلب، بالرغم من سوء سمعته، كان الملاذ الوحيد الذي يتنفّس فيه الحلبيون في عطلة الأسبوع.

أمّا هنا، كثيراً ما كان يجلس على ضفاف الكورنيش، أمام بحيرة خالد المحاذية للمجاز متأمّلاً. مساحة خضراء ممتدة، تعانق مياه البحيرة التي تتوسطها نافورة ضخمة، فضلاً عن النوافير الموسيقية التي تنطلق ليلاً بتداخل بديع بين ألوان الأضواء والموسيقى المتنوعة. يعود بذاكرته إلى الماضي الأسود الذي كان يعانيه، وتوقه للانعتاق الذي لم تحققه سوى الثورة.

كان يدرك أن شمس المعرفة في الدول العربية ليست كتلك في أوروربا، لكنّ الرّمد أخفّ من العمى.

قناة القصباء، التي تربط بين بحيرتي خالد والخان، حكاية أخرى تجلو صدأ الروح، فهناك مقرّ اتحاد الكتاب، يروده كلّ ثلاثاء، وبعد عدّة مشاركات غدا عضواً فيه، وهناك كوّن صداقات وهبته نسائم الوطن، ومنحته القوة للتواصل مع

هموم أصدقائه، هنا، وفي الرياض، وفي سوريا، وفي تركيا التي يصله منها نور ينبيء باندحار الظلام.

..

كان بين فينة وأخرى يتذكّر الحوار الذي دار مع ناطور المبنى الهندي، ويتحسّر على ماآلت إليه الأحوال في سوريا.

كان اسمه"أكبر". أول ماصادفه سأله: - أين مقر البريد في الشارقة؟

- والله مافي معلوم. أنت يسأل بريد تودّي رسالة سوريا؟ مسكين نفرات سوريا كلّه مشكلة..خرب ..خرب.. كلّه يكتل بعض..بممم..بممم..تفجيرات كتير. ليش رئيس خارب نفرات؟ *

- الشرح يطول ياصديقي. كثرة الكلام لاتفيد.

- صحيح. مايسوي زيادة قرقر.. صغير كلام مزبوت

-

- كل دول العالم تكاتفت ضد الشعب السوري لأنه طالب بالحرية

* لاأعلم. هل تريد إرسال رسالة إلى سوريا؟ السوريون مساكين لديهم حرب. الناس تقتل بعضها. وتفجيرات. لماذا الرئيس يحارب الشعب؟

- نفرات شيف زيادة.. بعدين لحم يجي خراب. سيم سيم خاكم خراب**

- لماذا أنت هنا ولست في بلدك؟

- أنا نفر مسكين يبغى أكل ماما بابا أختي أخو كله مافيه فلوس بعدين هو فين روح.

- لاعليك. اعتبرني أخ حين يلزمك شيء

- انا فيه زعل كتير، كل نفر كلام هندي مافيه كويس، هندي كثير قلب نظيف. أنا أمنية سوري يسوي تسفير حكومة يشيل ظلم. انت نفر ميه باميه ان شاء الله في سوي تواصل سوا سوا هنا.

** كثرة الطباخين تفسد الطعام. الحكام متشابهون في السوء.

2013

الريحانيّة

لجين في طريقها إلى الريحانية. السيارة تجتاز مساحات خضراء شاسعة. الحقول المزروعة بالفستق والزيتون. الأشجار المترامية على الجانبين. في تلك اللحظة تتلاحق صور مشاهداتها في حلب أمام عينيها: سيارة أمن دهست عجوزاً في الجميلية، بلا مبالاة، وتابعت سيرها بسرعة جنونية. عسكريان يضبطان محمولها وهي تصوّر الخراب في طلعة البنوك باتّجاه الجامع الكبير والقلعة. الشاب الذي أدموه من الضرب بأخمصات بنادقهم، في كراج الباصات، وسط جموع وقفت تتفرج بأسى، ولم يجرؤ أحد سواها على التدخل لتصيح: حرام.. اتركوه.. سيموت بين أيديكم. مشاهد الناس في الأشرفية مصطفين منتظرين ربطات الخبز التي توزّع عليهم. الطفل الذي يبيع المحارم على مدخل الجامعة، وحين ألحّ على الرجل الموشّح بالعقال، أن يشتري

منه، مدّ الرجل يده إلى شباك سيارته البيك آب..أخرج مسدسه وأرداه قتيلاً، ومضى. مرورها اليومي على الحاجز القريب من الأمن الجوي في طريقها إلى الصالة الرياضة، وتغزّل رجال الحاجز بها بشكل فجّ وقميء. أصوات القصف تملأ أذنيها.. الرعب في عيون أطفالها. صور الدمار التي تتلاحق أمامها وهي تجوب شوارع حلب القديمة.. عاصمة الثقافة الإسلامية.. أقدم مدينة مأهولة في التاريخ. يدهشها، الآن، وهي في طريقها إلى مغادرة المدينة.. يدهشها أنها كانت تعيش هناك.. وتحتمل.

في التاسعة صباحاً كانت خالتها باستقبالهم عند مدخل الريحانية. استسلم الأولاد للنوم في الغرفة الواسعة، بعد أن غابت عنهم أصوات القذائف ورهاب البراميل المتفجرة. جلست لجين تستفسر من خالتها عن أهم متاجر الألبسة، والعطور، وعن مصففة شعر متميّزة . دوّنت العناوين، ثم دخلت الحمّام على عجل. لاتريد أن تتأخر عليه. ثلاثة أرباع الساعة أتمّت خلالها تنظيف جسمها كما يجب، ونقعته بروائح عطرة. بيّضت بشرتها بالكريم، وغطّت الأماكن الداكنة، بطبقة ناعمة معطّرة منه. قلّمت أظافرها. كانت تعمل بنشاط وهي تفكّر كيف ستفاجئه على باب غرفته في فندق علي. دخلت محل ستايل جيم للألبسة.

بعد ساعة ونصف استغرقتها في تجريب الفساتين، والثياب الداخلية، وقع اختيارها على طقم جلدي أخضر عشبي ناعم، تكشف سترته جزءاً من الصدر، وترسم التنورة، الضيّقة المفتوحة من الجانبين، تضاريس الوركين. واختارت قميص النوم الأبيض المحلّى بالدانتيل، تحته حمالة صدر رفيعة ورديّة اللون، يتبعها سروال داخلي رفيع شفاف. الحذاء ذو الكعب العالي كان، كالحقيبة، من جلد النمر المائل للون الذهبي، صناعة إيطالية. العطر الفرنسي من نوع فانيللا الفاخر، ذي الرائحة المريحة الدافئة للشتاء. دفعت مبلغاً كبيراً من المال، وهي تعطي العنوان للبائعة التي تكفّلت بتوصيل المشتريات إلى البيت. دلفت إلى صالون اونور وتركت للمصفف اختيار التسريحة التي تناسب لون عينيها العسليتين، وأوصته الاهتمام بمكياجها. التسريحة الملكيّة، مع صباغة الشعر باللون الأشقر الفاتح، وتظليل الأجفان بألوان قوس قزح، مع أحمر شفاه قرمزي يفضّله سراب، وتقليم الحاجبين، كلّ ذلك استغرق ثلاث ساعات. الوقت يمضي سريعاً وهي تلهث باحثةً عن محلّ متخصّص في الساعات الرجاليّة، لتقدّمها هديّة له. حين اتّصلت بخالتها، نصحتها باقتناء ساعة من محل ماكس. انتقت ساعة سويسرية من ماركة رادو دفعت ثمنها ألف وخمسمئة دولار. حين وصلت إلى بيت خالتها كانت

الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر. فوجئت خالتها، كما أولادها، بالمظهر الجديد لأمهم التي بدت في غاية الأناقة. وضعت قرطها الذهبي الطويل. زيّنت جيدها بطوق الألماس البرّاق. ملأت ثلاثة من أناملها بالخواتم المنتقاة بعناية. قبل الخامسة، كانت في كامل لباسها وزينتها متهيئة للانطلاق. استقلت سيارة أجرة: Ali Otel lütfen (فندق علي من فضلك). في الطريق إليه، كانت تتخيّل ردّة فعله وهو يراها بتصفيفة شعرها الملكية، وأحمر الشفاه القرمزي الذي يحبّه. ثم كيف ستكون ردّة فعله عندما تنضو عنها ثيابها الخارجية، وهي تقدّم له ساعة رادو الأنيقة غالية الثمن. لاشك أنّه سيقف مذهولاً وهي تضع الساعة في معصمه وهو يتفرّس أناقتها في ثيابها الداخلية، واقفةً أمامه عروساً مصطفاة، تلتقي حبيبها بروح شفّافة يسكرها اللقاء بعد الغياب. وصلت السيارة إلى شارع أتاتورك، لاح الفندق أمامها. لفتت نظر العابرين وهي تتجه نحو استعلامات الفندق: Serap Tarrab odası lütfen (رقم غرفة سراب طراب لو سمحت). يبحث عامل الفندق في جهاز الكومبيوتر. يرمقها بنظرة خاطفة كئيبة وهو يقول: Bayan, sana özür dilerim. Bay Sarab odasını uzattı ve bu sabah otelden ayrıldı (سيدتي أعتذر منك. السيد سراب سلّم غرفته وغادر الفندق صباح

اليوم). فقدت توازنها. غامت الدنيا في عينيها. لم تعد ترى سوى أشباح ضبابيّة أمامها. تهاوت إلى أقرب كرسي. وقف عامل الفندق مشدوهاً مما يحدث. أخرجت محرمة ورقيّة من حقيبتها. مسحت تحت عينيها. قبل أن تعيد المنديل إلى حقيبتها، رأته مبلّلاً بألون مختلطة يغلب عليها السواد. تبتسم بخيبة: لماذا سأقوم بتعديل المكياج؟ ماالفائدة من مظهري مادام ليس هنا. حين استجمعت أنفاسها، فتحت هاتفها المحمول. اتّصلت به: خارج التغطية. فكّرت دقيقة. بمن تتصل؟ لاتجرؤ على سؤال أحد عنه. سينكشف أمرها. كتبت له رسالة عبر المسينجر: حبيبي. أنا في الفندق بانتظارك. أحببت أن أفاجئك بحضوري، ولم أجدك. أين أنت. انتظرتْ دقائق. لامؤشّر على أنه قرأ الرسالة. جرّت ذيول الخيبة وهي تغادر الفندق. اختارت زاوية ميّتة في مقهى مجاور. احتست فنجاناً كبيراً من القهوة التركية، من دون سكّر. راحت تعبث بجوّالها مذهولة من غير تركيز. زخّات المطر في الخارج تدعو الناس إلى الحركة السريعة. بعضهم يتدارى تحت البلاكين الممتدة على طول الرصيف. المقهى يكتظ بالوافدين الذي آثروه محطّة بانتظار وقف الهطول. شيئاً فشيئاً راحت تنقّل نظرها بين الطاولات. ثلاثة في نقاش مستعر. عجوز يحتسي كوباً من الشاي بمفرده وهو يعبث

في جريدة بيده. عاشقان، متماسكي الأيدي فوق الطاولة، يشغلان فترة صمتهما بالقبل. نادل يقف بعيداً وعيناه تجولات بين الزبائن، تحسّباً لأي طلب. أخرجت علبة الساعة التي اشترتها لسراب. تأمّلتها. أبعدتها قليلاً عن ناظريها وتخيّلتها تزيّن معصمه، بل تتزيّن الساعة في يده. أعادتها إلى العلبة. المطر يشتدّ غزارة في الخارج. وصلتها رسالة موبايل. خالتها تطمئنّ عليها. لاتردّ. تراقب الساعة في جوّالها: السادسة والنصف. تصلها رسالة من سراب: أنا انتقلت، تأتي بعدها كلمة مقّطعة الحروف: ن ه ا ئ ي اً إلى اعزاز. أتمنى لكِ الخير. تعاودها نوبة الهيجان. تضع عشر ليرات على الطاولة وتغادر المقهى. تمشي ببطء تحت المطر الغزير وهي تنتحب. الظلام بدأ يحتلّ سماء الريحانية. تصل إلى شارع طويل. ازدحام السيارات يجعل المشاة يتلكّؤون. تقفز إلى رأسها فكرة جنونيّة. تُخرج الساعة من حقيبتها. تخرجها من الصندوق. ترمي الصندوق في حاوية على الرصيف. تلوّح بالساعة على طول يدها وتقذفها بقوّة. تراقبها وهي تتفتت تحت عجلات السيارات المتتابعة. تفتح الخرائط في جوّالها. تضع موقع بيت خالتها، في وضعية انتقال المشاة. تتبع الإرشادات الصوتيّة. تدخل إلى إعدادات الجهاز. تزيل برامج الفيسبوك والتويتر والمسنجر وكل برامج التواصل تباعاً. تنظر في الجوّال : باقي

دقيقتان وتصل إلى وجهتك. رجلاها لم تعودا قادرتين على حملها. الكعب العالي يؤلم قدميها. تترك فردتي الحذاء تغادرانها تباعاً وتواصل السير. المطر الغزير يفسد تسريحتها. حين فتحت خالتها الباب، سارعت إلى الحمام. وضعت رأسها تحت الدوش وفتحت الصنبور لتتلقى الماء البارد وهي بكامل ثيابها. تحاول أن تكتم صوت بكائها. بعد نصف ساعة، تطلب مناشف الحمّام. تخرج. تطلب من ابنها الكبير أن يحضر لها كأساً من الشاي الساخن. تضمّ ابنها الصغير وهي تراقب شاشة التلفاز من غير أن تنتبه إلى مابُثّ فيه. تتساءل: تُرى متى يندمل الجرح العميق الذي واجهها هنا؛ يوم وصولها إلى الريحانية، كان هو اليوم نفسه الذي غادرها فيه سراب إلى إعزاز؟

سراب في اعزاز

وصل سراب إلى اعزاز حين كانت تجري اشتباكات عنيفة بين "داعش" ولواء عاصفة الشمال، أسفرت عن جرحى وقتلى وأسرى بين الطرفين وانتهت بسيطرة داعش. إلا أن لواء التوحيد، الذي كان سراب برفقته، أوقف تقدّم داعش باتّجاه معبر باب السلامة. أصيب سراب في ساقه برصاصة، إصابة سطحية، لم يطل علاجها كثيراً. استمرّ مرابطاً عند قرية السلامة الحدودية، وكان من ضمن الوفد الذي فرضَ هدنةً بالقوة، حارماً داعش من احتلال المعبر. حاول (تنظيم الدولة الإسلامية) داعش تشويه صورة اللواء، ولقّب حجي مارع بحجي كافر. كانت مدينة مارع الخزّان البشري لمقاتلي اللواء الذي كان يقوده عبد القادر الصالح، وقدّمت أكثر من ألف شهيد من أبنائها، خلال المعارك ضد النظام والتنظيم. انشغل لواء التوحيد وباقي الفصائل بمحاربة النظام الذي كان يتقدم باتجاه السفيرة، مسترجعاً

لأول مرة نقاط خسرها في وقت سابق، وهو ما دقّ ناقوس الخطر، وأبعد المواجهة مع داعش أشهراً أخرى.

انشغلت كتائب الثوار بمحاربة قوات النظام، التي جاءت بحملة كبيرة مترافقة مع البراميل المتفجرة، في سعي للوصول الى السفيرة؛ فانتهز داعش الفرصة ورفع لواء "محاربة المفسدين" وهم مجموعة فصائل انتمت للجيش الحر بعد دخوله إلى حلب، ثم بدأت ترتكب مخالفات وأعمال سرقة، بالإضافة الى حفاظهم على جبهاتهم ضد النظام، ومنهم "حسن جزرة" في حي الصاخور، و"أبو الليث" في حي الانذارات وبستان الباشا، و"خالد حياني" في حي "بني زيد".

شهدت تلك الفترة إقبال شبان سوريين على مبايعة التنظيم، بسبب ما رأوه حينها من قيامه باجتثاث شأفة أشخاص من ذوي السمعة السيئة. بدأ التنظيم حملتهُ من حي الانذارات بحلب، وشنّ حملة كبيرة على قائد فصيل "أحفاد المرسلين" المدعو "أبو الليث"، فهرب، وانشق عناصره عنه، وسيطر التنظيم على كل مقرّاته، واغتنم مخازن أسلحته، ثم أكمل طريقهُ باتّجاه حي الصاخور مهاجماً فصيل "غرباء الشام" الذي يتزعمهُ حسن جزرة الذي تمت عملية إعدامه، بعد شهر، في الأتارب.

شهدت الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام 2013 التمدد الأكبر للتنظيم في حلب وريفها، وبويعَ بالمئات، كما سيطر على مخازن أسلحة ثقيلة وخفيفة لكتائب عدة في الجيش الحر.

استشهد قائد لواء التوحيد "عبد القادر الصالح" بعد غارةٍ من طيران النظام على مدرسة المشاة في قرية "المسلمية" حيث كان مجتمعاً مع عدد من قادة الفصائل، من بينهم سراب الذي نجا من تلك المجزرة.

استغل التنظيم حالة الفوضى التي سادت الساحة، واستقلال بعض الكتائب عن اللواء، ونزوح المدنيين مع تقدم جيش النظام شرقي حلب، ليبسط التنظيم سيطرته على أكبر بقعة جغرافية ممكنة، مدعّماً مقرّه الرئيسي عند مشفى الأطفال في حي قاضي عسكر، بمزيد من المقاتلين والأسلحة. إلى أن جاءت المواجهة الكبرى التي وضعت حداً نهائياً له في حلب وريفها مع مطلع العام 2014، بعد تشكيل الجبهة الإسلامية التي انضمّ إليها سراب، ثم كان له دور أساسي في إنشاء تحالف عسكري جديد، يضم عدداً من أبرز التشكيلات المقاتلة في حلب وريفها الغربي، وغدا أساسياً في المجلس العسكري لجيش المجاهدين.

في صبيحة اليوم التالي لإعلان تشكيل "جيش المجاهدين"، تمكّنت تلك الفصائل من طرد مقاتلي التنظيم من بلدة "الأتارب" وأسرت 15 عنصراً منهم، بينهم أمير التنظيم هناك. وسيطرت على مناطق عديدة في ريف حلب الغربي، بالتزامن مع اندلاع اشتباكات في مناطق أخرى من حلب وريف إدلب. اتهم "جيش المجاهدين" في أول بيان له تنظيم داعش بنشر الفتن وزعزعة الأمن في المناطق المحررة. كما اتّهمه بسرقة المعامل وسيارات المدنيين وأرزاقهم، وخطف القادة العسكريين والإعلاميين وقتلهم وتعذيبهم.

...

تولّى سراب التحقيق مع بعض أسرى داعش، فاكتشف وجود ضابط مخابرات اندسّ بين صفوف داعش وأخذ مركزاً قيادياً لديهم. كان هو المسؤول عن عملية إحراق بعض الجثث ورميها في نهر قويق. لم يكن ذلك الاكتشاف بعيداً عن ممارسة التعذيب، لكنّه، في نهاية المطاف، أمر بحلق شعره من الوسط، وتركه بنصف شارب، وحوّله إلى القضاء .

حلب – أيار 2014

المئذنة والكارلتون

تمّ تفجير فندق الكارلتون بحلب. جاءت التحليلات متناقضة، لكنّ الواقعة حدثت. الخبر ورد في الصحافة الالكترونية، على الشكل التالي: قتل 14 عنصراً من القوات النظامية، على الأقل، في تفجير فندق "كارلتون" الأثري في حلب القديمة، نفذته المعارضة السورية. وأشار المرصد السوري لحقوق الإنسان إلى أن القوات النظامية تستخدمه كمركز عسكري. وقال المرصد: "سُمع دويّ انفجار في حلب القديمة، تبين أنه ناتج عن تفجير تمّ من خلال نفق حفرته المعارضة تحت المبنى الذي تتخذه قوات النظام مركزاً لها".

علّق كمال على الخبر في إحدى القنوات الفضائية: الفندق الواقع جنوب القلعة، أحد المعالم العريقة في المدينة

التي تعدّ بمثابة العاصمة الاقتصادية للبلاد. كان الفندق يتألف من 90 غرفة، موزعة بين، مبنى قديم كان خلال القرن التاسع عشر، هو المشفى الوطني، وبناء حديث. التفجير يأتي ضمن عمليات التخريب الممنهجة والمقصودة للمدينة الاثرية في حلب القديمة، وإنهاء أي تواجد أثري فيها، وهذا تتعمده السلطة القائمة. لقد تمركز الجيش في الجامع الأموي، وفي قصر العدل، وفندق الكارلتون، ومبنى السراي. كلها في حلب الأثرية القديمة. تركّز السلطة قواتها هناك وتطلق القذائف تجاه المناطق التي تسيطر عليها المعارضة، غير آبهة بأهمية المباني أو بالمدنيين. فندق الكارلتون جعلته السلطة المركز الرئيسي لغرفة عمليات قوات الأسد في حلب القديمة. لم يكن أمام الثوار سوى نسفه للتخلّص من الجرائم التي تحاك داخله.

سألته المذيعة:

- وكيف تم التفجير؟

أجاب:

- قال لي أبو عيسى الشيخ قائد ألوية صقور الشام أن عملية حفر النفق استغرقت ما يقارب ثلاثة أشهر، استمر العمل فيها على مدار الساعة، وقد بدأ الحفر

من منطقة الجلوم ومرّ من تحت عدة خانات أحدها "المسلاتي" وصولاً إلى فندق الكارلتون، بطول نحو 75 متراً وعمق 10 أمتار. وأنه تم وضع نحو 23 طناً من المتفجرات أسفل المبنى ما أدى إلى نسفه بالكامل وقتل أكثر من مئة عسكري وشبيح من قوات الأسد. والعملية جاءت في إطار معركة "زلزال حلب".

...

حين قصفت مئذنة الجامع الكبير في نيسان (2013)، كان هناك الناشط معن وطفه وقال إن النظام هو من فجّرها، بعد اشتباه بوجود قناص يتمركز فيها. الشباب جمعوا أحجار المئذنة وخبؤها لتبنى من جديد. دار الإفتاء، لما قصفها النظام، كتب كمال في منشور له: "لاتنسوا هدم المكتبة الوطنية". المحبكجية قامت قيامتهم من ذلك المنشور الساخر. كذلك عندما طالب بإنشاء جيش وطني بقيادة موحدة، لم يدعم الفكرة غير أناس ليست لديهم إمكانية. سبعة شهور أخرى مضت والأحداث تتلاحق، والمواقف الدولية متناقضة وهشّة، بينما المدن والمناطق السورية تُدمّر بشكل حثيث. الشهداء بالآلاف..المعتقلون بالآلاف، والنظام في دمشق يبني مزيداً من السجون والمعتقلات.

الفصل الثامن

عنتاب 2015

ظهور الغائب

-1-

حطّت الطائرة في مطار أتاتورك. توجّه شهم إلى تقسيم، حيث سيقام معرض الكتاب العربي. أودع ملفّ الاشتراك، واطمأنّ إلى وصول كتب داره، ثم يراح يتجوّل في اسطنبول. حين وصل إلى أكسراي، شعر بالجوع. مرّ بمشفى الحسكة. لمح رجلاً أليفاً لاينفكّ يكلّم القاصي والداني باللغة العربية، من وراء طاولته أمام مطعم شعبي، وفي يده جريدة عربيّة. سلّم عليه وجلس إلى طاولة قريبة منه. يحاول أن يتذكّر أين رأى الرجل السبعيني قبل الآن. لم يترك له حج بشير فرصة طويلة للحيرة. بادره بالكلام

والاستفسار. عرّفه بنفسه: حج بشير صباغ من حلب، شيخ الصياغ في المدينة.

تذكره شهم من خلال متابعته"مجموعة حج بشير للاحتجاج عالغلط" في الفيسبوك.

بعد أن تناولا الغداء، حصل منه على عنوان كمال في عنتاب.

أخيراً، وبعد رحلات متعدّدة، وصل شهم إلى مكتب كمال في عنتاب.

لهفته بانت في عينيه، وبدا كأنه يعرفه منذ سنوات. كيف لا، وهو الذي عرف عنه أكثر مما يعرفه عنه أقرب أصدقائه.

جلس يحدّثه، بحميمية، كيف عثر على الأوراق الأولى من المذكّرات، ورحلته للبحث عنها.

قطع حديثه حين تذكّر شيئاً، بشكل مفاجئ، وسأل مندهشاً:

– الجسر.. جسر "يشيل سو" الذي عثرت فيه على تلك الأوراق، لم أجده. هل أضعت أنا المكان؟.

ابتسم كمال:

- لا. لم تخطئ المكان. الجسر أزالته البلدية، وغيّرت الكثير من اتجاهات الطرق في الولاية.

تلكّأ شهم برهةً. تفرّس في عيني كمال ثم سأله:

- حتى الآن ماأزال محتاراً، كيف جاءت أوراق المذكّرات إلى ذلك المكان؟ حتى الآن لا أجد تفسيراً لوجودها تحت الشجرة، في منطقة نادراً مايجوبها المشاة.

ابتسم كمال مرّة أخرى:

- صديقي نور هو من وضعها هناك. نور كان يرافقني طوال فترة اعتقالي. كذلك كان يتبعني حيث أسافر. لم يتركني ولاأسبوع واحد. كان يعلم أني أكتب مذكّرات اعتقالي، ويعرف أن النشر في البلاد العربية ليس متاحاً إلاّ بشقّ الأنفس، ومهما يكن الكتاب مهمّاً لايُطبع منه سوى ألف نسخة، وهي مكلفة إن نشرها الكاتب على حسابه. قال لي: أعرف ناشراً مهمّاً، ويقدّر الأعمال المتميّزة، دعني أحاول معه بطريقتي، وتفرّغ أنت لعملك، من غير أن تتقاعس عن إكمال كتابة المذكّرات. كان يراقب تحرّكاتك،

ويتبعك في تنقلاتك وأنت هنا، في عنتاب. عرف أوقات مرورك اليومي على ذلك الجسر، وراح يترقّبك يومياً، وهو يحمل تلك الأوراق. قال لي إنك مررت به غير مرّة، ولم تنتبه إلى وجوده. انتهز فرصة عدم وجود المارة ذلك اليوم. سبقك إلى منتصف الجسر، وضع الأوراق، وأحكم وضع حجر صغير عليها كي لاتتطاير بفعل الريح، وراح ينتظر في آخر الجسر ماالذي سيحدث. حين اطمأنّ إلى أنك التقطتها، غادر مبتهجاً.

فغر شهم فاه وهو يستمع إلى تلك الحكاية العجيبة، وسأل:

- أين نور؟ لم أره في الرياض ولافي الشارقة، كما أن أحداً من معارفك لم يره حتّى الآن.

لملم كمال أوراقاً أمامه. حمل حقيبة يده وهو يقول:

- تفضّل. أدعوك إلى الغداء في مكان ساحر، وهناك نكمل الحديث.

أنهيا الغداء في مطعم دوشلار، حيث الخضرة تحيط بهما، ومع الشاي التركي الفاخر، فتح شهم آلة التسجيل، وطلب مواصلة الحديث.

بقية مذكرات اعتقال حلب

قال شهم: آخر جملة قرأتها لك كانت: هاجت الغرفة وماجت عندما ارتفع صوت قعقعة السلاح في الخارج.

أغمض كمال عينيه. بدأت رجله اليسرى تهتز بعصبيّة:

- إنك تعيدني إلى الزنزانة مرّة أخرى. إلى أقبية حلب في آب عام 2011.

لم أعد أذكر سوى القبر المعتم. كنّا موتى مع وقف التنفيذ. كل كم يوم كانت تعاد جلسات (العلاك) مع الرائد، والتي يريد أن يبرهن لي فيها أنه مثقفّ، ويحاول أن يقنع نفسه، من خلالي، أنه على حق في الدفاع عن السلطة. كنت، دفعاً للألم وجلباً للأمل، كل فترة أُصدر بلاغاً، أقول لأحمد: - سجّل لديك. بلاغ رقم واحد: يعلن مجلس الحكماء عن تشكيل حكومة مؤقتة لإدارة البلاد، ويعود الجيش إلى ثكناته. بلاغ رقم اثنين: تلغى جميع القرارات والمراسم الصادرة بعد 15 آذار 2011. بلاغ رقم ثلاثة: حلّ جميع الأجهزة الأمنية وإسناد مهامها إلى الشرطة المدنية. بلاغ رقم أربعة: يعمل المجلس على الإعداد لانتخابات مجلس الشعب والرئاسة، خلال ثلاثة أشهر من تاريخه. هكذا كنا نقضي بعض الوقت.

سألني أحمد مرّة عن كتاباتي ولماذا كنت أكتب بجرأة، فأخبرته أنني لا أريد أن أتألم. لا أريد معاناة أمراض المسنين. ظننتُ أنني سأغدو شهيداً في ريعان الشباب، وهكذا أكون قد عشت حرّاً، ومتّ حرّاً. لم يخطر في بالي أنني قد أُعتقل وأعاني كلّ هذا العذاب. حكيت له كيف زرت ابراهيم سلقيني في دار الفتوى بصحبة مدير المكتبة الوقفية لنوقف مجزرة على وشك الوقوع في حمص، ونجح الشيخ بمساعيه في وقفها. كما حكيت عن احمد حسون الذي وقف مع المجرم وأهمل العمل على السعي لإخراجي من الاعتقال، بالرغم من أن صلة تربطنا معاً بمناسبات كثيرة، كان يبدي خلالها الودّ.

باقي الوقت في الزنزانة كنّا نقضيه، أحياناً، بثرثرة فارغة.

ذات يوم عنّ على بالنا الغناء. انطلقنا بأغنية حاول تفتكرني، ثم عرّجنا على أغداً ألقاك، فسمعنا صدى ترديد الأغنية من زنزانة رقم 8 أمامنا، بين قرار وجواب، على طريقة التسميع من مآذن حلب قبيل الأذان، بحيث يسلّم المؤذن نظيره ثم يصمت برهة فيستلم منه ليجوّد. كان يوم خميس، وأمنّا غياب الحراس بحيث بدا لنا الباب الخارجي للزنازين مغلقاً، فعلت أصواتنا ونحن نغنّي: يا ناسيني.. فين الوداد والحنّية.. يا ناسيني وانت على بالي وخيالك ما يفارق

عيني.. ريّحني واعطف على حالي، وارحمني من كتر ظنوني، لا عينيّا بيهواها النوم، ولا بخطر على بالك يوم تسأل عني.

عرفنا، فيما بعد، أن حسن سرماني من خان شيخون انضمّ إلى ياسر وعبد الرؤوف في الزنزانة. فُتح الباب فجأة عليهم، ودُهشت أنا وأحمد عندما لمحنا حسن يعبث في سرواله الداخلي. حين انضممت إليهم، بعد أيام، اتّضح لي أنه كان (يفقس) القمل من ثيابه.

كنت قد حفظت رقم بيت أحمد وجعلته يحفظ رقم ابني، فإذا خرج أحدنا قبل الآخر، يُطَمئن الأهل، ويخبرهم بما ينبغي فعله.

ذات يوم، قبل موعد العشاء، استُدعي أحمد خارج الزنزانة، كان خائفاً من موجة تعذيب قادمة، ورجاني أن أدعو له.

بعد قليل عاد. فتح طاقة الزنزانة وقال:

- تم الإفراج عني، فاستأذنت المساعد كي أسلّم عليك.

وعدت وحيداً بعد أن تم الافراج عن أحمد الشيخ عمر بعد خمسة عشر يوماً من اعتقاله.

أجهزة الثريّا

في جلسة التنفس التالية التي سُمح فيها لما يقرب من سبعين معتقلاً أن يتجوّلوا في الساحة المغلقة. تصدّر المكان المساعد أبو صالح وقال بصوت يسمعه الجميع بأن التحقيق معنا قد انتهى، وآن الأوان أن نتكلّم شغل الشباب. ولابد من الكشف، بدافع الفضول الشخصي، عن أربعة أجهزة ثريا كانت بحوزة هذه التنسيقية. طلب من صبري أن يخبره عن مكان الجهاز الأول، فأجابه بمرح من تعوّد على مصارحات مشابهة، كونه (عامل السجن درب حمّام.. طالع داخل) بسبب انتمائه السابق لحزب التحرير:

- سيدي أنا أخدت الجهاز من "أبو فادي"، حكيت فيه مرّة من منطقة هنانو، بعدين عطيتو لأيمن.

أيمن بادر على الفور:

- سيدي أنتو صادرتوه من بيتي مع 300 ألف ليرة ومع صور عرسي.

قال أبو صالح بغضب:

- العمى في عيونكين العمى، إين البقية.

قال أيمن، بخبث:

- هدول هنن سيدي. مع أبو فادي واحد، عطاه لصبري هي تنين والتالت لما صار عندي، الرابع صادرتوه.

لم يستوعب أبو صالح ما قيل. نفث نرجيلته بنزق وبدا أنه يحلّل ماسمع، في حين كتم بعض المعتقلين ضحكاتهم، ووضعوا أيديهم على أفواههم كي لا تظهر الابتسامة الساخرة من عبقرية المساعد.

شعرتُ بضيق شديد، وكي أغيّر الموضوع، اقتربت من المساعد/ مدير السجن، هامساً:

- أريد أن أنتقل إلى غرفة جماعية. سأموت إن بقيت مكاني. جاء الشيخ ووعدنا بإفراج قريب. على الأقل أنتقل إلى جماعية حتى ذلك الوقت.

نظر إليّ بطرف عينه:

- منشوف.

ذلك اليوم أدخلوا المعتقلين إلى زنزاناتهم، وتركوني أنا وياسر وعبد الرؤوف. قال المساعد:

- تعشوا هنا أفضل.

ليلتها طلب عبد الرؤوف بصلة، وطلب ياسر ملحاً. لأول مرة نرى بصلاً وملحاً منذ اعتقالنا.

كان العشاء قطعتي بطاطا مسلوقة وقطعة بندورة واحدة مع رغيفين. راقبتهما وهما يأكلان. لم أستطع أن أمدّ يدي بالرغم من جوعي. الخبز شبه يابس والبطاطا يغلب عليها اللون الأخضر، ربما تكون فاسدة.

***

نور الأمل

عدت إلى الزنزانة وأنا أشعر بالاختناق. لم أعد قادراً على التنفّس. حاولت أن أنام، من دون جدوى. غفوت برهةً فرأيتني في بيت أهلي. أمّي تقدّم لي صحن (اللحمة بالفرن) التي أحبّها. رغيف طازج من الخبز تسبقه رائحته الشهية. حبّات فليفلة خضراء. كنت آكل بنهم والعرق يتصبب من جبيني، كالعادة حين أتناول طعاماً حادّ المذاق. صحوت من غفوتي على نقر الطاقة. فتحت عينيّ فرأيت نور. قمت إليه متلهّفاً والماء يكاد يقطر من سترتي لشدّة الحرّ. سألته والدهشة تستحوذ عليّ:

– كيف جئت إلى هنا؟

– لا عليك. اطمئن سوف ينقلونك إلى الجماعية بعد قليل.

نعم إنّه حارسي، وعرّابي. رأيت طيفه يلوّح لي كي أهدأ، حين كنت في غرفة التحقيق. في وحدتي، هنا، كنت أراه بين الصحو والخدر، يبعث الاطمئنان في نفسي، ويهمس لي بأن حشري في هذا الجبّ لن يطول.

فُتح بابا الزنزانتين المتقابلتين. سمعت صوت جليلاتي من وراء زنزانة قريبة يطلب نقلي إلى زنزانتهم.

كنت أريد الانضمام إلى ياسر لمعرفة ما الذي جرى معهم ومن أخبر عني. أخرجوا حسن ووضعوه مع جليلاتي، ووضعوني مع ياسر وعبد الرؤوف في الزنزانة المقابلة التي تشبه زنزانتي القديمة. الفرق الوحيد أنها تضمّ سواي، ولن أكون وحيداً بعد الآن.

بالرغم من محبتي للصمت، تحدّثت إليهما طويلاً. كنت أجرّب حبالي الصوتية من جديد. سألتهما أسئلة كثيرة، وأصغيت.

عرفت منهما أن ذكر اسمي كان وظيفياً كي يهتم الإعلام بالتنسيقية، كوني شخصاً معروفاً واعتقالي يسبب حرجاً للسلطة. وعن اعتقالهما عرفت أن شخصاً كنيته الشيخ هو الذي استدرجهما إلى دوار الليرمون حيث ألقي القبض عليهما. الشيخ كان قد حضر اجتماع التنسيقية الأخير الذي لم أحضره أنا بعد تخميني أن عمل التنسيقية بات مكشوفاً، وقد يكون أحد المخبرين قد اندسّ بيننا. وهذا ما حصل فعلاً. غير أن تحسّبي لم يأتِ بنتيجة، فها أنذا، معتقلاً، معهم، وان اختلفت الطريقة، والسبب.

في زنزانتي السابقة قبع شخص ثلاثة أيام، وبعد تعذيب متواصل لم يأتِ بنتيجة، تم الإفراج عنه. فقد اكتشفوا أنه أخرس.

جلبوا مكانه شخصاً يرتدي سترة عسكرية مهترئة. كانوا كلّما فتحوا الزنزانة عليه، نرى الطعام الذي يقدّم إليه كما هو لم يمس. الخبز اليابس متراكم على البطانيات. يخرج إلى التحقيق والتعذيب ويعود منه، من غير أن نسمع صوته. حاولنا غير مرّة محادثته من ثقوب الطاقة، لكنه لم يستجب.

بعد خمسة أيام، وفي فسحة التنفّس علمنا أن صديقه وضع له مخدّراً في الشاي وأبلغ عنه. بقي طوال الفترة مخدّراً لا يعرف أين هو، ولا الذي حدث. قال إنه أقرض صديقة ستين ألف ليرة، وبعد عدة مطالبات، كي لا يدفع له، استدرجه وخدّره، وكتب فيه تقريراً بأنه من المنضمين إلى مؤامرة خارجية لتخريب البلد، ثم سلّمه للأمن.

حديث مساجين

-1-

الزنزانة الجديدة تقبع تحت حديقة الباب الرئيسي لمقرّ الأمن. كنا نسمع منها أصوات السيارات وهي قادمة محمّلة بالمعتقلين، كما نسمع، آخر الليل، أصوات اهتزاز أوراق الشجر وهي تتمايل مع الريح، ما يزيدنا وحشةً واغتراباً عن كل أشكال الحياة الحضرية.

كنا ثلاثة، تعاتبنا، وحكى كلّ منا عن ظروف اعتقاله، وما حدث له بعد ذلك. قال ياسر:

- استدرجني أحمد الشيخ عبد الله، وهو من قورقانيا، لديه مكتب عقاري بالحمدانية، كان معنا بالتنسيقية، اعتقله الأمن الجويّ وجنّده ليصبح مخبراً. استدرجني إلى دوار قرطبة، بحجة التنسيق لمظاهرة صلاح الدين المسائية، وكان عناصر الجوية هناك مجهّزين كميناً لي بسيارتَي بيكآب دبل كبين، في كل منهما خمسة

عناصر. بعد أقل من خمس ثواني من وصولي أحاطوا بالسيارة وأخذوني. أخذوا هوية الشيخ وتركوه قائلين له: تعال غداً خذها من مكتب العقيد زهير بيطار. كان معي سيارة سيراتو، مستأجرة، أخذوها، وكان معي بالتابلو 25000 ليرة سجلوها بالأمانات 9000 فقط، ولم يسجلوا البيجاما وبوط الرياضة، أيضاً. عندما أمسكوني سألتهم: مَن؟ قالوا لي: أمن عسكري.

سألته:

- وكيف جاء اسمي إلى المخابرات وهم لا يعلمون شيئاً عني، ولا يعرفني أحمد هذا؟

- أحمد حضر معنا اجتماع تنسيقية بدل أبو الجبنة مرة، فصار يعرف الكل. نحن ذكرنا له الأسماء. وأنت لم تحضر يومها. في أول تحقيقين سألوني عن معن وطفة، وهو كان معتقلاً قبلي، وسألوني عن "عبد الرؤوف ". في التحقيق الثالث جاء اسمك.

وحدّثنا عبد الرؤوف عن اعتقاله:

- حين وصلت إلى مكتبي صباحاً، وجدته محاصراً بعدد كبير من رجال الأمن. اعتقلوني وصادروا كل أجهزة الكومبيوتر الموجودة، كما أجبروني على فتح (الكاصّة) وأخذوا كل الأموال السورية والدولارات وأوراق البورصة وملفّات المتعاملين بالبورصة عندي. كان فيها سبعة ملايين. اقتادوني إلى منزلي مقيّداً بالجنازير. ونحن نصعد درج المبنى، كانت ابنتي شام (14 عاماً) في طريقها إلى المدرسة، تبادلنا النظرات برهة، بدت دهراً، ولم نتكلّم. هي تحمل حقيبتها المدرسيّة وأنا مكبّل بالأغلال. اقتحم البيت عدد كبير من الجنود مدججين بالأسلحة. انتشروا في أرجاء البيت، بأمرة العقيد صالح بسيس والرائد ماهر المحمود. سألَتهم زوجي، المدرّسة بجامعة حلب، عن إذن التفتيش، ففقع العقيد ضحكة ماجنة، في حين كان الجنود يقلبون البيت رأساً على عقب. وحين عرف قائدهم أن لديها حساباً على الفيسبوك، طلب إليها تجهيز نفسها، فقد صارت مطلوبة يضاً. فزوجها أكبر إرهابي بحلب، ومجرم، وعرعوري، وخائن للوطن. يموّل أسلحة، وهي تساعده بالترجمة مع القنوات الاجنبية.

في غرفة النوم وجدوا ثلاث كاميرات، أخذوها وعـدّوها أداة الجريمـة الـتي كانـت تُسـتعمل في المظاهرات. أثناء التفتيش وجدوا جوازات السفر، قلّبها العقيد، وسرّه اكتشاف ختم تركيا عليها. أيضاً عثروا على مسدس مرخّص، أخذوه. استمروا بالعبث في محتويات الخزائن والأدراج، فصرختْ في وجوههم:

- كفّوا، لا يوجد لدينا شيء، عمّ تبحثون؟. لا يوجد غير هذا المسدس وهو مرخّص. وبالنسبة للأموال، تفضل هذا كل ما أملك مبلغ 7000 ليرة سورية.

انتقلوا من غرفة النوم إلى غرفة الأطفال. كان التوأم تيما وكرم (5 سنوات) تحتضنهما أختهما دانة (13 عاماً) كي لا يخافا. استيقظت غريزة الأمومة لدى ردينة، زوجتي، وفقدت أعصابها، فولولت: - لم يمنعكم أحد من التفتيش، لكنني لا أسمح أن تدخل الأسلحة إلى غرفة الأطفال. اتركوا الأسلحة وادخلوا. إلاّ إذا كنتم تخافون من الأطفال. أنهوا تفتيشهم بعد أن قلبوا البيت رأساً على عقب.

طبعاً أنا، تابع عبد الرؤوف، لم أنبس ببنت شفة، فقد هددوني ونحن نصعد المبنى، بأنني إذا تفوّهت بأيّ حرف فإنّهم سيهينونني أمام زوجي وأولادي.

وضعوا عصابة على عينيّ، واقتادوني وزوجي مع سيارتنا، إلى هنا. بعد أخذ وردّ ومشاوير متعدّدة سلّموا السيارة إلى ردينة، لكنّهم احتفظوا بالمبالغ المصادرة. بل إن أديب سلامة، رئيس فرع المخابرات الجوية بحلب، طالبها، سرّاً، بدفع خمسمئة ألف ليفرج عنّي. بالتأكيد، لا يمكن أن نصدّقه، فضلاً عن أننا لم نعد نملك ذلك المبلغ، بعد أن أحرزوا أموالنا وأموال المتعاملين بالبورصة لدينا.

-2-

بعد العشاء،كشف لي عبد الرؤوف وياسر عن جسميهما ليرياني آثار التعذيب الباقية حتى بعد أكثر من شهر على الاعتقال.

لفت نظري أن عبد الرؤوف كانت رجله اليسرى تنتفض كلّ دقيقتين، لا شعورياً، وهو نائم. حين سألته عن سبب ذلك، قال:

- لم يتركوا وسيلة للتعذيب لم يجرّبوها بي. وضعوني أكثر من عشر مرّات على الدولاب، وتوالوا على ضربي بكبل مبروم، كلّما تعب عنصر منهم، استلم آخر تلك المهمة. غبت عن الوعي غير مرّة أثناء التعذيب. ذات مرّة، أنزلني العقيد على" القارص " وهي عبارة عن بورية "أنبوب حديد" يمسكها جلادان من طرفين مثل الشبح، لكن بالعكس، وهي قطعة حديدية ثابتة توضع في القدمين مع قطعة ثانية متحركة، تُلفّ على القدمين وتتسبب بأذية وعذاب لعظام القدم، غير محتملين، وفي تلك الأثناء كان أحدهم يضرب أعلى الرجلين والآخر يصعقني بالكهرباء من أسفلهما.

كان يحكي والدموع محتبسة في عينيه. قال لنا الطبيب ياسر:

- إنها صدمة أثر التعذيب فترة طويلة.

تركّزت أحاديثنا، في الأيام التالية، حول الحريّة. حكيت لهما عن مزرعة الحيوان، وعن رواية 1984، لجورج أورويل، وعن أهم الأفكار الأساسية في الكتابين، وذكرت ما أحفظه مما قاله أورويل: "من خلال الثورة نصبح أنفسنا أكثر وليس أقل". "وفي وقت الخداع العالمي يصبح قول الحقيقة عملاً ثوريّاً".

حكى لنا عبد الرؤوف عن القوقعة لمصطفى خليفة، التي لم أكن قد قرأتها بعد. أذكر أنه حكى عن معاناة المساجين، وعن كيفية اضطرارهم إلى التخلّص من الخبز اليابس عبر البالوعة، قبل وصول التفتيش إليهم. وكيف أجروا عملية جراحية لمريض باستخدام أجزاء الساعة.

بينما حكى لنا ياسر قصة فيلم (Braveheart القلب الشجاع) الذي يصرخ في نهايته البطل، ميل جيبسون، صرخته المدوية: (freedom، حرية).

داهمتنا، عبر فتحات الزنزانة، رائحة بصل يُقلى. يا ألله ما أشهى تلك الرائحة. لأوّل مرّة أدرك أهميّة أن يكون لديك بصل وتتمكن من قليه لتتنسّم عبيره وتنتعش. ثم ما أطيب تذوّقه. مزجه باللعاب ثم مضغه ببطء وتلذّذ.

ضرب كمال جبينه بأصابع يده اليمنى مرّات متعدّدة أحدثت صوتاً وجعلته يغمض عينيه ويتابع:

-تصوّر فداحة أن تصبح البصلة حلماً لدى إنسان. رائحة البصل تعني أن هناك حياة خارج جدران الزنزانة العفنة. تلك الرائحة فتحت شهيتنا على الطعام، ففعلنا ما يمكننا فعله. رحنا نتكلم على أصناف الطعام، وطرائق التحضير، ونتلذّذ بتذكّر نكهاتها. أتينا على أنواع المحاشي والكبب والمقبلات.

عندما غدونا ثلاثة صار الاعتقال أخفّ وطأة عليّ، وبخاصة بعد انتهاء التحقيق، وبعد وعد الشيخ بإفراج قريب.

مرّة أخرى، أراني الإثنان الجروح العميقة والتشققات وآثار الضرب المدمّي على أرجلهما.

كان المحقق قد سألهما أمامي أثناء التحقيق معي: - هل مسّكما أحد بسوء؟ نفيا ذلك. أما الحقيقة فقد ظهرت من آثار الضرب الذي رأيته على جسميهما. لم يكن بإمكانهما سوى النفي حينها، والتصديق على كل ما يقوله الرائد.

في زنزانة بجانب الزنزانة المقابلة لنا كان ياسر معروف، وهو طبيب أيضاً من عينجارة. حين كنا بالحمام، رأيناه أول مرة، كنت أنا وأحمد، وكان حديث الاعتقال، سألنا هامساً مستفسراً عن شيء ما. لم أعره اهتماماً، لأنني أعرف حقارة السجّان، بينما حاول أحمد أن يفهم السؤال، فتلقّى ضرباً مبرّحاً من خيزرانة مبرومة مبللة.

ياسر هذا كان شاباًّ نشطاً حيويّاً. رأيته يمدّ قميصه الداخلي إلى مزلاج الطاقة بحيث يكون الشيّال إلى الأسفل، يحرّكه حتى يعلق بالمزلاج، يشدّه للأعلى فتفتح الطاقة. كان يوحي للسجانين أنه ينشر قميصه على القضبان العليا للزنزانة حتى يجفّ.

همس لي من فتحة الطاقة ذات يوم:

- اليوم جمعة. يوم الجمعة يستنفر عناصر فرع الأمن ويخرجون دوريات لملاحقة المتظاهرين، ولا يبقى هنا سوى المساعد وبضعة عناصر. إنها فرصة مناسبة للهرب. يدّعي أحدنا أنه يعاني من وعكة صحية خطيرة. حين يفتح المساعد الباب نمسكه من رقبته. نكبّله ونأخذ سلاحه، ونهرب. ما رأيك؟ قل: نعم، لنفعلها.

راقت لي الفكرة، لكنّها بلا شكّ جنونية. لقد رأيت 24 صورة من جهاز كومبيوتر اللواء يراقب المكان كلّه من خلال الكاميرات. كما أن وراء كل باب بابٌ ودَرَجٌ وحرّاس. هم يريدون أي ذريعة ليطلقوا علينا النار ويتخلّصوا منا. ابتسمت له من طاقتي:

– اصبر، كلّها بضعة أيام ويتم الإفراج عنا. هذه مخاطرة غير مأمونة العواقب.

العيد في الزنزانة

في أوّل أيّام العيد، دخل المساعد أبو صالح الزنزانة، بكرشه المتدليّة، وبيده ثلاث بيضات، مع ثلاثة أنصاف بندورة، وثلاثة أرغفة أنعشت رائحة طزاجتها جوّ الزنزانة الخانق. وقفت. قلت له:

– أنا ممتنع عن الطعام.

امتقع وجهه كمن تلقّى صفعة مباغتة:

– هذا بدلاً من أن تقول لي كل عام وهنت بخير؟ جلبت لكم الفطور بنفسي.

لم أردّ. تناول منه ياسر الطعام. رمقني المساعد بنظرة حيرى، يتخللها الحقد، قبل أن يخرج.

كنت قد أشعت في فسحة التنفس، أمس، أنني سأمتنع عن الطعام، ودعوت المعتقلين للامتناع أيضاً، لعلّ ذلك يعجّل بالإفراج عنّا. حركة تقديم فطور العيد لم تكن عادية ذلك اليوم. بدا لي أن بعضهم استجاب للدعوة، ثم تراجع بعد أن رأى من المساعد (العين الحمرا).

سمعت المساعد يشتم ويعربد أثناء تجواله بين الزنزانات. ووصل إلى سمعي صوت أيمن:

- لا. سآكل. سآكل.

الخبز طازج، على غير العادة، والبيضة مغرية، لكنني أصررت على عدم تناول الطعام. رجوت شركائي في الزنزانة أن يتركوا حصّتي كما هي. كانا متضامنين معي في الإضراب عن الطعام، لكنّهما تراجعا، بآخر لحظة، فقد كان الفطور مغرياً بعد قضاء ليلة ليلاء في الحديث عن الطعام.

بعد نصف ساعة، حان وقت الخروج إلى المغاسل. نحمل قصعاتنا لنغسلها ونغسل أيدينا وندخل المرحاض ثم نعبّئ القصعة بماء الشرب ونعود. كل ذلك بدقيقتين. خرجنا وبيدي رغيف الخبز ونصف البندورة والبيضة. نضع البقايا، عادة، أمام باب المغاسل قبل أن ندخل. تعمّدت وضع الرغيف ومحتوياته بعناية، ودفعت البيضة لتتدحرج في الممر باتّجاه طاولة استقبال المعتقلين، ليروا أنني لم أتناول الفطور.

وجبة الغداء لم أتناولها أيضاً، وبكل الأحوال، الغداء يكون سقيماً دائماً. برغل أو أرز مخبوص مع قصعة من المرق لا تُعرف له ملامح. فاصوليا بيضاء بحجم قضامة

الأطفال، أو بازلاء غير مطهوة جيّداً. أمّا اللحم فلا سيرة له البتّة.

في طريقنا إلى المغاسل، ظهراً، صادفنا المساعد. لاحظ أنني وضعت رغيف خبز الغداء كما هو. قال لي بغضب:

– ماذا تريد؟

قلت، بهدوء، وثقة، وصوت خفيض:

– وعَدَنا سيادة اللواء، بحضور الشيخ، أن يلبّي طلباتنا بتبديل الملابس الداخلية، والحمام، والشاي. قمّلنا.

قاطعني، غاضباً:

– خلص. خلص. ما بتنعطو وجه.

عاد قبل العشاء، أعطانا ورقة لنكتب الطلبات. أمسك ياسر الورقة وبدأ يكتب: بدل داخلي. حمام مرتين في الأسبوع. فسحة يومية. شاي مع الوجبات. الدواء. ثم أدرجنا الضروريات.

من حيث النتيجة، نعمنا بحمّام مرة واحدة، وفسحة تنفّس واحدة، وشربنا الشاي مرة واحدة، ووصلنا الدواء. ولم تتم الاستجابة لأي طلب آخر.

نافذة سراب

-1-

مضت بضعة ليالي، أخرجوني، بعدها، من الزنزانة. أدخلوني زنزانة رقم (6) وفوجئت أن شريكي فيها كان سراب. شعور متناقض غزاني. حزن على صديقي باحث الآثار العاشق لكل حجرة في وطنه، وفرح بلقائه بعد غياب.

كأننا عدنا إلى لقاءات العاديات في حواراتنا الساخنة، بعد أن ينفضّ الجميع. بالرغم من مقبرة الأحياء التي جمعتنا، تعانقت أفكارنا، حتى أننا حلّقنا خارج القمقم. سبحنا في بحور الحياة وأسئلتها الأبدية التي لا يمكنها أن تعبر إلى رؤوس سجانينا، ولا إلى رأس قائدهم المبجّل.

لست أذكر تماماً المواضيع الكثيرة التي فتحناها على مدى يومين. لكنّ بعضاً منها ما يزال محفوراً في أعماقي.

..

-2-

حفلت محادثاتهما بموضوعات متعدّدة، ومتباعدة، أحياناً. كما انتابها حزن عميق من خلال تذكّر علاقاتهما بالآخرين. بدا سراب أكثر شغفاً بالحديث، فبادر قائلاً:

- مررت بويلات كثيرة منذ افترقنا. اخترت أنت الاستمرار في تنسيق المظاهرات وأعمال الإغاثة، بينما أوغلت أنا بالانخراط في المقاومة المسلّحة. لم أتمكن من تحمّل كل ذلك العنف الذي يحيق بالمتظاهرين السلميين، حيث انفلت عليهم الجيش لمساعدة الأمن والشرطة، بكل الأسلحة التي يمتلكونها. بكل الوحشية التي تدرّبوا عليها. أنتم اعتقلتم منذ شهرين تقريباً، في هذا الوقت تغيّر الكثير. لم يعد الاستمرار بالثورة ممكناً بدون أجهزة اتصال ورصد حديثة. بعت مزرعتي في كفر حمرة، وأمّنت لهم أجهزة اتصال، كما زوّدت الشباب بخمسين عصى كهربائية للدفاع عن النفس، وقناصّة ركّزناها في سيف الدولة لنحمي المنطقة المحررة هناك. التظاهر السلمي غير ممكن وأنت تواجه الرصاص.

كان يتحدّث إليه وعيناه تتفرسان في أرض الزنزانة. رفع نظره إليه، وتابع:

- هذا هو الاعتقال الثالث لي خلال ستة أشهر. كنت سأجنّ لولاها. هل تذكر لجين؟

لم ينتظر منه إجابة. راح يحدّثه عن لقائه الأول بها، في مقصف الجامعة، وكيف تطوّرت الأمور وتسارعت بينهما. لقد استطاعت أن تنقله إلى عالم آخر.

وضع رأسه بين يديه. بدا يفكّر بصوتٍ عالٍ:

- عندما يشعر الناس بأزمة في داخلهم نتيجة محيط رثّ عدائي، يهربون. بعضهم يهرع نحو الطعام ليتناوله بنهم. آخرون ينفّسون عن كربهم باللهاث خلف الصفقات وجمع المال بأي طريقة. الأدباء يعدون بأقلامهم فوق مساحات الورق البيضاء، يكتبون ويكتبون ويكتبون. أما أنا، فيبدو أنني أبحث عن الخلاص من خلال شغفي بالمرأة. هل أنا كذلك؟

التفت إلى كمال ليسأله:

- بما أنك متخصّص في الفلسفة، برأيك هل نحن نبحث عن السعادة فيما نقوم به؟ هل نريد الحرية لنسعد؟ هل نحبّ بحثاً عن السعادة؟ وهل الحب حقيقة أم مجرد وهم؟

ابتسم كمال وقال له:

- الوقت متأخّر والمكان غير مناسب لمناقشة القضايا الكبيرة التي يعاني منها الإنسان في هذا الكون. نحن أبعد ما نكون عن جلجامش وأقرب إلى دون كيشوت. سأحكي لك حكاية ما قبل النوم، ودع هدفك يتركّز حول كيفية الخروج من هذا القبر:

كنت أتمشى في إحدى حدائق صوفيا. لمحت، على أحد الكراسي، قحف رأس فتاة وشعرها الأشقر الناعم يضيء الحديقة. لا شك أنها في غاية الجمال. سيكون مذهلاً لو أنني ضممتها إلى صدري وداعبت شعرها بأناملي، كما يمشّط الريح أشجار الغابات المكتنزة. دفعني الفضول كي أرى وجه فاتنة الشَّعر. دنوت من كرسيها لألتفّ من أمامه وأتملّى حسنها.

حين صار وجهي بوجهها، صُدمت بأنها كلبة مكتنزة، اعتنت بها صاحبتها كطفل مدلل، وداومت على تمشيط شعرها والعناية به.

ذلك الشعور الذي غزاني، هل ينتفي، بعد هذا الاكتشاف؟ لقد انتشيت وغمرتني موجة شاسعة من السعادة وأنا أمتّع ناظريّ بها. كان شعوراً حقيقياً، ولحظة حقيقة، بالرغم من زيف موضوعها.

قال سراب:

- على سيرة الزيف، ياصديقي احترنا، هل نكون مع العلمانيين أم مع الإسلاميين؟ ولماذا لايكون هناك خط ثالث؟ مارأيك أنت؟

ابتسم كمال وقال، مازحاً:

- الجواب يحتاج إلى سيجارة. ثم تابع: الإسلامية والعلمانية مفهومان غامضان لم يتم الاتفاق على معنييهما كمصطلح إذا أُطلق تقفز إلى الذهن خصائص واضحة تدلّ على كلٍّ منهما. فمن هو الإسلامي ومن هو العلماني؟ بل ما معنى الإسلامية وما معنى العلمانية؟ هناك علمانيات بعدد الذين يصنّفون أنفسهم علمانيين، وكذلك هناك إسلاميات بعدد المسلمين. وهذا لا ينفي أن تكون

هناك سمات أساسية للإسلام، حين تتوافر في شخص ما نقول عنه إنه مسلم. أما العلمانية فهي أكثر غموضاً، ويكاد يكون من المستحيل حصرها في سمات محدّدة.

- طيب إذا كانت تعني، ببساطة، فصل الدين عن الدولة؟

-حينذاك نستطيع الوصول إلى نقطة بدء حوار ممكن للتوصّل إلى مشتركات. بين الإسلامية والعلمانية ما هو عامّ مشترك يمكن التوصّل إليه، للتكاتف حول تحقيق الحريّة. أمّا التباينات فيمكن إبقاء باب الاجتهاد فيها مفتوحاً، ويتم بحثه في ظل الحرية المبتغاة. السؤال ليس بسيطاً. هل نقوم بفصل الدين عن الدولة؟ ولكنّ ذلك يعني أن الدين جزء من الدولة، حين بلغ مرحلة إمكانية العيش بمفرده، نقوم بفصل المشيمة. وهذا ما يقال عن العلوم التي انفصلت تباعاً عن أمّها الفلسفة، ولكنّه لا يصحّ في توصيف العلاقة بين الدين والدولة. أما إذا نادينا بفصل الدولة عن الدين، فهذا يعني تبعية الدولة للدين. الدولة التي تتكون من مكان ومواطنين وحكومة، لادين لها. وهذا يعني أنه علينا ضبط مصطلحاتنا فننادي بالفصل بين الدين والدولة. كلّ منهما ينتمي إلى حقل مختلف عن الآخر، ولا رابط بينهما. لقد حاول

الاستبدادان السياسي والديني التكاتف بينهما لإنتاج مجتمع اتكالي يستكين إلى توجيهات شيوخ السلاطين، فيغرق في غيبيات دخيلة على الدين. ليس في الإسلام صكوك للغفران، وليس هناك وسيط بين العبد وربّه.

-وكيف نحلّ مشكلة الهوية؟

- هناك خصائص عامّة يشترك فيها البشر جميعهم، كما أن هناك سمات تميّز مجتمعاً عن آخر، وعائلة عن أخرى، وفرداً عن آخرين. ما ينبغي التركيز عليه هو إلغاء التمايز الديني أو العرقي بين أفراد الشعب الواحد، والاستعاضة عنه بالتمايز الوطني. وهذا لا يعني انفصام الروابط. فمن اتحاد عائلي، إلى تجمع مديني، إلى قومي، إلى روابط دينية وجغرافية وسياسية وإنسانية. وهكذا نجد ترابطاً بين الأديان والأقوام كلها، مما يدل على تكامل الإنسانية والإخاء الطبيعي بين الناس أجمعين. المشتركات كثيرة بين البشر، والاختلافات لا تعني الخلاف. حقوق الإنسان المغيّبة هي محط الاهتمام لاستعادتها، لينعم الإنسان بحريته في وطن حرّ. بالنسبة لي لا أريد وطناً له سيّد. السيادة للمواطن الذي يرفض التابعية.

-طيّب. كيف نفسر: إنْ الحكم إلاّ لله، ونحن نقبل بتشريع وضعي؟ بمعنى آخر: من يحق له وضع دستور البلاد، وكيف يكون شكل الحكم؟

-الحكم غير التشريع. الحكم، هنا، كلمة تعني التوحيد: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ. إن قلنا إن شكل الحكم في الدولة لله وحده، نكون قد خالفنا مشيئته، جلّ جلاله، وذلك لأنه لو شاء لرسم معالم الدولة وبيّن تفاصيلها، لكنّ ذلك يدخل ضمن سياق التسيير. فإذا كان الإنسان مسيّراً غير مخيّر، كيف يثاب ويعاقب إذن؟ ليس صعباً على الله بسط التشريع المقيّد للبشر، لكنّ مشيئته اقتضت وضع خطوط عامّة تبيّن الحق من الباطل، وترك للناس تسيير شؤونهم وفق هداه. ألا تذكر ماورد في القرآن الكريم: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما)، وهذا يعني أن تحكم أنت وفق الهدي الإلهي. (ضع لي خطّين تحت جملة: بما أراكَ الله).

كلّ الدساتير والقوانين التي يضعها البشر ينبغي عليها الالتزام بسنّ ما لا يتعارض مع مقاصد الشريعة. بل تلتزم بثوابت الأديان، وهي ثوابت لا تتعارض مع العقل، وتنشد العدالة بين البشر. بين البشر، وليس بين المؤمنين وحسب.

أزعـم أن إي إسـلامي أو علمـاني أو شـيوعي أو إي انتماء يحمل وإلى أي فكر ينتمي، سيكون متطرّفاً إن عدّ مبادئ الأديان السمحة تعدّياً على حقوق الإنسان، أو تخالف مصلحته. المشكلة يا صديقي هي التغرير بنا. السوريون، كما تعلم، بعيدون عن التطرف بشكل عام. الغرب يعرف أننا لسنا متطرفين، لكنه يريد تسويق السلاح، لذلك يدعم أي نزعة تطرفية آتية من الخارج، وكثيراً ما يصنعها. البسطاء فقط هم من يتورّطون بالتطرف بحثاً عن خلاص. عن دولة إسلامية مزعومة تقيم العدل، وتعيد أمجاد الخلافة. مهمتنا الاشتغال على التوعية، وعلى تبيين المشتركات بين العلماني والإسلامي والمسلم والمسيحي والعربي والكردي... الخ.

-وهل ترى أن الديمقراطية خير مطلق؟ ألا ترى أن الديمقراطية كذبة؟ كل الحكومات تدّعي الديمقراطية وتلتفّ عليها، إما بشراء الأصوات أو بتزويرها، أو بالالتجاء إلى الحصول على أصوات السفهاء. ألم يحكم المجلس الليلي على سقراط بالإعدام؟

-معك حق. لم يجد الإنسان، حتى الآن، أقل سوءاً منها، شكلاً للحكم. لعلّ الديمقراطية التمثيلية أقل وطأة.

– لماذا علينا دائماً تقليد الغرب؟ هل المنتصر هو الذي يحدد تبعية الآخر له؟

– أرى أن مسألة الغالب والمغلوب نفسيّة أكثر منها ماديّة، وتقليد المهزوم للمنتصر صالحة فقط عند من يستكين إلى الهزيمة. أما من يعدّون الهزيمة جولة قابلة للتغيير، هم وحدهم من يستلهم السنن الحسنة، ويستغني عن الأوبئة التي تنتشر في المحيط.

-تعبنا، تعبنا. خرجت من الاعتقال السابق، ونظرت في المرآة، فرأيت صورتي متكسّرة. رأيتني عجوزاً. تمثّلت، تماماً، صورة دوريان غراي. هل نبدو منكفئين نتبع الناس الذين يتحسّرون عمّا سبق ويقولون "كنّا عايشين" أعود وأفكّر: نحن لسنا كالجماهير التي يتحدث عنها عوستاف لوبون، التي تتحرك وفقاً لعواطفها وتندفع لتقبّل الشائعات. الصمود يتطلّب وعياً لاتبعيّة عمياء.

-نعم. الهزيمة شرّ مستطير. الهروب إلى الأمام، باتّجاه الغرب، يشبه الاختباء وراء الماضي. وإذا كان "رسول حمزاتوف" محقّاً حين قال: "إنّ من يُوجِّه رصاصة إلى ماضيه، فإن المستقبل سيطلق عليه ناراً أشد"، فإنني أعتقد، أيضاً، أنّ من يختبئ خلف ماضيه، لن يعثر على مستقبله.

نحن نحتاج إلى خلخلة ماكنّا نفكّر فيه لنعيد البناء من جديد. نحتاج أن نعي مايُحاك لنا وراء الكواليس. العالم اليوم يسير وفقاً لنظرية " عقيدة الصدمة" لنعومي كلاين. هي ترى، بكل بساطة، أن بعض الجهات تفتعل أزمة لتحرّك الناس كالدمى. وهذا يذكّرني بحكاية قديمة من التراث:

كان عجوز يعيش مع زوجته في غرفة واحدة، وكانت زوجته تلحّ عليه أن يوسّع عليهم ببناء غرفة أخرى أو أن ينتقلوا لمنزل أكبر. ومع كثرة الالحاح قرر الزوج أن يُسكت زوجته بطريقته الخاصة، فاشترى بقرة وقسم الغرفة بحاجزٍ بسيط، وضع البقرة خلفه، وعندما سألته الزوجة عن السبب بيّن لها أنه من المتوقع أن يُقطع الحليب من الأسواق، لذا يجب أن يحتاطوا لهذا الأمر. بعد أسبوع اشترى مجموعة من الدجاج، وديكاً، ووضعهم داخل الغرفة وحكى لزوجته عن أخبار مؤكّدة بقرب انقطاع البيض من الأسواق. بعد أيام جاءها بخروف وطيور الحمام. وهكذا امتلأت الغرفة بالحيوانات، وأصبحت الرائحة كريهة، وازدحمت الغرفة، وبالكاد يجدا لهما مكاناً للنوم. عادت الزوجة إلى الشكوى المستمرة، وبدأت تترحّم على تلك الغرفة قبل هذا الازدحام، وهي تنظر بعين الحسرة والغضب

إلى ما آلت إليه أوضاعها، وحاولت إقناع الزوج، بشتى الطرق، لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه، وقالت إنها ستتخلى عن شرب الحليب وأكل اللحوم والبيض مقابل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها. بعد طول إلحاح استجاب الزوج وأفرغ الغرفة، شيئاً فشيئاً، وطارت الزوجة من الفرح، ولهج لسانها بالدعاء للزوج الذي استجاب لطلبها وفرّج عنها.

هسهس الاثنان ضاحكين.

قال سراب:

- والطير يرقص مذبوحاً من الألم.

- يبدو أننا محكومون بسرير بروكوست*، تصبح على إفراج.

***

* تقول الأسطورة الإغريقية أنه كان هناك مجرم وقاطع طريق يدعى "بروكوست" ، كان يصيد الأشخاص ويأمرهم بالنوم على سريره، فإذا كان طول الشخص أقصر من طول السرير يقوم بروكوست بشد ساقيه كي يتناسب مع طول السرير، وإن كان أطول من السرير يقوم بقطع أطرافه ليلائم طول السرير.

حَطَبُ السُلطة

بدأ العرق يتصبب من جبين كمال. أشعل سيجارة. ألقى نظرةً متفحّصة على شهم، وتابع يسرد له الأحداث:

"بعد أيام، عقب الإفطار، جمعنا المساعد، مدير مكتب اللواء، الذي يبدو أقلّ حماقة. وضع كل المحسوبين على التنسيقية في زنزانة جماعية. كنا ثلاثين شخصاً. بدأ يخطب فينا بأنه حطب السلطة، لا قرار له، ولا يد له فيما يحدث، سوى أنه ينفّذ الأوامر بناءً على ما تراه السياسة العليا للدولة. وحسدنا لأننا اضطررنا، خلال فترة السجن، إلى التخلص من آفة التدخين المضرّة بالصحّة. استغرقت خطبته ساعة وهو يعطينا دروساً في الوطنية، وينبّهنا إلى المؤامرة الخارجية، وما شابه ذلك. لم أركّز فيما كان يقوله. كانت عيناي تجولان في المكان. في هذه الغرفة الجماعة.

معرفة مكان المرحاض أهم بكثير من كل ما يمكن أن يتفوّه به حطب السلطة.

الجماعية، التي تبلغ مساحتها اثني عشر متراً مربّعاً، وتضم سبعة وثلاثين معتقلاً، جمعتْ بعض المتفرّقين الذين لم أرهم منذ فترة طويلة. فيها مرحاض ومغسلة ورشاش ماء (دوش). باتت خليّة من الحركة والأحاديث الجانبية. تجمّع كل بضعة أشخاص وتبادلوا المعلومات حول ظروف الاعتقال، وبدأ التخمين باقتراب مواعيد الافراجات، وبخاصّة أن طاقة الجماعية تُركت مفتوحة، إما دلالاً أو حرصاً على مراقبتنا. نوع من تماهي السجّان والسجين بدأ يُلاحظ عند بعضنا من خلال الألفة المتبادلة، بحيث يبدو رضى كل طرف عن دوره في السجن. تماماً كما يألف الفلاح السخرة عند الاقطاعي.

لاحظت بعض الاضطرابات النفسية عند بعض المعتقلين، فرحت أعطي من يحتاج إلى النوم، حبة أتيفان. قال لي ياسر:

- سآخذ ثلاث حبات دفعة واحدة.

شرح لي تفاصيل ما يحدث في جسم الإنسان. أذكر مما قاله: - أشعر بتلبك في المعدة، وشيء يشبه الهذيان

فينقلوني إلى المشفى، وهناك زملائي يخبرونني عما يجري في الخارج، وقد أتمكن من الهرب.

المهم أن أي شيء من ذلك لم يحدث. ولم تفارقني الدهشة من المفارقة العجيبة: نحن في أخطر فروع الأمن في سوريا، الأمن الجوي، ومع ذلك مرّت عليهم أبسط الأمور، إذ جعلتهم يجلبون لي حبوباً مهدّئة تساعد على النوم، وهم أشد حرصاً على تعذيبنا وإقلاق راحتنا.

في هذه الجماعية زال همّ التبوّل، فيمكنني فعل ذلك عند الحاجة، من غير التهيؤ والتحفّز لقرع باب الزنزانة، وطلب الخروج إلى المرحاض. كما صار بالإمكان الاستحمام وغسل الثياب حين نشاء، من غير أن يقف السجّان على باب المرحاض.

هي تسعة أيام فقط قضيناها في الجماعية رقم 2، نادوا على أسماء بعضنا عند فجر اليوم العاشر.

اصطففنا من غير أن تُعصب أعيننا. رحنا نمنّي النفس بالإفراج، آسفين على بقاء من لم يرد اسمه في قائمة المغادرين. كان معي ياسر وغياث وأيمن. أمامي عبد الرؤوف(أبوكرم) الذي بدا محتاراً، إذ استطاعت زوجه جلب بدل ثياب له مقابل رشوة كبيرة، وزاد لديه بنطال، احتار

أين يضعه. أخذته منه ولبسته تحت الكلابيّة. أما عبدو خللو فقد رجاني أن أحاول الحصول له على ذاكرة هاتف كان قد دسّها في خشب باب المرحاض حين اعتقلوه. حاولت كثيراً دونما جدوى، فالباب مهترىء، ويغوص كل مايُدس فيه إلى القعر.

سألني الرائد: - ماسم الشخص الذي توسّط لك عند سيادة العقيد لنجلب لك الدواء؟

قلت: - محمود بادنجكي.

راح يبحث في هاتفه المحمول. اتصل. طلب منه إحضار هويّتي، فوراً.

الفصل التاسع

دمشق – أيلول – 2011

سجن المزّة

كنا ثلاثة عشر معتقلاً مكبّلين بسلسلة حديدية واحدة، حين جرّونا إلى الساحة الخارجية، سمعت أحدهم يقول للرائد ذي العينين الذئبيتين الزرقاوين:

– دعني عليه. لم يكن يسمح لي اللواء بضربه. لقد غاظني.

بدأ السجّان الموشوم بسيف معقوف ينهال على " ميلاجي" باللكم والرفس بكل ما أوتي من عزم، ثم فكّ حزامه وراح يضربه بالترس الحديدي على وجهه حتى نفرت الدماء علينا.

عصبوا أعيننا، وساقونا إلى حافلة سارت بنا ما يقرب من ثلث ساعة. أنزولنا منها ودفعونا بضع درجات إلى الأعلى. تبيّن لنا، فيما بعد، أننا صعدنا إلى طائرة. الأرضية كانت

مغطاة بما بدا لي أنه مسامير مثبّته في القعر. جلسنا على أريكة خشبية.

لم نستوعب متى أقلعت الطائرة، لأن الحرّاس المرافقين استمروا في نكزنا على رؤوسنا بخيزراناتهم، منذ صعدنا الحافلة، وكأنهم ينقرون على التمباني* .

عندما توقّف الضرب بالخيزران، بدأت العصا الكهربائية تنهال على رؤوسنا وأكتافنا، وسط صراخ أحدهم، تبيّن لنا لاحقاً أنه صوت طبيب الأسنان غياث الضللي، الذي كانوا ينتفون لحيته ويطعمونه إياها. طوال الطريق كانوا يوحون إلينا بأن نهايتنا قد اقتربت، وأنهم سيلقون بنا في البحر.

السجّانون يتقافزون وهم يتبارون بدقّ كعوب بساطيرهم في صدور الموقوفين. تصدر عنهم ضحكات خلاعية هستيرية.

روائح عوادم السيارات التي تفوح من أجسادنا تزكم أنفي وأنا أفكّر بأنّ رفقائي غارقين، مثلي، في نوستالجيا* تغلّف أحلامنا.

---

* نوع كبير من النقارات(طبول على شكل آنية) يدق عليها بمضارب من الخشب أو الخيزران.
* مصطلح يستخدم لوصف الحنين إلي الماضي، أصل الكلمة يرجع إلي اللغة اليونانية إذ تشير إلي الألم الذي يعانيه المريض إثر حنينه للعودة لبيته وخوفه من عدم تمكنه من ذلك

نحن الآن في السماء، في قبضة المخابرات الجويّة. أحسّ بفمي ملوحة ماء البحر. أسمع موجَه يزأر ويعوي في آن معاً. لـديّ رهـاب المرتفعـات ولاأتقـن السـباحة. عنـدما رفسـني السـجان ببوطـه العسـكري، شـعرت بـألم شـديد في خصـيتي اليمـنى. الـدم يهـرول في عروقـي صـاعداً ليتجمّـع في رأسـي. بـتّ أتـنفّس بصـعوبة، وأحـسّ بأنفـاس رفـاقي اللاهثـة. أحسست بماء دافيء ينساب بين ساقيّ بنعومة. تحت المقعد الخشبي المستطيل، الذي يجلس عليه المعتقلون أمامي، لمحت من طماشتي غير المحكمة، سواقي رفيعة تسيل باتّجاه كرسيّنا. هم إذن مثلي باتوا غير قادرين على التحكّم بأعصابهم.

حين حطّت الطائرة في مطار المزة العسكري. اصطففنا وأمرونـا بـأن يمسك كلّ منّـا بياقة الـذي أمامه كي نستدلّ على الطريق وسط التكبيل والتطميش.

سمعنا صوت ارتطام جمجمة بسياج حديدي، وشخصاً يسأل:

- ماسمك؟

بصوت متهدّج قال:

- صبري.

وسط تلك البلبة والارتباك الذي أصاب الجنود نتيجة إصابة صبري، حاولوا تسريع عملية الحشر في الزنازين.

من غبائهم وضعونا في زنزانة واحدة، ماجعلنا نتّفق على ماسنقوله في التحقيق. الزنزانة بالكاد تتسع لستة أشخاص، وكان فيها اثنا عشر معتقلاً قبلنا، صرنا خمسة وعشرين شخصاً. المكان لم يكن يتّسع لنا وقوفاً، لهذ اضطررنا إلى التناوب على الوقوف، بحيث كان كل فترة يجلس بعضنا القرفصاء، ثم نتبادل الأدوار. أشياء كثيرة جرت في تلك الزنزانة، لم أعد أذكر الكثير منها. ما لفت نظري هو القمطة التي ربطوا بها صبري الذي أصيب بحاجز حديدي حين دفعه الحارس بعنف. ربطوا له رأسه من أعلى الشعر ولفوا القماش على ذقنه، فلم يعد قادراً على فتح فمه. أما غياث فقد كانت وجنتاه خمريتين بلون الدم بعد أن نتفوا لحيته بعنف.

أول من استُدعي للتحقيق كان عبد الرؤوف. عاد بعد ساعتين، ولم نكد نتعرّف إليه من التشويه الذي أصاب وجهه نتيجة التعذيب. التففنا حوله وسألناه عمّا جرى، وما الذي قاله لهم.

لم نبق في تلك الزنزانة سوى يومين. حين انتبهوا أن تنسيقية واحدة وضعت في زنزانة واحدة، فرّقونا.

نصيبي كان مع عبدو خللو، في زنزانة فيها عسكريان معتقلان. زنزانة منفردة جمعتنا نحن الأربعة. حكى لنا أحدهم، همساً، أنه رقيب متطوّع في الجيش، ويعمل على سيارة تكسي بعد العصر. إنه في مستوصف المطار العسكري في دير الزور، وسبب اعتقاله أن ضابطاً من حلب يخدم هناك، كان يخطط للاستيلاء على المطار هو وبعض زملائه. الرقيب اعتقل لأنه، حين مر الضابط بالمستوصف دعاه إلى شرب فنجان شاي. حين كُشف أمر الضابط اعتقلوا هذا الرقيب ليعرفوا مدى صلته بالتخطيط للاستيلاء على المطار. هو وزميله بالاعتقال منذ شهرين، ولم يتم استدعائهما للتحقيق حتى الآن.

عبدو خللو كان يقضي طوال الوقت واقفاً. يريد أن يصاب بالإرهاق كي لايحسّ بآلام التعذيب حين يتم استدعاؤه للتحقيق. طوال الأيام الأربعة التي قضيناها هناك، كان ينام واقفاً. حتى الهمس غير مسموح به في تلك الزنزانة. الدخول إلى لمرحاض دقيقة واحدة. من يتأخّر ينهالون عليه بخيزرانة سميكة مدببة الرأس، ومبللة دائماً. زميل الرقيب قال:

– لم أخرج إلى المرحاض منذ اسبوعين، خوفاً من الضرب.

لا يستطيع إنجاز تلك المهمة بدقيقة واحدة، لهذا فضّل الإصابة بإمساك مزمن.

أما الرقيب فقد قال:

- لو استقلّ زبون سيارتي بعد الآن ثم قال لي لن أدفع لك، سأقول له: سامحك الله. لا أريد أن أفعل أي شيء يمكن أن يتسبب باعتقالي.

كنت أول من استُدعوا للتحقيق في تلك الزنزانة. الحارس قال لي، محذّراً، والشرر يتطاير من عينيه:

- أجب على العميد بأدب.

كان يبدو عليّ الإرهاق الشديد. ولم أدرِ مناسبة ذلك التحذير المفاجيء.

قال لي العميد الذي لم أكن أرى من تحت الطمّاشة سوى طاولته الخشبية ورجليه فوقها والخيزرنة بيده يلوّح بها:

- اجلس على الأرض.

جلست، والحيرة تدور برأسي عن سبب استعمال الفصحى في هذا المكان. راح يسألني عن عملي وبيتي وسيارتي وملكيتي، ثم قال:

– بما أنك مرتاح ووضعك جيّد، لماذا إذن تتحدث عن السلبيات في سوريا؟

– مهمتي كصحفي أن أدافع عن حقوق الناس. ليس بالضرورة أن أكون فقيراً كي أكتب عن معاناة الفقراء. أعمل وزوجتي في ثلاثة مجالات كي نفي التزاماتنا. لا يستطيع كل الناس العمل في أكثر من مهنة، وكثيرون منهم عاطلون عن العمل.

رمى باتّجاهي شيئاً حرّك الهواء قرب أذني اليمنى، عرفت أنه زجاجة عندما سمعت صوت ارتطامه بالأرض. رماها وهو يقول:

– أنتم خونة لا تستحون.

أردف بعد صمت قصير:

– ملفك كلّه أمامي. الكتب التي نشرتها كثيرة وهي تدرّ عليك مبالغ طائلة، فلماذا كلّ هذا التذمّر.

حين ذكّرني بالكتب، لا أدري لماذا بدأت الدموع تنهمر من عينيّ. بكيت. شهقت من البكاء حين تذكّرت تاريخي. كل تلك الليالي التي سهرتها في الدراسة والبحث والعمل المتواصل، أفضت بي إلى الجلوس بين يديّ ضابط جاهل، بالكاد حصل على الثانوية العامة والتحق بالجيش،

يحدّثني عن الوطنية، وهو يعلم أنني أعلم أن راتبه لا يكفيه الخبز، وأنه، لا شك يمتلك بيتاً ومزرعةً وأموالاً كثيرة في البنوك، من الفساد الذي فُرض عليه واستمرأه، ماجعله يدافع عن نظام منحه استثناءات سرقة أموال الكادحين، ليعيش.

قال لي:

- نحن لم نمسّك. كفّ عن البكاء وإلاّ أمرت بتعذيبك.

لم أستطع، وقتها، الكفّ عن البكاء. بكيت كطفل أتلفوا لعبته، التي اشتراها من توفير مصروفه القليل، أمام عينيه.

لم يطل مكوثنا في تلك الزنزانة، غير أنّ أثرها ما يزال صداه يتراءى أمام عينيّ.

في الليل كنا نسمع صوت امرأة، وصوت كعب نسائي تأكّدنا منه حين تلصّصنا من عقب الباب. طلبت بطانيّة إضافية نتيجة البرد، قال أحد الحرّاس:

- عطيها.. الغنوجة تستاهل.

في الظهيرة سمعنا أصواتاً دلّتنا على أن الحارس يدسّ الملح في فم أحد المعتقلين، بعنف. قال السجان للمعتقل الثاني:

- إن أعطيته الماء، سأعبّئ فمك بالملح.

بعد ساعة سمعنا صوت تقيؤ شديد. السجّانون يتحاورون عن الاتصال بالإسعاف، ويدور شيء ما عن سجين يُترك باب زنزانته مفتوحاً، عرفنا أنه كان أصغر عضو في القيادة القطرية لحزب البعث.

فتح السجّان طاقة الزنزانة وسأل:

- من هو مؤلف الكتب؟

وقفت. قلت: - أنا.

حتى عندما انتقلنا إلى زنزانة جماعية، كانوا كل بضعة أيام يفتحون الطاقة ويسألون عني.

علمت، فيما بعد، أن السبب هو خبر أذاعته قناة الجزيرة، وانتشر عبر وسائل التواصل أنه تمت تصفيتي تحت التعذيب، وكانوا يؤمرون للتأكّد كي ينفوا الخبر.

في اليوم الرابع طرقت الباب. تلقيّت شتائم من كل نوع، ولكنني أصررت عليهم إخبار العميد

أنني خارج من عملية وأحتاج إلى التبوّل المتكرر. أريد أن يتم نقلي إلى زنزانة جماعية فيها مرحاض.

نقلوني أنا وعبدو إلى زنزانة فوق الطابق الذي كنا فيه. كان فيها أربعون معتقلاً، تعلوها طاقة تشرف على ساحة السجن. سمعنا المساجين يتحدّثون بأصوات عادية، فحذرناهم، بهمس:

– الآن تُعاقبون.

كنّا قد تعوّدنا على زنزانة منفردة لا يُسمح فيها حتى بالهمس. هنا غدت الزنزانة خمس نجوم. المعتقلون يتبادلون الأحاديث بأصوات عادية. الحرّاس يفتحون الطاقة بين حين وآخر. يلقون شتائمهم المعتادة، وينصرفون. أحياناً يحلو لأحدهم الصراخ:

- وجوهكم عالحيط.

يفتح الباب بحذر. يرشق سطل ماء بارد قذر على الأجساد المتراكمة على الجدار. يأمر المعتقلين بملامسة الأرض بأيديهم وهم في ثلاثة أو أربعة صفوف. حارسان آخران يقفان على باب الزنزانة بينما هو يمارس رشاقته بالقفز على الظهور بعنف، ما تسبب في كسر أضلاع بعضهم، وفي التواء أعناق آخرين.

الخفافيش

في تلك الزنزانة كان دور عبدو خللو قبلي في التحقيق. غاب حوالي ساعتين، بينما كان الدعاء والابتهال يعلو من سكّان المهجع.

كانت العادة، كلّما طُلب أحدنا إلى التحقيق، يباشر الباقون بالدعاء له للتخفيف عنه ومنحه الصبر على البلاء.

عندما عاد رأيته وقد فقد ظفر إبهامه، وظفر أصبع قدمه الكبير، بينما انتشر اللون الأزرق القاتم في أنحاء جسده.

في العشاء حدّثني أنهم فتحوا كومبيوتره المحمول وكشفوا ما فيه من صور وأفلام عن بعض مظاهرات حلب، ولهذا تفنّنوا في تعذيبه. بالنسبة لي: لم يكن معي أي شيء حين اعتقلوني. حتى هاتفي المحمول تركته في البيت. مع ذلك، وقبل أن أتمكن من تناول نصف قطعة البطاطا التي قدموها لي على العشاء، استدعوني للتحقيق، مكبلاً، معصوب العينين.

من تحت عصبة العين، وفي ظلام شبه دامس، لمحت بواري الماء التي يستعملونها في التعذيب. كانت ملبّسة بغطاء بلاستيكي أخضر اللون.

وصلني صوت بعيد لطفل يتلقّى التعذيب بقسوة. شيء يشبه الخفافيش تحوم حولي وتكاد تصطدم برأسي. قدّرتُ أنهم يستعملون معي المؤثرات الصوتية ويراقبون ردّة فعلي. كنت ثابتاً مدركاً ألاعيبهم، ورأيت أنه من المناسب أن أحقّق لهم غايتهم لأتجنّب سخطهم، لهذا بدأت بالتظاهر أنني أرتجف رعباً، وأحاول خفض رأسي كلّما دنا صوت الخفافيش من حولي. كأنهم أوقفوني على باب المطبخ، فرائحة الطعام تتوغل في منخري. كنت كلّما أمعنت في الارتجاف وتمثيل الرعب، أسمع هسيس ضحكاتهم، مع حرصهم أن أشعر أنني وحيد في المكان. نصف ساعة أو أكثر قليلاً، بقيت هناك، ثم جرّوني ورموني في الزنزانة بلا أيّ سؤال. كنت حائراً ما الذي سأقوله للمعتقلين الذين تحلّقوا حولي ليعرفوا ما حدث.

...

انتشر بيننا عدوى الكريب، بات نصفنا مريضاً والنصف الآخر يمزّق القمصان الداخلية لصناعة كمادات خفض

الحرارة. تتذكّر في المهجع عناية الأم بأطفالها، فتجد بعضنا يتنقل من مريض إلى آخر ليعيد تبليل القماش وتلفيحه به. طبعاً كانت أجوبة السجانين المتناوبين: لجهنم. بدلاً من عرض المرضى على الأطباء أو إحضار خافض الحرارة لهم.

مازاد الطين بلّة أن عدوى الإصابة بحبة السنة (حبة حلب/ اللاشمانيا) أيضاً انتشرت بعد موجة ارتفاع الحرارة.

بالإضافة إلى تلك العذابات، كان هناك همٌّ آخر اصطنعه بعض المعتقلين.

الهذيان

غصّ حلق كمال بالماء وهو يروي لشهم أيّام الاعتقال. أسند رأسه إلى الجدار وتابع: - لا أريد ولا أستطيع أن أحدّثك عن تفاصيل ما رأيته هناك. سأكتفي بمحطّات أساسية ترد إلى ذهني الآن، وكأنني ما أزال في ذلك الجحر المقيت. استذكار ذلك يعذّبني، ويزيد مقتي لنظام يحكمنا بمنطق العصابات وقوانين المافيا.

شخصٌ في حوالي الأربعين، من داريّا، عرّف عن نفسه بأنه كان في لجنة المصالحات، وتمّ اعتقاله حين كان في اجتماع ضمّ المحافظ لإجراء إحدى المصالحات. اسمه(كذا) الشيخ، ربما محمد. نسيت. يعمل في مجال تعهدات البناء. تضامن مع أربعينيّ آخر، أشقر وشديد البياض، سمين، مصاب بمرض السكّر، من حماه، لديه متجر لبيع الألبسة. تضامنا معاً، وانضمّ إليهما آخرون وبدؤوا بتقريع عبدو(الحلبي) لأن حلب تأخّرت في الانضمام إلى ركب الثورة، أو يعدّونها ماتزال في ركب النظام. أطلقوا على عبدو اسم بكري، الاسم الشائع عن الحلبيين(برأيهم). لم

يجرؤوا على الاقتراب منّي، فتناولوا المسكين وأوغلوا في الاستهزاء به. لم تنفع كل محاولاتي في أن أشرح لهم عن وضع حلب، بدليل أننا بينهم الآن، وأن تأخّر ظهور مظاهرات حلب في الإعلام كان مفيداً، إذ تمكّن الحلبيّون من إيواء العائلات النازحة من حمص وحماة. لم تكن ردّة فعل عبدو خللو(التركماني المقيم في حلب) سوى أنه التزم الصمت، فلم يعد يكلّم أحداً أبداً. حتى أنا لم يعدّ يردّ عليّ. استغرق صمته أكثر من عشرة أيام متواصلة حتى استطعت إقناعه بالعودة إلى طبيعته. كثيراً ماكنت أشعر بضيق الصدر في الليل، لذلك كنت أطلب من محمد الشيخ أن يتلو، بصوت خفيض، سورة الكهف التي يحفظها، وكنت أتجاوز عن الأخطاء التي يقع فيها، على عكس الشاب الذي يتقن القراءة. كان يعمل في وكالة سيارات وأراد أحد مرؤوسيه في العمل التخلّص منه فكتب تقريراً عنه، ورد فيه أنه يملك مسدساً، ويخطّط لاغتيال الرئيس، وصدّقوه. من المعتقلين معنا شخص، كلّما تم الإفراج، أو خروج أحد من تلك الزنزانة كان يبكي. حسب ما قال أن تهمته هي إخفاء بندقيتين لابن الجيران في حديقة منزله. أخذوه ودلّهم على مكان بندقيتي الصيد، لكنّهم لم يفرجوا عنه كما وعدوه. أيضاً جلبوا إلينا محاميان، من السلمية (كذا) ونوس. ألقوا القبض عليه في

قصر العدل بحماه بتهمة الدفاع عن المتظاهرين. جرّوه أمام زملائه ولم يسمحوا له بالتقاط مفاتيحه التي سقطت منه أثناء الاعتقال. كان مصاباً بارتفاع الضغط، ولم يعيروه اهتماماً، بالرغم من طلبه عدة مرات الحصول على حبوب الضغط. ولما كانوا يعطونني حبتي ضغط صباحاً ومساءً، كنت أتناول واحدة وأعطي المحامي الحبة الأخرى لأخفّف عنه. كان يضوج كثيراً. لا أعرف إذا كان منتسباً للحزب الشيوعي، غير أنه كان يصرخ دائماً عندما يسمع أحدنا يقول:

- ياالله مالنا غيرك.

كان يقول:

- لاتنادوا عليه. إنه مسجون تحت في زنزاناتهم، لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلكم.

خفّت حدّة ثورة المحامي مع الأيام وغدا يمارس التمارين الصباحية معي وسط دهشة الشباب الذين كانوا يفسحون لنا الطريق. ويوماً إثر يوم زاد المشاركون في النشاط. المحامي الآخر كان عبد الكريم قاسم من مورك. قال:

- مرّت سيارة عسكرية قرب منزلي يسألون عن شخص، قلت إني لا أعرفه. دعوتهم فشربوا الشاي

عندي، وذهبوا. بعد ساعتين عادوا: ضابط ومعه أربعة جنود، باللباس العسكري وسيارة جيب. حضّرنا لهم الطعام والشاي والمتّة. شكرونا وذهبوا. بعد المغرب عادوا يسألون عن الشخص نفسه، قلت لهم لم أره ولم يمر أحد من هنا، قالوا: اعطنا هويتك لنخبر القسم بأن الشخص غير موجود، وتكون شاهداً على ذلك. أخذوا هويتي ثم دعوني للركوب معهم في السيارة، وجلبوني إلى هنا. بعد أيام وأثناء التحقيق قالوا لي نحن أحضرنا ابنك أيضاً، إما أن تقول ما تعرفه عن العصابات المسلحة أو نقتل ابنك. في التحقيق التالي، سمعت صوت ابني يعذّبونه في الغرفة الأخرى. تألّمْ كثيراً. صوت تعذيبه اخترق أذنيّ، لكنني، بعد ساعات من تعذيبه، لم أعد أسمع صوته، لقد قتلوه.

كان ستيّنيّاً كثير البكاء على فقدان ابنه. كنت أحاول التخفيف عنه ما استطعت. حدّثته عن الأيام الأولى لاعتقالي، وكيف كنت أتوهّم أن شخصاً أعرفه يصرخ تحت التعذيب، وكنت أظنّ أنه على وشك أن يشي بي في أمور لا يعرفها سواه عني في نشاطي ضدّ الطغيان، ثم تبيّن لي أن كل ذلك كان وهماً تحت وطأة وضعي المأسوي. كذلك

أنت تتخيّل أشياء لا وجود لها. ستخرج وستجد ابنك طالب البكالوريا قد نجح ودخل الجامعة فخفف عنك.

أكبر شخص في الغرفة كان دكتور في الاقتصاد، سبعيني، ألقوا القبض عليه وعلى ثلة من أصحابه اليساريين. كانوا مجتمعين في مكتبه بحمص لاتخاذ موقف تجاه الأحداث.

كان يعاني من ضيق في التنفس، حين سألته عن السبب، قال: إنّ أحد العناصر، أثناء التحقيق معه رفسه رفسات متتالية على صدره، فتأذّى قفصه الصدري، ولم يعد قادراً على النوم إلاّ جالساً. بعض الأحيان كان يصلّي، سرّاً مثل بعضنا، لكنّ أسئلته حول الوضوء، وصلاة العيد، تنبئ أنه مستجدٌ في الصلاة. أو ربما أراد فعل كل ماهو ممنوع على المساجين في السجون السورية.

إنّ مجرّد الاشتباه أن أحداً يتوضّأ كان يثير حنق السجّانين، ولديهم عيون من تجار الدخان واللصوص والجمركيين المسجونين معنا. إنّ نوبات الغضب التي تهيّج السجّانين، كانت تعود علينا بحفلات تعذيب جماعية، يفقد كثيرون منا الوعي نتيجتها. وليالي الغضب تلك كنّا نستشفّ منها ما يحدث في الخارج. فيوم يقتل القذافي

يغضبون ويقولون: - لا تظنوا أن قائد التطوير والتحديث مثل القذافي لتتمكنوا منه.

ويوم يبدؤون حفلة التعذيب بالقول: - بَدكن مجلس وطني ياعر(...)، فنعرف أنه تم تشكيل مجلس وطني، ونبتهج بقرب الخلاص.

***

من قتل سارية؟

ممن كان معنا شاب نحيف، بقي بضعة أيام صامتاً لا يفصح عن سبب وجوده. أخرجوه ذات يوم. عاد بعد ساعات حليق اللحية مرتّب الشعر، يرتدي ثياباً نظيفة. حينذاك، خرج عن صمته، وأخبرنا أنه كان في لقاء مع قناة الدنيا. اعترف بأنه هو الذي قتل (سارية) ابن أحمد حسون، بالاتفاق مع عصابة وهابية من السعودية. ثم حلف لنا أغلظ الأيمان، بأنه، في فترة قتل سارية، كان في الأردن ولم يكن في سوريا، وذلك واضح من أختام جواز سفره.

سألته: - ولماذا اعترفت بما لم ترتكبه؟

لم يجبني.

(بالطبع كيف يجيب كمال بغير ابتسامة معبّأة بالمرارة. لقد أمروه بخلع ثيابه كلها والبقاء بالثياب الداخلية فقط، ثم بدأت حفلة الضرب قبل أيّ سؤال. دفعه أحدهم إلى الأرض وربطوا قدميه، وبدأ الضرب بالكرباج، وكان

كلما صرخ زادوه. بعد أن تورمت قدماه تم وضعهما في الماء الساخن، ولم يعد يميز بين القهر والإهانة والألم الشديد. الضرب على القدمين تكرر كثيراً، ولكن ما إن توقفوا حتى طلب منهم العقيد صلبه، فثبتوا يديه بباب حديد، وتم رفعه ليبقى طرف إصبعه ملامساً الأرض، والضرب يأتي من كل الجهات، بالركل أو باليد أو حتى بالكرباج. صراخه لم يأتِ بنتيجة وعندما شعروا بالملل كمموا فمه بلاصق عريض لمنع صوته من الوصول، وأعادوه إلى المهجع. ربطو يديه بقضبان الطاقة، وتركوه حتى الصباح. كانوا يتركونه في النهار في الزنزانة، ويأخذونه في المساء للتعذيب. كل ليلة تحمل أداة وطريقة جديدة في التعذيب، فأصبح الكرباج أثخن فأثخن، ثم نقعوا الكرباج بماء الأسيد، فصار الأسيد لا يفارقه ليأكل لحمه في كل مرة ينزل فيها على جسده. توسّل إليهم قائلاً: قولوا لي بماذا تريدون أن أعترف. حين تيقّنوا من استسلامه الكامل، لقّنوه تفاصيل الاعتراف، وراح يعيدها مرّة بعد مرّة، حتى أتقن حفظها، وغدا متيقّناً بأنه قام بكل مايقوله، وهكذا اعترف بقتل سارية، لكنه لم يستطع أن يخبر أحداً بتفاصيل ماأوصله إلى هذا الاعتراف).

سأل شهمٌ كمالاً، وهو يناوله لفافة تبغ:

- من كان رئيس المهجع؟
- الذي وضعوه رئيساً للمهجع هو شخص عجيب، ثلاثيني، صدره ممتليء بالوشوم، خُطّ عليها: حافظ الأسد للأبد. وعليها صور الثلاثي: حافظ وباسل وبشار، باللونين الأزرق والأخضر. قال إنه يعمل بلّاطاً. حين جاء زوجه المخاض أخذها إلى المشفى وذهب ليستدين ستة آلاف ليرة أجرة التوليد. وهو في الطريق، ألقوا القبض عليه. لايعلم ما الذي حلّ بزوجه، وماذا أنجبت، وهي لاتعلم أين اختفى.

مع مرور الأيام، وجلسات التحقيق المتتابعة، أخبرنا أن تهمته هي سرقة أربعة كيلو غرام من الذهب، كان قد أخفاها عمّه تحت بلاط (قاظان) قازان* الحمام في بيته.

ولشدّ ما اغتظت من هذا المبلّط عندما فتح السجّان الطاقة طالباً شحّاطة، اختار له شحّاطتي الزرقاء التي اشتراها لي ابني من اللاذقية، وها هي قد حصلت على نور الحرية قبلي. عادةً ما يُجرّ المتظاهر، ويُرمى كيفما اتفق في حقيبة السيارة الخلفية، فيفقد حذاءه وحقيبته وقبعته وأي

* نسبة إلى مقاطعة كازان الروسية التي صنعوا فيها مراجل من النحاس لغلي الماء على موقد حطب في الحمامات لتوفير الماء.

شيء غير لصيق به، وعندما يتم الإفراج عنه أو استدعاؤه للتحقيق فإنهم يصادرون ما يحلو لهم من معتقل آخر.

من بين المعتقلين يافع في السابعة عشر، من جوبر، قال إنهم اعتقلوه في كراج دمشق لأنه يبيع الحبوب المخدّرة (سمّاها حبوب الكيف). كانا اثنين، وضعاه في الحافلة، فقال لهما: - انا جائع. قال أحدهم: - هل معك نقود؟ قال: - نعم. فتشوا جيوبه وأخذوا مئتين وخمسين ليرة، جلبوا له ساندويشة، وعلبة دخان. دخّن منها سيجارة واحدة. حين وصل إلى باب سجن المزة، بدؤوا بضربه وشتمه، وأخذوا منه علبة الدخان.

أسرّ لي أنه يتاجر في الحبوب، وأنه يملك ثلاثمئة ألف ليرة سورية وضعها في جيب الأريكة المهترئة. أهله لا يعرفون عنها شيئاً، وهو يخشى أن يبيعوا الأريكة أو يرموها وفيها النقود.

حين هجع الجميع للنوم بانت على ملامحه علائم الندم، وقال لي: - أوصني. قلت له: - احذر النساء والمخدرات ولا تقرب الحرام. فقال لي: - ولكنني متورّط، وراح يحدّثني عن علاقته بجارته، وزوجها الذي يغضّ الطرف مادام يأتيهم كل بضعة أيام بوجبات الطعام والكحول، ولا

يبخل عليهم بالهدايا. نكزته بسبّابتي وقلت له: - حلّ عنّي. اذهب إلى النوم.

لم يكن يأتيني النوم إلاّ قليلاً، فمكاني وسط المعتقلين الذين ينامون في ثلاثة صفوف ليتّسع المكان الضيّق للعدد الكبير، ولا أدري لماذا كلّما هربت منه، أستاذ المدرسة الثلاثيني، يظل يحوم حتى يتمدّد إلى جانبي برائحته الكريهة، التي يزيدها فوحاناً حرصه على نزع السترة الخارجية وبقائه طوال الليل بقميصه الشيّال.

كي أدفع عني عذاب رائحته، كنت أجمع قواي وأوهم نفسي بأنني أشم رائحة كعك العيد أيام زمان وهو يخرج من الفرن، وأستعيد ذكريات الماضي التي لا تبتعد عنا أكثر من ثلاثين عاماً، لكنها تبدو سنوات حاسمة، فقد بدأت الأحداث تتسارع في الثلث الأخير من القرن الماضي، بطريقة لم يكن يتخيّلها أحد. فبتنا – نحن ناشئة القرن الماضي – نحنّ إلى استعادة تفاصيل بقايا البراءة التي كان يتحلّى بها زماننا، ما يجعلنا نستعيد روائح الحارة ومقعد الدراسة وقطعة العشرة قروش وكعك العيد وهو يخرج من الفرن طازجاً كالحياة.

سهري المتواصل جعلني أعرف الكثير عمّن حولي، وأذكر ذلك الخمسيني المتّزن الذي اضطجع على جانبه الأيمن وبدأ يتقرّب، في آخر الليل، بحذر من النائم أمامه. لعلّه كان يجرّب فحولته، بعد كل هذا القهر الذي اعتراه من الاعتقال الطويل، فهو هنا منذ ثلاثة أعوام. فيما عدا تلك الحادثة، لم ألاحظ عليه أيّ تصرّف مشين.

سرّ الرفاهية

أمّا الرجل الغامض الضخم دائم الابتسام، فلم أعرف عنه شيئاً إلى أن عاد مكتئباً ذات مساء. كنّا نلاحظ أن الحارس يستدعيه كل بضعة أيام، قبيل العشاء، ويعود في وقت متأخّر. وما إن يضع رأسه على حذائه حتى يغفو. أما تلك الليلة فقد عاد حزيناً. لفّ ركبتيه بساعديه وراح يحدّق في جدار الغرفة طوال الليل. تخطّيت الأقدام والرؤوس بحذر، ودنوت منه. أفسح لي مجالاً للجلوس. سألته عمّا ألمّ به، وهل بإمكاني مساعدته. تفرّس في وجهي ولم يجب. همست له:

- أين تذهب كل بضعة أيام ثم تعود بعد أن يكون العشاء قد نفد، وتفوتك الوجبة، ومع ذلك تبدو سعيداً، أما اليوم فتبدو على غير العادة، فما السبب؟

لم يكن يتكلّم حين يكون مسروراً، أما والحالة هذه، فقد أدركت أنّ أسئلتي ستحظى بالجواب.

حدّثني عن شيء، لو لم يكن الشيب قد غزا رأسي، فلابد أن يفعل بعد سماعي ما قال. استلطفه أحد معاوني

رئيس الفرع، وجرّبه، فأعجبته قوّته، وقدرته على التحمّل وضبط النفس حتى حصول المراد. كان يقدّم له أفضل أصناف الطعام والكحول والدخان، يوم مناوبته، مقابل الامتلاء بتلك القوّة. لهذا لم يتمّ استجوابه، ولم ينل قسطاً من التعذيب. بل أكثر من ذلك، قال له الضابط مرة:

- وحياة بو سليمان لو أقدر أحطك مكان مرتي وأحط مرتي محلك ما قصّرت. بس بالعكس، ما تفهمني غلط ولك فحل.

وحكى لي عن سبب اكتئابه أن الضابط تمّ نقله إلى الفرقة الرابعة، ولن يراه بعد اليوم، وهذا يعني أنّه سيتم البدء باستجوابه.

تنهّد كمال ولاحظ اتّساع عيني شهم من دهشته، فقال له:

- لن أطيل عليك، لعلّنا نكمل حديثنا في وقت قريب، لكنني سأقول لك شيئاً أخيراً اليوم: كل بضعة أيام كانوا ينادون على بضعة أسماء لتخرج. كانوا يسألون عن مُدد الاعتقال، ما يوحي بأنهم يراعون الأقدمية للإفراج، ولهذا يبدأ التدافع حين تُفتح الطاقة

وفي يد المساعد سجلاّت يدوّن فيها تواريخ ورود المعتقل إلى سجن المزّة. غير أن أحد المساعدين قال:

- لا تفرحوا كثيراً. هؤلاء لا يخرجون. الأفضل أن تبقوا هنا، لأن من يخرج من هنا يذهب إلى تحت أكثر، وليس إلى البيت، فلا تفرحوا كثيراً.

وبالفعل، حين جاء دوري، نقلوني إلى مكان نزلوا بي فيه طابقين تحت الأرض.

دمشق – تشرين الثاني –2011

سجن باب توما

-1-

جعلونا نصطف في الممر معصوبي الأعين. ربطونا في سلسلة واحدة. لم أعرف العدد. ربما كنا حوالي العشرة. ما أعرفه أن المحامي قاسم كان معي، وكان هناك شخص تلقّى ضرباً مبرّحاً لأن كنيته عرعور. لم أعد أذكر كيف تم نقلنا، وكم المسافة أو الوقت. أذكر أنهم نزلوا بنا طابقين تحت الأرض. انتبهت، من تحت العصابة، إلى بلاط مرمري مزخرف.

دُفعنا إلى زنزانة كبيرة فيها مئة شخص. لهذا المكان نظام مختلف عمّا سبقه. الأولوية للمعتقلين تكون، هنا، بحسب العمر، فلهم الزوايا في المهجع، والأدوار الأولى في الاستحمام، ويتم استثناؤهم من العقوبات الجماعية. صادفت هنا محمد الشيخ الذي كان يتزعّم المهجع في باب توما، ويتطاول على عبدو، قد قبع، هنا، في مكان ضيّق،

بينما جاء مكاني بعد الشيخ عبد الأكرم السقّا الإمام في داريا. كذلك كان الأشقر الحموي الذي أبدى ندماً شديداً عمّا فعله مع زوجه قبل الاعتقال. كانت تسائله عن بعض تصرفاته المشينة، ولما لم يكن لديه أي جواب مقنع، صفعها لتصمت، فدعت عليه:

- روح.. الله يسلّط عليك الأقوى منك، لينتقم لي.

وهكذا كان. تمّ اعتقاله لغير ما سبب، تلقّى الكثير من الإهانات والتعذيب الجسدي، ونظراً إلى وزنه الكبير، وإصابته بالسكري، كثيراً ما كان يُغمى عليه حتى أثناء التعذيب الجماعي داخل المهجع.

قيل لنا إن باب توما هو فرع الدراسات، ومن يُعتقل هنا يكون برسم الأمانة، ومعنى ذلك أنه لا يوجد هنا تحقيق أو تعذيب. لكن الذي حدث ينافي تلك الرواية. فبعد أن جاءنا زائر جديد، تم التحقيق معه، فوشى بطبيب شاب كان هنا قبل شهر، فأخرجوه وأذاقوه ألواناً فظيعة من التعذيب، وأمست لديه وجبة يومية من الفَلَقة، لأنهم عرفوا بأنه كان يعمل مع الهلال الأحمر في حمص. كان معنا أيضاً طبيب عيون من الرقة اسمه صالح الجلد يتحدّث، دائماً، عن متلازمة ستوكهولم. وهو مصطلح يطلق على الحالة

النفسية التي تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوّه، أو مع من أساء إليه بشكل من الأشكال، أو يُظهر بعض علامات الولاء له، مثل أن يتعاطف المخطوف مع المختَطِف، والسجين مع السجّان.

في وقت متأخّر من إحدى الليالي، فتح السجّان الطاقة وسأل:

- هل هناك طبيب بينكم.

وقف صالح وقال: - أنا.

قال له: - أنت طبيب طبيب؟

- طبيب عيون.

فقال ممتعضاً: - أنا بسأل عن طبيب بشري يا حيوان، بيفهم بالإنسان.

ثم أغلق الطاقة ومضى. انفجر معظم المساجين بالضحك، هسهسةً.

في آخر المهجع، قرب الحمامات، إلى جانب شاب رجله ملفوفة بالجصّ منذ شهر ونصف، كان معنا شاب ثلاثيني. دنا مني ذات يوم وقال لي:

- إن خرجت أرجو أنو توصل خبر اعتقالي إلى المقاومة الفلسطينية، أنا حفيد الشيخ أحمد ياسين ومعتقل منذ ثلاث سنوات.

ثلاثة من آل زيادة كانوا معتقلين، وقد عُيّن واحدٌ منهم رئيساً للمهجع. أخيراً تمّت الاستجابة إلى رجل سبعيني يعاني من اضطراب في القلب. نقلوه إلى المشفى. عاد بعد أسبوع وقال:

- لا تمرضوا يا جماعة. أنتم في الجنّة.

لقد بدؤوا بصفعه ولكمه وشتمه، منذ خروجه من باب توما، وواصل الأطباء والممرضون تعذيبه طوال فترة إقامته في مشفى تشرين العسكري. لم يكن يُسمح له بالنوم، ويقدّمون له وجبة واحدة من الأرز، وهو مقيّد إلى السرير طوال الوقت، وكل من يدخل إليه ينهال عليه وعلى من معه بالضرب، وفي آخر كل يوم يدخل حارسهم ليسكب على فُرشهم أباريقاً من الماء البارد، ويخرج ليقف على باب الغرفة التي تحوي ستةً من المعتقلين.

أمّا الشاب الشائب ذو التسعة عشر عاماً، فهو عجيبة وحده. هو من حمص. ضبطوا معه أقلاماً فيها كاميرات، ومخططاً لاختراع مبدئي يتمكّن من تفجير

جرّات الغاز عن بعد. وضعوه في زنزانة منفردة مسقوفة بشبك حديدي، وأقفلوا الجرابيع فوقه تسعى وترمي قذاراتها عليه. وخصصوا له ما أسموه ثلاثة حمّامات يومية، يذيقونه، خلالها، كل أنواع التعذيب. شهران ونصف خرج بعدها أشيب الشعر لا يشوبه سواد.

ذلك الجحر المعتم أضيء بأشخاص رائعين مثل "السقا" و"دُمّر" والشاعر (الذي نسيت اسمه الآن). نعم تذكّرت: كنيته البقاعي. نلتفّ حلقات صغيرة، كلّ يوم، وفي كلّ مرة يفتح أحدنا موضوعاً نتناقش فيه، بصوت خفيض. الموضوعات الدينية كانت من اختصاص السقّا، يتحدّث للمتحلّقين حوله عن روح الدين وخلاصته ومراميه، ويجيب عن تساؤلات بعضنا ويحاور آخرين في آرائهم المخالفة لرأيه، ويحاول إقناع الملحدين. بينما تراوحت الموضوعات الفلسفية بيني وبين صالح ودمّر. كان البقاعي يعرفني من قبل، فطلب إليّ أن ألقي عليهم إحدى قصصي، ولكنّ القصص لا تُحفظ كما يحفظ الشعر. وما أعجب منه الآن أنني لخّصت لهم، شفويّاً، إحدى قصصي المنشورة. ومفادها أن مجموعة أدباء كانوا يجتمعون كل أسبوع في نادي ثقافي، يقرؤون الشعر والقصة، ويتبعون القراءة بالنقد. وذات أمسية دخل أحد عناصر الأمن

وطلب من رئيس النادي عدم التدخل في السياسة. في الأسبوع التالي رأينا إعلاناً معلّقاً في صدر القاعة مفاده أن النادي لا يتدخل في السياسة، فطلب الشيخ المعمّم ألاّ نتدخّل في الدين. في الأسبوع الذي يليه طلبت إحدى الفتيات تحاشي ذكر الجنس وكل ما يرمز إليه. آخر، طلب عدم ذكر اللون القرمزي بسوء لأنه يرمز إلى حزبه. حزب آخر طلب تجنّب لون آخر، وهكذا أضاف رئيس النادي على الإعلان: إننا لا نتدخل في السياسة والدين والجنس والألوان. بعد فترة تغيّرت سياسة القائم مقام وصار ينادي بالتطوير والتحديث، فطلب شطب كلمة السياسة من قائمة المنع. ثم توالى الآخرون في طلب حذف ممنوعاتهم، نتيجة التطوّر المطلوب، وكان رئيس النادي، في كل مرة يشطب كلمة من الإعلان، حتى غدا: إننا لا نتدخل. وهكذا كنا نجتمع كلّ أسبوع ولا نتدخل. كنت بعد كل أمسية أخرج إلى العراء وأشتم القائم قام وأتحدّث إلى نفسي بالدين والجنس والألوان. وذات مرّة تأخرت في أمسيتي الخاصة، فلمحت رئيس النادي، ثم رأيت آخرين قادمين إلى العراء ليقيم كلّ منهم أمسيته الخاصّة الحرة، ويشتم كما يشاء.

بعد أن انتهيت، حدّثنا دمّر عن لحظة اعتقاله:

- اقتحمت الدورية باب المكتب. قيّدوني. اتّجه عنصر الأمن نحو الكومبيوتر، سأل الضابط: سيدي مناخد الشاشة ولا الصندوق هاد؟ الذكي يرد ويقول: لا. خود الشاشة لأن عليها المعلومات. أخذوا الشاشة، وخرجنا. أكيد ابن خالتي، صاحب المكتب، لابد أن يكون الآن قد قام بتغيير الجهاز أو مسح المعلومات منه.

على سبيل التغيير اقترحت عليهم أن نحاول تنشيط تفكيرنا من خلال لعبة (من غير كلام). كلهم يعرفونها فقد كانت برنامجاً تلفزيونياً. يفكّر شخص ما باسم سورة أو آية أو اسم أديب أو مخترع أو عنوان كتاب، ويشير بأصابعه على عدد الكلمات، ثم عدد الحروف، ويحاول أن يدلل على الجملة المطلوبة بلغة الإشارة.

هنا، كما في كل الزنزانات، كنت أمارس التمارين الرياضية، وأنتهز فرصة تكتّل المعتقلين في مجموعات صغيرة، انتظاراً للفطور، وأمارس المشي السريع بين المتحلّقين. ففي دمشق غاب تماماً شيء اسمه فسحة التنفّس. غير أن أولئك الأشخاص الذين التقيتهم هنا، ونظام احترام العمر، خففا وطأة السجن كثيراً.

رئيس المهجع، زيادة، كان على مستوى رفيع من الأدب والأخلاق. من طبيعتي معاداة البرد. نصيبنا كان بطانيات، واحدة تحتنا وأخرى نتغطّى بها، غير أن رئيس المهجع، بعد أن يعيد توزيع البطانيات يومياً، يترك لي واحدة إضافية، في حال توافرها. ذلك لأن العدد يتغيّر يومياً، بين الخارجين والوافدين. بيد أن محمد الشيخ، كعادته، هو والحموي البدين، وشامي آخر متشاطر، يخفون بطانيات إضافية أثناء التوزيع، ويخصّون أنفسهم بها. وإذا اتّضح أن هناك نقصاً، أحياناً، بحسب العدد، يضطر رئيس المهجع إلى لمها جميعاً وإعادة توزيعها من جديد.

سكت كمال عن الكلام. ربص أكثر من ستين ثانية. نظر إلى شهم بابتسامة تشوبها سخرية مرّة، ثم زفر قائلاً:

– تصوّر مأساة إنسان يبحث عن بطّانية، في برد الشتاء القارص. الجماعية رقم (2) كبيرة نسبيّاً، طولها ثمانية أمتار، وعرضها خمسة. كنا نُحشر فيها، تسعين شخصاً، يزيدون وينقصون. في صدر الغرفة حمامان صغيران، إلى اليمين، ومرحاضان إلى اليسار. يعلوها شبّاكان مرتفعان تسدّهما أشجار مرتفعة. كنا، في الليالي الساكنة، نسمع أصوات السيارات وأبواقها. مرّة تآمرت كل أبواق السيارات المارّة والمتوقّفة، بما يشبه مظاهرة أو احتجاجاً يقوم به

أصحابها. بعد قليل سمعنا أصوات رشّاشات متتالية، من أسلحة نارية خفيفة. همسنا لبعضنا: يبدو أنه قد قرب الفرج، والثوار وصلوا إلى باب توما في قلب العاصمة دمشق.

سمعنا هرجاً ومرجاً داخل السجن، ويبدو أن العناصر استنفرت لصدّ هجومٍ ما. فرحتنا لم تطل كثيراً. سرعان ما تبادلنا المخاوف. إن الأمن، إذا أحسّ بالخطر، فإن العناصر سيفتحون أبواب الزنازين ويطلقون النار عشوائياً على المعتقلين، انتقاماً، وإخفاءً لما يحدث داخلها.

الساعة كانت حوالي الثانية صباحاً. استمرّ التراشق والترقّب ساعة، ثم هدأ كلّ شيء، وعادت خيبة الأمل، ولذنا، جميعنا، بصمت مطبق.

سجن باب توما كان يختصر الوجبات، فيجمع الغداء مع العشاء ويقدمونه بوقتٍ بينَ بين.

قبيل عشاء اليوم التالي، فُتح باب الجماعية. دفع السجّان، بكل قوّته، امرأة، فوقعت فوق المعتقلين الجالسين وسط الجماعية. بدا صوته واضحاً وسط دهشة جعلت الصمت يخيّم علينا:

- عندك مئة عرص، اختاري أولهم ليركبك، والباقي بالدور. خدي الشيخ بالأول. شقيان. مشتاقتيلو ياشرم(...).

حين أُغلقت الزنزانة، ارتفع النقاب عن وجه شاب في الثلاثين. شارباه أبانا نحافته. تبيّن لنا أنه كان يتوارى عن الأمن بجلابيّة نسائية سوداء، مغربية الطراز. عرفنا أنه من بيت الرز، وطوال إقامته لم يكن السجانين يخاطبونه إلا بصيغة مؤنّثة. صار إحدى لعباتهم اليومية، كما كان شخص، من بيت الديك، لعبتهم، أيضاً. كل صباح ينادون عليه: - قاقي ولك كر، وكان مجبراً على تقليد صوت الدجاجة، فيقوقيء صباحاً ومساءً. المساعد الوحيد الذي لم يعلّق على تخفّي الرز بثياب أنثى هو الملقب لدى المعتقلين (أبو كلسون). حين سألت عن سبب التسمية، قالوا لي لم يره أحدنا ولا مرّة إلا بالكلسون، صيفاً شتاءاً. ومن فتحة قميصه الشيال يلتمع صليب ذهبي. فضلاً عن أنه (يروح)، وشرحها لي بكلمات أخرى:(بياكلو من رفقاتو). وقد أكّد هذا الكلام المساعد المعتقل معنا، وهو من بيت زيدان. قال إنه أوصل خبر اعتقاله إلى قريبه الفنان أيمن زيدان، وأخبره أن الاعتقال ليس سياسياً. لديه مهمة مفتوحة من الضابط الذي يعمل معه بمصادرة أي دراجة

نارية يراها في الطريق. يجمع الدراجات كل اسبوع فيأتي تاجر ويشتريها كلها. ذات مرّة ضبطته دورية يفعل ذلك فاعتقلوه، والضابط تنكّر له، لذلك هو هنا.

هذا المساعد السجين، استلطفني، لسبب لا أعرفه، لذلك كان يسألني عمّا أحتاج، وحين لم أطلب منه شيئاً، راح يتفنّن في تقديم خدمات خاصّة، مستعيناً بزملائه السجّانين. مدّ شريحة من الخبز المعجون، وضع فوقها طبقة من مربى المشمش والجبنة، ثم غطاها بطبقة خبز أخرى، وقدّمها لي قائلاً:

- تفضّل، حلاوة الجبن.

ولأن لديه خسكاراً خاصّاً من الطعام (حصّة)، تتضمن الخبز والخيار والجبنة والمربى، كان يخصني ورئيس الجماعية وشخصاً آخر، بالسهر خلف الساتر الحجري الذي يفصل المهجع عن الحمامات، فنتناول مالديه من طعام، آخر الليل.

فتح السجّان الزنزانة ظهر أحد الأيام. أمطرنا بوابل من الشتائم أتبعها بمديح للرئيس مؤكّداً على طيبته وحسن أخلاقه وتسامحه الذي لانستحقه، ثم أخبرنا أن عفواً صدر عن بعض المساجين. نظر إلى ورقة في يده ثم نادى على أربعة أسماء

شملها العفو. ودّعناهم بشعور متفاوت، بين الغبطة والحسد. الفرحة لم تكتمل، فبعد أربعة أيام أعادوهم إلينا. حين سألنا عن السبب، قالوا: إن العفو ألغي، بسبب تقدّم سريع للجيش الحر في إحدى المناطق. قالوا إنهم وضعوهم في مطبخ السجن، وسط برد يقصّ العظام، وروائح أطعمة كريهة، جعلت اثنين منهم يتقيّآن غير مرّة. وكان من نصيبهم، في ذلك المكان، كثير من اللكم والرفس، كلّما مرّ سجّان بهم.

هذه الوقعة ذكّرتني بما حدث في المزّة. كان بين المعتقلين شخص يدعى حسين هرموش، قال لنا:

- إنّها تشابه أسماء، وحين جاء خبر إلقاء القبض على المقدم حسين هرموش المنشقّ تأكّد لهم، أنني بريء. أخرجوني من الزنزانة، على الباب الخارجي أعطوني هويتي المدنية، لكنّهم، فجأةً، استردّوها. قيّدوني، وأعادوني إلى النزنزانة، ومضى على ذلك اثنان وعشرون يوماً، ولاأعرف، بعد، ماالذي سيفعلونه بي.

..

-2-

غفوت يوماً بعد الغداء، حين صحوت، دعوت إلى حلقة مصغّرة ضمّت الشيخ السقّا، والشاعر البقاعي، ودمّر. قلت لهم:

- رأيت مناماً أرجو أن تفسروه لي. رأيت مجموعة مكروباص في ثلاثة صفوف، يضم كل صفّ عشرة مكرويات، كلّها تذهب إلى جهة واحدة. والذي لفت نظري أنها، كلّها، تضع في الواجهة صورة للرئيس فوق اللافتة التي تدلّ على منطقة في دمشق مسمّاة (دمّر البلد).

ابتسم الشيخ مسروراً بطرفتي المحزنة، بينما لم يستطع دمّر منع نفسه من القهقهة بصوتٍ عالٍ.

كثرت العقوبات الجماعية بعد عشرين يوماً من وجودي هناك، وكنا نلاحظ أن الحرّاس كلّما توتّروا، فهذا يعني أن الثوار قد حقّقوا شيئاً ما.

أيام طويلة وصعبة، لم نوفّر خلالها اختراعاً ممكناً. من ذلك صناعة أمشاط من العظم الذي لا نجد سواه في المرَق الذي يُقدّم لنا على الغداء. كما فرزنا الخبز المحروق من الخبز العادي، وجمعناه على مدى اسبوعين، عجنّاه وصنعنا

منه شطرنجاً، بحجرين أبيض وأسود. كان بيننا فنانون يتقنون تكوينات الحصان والقلعة والوزير والأحجار الأخرى، بشكل بديع. قشور اليوسفي أيضاً، كانت صالحة، بوجهيها، لتكوين قطع لعبتَي الضاما والادريس. طبعاً الرقعة كانت الوجه الداخلي لسترة واحدٍ منا، نرسم المربعات عليها بالصابون.

لاحظت، أثناء وجودي هناك، أنهم قبل موعد الفطور في اليوم المخصص له البيض المسلوق يسألون: - هل هناك من يتحسّس من البيض، فيرفع اثنان أو ثلاثة أيديهم. بعد الفطور تبدأ حفلة العقوبات الجماعية. لفتت نظر المهجع ذات صباح ليصغوا إليّ، وقلت:

- يا جماعة. السجّانون ينزعجون منكم لأنكم تقللون عدد البيضات التي يسرقونها، لذلك يعاقبونكم. جرّبوا هذه المرة أن يرفع معظمكم أيديهم، عندما يسألون عمن يتحسّس من البيض.

وبالفعل استجابوا لاقتراحي، ورفع معظم المساجين أيديهم عند السؤال عن التحسّس، باستثناء عشرين شخصاً تقريباً. وهذا يعني أنني وفّرت لهم، عند كل فطور، ثمانين بيضة. دُهش المساجين يومها وهم يسمعون صراخ

الجماعية(1) من التعذيب، بينما لم تُعاقب جماعيتنا يومها. أعجبتهم الفكرة. راحوا يَفْدون أنفسهم بالبيض، على مدى عشرة أيام تالية. غير أن الذي لم أتوقّعه حصل. وقف سجّانان بالباب يحملان هراواتهما. صاح أحدهما:

- مين الحيوان اللي ما يقلكِن إذا ما أكلتو بيض أمنعاقبكن؟.

طبعاً، كانوا يعرفون مَن، لكنّهم لم يمعنوا في المسألة، إنما أرادوا تبرئة ذمّتهم إن فُتح تحقيقٌ ما، وحسب. ولكنني أنا لم اعرف من الذي وشى بي. فكّرت، حينها، أن توصية ما لديهم بشأن غض الطرف تجاهي. وبالفعل فقد صدق توقّعي. فحين ضبطوني ألعب الشطرنج، اكتفوا بمصادرته وتأنيبي.

دمشق – 3 كانون الأول– 2011

الزّيارة

-1-

دخل السجّان ذات صباح وقال لي:

– تحمّم وجهّز نفسك مع أغراضك كلّها.

طبعاً لم تكن لدي أي أغراض، ولا حتى شحّاطة. خلعت لباس السجن الأزرق وارتديت جلابيتي ذات النصف كم التي خرجت بها من البيت، وتبرّع لي أحد المساجين بشحّاطة، وانتظرت.

في الظهيرة أخرجوني إلى الممر بدون تطميش أو قيد، حلق لي أحد العساكر لحيتي بآلة كهربائية. كان يجرف الذقن باستهتار، فجرح شفتي السفلى.

عند المغرب أخرجوني أنا وطبيب يساري من السلمية، مقيّدين، مطمّشين. صعدوا بنا طابقين ونحن نتعثّر. قال أحدهم: – اركبوا. تلمّسنا الطريق بصعوبة إلى ميكروباص أبيض. وأنا أصعد تعثّرت، فسحبني السجّان من ياقتي ودفعني إلى الداخل، وهو يشتمني ويشتم مرافقي. حين انطلقت الحافلة، بدأ يركلنا على صدرينا ركلات قويّة متوالية ببوطه العسكري. أحسست أن عظام القفص الصدري غاصت في رئتي. قدّرت أن سبب غضبه المفاجئ هو تعثّري الذي أربكه وبثّ الرعب في نفسه، ربما ظنّ أنني أقوم بحركة لضربه والهرب.

توقّف الميكرو، ومن خلال الحديث بين الحارسين والسائق تبيّن لنا أننا وصلنا إلى آمرية الطيران في ساحة الأمويين، وهو المقر الرئيسي لجهاز المخابرات الجوية في سوريا، بينما يقع فرع التحقيق في مطار المزة العسكري، ويمتلك هذا الجهاز العديد من أماكن الاحتجاز السريّة ضمن الفرقة الرابعة. بعد ربع ساعة انطلقنا ثانية. عاد السجّان إلى الركل والشتم والصفع. لم نكن نأبه لما يقوم به ونحن، كما ظنّنا، في طريقنا إلى الإفراج. أنزلونا فاستلَمنا سجّانون آخرون، ساروا بنا مشواراً طويلة في ساحة بدت جرداء وسط الظلام. البرد كان يتسلل إلى عظامي،

فأرتجف. صعدنا طابقاً. زجّوا بنا في زنزانة، ما أن فتحوا بابها حتى هبّت علينا روائح كريهة أبرزها كان البول.

غرفة ثلاثة أمتار بمترين فيها ثلاثة وعشرون معتقلاً، كان بينهم الدكتور ياسر درويش. فرحت بلقائه، مستبشراً بفَرَج قريب. غير أن الهمّ راودني وأنا أصغي إليه وعيني على بابِ الزنزانة الذي عُلّق عليه كالون ممتلئ، حتى ثلثيه، بالبول. قال لي إنهم حين أخرجوه من جماعية المزّة أخذوه هو وعبد الرؤوف وعمر عكام، إلى الفرقة الرابعة، حيث رأوا هناك الويلات: القيد سلاسل حديدية، والاحتجاز في صندوق صغير يشبه التابوت، والطعام يُدفع للسجين، مرّة واحدة في اليوم، عبر فتحة صغيرة لا يتجاوز قطرها 15 سم، تسمّى (الشرّاقة)، وهي المنفذ الوحيد للتهوية. والعذاب هناك متواصل، ترتعد الفرائص من مجرّد ذكره.

يتنهّد كمال وهو يتحدّث إلى شهم، ويتابع:

ذلك اليوم في سجن المزّة، كان من أسوأ أيّام الاعتقال، أعادني إلى تذكّر اليوم الأوّل في المنفردة. بين المعتقلين كان شخص دائم الصراخ: اعدموني. أنا نمرود. خبّرت عن أصدقائي. خبرت عن أمي. خبّرت عن أختي. اعدموني.

أنا نمرود. يهدأ ربع ساعة، ثم يعاود الصراخ بهستيرية. قال لي ياسر: إنه يشعر بالذنب، فقد وشى بأصدقائه، وقتلهم الأمن أثناء المداهمة.

لم أدرِ كيف أمضيت تلك الليلة الشاقة، وأنا لا أعرف ما الذي جاء بي إلى هذا المكان الفظيع.

-2-

صباحاً دخل السجّان أخرجني أنا والطبيب من غير أن يعصب أعيننا، ثم قال: - من مريض؟ قال ياسر: - أنا.

أخرجوه معنا. قيدوا كلاً منا بقيد بلاستيكي خلف الظهر. قادونا إلى العيادة. قاس الطبيب ضغطي، وسألني إذا كنت أشكو من شيء، قلت: - صدري يؤلمني كثيراً، وكذلك قال من تلقّى، مثلي، الضرب بالأمس. أعطانا سيتامول. التفت إلى ياسر: - مم تشكو؟ قال له: - معدتي تؤلمني كثيراً، معي قرحة ونزيف. أغلق الطبيب كفّه ولكم ياسر على بطنه لطمة شديدة، فصرخ من شدّة الألم. جرّوه إلى الزنزانة، وتركونا واقفين.

بعد وقت قصير جاء أحد العناصر فكّ قيدي. وضع عصابة على عيني. قادني من ساعدي. نزلنا درجاً. مشينا دقائق ثم صعدنا درجاً آخر. فكّ العصابة. فتح باب إحدى الغرف. دخلت، فإذ بي أرى أميّ وزوجي وابنتي وابني. نتيجة فرحتي لم أكن أشعر بالبرد، بينما دهشوا وهم يرونني في جلابيتي ذات النصف كم في عزّ الشتاء، وهو يرتدون اللباس الصوفي الشتوي.

كان حارسان يسدّان الباب من الداخل، وآخر يستند إلى الجدار بالقرب منّا. تبادلنا الأسئلة حول الصحة والأحوال، وهم يفردون أمامي ما جلبوه من طعام وحلويات. لم أكن أشتهي، بل لم أكن قادراً على تناول شيء، ومع ذلك، تلبية لرغباتهم، ازدردت ثلاث لقيمات. عرضوا الطعام على المجندين فأبوا أن يستجيبوا، مع أنني لاحظت في أعينهم رغبةً شديدة بالانقضاض على المائدة. تناول كلّ منهم قطعة حلو(مبرومة)، ثم حظيوا بكل شيء، لأنهم لم يسمحوا لي باصطحاب الطعام إلى الزنزانة.

...

-3-

(الزائرون بالكاد تعرّفوا إليه. وجه مصفّر لم يرَ الشمس منذ فترة طويلة، وشعر طويل، بدا صاحبه مذهولاً مما يحدث حوله، بالرغم من محاولته اصطناع الهدوء. الزمهرير يكاد يسري في أوصالهم وهم يرونه في لباسه الصيفي. جلبوا معهم بيجاما شتوية ودزينة من بلوزات الصوف والألبسة الداخلية، قالت أمه:

- جلبنا معنا أغراض كثيرة لك ولمن معك.

كان يفترض أن تكون الزيارة قبل يوم من الآن، لكنّهم تأخروا عن موعد الطائرة، فاضطروا إلى السفر برّاً. هذا التأخير كلّف كمال الكثير من الإرهاق، فزنزانة المزة التي استضافوه فيها كانت حملاً ثقلاً عليه، بالمقارنة مع جماعية باب توما الكبيرة، نسبيّاً، المجهّزة بمرحاضين. همس لذويه:

- أنا معتقل في باب توما، ونحن الآن في المزة، لقد جعلوا الزيارة هنا كي لا تعرفوا أين أنا. وقد عانيت كثيراً من ترتيب هذه الزيارة.

...

عندما وصلوا إلى داخل سجن المزة. طلبوا منهم تسليم أجهزة الموبايل عند الباب الخارجي، ففعلوا، غير أن ابنته قالت في نفسها، لعلنا نحتاج إليه في الداخل، وضعته على الصامت، وأخفته تحت سترتها، ودخلوا. في منتصف الطريق الطويلة من الباب الخارجي إلى المكان الذي خصصوه للزيارة، رنّ منبه الهاتف مذكّراً بأذان العصر. العسكري الذي كان يرافقهم، نظر حوله بتوجّس، ثم غضّ الطرف وهو يراها تغلق الجهاز نهائياً.

في تلك الزيارة حاولوا أن يهمسوا له ببعض الأخبار الجديدة عن حلب، فقال لهم:

- أعرف. حدّثوني فقط عنكم.

سألته ابنته: - ليش عندكم تلفزيون؟

فضحكوا جميعاً بصوت خفيض. أجابها، هامساً:

- كنا نعرف الأخبار، إما من غضب الأمن، أو من الوافدين الجدد إلى السجن.

قالت له زوجه مبتسمة:

- ذهبنا إلى المحافظ وسأل ماهي التهمة؟ قالت له أمك(وهي تفتح يديها مفردةً الإبهامين والسبابتين):
- قالوا عامل تنسيقية.

- ضحك المحافظ وقال: - يا حجة، ما يكون ظانّة التنسيقية صينية كنافة.

. ...

بعد انتهاء وقت الزيارة، أصيبوا بخيبة أمل. كانوا يظنّون أنه سيتم الإفراج عنه، ويصطحبونه إلى حلب. خاصّة وأنهم حصلوا على إذن الزيارة بوساطة محافظ حلب، موفق خلّوف.

حتى وصلوا إلى هنا، كانت الطريق شاقّة وطويلة، ليس لأن الطائرة فاتتهم، وجاؤوا، في اليوم التالي، برّاً، ولكن لأن سعيهم منذ خمسة أشهر أثمر اليوم بهذا اللقاء.

إنّ أسرته وأصدقاءه، حين علموا باعتقاله، لم يوفّروا طريقة لم يحاولوا فيها الإفراج عنه. اتصلوا بالمفتي، وعد ولم يستجب. كذلك فعل اتحاد الكتاب الذي هو عضو فيه، بالرغم من مناشدة كثير من الكتّاب الذين سخروا عندما سمعوا بالتهم الكبيرة الموجّهة إليه، فهم يعرفونه، وليس لديه سلاح سوى الكلمة، وكتاباته الكثيرة تصرّ على مكافحة

الاستبداد، قبل انطلاق الثورة وأثناءها. ولم يكن حال اتحاد الصحفيين، الذي ينتمي إليه، أفضل استجابة من سابقيه.

اتصل ذووه بمعظم الشخصيات الحلبية المعروفة ليتدخلوا، ولم يحصدوا سوى الوعود. لجأ أصدقاؤه، ومن سمع باسمه، إلى تنظيم مظاهرات تطالب بالإفراج عنه.

جماعة الأدباء سيّروا مظاهرة أمام المكتبة الوطنية. كذلك أطباء مشفى الرازي طالبوا بالإفراج عن المعتقلين. حرائر جامعة حلب خطّطن لافتة كبيرة تطالب بالإفراج عنهم. استيقظ الحلبيون فرؤوا تلك اللافتة مسدلة من نافذة عالية، تغطّي قسماً كبيراً من جدار كليّة الصيدلة. كذلك لم تهدأ الأتارب من مظاهرات تطالب بالمعتقلين.

تردّد ذكره في محافل ومناسبات كثيرة بحلب، منها ماجرى في اجتماع الحوار الوطني بين المعارضة والنظام، حيث طالب المحامي أمين عبد اللطيف* بالإفراج عن كمال، وقال إن ذنبه الوحيد هو تعرية الاستبداد والدفاع عن الديمقراطية.

* فجعت حلب في 26 حزيران 2013 باستشهاد الحقوقي أمين عبد اللطيف، عند دوار حي الحيدريَّة جراء قصف مدفعي متكرر قام به النظام.

مواقع التواصل الاجتماعي ضجّت بطلب الحرية له ولزملائه.

قناة أورينت، الفضائية السورية المعارضة، كانت تعرض المطالبة به يومياً في برنامج " بصمة حرية" مدّته دقيقة واحدة. وقد شاع نبأ وفاته تحت الاعتقال.

....

في الوقت نفسه، كان هناك تداول، في الدوائر الضيّقة للسلطة، بأن يتمّ الإفراج عنه وتعيينه سفيراً لها في مصر أو لبنان، بعد أن يخرج على قناة الدنيا، مبيّناً أنه أدرك حجم المؤامرة التي تحاك ضد سوريا.

غير أن ذلك لم يحدث، لأن كمال لم يستجب إلى طلبهم في الظهور التلفزيوني لإعلان التوبة. كانت هناك محاولتان لإقناعه، مرة في سجن المزة، والثانية في سجن باب توما، وكان في كل مرة يجيب:

– أنا لم أرتكب أي جرم، لافي الأحداث الأخيرة، ولا قبلها، كنت فقط أعبّر عن رأيي بموضوعية، وحرية الرأي مكفولة بالدستور، وأفكاري، أصلاً، تُنشر في الصحف والمجلات وليس في جلسات سريّة. إذا

شئتم أتحدّث عن ذلك في أي وسيلة إعلامية تشاؤون.

تلك التحرّكات والمظاهرات أثمرت للفت نظر قيادة الأمن الجوي ليقوموا بتلك المحاولات، وليحذروا من الإمعان في تعذيبه).

....

-4-

أخذ كمال رشفة من الشاي. نظر إلى لون الكأس. تأمّلها، ثم تابع حديثه إلى شهم:

- حين أدار العسكري ظهره، همستُ في أذن ابني: ركِّزوا على الإعلام.

دامت الزيارة ما يقرب من نصف ساعة. أوصاني السجّان: -لا تقل شيئاً عن الزيارة للآخرين. لا تجبهم عن أي سؤال.

خلال الربع ساعة التي قضيتها في الزنزانة، كان ياسر قد عرف مني كلّ ما جرى، بينما الآخر، الذي جاء معي من باب توما، امتنع عن أيّ كلام. وعلى الغالب سيكون السبب أنه لا يعرف أحداً من المعتقلين هنا.

محاولة أخرى

تداول ذووه الزائرون الأمر بينهم ثم اتفقوا على المطالبة برؤية رئيس الفرع، لعلّهم يقنعونه بالإفراج عنه. بعد توسّلات كثيرة، وبكاء، وشرح الموقف وأسباب الزيارة، ومن كان وسيطاً لتحقيقها، وبعد أن نقل العسكري (بلباس مدني لم يعرفوا رتبته) ماقالوه إلى رؤسائه، سمح لهم أحد العمداء بالدخول إلى غرفته. بدأ العميد يعظهم طوال ثلث ساعة، وألقى عليهم درساً في الوطنية والقومية ومثالب السيد الرئيس الممانع، ولم ينسَ أن يلوم ابنهم الذي وضع نفسه في هذا المأزق، وأن ما قام به هو خيانة للوطن.

أدخل الحارس كمال، فأعاد العميد ملخّصاً لحديثه السابق في خمس دقائق.

...

تابع كمال حديثه إلى شهم عن تلك الزيارة:

- أخرجني السجّان مرّة أخرى. قادوني عبر الدرج إلى طابق علوي. الغرفة كانت كبيرة جداً. في جانبها الأيسر طاولة فخمة يجلس خلفها ستينيّ يرتدي بزّة

مدنيّة وربطة عنق. أشار إليّ للجلوس. جلست على الأريكـة في يمـين الغرفـة، في الطـرف المقابـل لـه، إلى جانـب زوّاري. افتـتح الحـديث بالوطنيـات والـوطن والقيادة الحكيمة.

قلت له:

– أنا لا أرى سبباً لبقائي معتقلاً. تم التحقيق معي في حلب ودمشق وتبيّن لهم أنني لم أقترف أي جريمة، ولم أقم بأي فعل يخالف القانون، إنما كانت هناك اتهامات ثبت أنها ادعاءات وحسب. وأنني بريء مما نُسب إليّ. كما أنني اعتُقلت بعد عملية تجريف سرطان في المثانة، ولم أكمل جرعات العلاج اللازمة.

قال إنه سيدرس الملف، ويرى إن كان هناك مجال لمساعدتي.

رجته أمّي، أخيراً، أن أبدّل ثيابي وآخذ ماجلبوه معهم، فسمح لي بارتداء لباس داخلي وبيجاما وكنزة صوفية. الباقي، طبعاً، صار في عبّ أحد المساعدين، فمن يجرؤ على طلب ما دخل إلى المكان. الداخل البشري مفقود، فكيف بالأشياء.

قالوا لي سنترك خمسة آلاف ليرة، ستحتاجها. همست:

- إنهم يسرقون كلّ شيء. اتركوا فقط ألف ليرة، وهي كافية للمواصلات حين يُفرج عنّي.

. ...

بدا الارهاق على كمال وهو يتحدث، فقال له شهم:

- أرجو أن تستريح، يبدو عليك التعب، دعني أحدّثك عن معاناتي وأنا أبحث عنك وعن بقيّة المذكّرات.

بعد تفصيل مغامرات شهم في حلب والرياض والشارقة، انفضّت الجلسة. اتفقا على يوم آخر.

حين جاء الموعد، أدار شهم آلة التسجيل وبدأ يستمع إلى بقية الحكاية:

دمشق – 5 كانون الأول– 2011

جماعية (1) باب توما

بعد لقاء الأهل، أعادوني إلى سجن باب توما، أنا والطبيب الذي رافقني، لكنهم لم يرجعونا إلى مكاننا بل دفعونا إلى الجماعية رقم(1) التي تشبه، تماماً، الجماعية السابقة.

ظنّ رفاقنا في تلك الزنزانة أنه قد تم الإفراج عنّا، بينما نحن نُنقل من سجنٍ إلى سجن. كنّا في سياحة سجنيّة، نختبر فيها كل أنواعٍ القهر التي وفّرها لنا الحاكم المستبد المهبول في دمشق.

هنا عاد اللقاء ببعض من كانوا معي في المزة. هذه الجماعية كان يتزعمها مساعد شاب من متطوّعي الأمن الجوي، يقضي عقوبة لسبب لم نعرفه.

بعد تلك الزيارة صاروا يقدّمون لي وجبة إضافية، بعد العشاء، خيارة أو اثنتين، قطعة جبنة، مربى. وكان السجّان

يسـألني إن كنـت جائعـاً. طبعـاً الوجبـات الإضـافية كنـت أتقاسمها مع عبد الكريم قاسم، المحامي الذي كان معي في المزة، ورجـل مسنّ لطيـف مـن جـوبر. بعـد يـوم أو يـومين، أخرجوني إلى الممر وزرقـوني إبرة في العضل. لم أدرِ لماذا. لم أكن أشكو من شيء حينها. ارتبت من تلك الحركة، غير أن مـاخفّف وطـأة التـوجس، تلـك الزيـارة، فلـو كـانوا سيحقنوني بمـادة سـامّة أو مضـرّة، كـانوا فعلـوا ذلـك قبـل الآن.

نقلوني إلى غرفة فيهـا طبيب وممرض، قـال: - اكشـف عـن يـدك، وكـان في يـده مقيـاس الضـغط. خلعـت السـترة، وضـعتها علـى الأريكـة وهممـت بالكشـف عـن سـاعدي. صرخ بي الطبيب متأفّفاً:

- ماذا تفعل؟ ضع سترتك القذرة على الأرض.

غـاب عـن ذهـني أنهـم يصنّفون المعتقلين على أنهم وبـاء أو حشرات.

في صباح اليـوم التـالي، قبـل موعـد الإفطـار، أخرجـوني، كالعـادة، مقيّـداً، معصـوب العينـين. وضـعوني في سـيارة صـالون بيضـاء، وانطلقـوا عـبر شـوارع دمشـق. كـانوا أربعـة يرافقـوني، ولم أعـرف الوجهـة، وكـلّ مـا أراه هـو بصيص من

تحت العصابة. وقفت السيارة وسط ازدحام بشري، ركنوها بين الأشجار، وصوت أبواق سيارة إسعاف تبدو قريبة جداً. حين أنزلوني من السيارة عرفت أنني في مشفى تشرين العسكري. كان أحدهم يقودني من ياقتي وسط الجموع. تعثّرت غير مرّة على الأدراج، وفي كلّ مرة كان ينكزني في خاصرتي بقوّة. حين دخلنا إحدى الغرف فكّوا القيد ورفعوا الغطاء عن عينيّ. فحصني الطبيب بشكل عاجل ثم قال:

- بدنا فحص بول.

لم أكن قد شربت ماءً منذ ليلة أمس. دخلت المرحاض فوجدت البول محتبساً. لم أستطع أن أضع في الانبوب البلاستيكي الذي أعطوني إياه، ولا درّة واحدة. خرجت. قلت: - لا شيء. قالوا لي: اشرب. شربت، بذلت جهدي لأشرب أكبر كميّة ممكنة. صرخ أحد العساكر:

- عبّ.. عبّ تا تنفزر، ما معنا وقت ننطر شخاخك للعصر.

شربت حتى كاد يخرج الماء من أنفي.

أيضاً، لا شيء.

مرّ الطبيب وقال: - نطّ. بدأت أقفز وأشرب. أشرب وأقفز. عشر دقائق من المحاولات بلا جدوى. أعادوني إلى غرفة الكشف. مدّدوني على الطرّاحة. مرّر الطبيب شيئاً ما على بطني. زرقني إبرة ثم قال: - خذوه.

أعادوا القيد وغطاء العينين وأنزلوني إلى السيارة. وانتظروا. سمعت الحديث المتبادل بينهم: وين راح سيادة الملازم، بدنا نمشي. أجابه رفيقه:

- ليك شاف وحدة.. شقفة.. ضرب.. راح وراها مَيطبقا.

كانوا يغيبون بالتناوب ويعودون، مرّت أكثر من نصف ساعة وأنا مرمي على أرضية السيارة. شعرت بحاجة شديدة إلى التبوّل. طلبت من أحدهم الدخول إلى المرحاض، قال:

- شوي ومنوصل. بالفيللا تبعكن بول على كيفك.

حين تجمّعوا، انطلقت السيارة. بدت الطريق طويلة داخل المشفى. أعدت طلب التبوّل بإلحاح. أحسست أن مثانتي ستنفجر. نهرني أحدهم. خرجت السيارة من المشفى. لم أعد أحتمل، رجوتهم أن يوقفوا السيارة دقيقة واحدة، كي لا أضطر إلى التبوّل في السيارة. قال أحدهم للسائق:

- لاقيلنا شي زريبة لنخلّيه ينزُل. ثم وجّه الحديث لي:
- لك العمى بقلبك كنا مَنبوس أيدك تاتشخ ما فعلت، هللق آابقى تتحمّل.

وقفت السيارة، فكّوا رباط العين وتركوا يديّ مقيّدتين، أشار أحدهم إلى برّاكة حجرية صغيرة، بدت كمرحاض مهجور، وقال:- بسرعة.

أظنّ أن إفراغ المثانة احتاج إلى ثلاث دقائق. انطلقت السيارة، بعدها، إلى باب توما. نزلنا طابقين. تعثّرتُ. الشتائم كانت متواصلة، حتى فُتح باب الجماعية ودُفعت إلى داخلها. سمعت الحرّاس يتحدّثون عمّا جرى معنا في المشفى، ويضحكون.

الإفراج

-1-

بعـد ثمانيـة عشـر يومـاً، فـتح السـجّان الطاقـة، نـاداني بكنيتي ثم قال لي:

– هات أغراضك وتعال.

خرجت بلا قيد، وبلا حجبٍ للرؤية. صعدنا طابقين. خرجنـا مـن البـاب، وإذ بي أرى نفسـي في سـاحة السـجن الخارجيـة. عصبوا عينيّ، ومشـينا دقـائق. حـين وقفنـا نزعـوا العصابة عن عينيّ وقالوا:

– انتظر هنا.

وقفت أمام مبنى مهترىء مكوّن من طابق أرضيّ وحيد، مستطيل. فيه غرف متجاورة. كان إلى جانبي شخص، بدا لي أنني رأيته قبل الآن، واقف مثلي. قال: – ألم تعرفني؟ أنا فـلان، مـن حمـاه، كنّـا معـاً في المزة، ثم في الجماعيـة الثانيـة، هنا.

اتّفقنا، إذا تمّ الإفراج عنّا، أن نترافق في السفر، ونحاول ان نتجنّب الحواجز.

أشاروا لي بالدخول وحدي. غرفة صغيرة معتمة، فيها طاولة حديدية صدِئة، ووراءها سرير حديدي مضطجع عليه رجل بدين يرتدي الزيّ العسكري. الجدران المليئة بالصناديق والأوراق والأضابير، ذكّرتني بالصوّاف الشهير في منطقة التلل بحلب، حيث يقعي على تلال من كباكيب الصوف، ويرمي لزبائنه طلباتهم من هناك.

سألني الجالس خلف الطاولة:

– هل لديك أمانات؟ ماهي؟

– هويتي، وخاتمي، وألف ليرة.

حين ناولني الهوية أدركت أنني على وشك أن أكون حرّاً. وضع أمامي صندوق كرتون مليئاً بالخواتم.

حين رآني أبحبش، قال:

– خذ أي خاتم، وخلّصنا.

– لا. أريد خاتمي. إن أخذت غيره، تزعل زوجتي. اسمها محفور عليه.

حين وجدته ولبسته، قال:

- خلص. انتظر برا.

- لسا ألف ليرة.

تظاهر بأنه يبحث في الأدراج، ولم يجد شيئاً. حين لمح الإصرار في عينيّ، التفت ونكز النائم خلفه:

- قال إسّا بَدّو ألف ليرة، ما لقيتا.

فرك البدين عينيه. أنزل رجليه عن السرير بتكاسل. مدّ يده إلى زاوية الطاولة. أخرج صندوقاً كرتونيّاً غطاؤه في أسفل قعره. رفع الصندوق عن الغطاء، فلمعت الألف ليرة مطويّة. ناولني إيّاها بلؤم، وخرجت.

كان الحموي ما يزال يقف خارج الغرفة. بعد خمس دقائق جاءني شخص بلباس مدني، طقم وكرافة، وحذاء ملمّع. عرّفني بنفسه:

- أنا المحامي(فلان) دافعنا عنكم كثيراً. أتعبتمونا، فلا تكرروا العمل ضدّ مصلحة الوطن. أمطرني بوابل من الوطنيات، ثم قال: كان سيراك سيادة العميد، لكنّ اجتماعاً طارئاً شغله.

فحمدت ربّي أنّه أعفاني من ذلك اللقاء.

حين مضى المحامي، لفت نظري أمام المبنى ثلاث سيارات فخمة سوداء متوقّفة. يجهّز السائق أحدها، وفق توجيهات مدنيين يقفان أمامها. نظر أحدهما في ساعة يده، ثم أشار إليّ كي أصعد.

ركبنا السيارة، أحدهما جانب السائق، والآخر على الكرسي الخلفي معي.

لأوّل مرّة منذ ستة أشهر أشمّ رائحة عطر. انتعشت، واندهشت: هل يعرف رجال الأمن معنى العطر وأهميّته؟ هل هم نظيفون فعلاً، مثل الناس المحترمين؟

جلت بناظري شوارع دمشق، والسيارة تطوي الطريق بثبات. تركوا الحموي إذن. كلّ اتفاقاتنا ذهبت أدراج الرياح. لماذا لم يأخذوه معي؟ هل سيوصلونني إلى الكراج، أم إلى الآمرية؟

وأنا أتأمّل الطريق لمحت لافتة كُتب عليها: طريق المطار. دخلنا غرفة أمن المطار، بعد أن اجتزنا كل الحواجز بيسر، ومن دون أن نبرز أيّ وثيقة. كان طاقم الأمن يفطر. دعوني إلى مشاركتهم، فشكرتهم واعتذرت. قال لي أحد المرافقين:

- أعطني لأحجز لك بالطائرة.

- كم المبلغ؟

- أربعة آلاف.

- ليس معي سوى ألف ليرة.

تشاور مع أمن المطار ثم قال لي:

- هات هوّيتك، وانتظر خارج الغرفة.

مضت ربع ساعة، عرفت خلالها أنّ اتصالات أجريت حتى علموا أن محافظ حلب متكفّل بمصاريف النقل.

ذهبت إلى مقسم الهاتف، القريب من مركز الأمن، وأنا أشير إليه لمرافقي، فهزّ رأسه بالموافقة. اتصلت ببيتي. أخبرت ابني أنني في طريقي إلى الطائرة، وبعد ساعة أصل إلى مطار حلب. حاولت أن أدفع أجرة الاتصال، فأشار أحد عناصر الأمن، من بعيد، إلى عامل المقسم ناهيه عن القبض. لم يسمح لي بدخول السوق الحرة، ولا بالذهاب إلى المغاسل، قائلاً:

- دقائق تصل إلى الطائرة وتفعل ما تشاء.

لم يتركـني الأمـن حـتى أوصـلوني إلى البـاب المـؤدّي إلى الطـائرة. تفحّصـت بطاقـة الطـائرة فتبـيّن لي أن اليـوم هـو الجمعة 23-12-2011.

جلست في مقعدي، بعد فترة طويلة، كمدني محترم. لا أذكـر بمـاذا فكّـرت طـوال الطريـق. لكنّـني حـين قمـت إلى مرحـاض الطـائرة، تصـادف مـرور المضـيف بقـربي، فتحـت الباب، مددّت رأسي ثم أشحت بوجهي قائلاً للمضيف:

– هناك شخصٌ بالداخل.

فوجيء ومدّ رأسه معي، قال:

– هذا أنت.

قلت مبتسماً:

– لم أعـرف نفسـي، ظننتـني شخصـاً آخـر، فأنـا لم أرني منذ شهور. لم أعرف أن شعري ابيضّ وطال هكذا، ولم أرّ نفسي في بيجاما رياضية وكنزة صوفيّة.

مدّ يده، بسرعة خاطفة، إلى صندوق الحقائب القريب، ابتسم وهو يقدّم لي حفنةً من الحلوى.

في مطار حلب كان ينتظرني شخص بلباس عسكري، قام هو بإجراءات الوصول. وأعطاني هوّيتي، وهو يرافقني إلى مكتب أمن المطار.

لوّح لي الأهل والأصدقاء من ركن المستقبلين، في حين كان المساعد يلومني على تفجير حدث في دمشق، ويبثّ على شاشات التلفاز. تفجيران وصفا بالانتحاريين استهدفا مقرّين أمنيين في كفر سوسة والجمارك وأسفرا عن مقتل 44 وإصابة أكثر من 150.

كنت جالساً بتململ، فقال لي المساعد:

– نحن بانتظار سيادة المقدّم.

حين جاء، قال لي:

– سنذهب إلى رئيس الفرع، يريد أن يراك.

قلت له، مشيراً، إلى المستقبلين: – وهؤلاء؟ هل يذهبون معنا؟

اتصل برئيس الفرع، قال له:

– سيّدي هناك حوالي ستين شخصاً في استقباله.

بعد حديث قصير أعطاني سماعة الهاتف. قال لي اللواء أديب سلامة:

- بعد يومين ثلاثة مرّ على الفرع.

في المساء، وجدت خبراً في موقع " عكس السير" جاء فيه نبأ الإفراج عنّي.

...

-2-

أعلمني الأهل والأصدقاء أن محافظ حلب يريد أن يزورني، فقد سمع عني كثيراً، وسبّب اعتقالي ضجّة في حلب، لذلك يريد أن يتعرّف إلى هذا الشخص .

رأيت أنه من الأنسب أن أزوره أنا، وأطالب ببقية الذين اعتقلوا معي.

أخذت موعداً منه واصطحبت معي لفيفاً من المثقفين، شكرنا المحافظ على جهوده في الإفراج عني، ورجوناه أن يكمل معروفه بالسعي للإفراج عن باقي المعتقلين، الذين نعرف أن تهمتهم الوحيدة هي المشاركة في المظاهرات وتصويرها.

طلب إلينا أن نرسل له عوائل المعتقلين ليسمع منهم. تماماً كما فعلتْ أسرتي باعتصاماتها المتكررة، والتجمّع أمام مبنى المحافظة، وقيادة الشرطة. مثل تلك المواقف تمنح المحافظ مسوّغاً للمطالبة بالمعتقلين. في مجرى لقائنا، لأوّل مرّة، أسمع مسؤولاً يسمّي العناصر الموالية للنظام بالشبيحة القذرين الذين لا يُؤمَن جانبهم.

كانت الزيارة مثمرة، وبالفعل، بعد أسبوعين، تم الإفراج عن بعض المعتقلين من جماعتنا الذين نعرفهم، وبعد أسبوعين آخرين تمّ الإفراج عن بقية الاثنين وعشرين ناشطاً الذين طالبنا بهم.

حين التقيت بهم، بعد الإفراج، حدثني كلّ منهم عن سجنه، وعن أنواع التعذيب والإهانات التي تعرض لها، وبخاصة الذين تم نقلهم إلى الفرقة الرابعة التي كانت مكتظة بالأطفال المعتقلين.

..

تنهّد كمال. أخذ رشفة من الشاي، ثم قال لشهم:

– هكذا ترى ماعانيناه من الاعتقال، حتى أن مانال الآخرين من التعذيب أكثر مما تلقيته. معظمهم أصيبوا بالرّهاب.

ترقرقت الدموع في عيني شهم. حاول كمال تغيير الحديث:

- لنعد إلى حكاية الإفراج: كان رأي المحافظ حكيماً، حيث أقنع السلطات العليا بضرورة التهدئة في حلب لمحاولة تحييدها، في خضم الصراع الذي تواجهه السلطة في سوريا.

على مدى الأيام التالية توافدت الوفود إلى منزلي، للتهنئة في الإفراج عنّي. اتحاد الكتاب. جريدة الجماهير. غير أن رئيس جمعية العاديات اتصل ووعد بزيارة، لكنّها لم تتحقّق خوفاً من أن تكون لها تبعات. وكذلك فعل الشيخ محمود عكام، مفتي حلب؛ بينما أحمد حسون، مفتي الجمهورية،فقد تجاهل الأمر.

هناك أصدقاء طالبوني بالتعويض عن دموعهم التي ذرفوها بعد سماع خبر الوفاة.

وما لا أنساه هو لؤي ، المدرّس بجامعة دمشق، الذي تكبّد مشقّة السفر إلى حلب، فقط ليسلّم عليّ ثم عاد من فوره إلى دمشق. وأذهلني ما رأيته في مواقع التواصل عن حجم التفاعل مع اعتقالي.

لـدى زيـارة زملائـي مـن مكتـب جريـدة تشـرين بحلـب، تبين لي أنهم فصلوني من العمل بذريعة الغياب.

أخـذت موعـداً، عـن طريـق المحـافظ، مـن الأمـن الجـوي للحصـول علـى تبريـر غيـاب. حـين وصـلت أحـالوني إلى الرائد. بيّنت له سبب الزيارة.

حـين سـألني: - في أي مشـفى كنـت تعمـل؟ بـدوت مندهشاً، حتى فغرت فاهي.

كيـف هـذا؟ بعـد تحقيـق طويـل، وجلسـات تعـذيب عديـدة، عـاد إلى نسيان أنـني لسـت طبيبـاً. مـا فائـدة كـل ذلك التعذيب، وذلك التحقيق، وشهور الاعتقال الطويلة، إذا كانـت الحصيلة لـديهم: لا شـيء. فهـم، حـتى الآن لا يعرفون المعروف لكل من يعرفني، ولـو من بعيد، أنني كنت أدرّس في المعهد الفرنسي.

بيّنـت لـه أنـني في جريـدة تشـرين وأن عليـه تزويـدي بمـا يثبت أنني كنت معتقلاً، لتبرير الغياب لدى وزارة الإعلام.

قال:

- نحـن نخـاطبهم. بعـد أيـام تـذهب إلى هنـاك ويكـون التبرير لديهم.

شهور مرت ولا جواب.. يكذبون. صرفت النظر عن موضوع العودة إلى العمل في النظام الحالي، والتفتت إلى الاهتمام بأعمال الإغاثة، وإيواء الوافدين من المحافظات الأخرى، وتأمين الغذاء والخبز وجرات الغاز بين المناطق وسط حواجز متنوعة. وتأمين إعانات لأسر المعتقلين والناشطين.

لدى الكشف الطبي تبيّن أن سرطان المثانة عاد، لأنهم منعوا عني إكمال العلاج، فأعدنا التجريف مرّة أخرى، وأخذت الجرعات، عبر استيرادها من لبنان، بثمن مرتفع.

نشاطي التظاهري أخذ منحىً مختلفاً هذه المرّة، فكنت أساهم بالتخطيط من بعيد، وتأمين أجهزة اتصال وتصوير وتوثيق. عدت إلى إلقاء المحاضرات والمشاركة في أمسيات اتحاد الكتاب والمركز الثقافي.

عدنا إلى منتدى حلب ندرس الوضع اليومي ونناقش الدستور المرتقب للبلاد. في ذلك الوقت أوائل (2012) بدأنا نصدر جريدة (أنا حلبي شريف)، محلّاة بالصور التوضيحية اللازمة، نطبعها ونوزّعها، بشكل سرّي. كانت تتضمن معلومات وإرشادات للمدنيين عن كيفية التصرّف في حالات القصف، والصعق الكهربائي، ومواجهة قنابل

الغاز، وكيفية تنظيم المظاهرات السلمية وعدم الانجرار وراء محاولات السلطة فرض التسلّح، فقد عرفنا كيف دسّ الأمن السلاح في جامع العمري بدرعا، وحاولوا توزيعه على مناطق أخرى ليوجدوا المبرر للعنف الذي يواجهون به المتظاهرين. كما تتضمن مبادرة: أنا مع القانون. ومن المسؤول عن أزمة المحروقات في حلب؟ وطريقك إلى الاندساس الناجح، ونصائح للمتظاهرين، وشرح معنى الثورة وأهدافها. وننعى فيها الشهداء، ونذكر بطولاتهم، ونعرّف على الشبيحة الذين يتصدّون للمتظاهرين، وعلى المخبرين الذين يساندون الأمن.

في العشر الأوائل من رمضان ذلك العام، تعثّرت الطباعة لأسباب أمنيّة، فحوّلنا إلى مطبعة أخرى بمساعدة (أبو رامي)، وحين سألت عن العدد الجديد قال لي اتصل بـ (أبو نوار). بالفعل اتصلت به، فقال لي: الحواجز كثيرة، وأنا أحاول العبور بينها، فور الانفراج الأمني سأجلب لك الجريدة.

مع أذان مغرب أحد الأيام قال لي ابني:

– جاء أنشتاين.

(كنا نسميه أنشتاين لكثافة شعره الأبيض). خرجت وفوجئت بأبي نوار على الباب وحوله مجموعة صناديق كرتونية، قال:

- خلينا ندخلها بسرعة.

كان يلهث، وقد اصفرّ وجهه، وتعرّق جبينه. أدخلنا الصناديق ودعوته إلى الإفطار، فقال:

- لا أريد طعاماً، أريد فنجاناً من القهوة.

أشعل سيجارته وهو يحدّثني عن مغامرته:

- هذا العدد تم طبعه في الجامعة، وسلّموني كميات العدد عند جسر العوارض بين الشيخ مقصود والميدان. أوقفت سيارة عامة، صففنا الصناديق في صندوق السيارة الذي لم يتسع لها، فوضعنا الباقي في الكرسي الخلفي. أعطيته العنوان للسائق وانطلقنا. حين وصلنا أمام منزلك، بدأنا بإنزال الصناديق من السيارة، ونتيجة السرعة لقرب موعد أذان المغرب والازدحام، انفتح قعر أحد الصناديق وتبعثرت الجريدة على الأرض. صُعق السائق عندما رأى محتويات الصناديق، ناولته مبلغاً أكبر مما رصده العدّاد، كما ناولته بضع أعداد من المجلة، وقلت له:

- تيسّر. غادر عاجلاً وهو مرتبك، في حين رحت ألملم ما انفرط من الأعداد، وأعيدها إلى الصندوق. حملت الصناديق واحداً إثر آخر. استخدمت جرس بيتك من غير جدوى، فالكهرباء كانت مقطوعة. قرعت الباب، أيضاً، لم أستفد شيئاً. حاولت الاتصال بالهاتف المحمول، لا توجد تغطية. أملت أن يمدّ أحد رأسه من الباب لحاجة ما. قررت أن أبقى أمام البيت حتى يأتي أحد، فليس بالإمكان، بأي حال، أن أنقل الصناديق إلى مكان آخر. كاد دمي ينشف حتى وصلت إلى هنا. مع أذان المغرب فتح ابنك الباب حاملاً صحناً من اليبرق (ورق العنب) يبدو أنه ضيافة للجيران. قلت له أن يعلمك بانتظاري على الباب.

مع نهاية حكايته بدأ يتنفّس الصعداء، مع فنجان القهوة الثاني، والطعام أمامه لم يُمسّ.

...

لم يمضِ أسبوع حتى سمعت بنبأ اعتقال (أبو نوار). غدا الوضع أكثر خطورة عليّ. ربما يضطر، تحت التعذيب، إلى ذكر اسمي فيعيدوا اعتقالي مرّة أخرى. هذه المرة أخطر.

أعداد من الجريدة ماتزال لدي تحتاج إلى التوزيع، كذلك كاميرات الرصد المتنوعة، ربطة عنق، نظارات، أقلام، هواتف محمولة، شرائح اتصال متعدّدة، وجهاز ثريّا.

خلال يومين قمت بتوزيع كلّ ما لدي من صحف وأجهزة، واضطررت للسفر، في العشر الأواخر من رمضان.

وضع كمال رأسه بين كفّيه. أغمض عينيه. دقيقتان من التأمّل ومحاولة محو الذكريات الأليمة، ثم التفت إلى شهم:

– أنت تعرف الباقي، من خلال رحلاتك إلى الرياض ودبي وتركيا.

حمل شهم ما سجّله. شكر كمال وقال:

– سأجمع الأوراق السابقة مع ما سمعته منك، ومن أصدقائك، وأعدّها للنشر. فور إنجازها ستصلك حصتك من الكتب، ساخنة.

. ...

الفصل العاشر

غازي عنتاب

أنشأ كمال مركزاً للأبحاث فور وصوله إلى عنتاب، بناءً على طلب إحدى منظمات الثورة. استقطب المركز كثيراً من الباحثين السوريين والأدباء والإعلاميين المقيمين في عنتاب، وتعاون مع باحثين سوريين منتشرين في أنحاء العالم، من خلال ندوات ومحاضرات تم تنظيمها عبر السكايب، وذلك بفضل علاقاته الواسعة وصداقاته، قبل الثورة، وبعدها. شارك في ندوات، ولقاءات إذاعية وتلفزيونية، وورشات عمل، وألقى محاضرات وأمسيات شعرية وقصصية، في مناطق مختلفة في "اسطنبول" و"غازي عنتاب". وقد دعا، مثل كثير من الباحثين، إلى رصّ الصفوف، والعمل على التنمية الاجتماعية، والمساهمة في نشر الوعي، ومحاولة الإجابة، بين فترة وأخرى، عن سؤال: ماالعمل؟

عمل على نقل تجربة رابطة أبناء حلب من الرياض إلى حلب، وكذلك طريق النزاهة لمكافحة الفساد. فقد أقام، بالتعاون مع كثيرين أمثاله، نشاطات مختلفة في هذين الجانبين. ورأيه يتّفق معهم في أن الطريق طويلة نحو الحريّة، وأن تعثّر منجزات الثورة، وترهّل مؤسساتها، والإجهاد الذي أصاب السوريين، نتيجة طول المدّة، وخذلان أصدقاء سوريا، وتكالب السياسات الدولية، وكذب الساسة؛ حال دون إنجاز الكثير.

غير أن الأمر الذي بقي يحفر في وجدانه، أكثر من سواه، هو التجربة المرّة التي مرّت بها القاصّة السوريّة ابتسام شاكوش، المهتمة بأدب الأطفال. فقد اصطحبت بعض أطفال المخيّمات، من مخيم (جيلان بيلار) إلى عنتاب التي تبعد عنه أكثر من 600 كم. كان الأطفال مدهوشين، طوال الطريق، من مظاهر الحضارة: الشوارع والسيّارات والأشجار والحدائق والألعاب. فهم لم يروها في حياتهم. وأكثر ما فاجأها، اندهاش الأطفال من دَرَج البناء، وعدم تمكّنهم من الصعود عليه، فهم يرونه، لأول مرة، في حياتهم. وأثناء اللعب كانوا يرتطمون بالجدران وتُشَجّ رؤوسهم، وتدمى جباههم، وتتكسر أضلاعهم، بسبب عدم اعتيادهم على الركض بين جدران صلبة مقارنة بجريهم

بين الخيام، حيث نشؤوا. في الخيمة كانوا يلهون بحوافّها ولاتؤذيهم، أمّا هنا، فهم في محيط لايعرفونه. الجدران، هنا، حجرية لاتتيح ارتداد الاندفاع بانسيابية اعتادوها. لم تكن الإصابات الجسمية وحدها هي المشكلة، فالاصطدام القاسي بات يشكّل رهبة لديهم من مجرّد رؤية الجدار.

أطياف الرؤى

دعا منتدى عنتاب الثقافي الذي اتّخذ مقرّاً له في مقهى دار نون 4 بغازي مختار إلى لقاء تعارف على شهم، ضمّ مجموعة ناشطين في الأدب والسياسة والإعلام والمجتمع المدني. ورأى كمال أنها فرصة طيّبة ربما تفضي إلى تعاون بين داري النشر، وبخاصّة أن محمود الوهب، صاحب الدار، قاص وناشط في الحزب الشيوعي.

مُدّت الطاولات في فسحة جميلة خضراء أمام المقهى. بدأ الوافدون تباعاً يلتقطون صوراً تذكارية أمام الورود المتنوعة التي ضمّتها الحديقة الموازية للساحة، مغتنمين فرصة بصيص ضوء تحاول العتمة إزاحته مع تسلل الغروب.

ولم تكن الصور الملتقطة، بعيد المغرب، أقلّ جمالاً إذ أصبغت عليها، الأضواء الملونة التي أنارت المكان، شاعرية قوس قزح.

أما الحوار فلم يكن أقلّ بهجة من جوّ الأمسية الرهيف. اتفق الحاضرون على محاور جلستهم ليثمر اللقاء. اختلطت الأصوات وتنوّعت، بحيث لم يعدّ مهمّاً من قال بمقدار أهميّة طرح الأفكار وتداولها، بطريقة منسجمة كسيمفونية تعاون على هارمونيتها العازفون:

الأحزاب

بدأ الحديث علاء الدين حسو، مدير إذاعة فجر التي تبثّ من عنتاب، وسأل، في محور الأحزاب:

- ما رأيكم؟ لماذا الأحزاب السياسية في سورية ليس لها دور يُذكر في الثورة؟ طبعاً لا أقصد مهازل ما يسمى أحزاب الجبهة التقدمية التي تنضوي تحت لواء البعث.

تتالت الآراء تباعاً، والقهوة المرّة تدور على الحاضرين، قال حسن:

- انحدرت معظم تلك القوى من إيديولوجيات تقليدية(إسلاموية - قومجية - ماركسية) بعيدة عن الواقع الاجتماعي المعاش. وبقيت محكومة بالشخصانية، وعدم قدرتها على مأسسة العمل الحزبي.

قال علي، وهو يدرج التتن ضمن ورقة السجائر، بإتقان:

- إن غياب الديمقراطية داخل العمل الحزبي أفرز عدم قدرتها على الاستجابة لتطلعات المواطنين. المخلصون من المنتسبين إلى تلك الأحزاب لم يتجاوزوا الخطاب الرومانسي: وحدة عربية، وحدة إسلامية، وحدة عمالية.. من دون إدراك التناقضات في الدول العربية والعالم الإسلامي.

علا صوت أبو مالك، كالعادة:

- كل الأحزاب والتيارات المستحدثة هي رهين الممول . إن ما يميّز تلك الأحزاب والتيارات أدبيات المظلومية التاريخية، والانكفاء على الذات، وعدم قبول الآخر، وعدم القدرة على التفاعل مع المتغيرات العالمية. هذه الثورة يا أصدقاء، كشفت تجذّر انعدام الثقة المتبادل، نتيجة الرضوخ للدول الأمنية، واعتادت على عدم التعاون.

حرّك محمود فنجان قهوته، وتحدّث بتؤدة، محاولاً ضبط حروفه بالشكل:

- بالفعل، كي تكون الأحزاب مثمرة لابد من وجود حوامل فكرية ثقافية، والاعتماد على مبدأ الشراكات السياسية، وأن تكون مرجعية الأحزاب

هي السياق الاجتماعي لحياة المواطنين وحاجياتهم، وليس الأفكار المسبقة للحزب. وقوام ذلك كلّه لا يكون من غير اعتماد مبدأ الديمقراطية والشفافية التامة، وخاصة فيما يتعلق بالشأن السياسي والمالي والتنظيمي.

تصدّر شهم في جلسته، وقال:

- نعم، حينذاك، تتم المساهمة في تشكيل الرأي العام، والتثقيف السياسي. ويتم دعم مساهمة المواطنين في الحياة العامة.

عثرات الثورة

سأل شهم كمالاً، بشكل مباشر :

- أبا ثائر، تبعاً لتجربتك، وما عانيته، وما تمخّضت عنه مراكز الأبحاث التي أدرتها، هل لك أن تدلّنا على محطّات في دروب الثورة السورية؟ ولماذا لم تحقّق أهدافها حتى الآن؟ أرى أن ثورات الربيع الأخرى مرّت بسلاسة، نسبيّاً.

قال كمال:

- الثورة السورية ثورة أمة وليست ثورة بلد أو منطقة، ولهذا لا يُستغرب أن تأخذ وقتاً كي تحقّق تطلّعات الأمّة. من قال إن ثورات الربيع العربي في تونس ومصر وليبيا واليمن قد انتصرت وحقّقت آمال الشعوب في تلك المناطق؟ أرى أن مثل هذا الطرح استفزازيّاً يثير الشجون ويهدف إلى دعوتنا للحفر التاريخي.

لقد استطاعت جماهير تلك البلدان إزاحة رأس الأفعى، ولم تتمكّن من قصّ ذيلها. الطغيان

أخطبوط له أذرع متعدّدة لا تعرف الرحمة. لنلاحظ أن الزحف الجماهيري تركّز في النظم الجمهورية. النظم الجمهورية العربية كالحرباء تغيّر لونها تبعاً لمصالح العصابات الحاكمة فيها، وهي كسائق (حربوء) يتميز بالغباء ، يؤشّر بضوء اليسار ويمشي في أقصى يمين الشارع. لم تنجز الجهوريات شيئاً مما بشرّت به، بل كانت حريصة على اختراق الدساتير التي تتغنّى بها. ترمق حاكم الدول المعادية بنظرة غضب، وتصافحه بحرارة من تحت الطاولة، بل تنحني لتقبّل أيدي من تدّعي أنها تقف في وجوههم .

ثم تتالت المشاركات والآراء من الحاضرين:

- الثورة السورية نقطة الحسم في الربيع العربي والثورات الأخرى تنويعات ...تنويعات لا تنتصر ما لم تنتصر الثورة السورية .
- بحسب تصوّركم، لماذا تأخر انتصار ثورة سوريا ؟
- السلطة السوريّة تتلقى دعماً من حكومات وهيئات دولية مختلفة، ولا يقتصر ذلك على المحور الروسي- الإيراني – الصيني، فالدول تصفّي

خلافاتها وتقوم بالتسويات على حساب الدم السوري وفي الأراضي السوريّة.

- إنني ، مثل كلّ السوريين، أتساءل: كيف الطريق إلى وقف نزيف الحرب؟ وكيف نحصّن ما تبقّى من دماء ومن وطن؟
- السلطة القائمة في سوريا أثبتت، بما لا يدع مجالاً للشك، أنها غير عابئة بمفردات الإنسان والوطن والمواطن والحريّة والحضارة، وهي مستمرّة في طغيانها حتى تتمكّن من بسط سلطتها الكاملة على أكبر بقعة ممكنة من الأرض السورية، وحتى تضمن الولاء الكامل من كل من تطاله يدها، وهي عازمة على إذابة المعارضين والمحايدين، بالأسيد.
- ألم يتشكل المجلس الوطني، ثم الائتلاف، والحكومة المؤقّتة. أين هي مما يجري؟
- الائتلاف أثبت فشله ، كما الحكومة المؤقتة، كما المعارضين الذين طافوا على السطح بغفلة صنعتها فوضى التقلّبات. كل جهة تسير كما يريد لها داعموها.

- حين ألتقي الذين يتبعون تلك الهيئات ، بشكل فردي ، أجد أنّ معظمهم يتمتعون بحسّ وطنيّ عالٍ، وبرجاحة عقل وحكمة مناسبة لوضع الأمور في نصابها الصحيح، غير أن القرارات التي تصدر عن تلك الهيئات تدعو إلى التشاؤم وفقدان الأمل، وتسحب البساط من تحت أقدام الثوّار الذين شاركوا في الثورة لنيل الحرية والكرامة.

قال عزّ الدين متبرّماً:

- فصائل الجيش الحرّ متفرّقة متشرذمة، وليست لديها القدرة على حسم المعركة لصالح الثورة، تماماً مثل السلطة التي لا نراها سوى عصابة تتمسّك بما بقي لديها من مساحة لبسط السيطرة. وتأتي داعش وجبهة النصرة وأكوام العصابات المسلّحة وأوبة اللصوص، كلّ منها يعيث فساداً في سوريا حيث تصل يده. وهكذا يستمرّ الصراع ، وتستمرّ المأساة ، ويستمرّ القتل والنهب والتشريد والهدم والتشويل والاعتقال.

مقارنة

- كيف تنتصر الثورة في وقت قصير والحالة هذه؟ الثورة الفرنسية أخذت ضعف هذا الوقت. سأل نجيب.

أجابه فؤاد، المتخصّص بالتاريخ:

- هناك تشابه كبير بين الثورتين الفرنسية والسوريّة: بدأت الثورة الفرنسية عام 1789 وامتدت حتى 1799، عشر سنوات من العذاب أثّرت على أوروبا كلّها. وها هي الثورة السوريّة، في سنتها الخامسة يمتد تأثيرها على المنطقة بأسرها. تم حشد الجيش من مناطق الأطراف إلى باريس، وإغلاق الجمعية الوطنية، وبعض الجند الذين تمّ استقدامهم إلى العاصمة من المرتزقة الأجانب العاملين في الجيش الفرنسي، هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى انتشار الغوغاء، والفوضى، وعمليات سلب ونهب، والشغب في باريس؛ وكان بعض مرتكبيها من جند الجيش ذاته.

أسامة، رجل الاقتصاد، تناول الموضوع من جانب آخر:

- أثّرت الحرب بشكل بالغ السلبية على الاقتصاد الفرنسي، فارتفعت الأسعار، وتزايدت الأنشطة المعادية للثورة في بعض المناطق. انطلق حكم الإرهاب في فرنسا؛ ووفقاً لسجلات المحفوظات أعدم ما لا يقل 16594 شخصاً باستخدام المقصلة. في سوريا أيضاً كانت الخطوات ذاتها من استقدام مرتزقة وارتكاب جرائم وارتفاع الأسعار كما سُعار الحرب، وانتشرت عمليات السرقة والخطف(التشويل)، حتى بات بعض مناصري الثورة يعادونها. وارتُكبت مجازر جماعية بالذبح والحرق والموت تحت التعذيب، واكتظت السجون، وتم تهجير الملايين، وأمسى نصف السوريين لاجئين.

جمع كمال كفّيه، وحاول التركيز على النتائج:

- ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ كان من نتائج الثورة الفرنسية: إقرار فصل السلطات وفصل الدين عن الدولة والمساواة وحرية التعبير. وتم القضاء على النظام القديم، وفتح المجال لتطور النظام الرأسمالي وتحرير الاقتصاد من رقابة الدولة. وتم إلغاء الحقوق الإقطاعية وامتيازات النبلاء

ورجال الدين وصودرت أملاك الكنيسة. لقد عُدّت الثورة الفرنسية وميثاق حقوق الإنسان الذي جاءت به، بمنزلة "إنجيل العصر الحديث" في العالم الأوروبي، فبنجاح الثورة الفرنسيَّة في تحقيق أهدافها دخلتْ أوروبا في مَوجة جديدة، فقد عملت فرنسا على تصدير الثورة لجِيرانها الأوروبيِّين، "وحمَل خِطابُ الثورة الفرنسيَّة طابعاً عمومياً.

الخوف من الثورة

- في تصوّري أن معظم دول العالم، وبخاصة الدول العربية، تخاف من حدوث مثل ذلك. أن يؤدّي انتصار الثورة السورية إلى تغيير جذري في الحكومات العربية، وتغيير موازين القوى الدولية.

قال محمود، فأجابه سميّه:

- لا أرى مسوّغاً للخوف من انتصار الثورة السورية. في البداية وقفت دول الجوار ضد الثورة الفرنسية خوفا من امتداد الغضب إليها، ودول أخرى ساندت المملكة حتى تعبت من الترقيع. بعد أن نجح الثوار حصل ارتداد إلى النظام الملكي القديم، ثم عادت الثورة إلى مسارها الصحيح، فترسّخت معالم الديمقراطية وبدأ البناء.

راح رأفت يشير إلى الجالسين، بسبّابته، كمن يستطلع آراءهم. فتتالت إجابات من تشير الأصبع إليه:

- دول الجوار استفادت وراحت تقطف ثمار ثورة جارتهم فنعمت أوروبا وشكلت تكتلات ترسي معالم حضارية جديدة. هذا حدث في فرنسا ويحدث في سوريا.

- كذلك ستُعدّ الثورة السورية آية في العصر الحديث، فبنجاحها سيدخل العالم العربي موجة التغيير والإصلاح ويتم التحرر من ربقة الاستعمار ومن هيمنة التطرف والنزعات الاستبدادية، وسيتم تصدير منجزات الثورة إلى المحيطين العربي والإسلامي من غير إراقة دماء ومن غير خسائر مهمة، فقدر سوريا أن تحمل عبء التغيير.
- هذا ما ينبغي العمل عليه. أن نوضّح للدول التي تبدّلت مواقفها خشية مدّ الثورة إليها بعد نجاحها في سوريا: ذلك لن يحدث.. تنجح الثورة في سوريا ويبدأ العالم العربي بالنهوض من جديد ويتم التغيير الديمقراطي بعيداً عن التطرف.

ظاهرة داعش

تناول أبو مالك محوراً آخر يقلقه، كما يقلقه دور الإخوان المسلمين في الثورة، فقال:

- الذي ينبغي أن تخاف منه دول الجوار هو المدّ الداعشي الذي لن ينتهي مادامت القبضة الأمنية هي الحاكمة في سوريا. على ذكر داعش، كيف

ترون نشوء تلك الظاهرة؟ من انشأها، ومن يقف وراءها؟

رأى كمال أن تركيبة داعش معقّدة، فهي مكوّنة من خليط، يتبع بعضهم القاعدة، وبعضهم من المتشددين الذين كانوا معتقلين، اختارت السلطة السورية الإفراج عنهم في هذا الوقت ليشكلوا (بعبعاً) للمجتمع السوري والعالم، ودسّت بينهم عناصر مخابرات سورية – ايرانية لتزكي نار التشدد والقتل بقسوة، ولا يخفى أن الدول الغربية وأمريكا استعانت بأمثالهم ليتسنى لها البقاء ضالعة في شؤون العالم.

بينما رأى مروان أن القاعدة الكبرى للدواعش هم السذّج من السوريين والعراقيين وباقي بقاع الأرض، الذين يتوهّمون بأن الانضمام لتنظيم الدولة والقتال من أجل خلافة إسلامية هو جهاد في سبيل الله.

الصبر والوعي

في محور آخر بادر المحامي حومد إلى القول:

- الداخل السوري يريد تطمينات بأن أحداً لن يُقصى، وأن الأفكار المتطرّفة، يميناً ويساراً، لن تسود. وأن العسكر دورهم مرحلي آني وسرعان ما ينسحبون إلى ثكناتهم وتُحلّ ألوية الجيش الحر المدنية، ومن يبقى في سلك الجيش ينضوي تحت لواء الجيش السوري الحر الموحّد الذي يعود إلى مهمته الأساسية في الدفاع عن الأرض السورية الموحّدة ضد أي عدوان.

أكمل مروان الفكرة بأن العالم الخارجي، أيضاً، بغض النظر عن مواقفه ومطامعه ومصالحه، يريد التطمينات نفسها، وهذه التطمينات لا تتحقق إلا إذا كانت هناك واجهة يستطيع التعامل معها.

اشترك منجد مع أبي مالك باللهجة الحادّة نفسها:

- المجلس الوطني وهيئة التنسيق والمجالس الثورية والجيش الحر الموحد واتحادات المجالس الثورية والتنسيقيات المختلفة، والمجالس العسكرية والمدنية

والمحلية، كلها تدعم شرذمة الثوار في سوريا إعلامياً وميدانياً وعسكرياً، كلها لم تستطع اقناع أحد بجدوى فاعليتها، بل غلب على معظمها الإرث سيّئ الذكر الذي يتمسّك بأناه، ولا أحد سواه ينقذ سوريا مما هي فيه.

تساءل شهم، متأفّفاً:

- في ظل هذه الظروف، والمواقف الدولية المتخاذلة والتشكيك المتبادل الذي تعمل السلطة على دعمه وإشاعته، هل يمكن أن يكون هناك بصيص في الخلاص؟

قال كمال، وهو يعبث في جوّاله باحثاً عن نص:

- نعم، الأمر متاح ببساطة قد لا تلفت نظرنا ونحن نسمع دوي الانفجارات من كل حدب وصوب. صمت لحظة. رفع جوّاله أمام عينيه. قال وهو يقرأ: استمعوا إلى هذه الرؤيا:

في اجتماع موسّع ترعاه جهة مختصة، أو جهة تتيحه، أو من غير اجتماع على أرض الواقع.. يمكن أن نفتح صفحة خاصة في إحدى وسائل الانترنت المتاحة ندعو فيها كل الفصائل والأحزاب والهيئات والمجالس والتنسيقيات، القديمة والجديدة، لانتخاب شخص واحد

ينضم إلى مجلس انتقالي يشكل حكومة موسّعة لكل مدينة أو محافظة .. يجتمع المنتخبون الذين يمثّلون الفئات التي ينتمون إليها وتجري انتخابات الحكومة التي ينبغي أن تضم مجلساً رئاسياً من ثلاثة أشخاص.

المجتمعون، لو كانوا مئة، هم الذين ينتخبون الحكومة، وليس بالضرورة أن تكون منهم .. يمكن للحاضر الذي يمثّل جهة ما ، أن ينتخب أحداً من غير الحاضرين . بعد أن تجري الانتخابات تعلن الأسماء على أنها مختارة للحكومة الجديدة وتطرح للتصويت على أبناء المحافظة عبر إحدى وسائل الانترنت بحيث لا يتمكن أحد من الإدلاء سوى بصوت واحد.. بعدئذٍ تعلن الحكومة رسمياً بحسب نتائج التصويت، وبعد أن توضع السير الذاتية لكل شخص منتخب لكي يتعرف إليه من لا يعرفه من الناخبين. فور إعلان الحكومة تنضوي جميع المجالس والهيئات والتشكيلات تحت لوائها وتباشر الحكومة أعمالها بحيث تغدو الممثل الوحيد المؤقت في الداخل والخارج.

وضع جوّاله جانباً، ثم قال:

- أرأيتم كم نحن متفائلون، بالرغم من كلّ هذا الخراب والقتل والتدمير، وما نزال نظنّ بأنّ أحداً ما قد يعيننا للوصول إلى درب الخلاص؟!!!

المثقّف والثورة

تناول أيمن محوراً آخر من الحديث، بدأه بالقول:

- يشاع بأن الثورة السورية قامت على أكتاف الشباب ولم يكن للمثقفين دور فيها. هذه هي المقولة الشائعة التي تبيّن بُعدَ المثقّفين عما جرى ويجري في سوريا. وهذه الجملة هي إحدى ذرائع السلطة التي تتمسّك بها لتبيّن أن ما يجري في سوريا هو مجرّد فئة مندسّة من الشباب الطائش تحوّلوا إلى عصابات إرهابية والمثقّفين بمنأى عنهم وهم منهم براء.

قالت سهى، العاملة في إحدى منظمات المجتمع المدني:

- هناك تنافر إذاً بين الفئة التي تُطلق عليها صفة الثقافة والآخرين الذين خطّوا اللافتات وانطلقوا

بها في شوارع سوريا مطالبين بالإصلاح بدايةً، ثم بإسقاط، ما وصفوه، بنظام الجور والاستبداد.

صبحي من اتحاد الكتّاب السوريين، قال:

- إنّ المثقّف يرى نفسه لا ينتمي إلى رابطة ثقافيّة، كما لا ينتمي إلى فئته الاجتماعية التي انحدر منها، لذلك يعاني الاغتراب ويدين السلطة والجمهور ونفسه.

زوجة محمود المتخصّصة باللغة العربية، قالت:

- بدأ المثقفون بوادر الثورة عبر كتاباتهم وتصريحاتهم المختلفة، ومهّدوا لبدء حالة الغضب، وقد أحجم الجمهور عن التواصل مع الفعل الثقافي لارتيابه بكل ما يدور حوله، ظانّاً أنّ الحوار يبقى محصوراً في إطار المتنفّذين الذين لا يريدون من الحراك سوى كشف المعارضة أمام السلطوي، تمهيداً لتسليمها إليه واستلام المكافأة.

عمر، الشاب الثلاثيني، دافع عن المثقفين بحماس:

- شارك مثقفون كثيرون في الثورة منذ بداياتها، سُجِن كثير منهم، وأسهم كثيرون في أوجه متنوعة من نشاطاتها، وبرز مثقفون في قيادة التشكيلات

المعارضة التي ظهرت، وهذا يعني أن الثورة ليست ثورة شباب منهكين برزوا من الحواري القديمة. وشكّل حضور نساء مثقفات ظاهرة لافتة، ونسبة مهمة منهن من أقليات دينية ومذهبية، ما يؤكّد أن الثورة السورية ليست ثورة رجال أو ثورة ذكورية ، وليست ثورة مسلمين سنيين ، وليست ثورة الأكثرية العربية .

تحمّس خالد لإبداء رأيه. حين قال:

- في ظنّي

التفت إليه الحاضرون، بمن فيهم، أبوه. انتبه خالد، أخفى السيجارة الملتوية بين أصابعه. لفّ ساعده خلفه، وأكمل حديثه، تعلوه حمرة خجل:

- المثقف طيف من أطياف المجتمع، ومواقف المثقفين متنوعة بحسب المواقف الاجتماعية المختلفة، بين مندفع ومتريث وخائف ومواربٍ وموالٍ.

تابع كمال الفكرة قائلاً:

- الكتّاب والصحفيون لم يكونوا الأبرز حضورا في الثورة السورية ، خلافاً لكل ما اتسم به دور

المثقفين في الحياة العامة في مراحل سابقة من تاريخ سوريا، لكنّ ما قام به كثيرون لم يكن تحت غطاء الهيئات التي ينتمون إليها، بمعنى آخر لم يعملوا بوصفهم مثقّفين. ومجال نشاط كثيرين منهم اليوم يحيل إلى نشاط أدبي وفنّي. ومع ذلك برزت أدوار الكتّاب الصحفيين والمحامين والمهندسين والأطباء وسواهم من خلال تنظيمات بديلة بدأوا تشكيلَها كمنظمات موازية لما هو قائم ويدور في فلك السلطة راضياً أو مرغماً.

بالمقابل، ظهر عدد غير قليل من الكتّاب المخضرمين تتراوح مواقفهم بين التحفظ والارتباك والتأييد الفاتر، وربما يعود ذلك إلى تجربة الثمانيات المرّة حيث ذاقوا مرارة الوقوف في وجه الظلم وحين التفتوا لم يجدوا حاضناً شعبيّاً لهم ، فتجرعوا آلام الاعتقال والتهجير، وتعود كثير منهم على العقلنة التبريرية، والعيش في عالم من الكلمات.

بدا التفاؤل على محيّا أيمن وهو يقول:

- كانت الثورة مناسبة لظهور معارضة جديدة متميزة عن المعارضة التقليدية بكونها شبابيّة أو تعتمد على مخضرمين يتمتّعون بروح الشباب،

وهي معارضة لا حزبية، وأقرب للحياة وميادينها، وأقل تمركزاً حول الإيديولوجية وحول الأحزاب التقليدية والسياسيين القدماء، باستثناء من تجدّدت لديهم روح العمل السياسي وفق المستجدات.

أكمل كمال فكرته:

- الموقع الذي لم يبرز من جهة المثقفين التقليديين هو المشاركة في الثورة من موقع الثقافة، أي العمل على تغطيتها ثقافيّاً. المثقف الجديد والمتجدّد انخرط في الثورة من غير أن يرى ذلك نشاطاً سياسياً حزبيّاً أو عقائديّاً.

عاد فؤاد إلى الحديث عن المواقف المتباينة من الثورة:

- نجد مثقفين سوريين اختاروا الوقوف في صف الثورة منذ البداية، ومنهم برهان غليون وطيب تيزيني وعلي فرزات وصبحي حديدي (على سبيل المثال)، وآخرين شككوا في مشروعيتها وهويتها، ومنهم أدونيس، بحجة أنه يخشى «وصول الإسلاميين إلى السلطة». وموقف أدونيس غير مفاجئ، لأنه لم يكن معارضاً يوماً ما للنظام السوري المستبد، بل كان يقف دائماً ضد التراث

العربي الإسلامي ساعياً إلى جائزة نوبل التي لم ولن يطالها. شارك هؤلاء في المؤتمرات والندوات واللقاءات منذ انطلاق الثورة السورية ، وفي كل اللقاءات أكد المثقفون على خطورة الوضع السوري وحتمية تأييد الثورة الشعبية التي أسقطت حاجز الخوف ضد نظام إجرامي وفاسد، ولا يمكن لدور المثقفين أن يتجاوز مستوى تعبئة الرأي العام والدعوة إلى دعم الشعب السوري في ثورته التي تهدف إلى التخلص من النظام الديكتاتوري.

فاطمة، التي تحضر أول مرّة في المنتدى الثقافي، قالت:

- بعض المثقفين وفق المعيار التقليدي يرفضون تسمية ما يحدث في البلدان العربية وفي سوريا بالثورة، تشبثاً بمفهوم الثورة التقليدي الحامل لأيديولوجية بقيادة زعامات ثورية، ويقلقهم الحضور الإسلامي القوي في المعارضة، منذ انتصار الثوار في تونس ومصر وليبيا.

الطبيب أحمد، الذي يضع صورة عبد الناصر خلفية لجوّاله، قال، بعصبيّة واضحة:

- الموارب في مواقفه لم يكن يوما ما مثقّفاً بالمعنى الفعلي، وله تصور ميتافيزيقي من الواقع السياسي العربي، فهو يؤمن بالأبيض أو الأسود ويكفر بوجود مناطق رمادية. ولا يتم التغيير في رأيه إلا بتدمير كل البنى، وهذا يُعدّ تهرّباً من اتخاذ موقف صريح مما يدور في الساحة العربية بوجه عام والسورية بوجه خاص.

ضمن محور دور المثقف بعد انتصار الثورة جرى الحديث عن الديمقراطية. قال كمال:

- للديمقراطية أوجه متعدّدة لعلّ أهمها ومن أولوياتها هو الوجه الثقافي. الديمقراطية بهذا الوجه هي الحوار.. إمكانية إجراء الحوار.. فتح الأبواب كافة أمام الجميع للاشتراك في الحوار وتبادل الرأي. والحوار الحقيقي ليس بأن تدع الآخر يقول وجهة نظره فحسب، بل أن يتمكّن من تنفيذها أيضاً. ولا ريب في أنّه لا يمكن أن يتم الحوار إلاّ عندما تتساوى الأطراف المتحاورة.

تتالت الآراء، مرّة أخرى، وفق إشارات رأفت، مدير الجلسة، فقيل:

- هـذا يعيـدنا إلى وجـوب تـوافر الـوجهين الآخَـرين للديمقراطيـة: السياسـة، والاقتصـاد. إنّ الديمقراطيـة الفكريـة حـوار عقـلاني بـين الحريـات، إلاّ أن هـذا الحوار يجب ألاّ يتحوّل إلى صراعات ايديولوجية، فيتحـدث كـل طـرف مـن مفـاهيم جـاهزة مسـبقاً تنطلق من قوالب يجري تفصيل الأشياء عليها.
- الديمقراطية الفكرية تعني السماح للآخر بالتفكير وفق مـا يناسبه، وتبنّي مـا يراه صـحيحاً، والمناقشـة فيه. ولا يخرج عن ذلك وجوب نشر التعليم كي يتكامـل تحقيـق الوجـه الفكـري للديمقراطيـة، لأنّ الإحجام عن (فضلاً عن منع) نشر العلم لا يقل اسـتبداداً عـن توجيهـه وفـق منظـور ايـديولوجي مقنّن.
- لقد أثبتت الحضارات المتوالية عبر العصور أنها لا يمكن أن توجد في محيط لا حريّة فيه.
- دعونـا نتكاشـف بحرية كاملة لنقوّم اعوجاجنـا ثم نكتشف أن حوار الحريات أكثر متعة من الحوار الـذي يقـوم بـين السيد والعبد، لأن هـذا الأخير يخفي ما يخشى على رأسه من البوح به، مما يجعل الأمـور تبقـى علـى مـاهي عليـه، بـل تتفـاقم مـن سيّئ إلى أسوأ.

- من منّا يمكنه الادّعاء بأنه أكثر وطنية من سواه؟
- ما دمنا – جميعاً – نحاول تحسين أسلوب عيشنا – هنا والآن – فإن أفعالنا وحدها هي التي تنبي عن صدق ما نقول.
- تشابهت الأنظمة العربية في تأسيس ثقافتها على الثنائيات واختلفت العناوين: إسلام حداثة، رجعية تقدمية، دولة دينية ...؛ دولة مدنية. وتحولت الثقافة إلى سقف حديدي يحمي الحداثة من الأصولية (تونس) ويحمي الإسلام من الحداثة (دول أخرى) .
- المثقف لا يمكنه مواصلة تبنّي الأطروحات المؤسّسة على الثنائيات نفسها وعليه أن يلتحق بالشعوب التي أنجزت الثورة والقيام بالمراجعات اللازمة للتأسيس لثقافة جديدة قوامها الانحياز للإبداع.
- الاقتراب من هموم الناس المتطلعة للكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية والنأي بالنفس عن التجاذبات، والعمل على أن تترتب المشاهد ويتكثف الوعي بالأفكار الجديدة التي ستظهر بفضل المساحة الحرّة والخصبة المتاحة إعلامياً وفي كل ما له علاقة بالثقافة بتعدّد الألوان في المسرح

والسينما والأدب والفكر من شأنه أن يطوّر قدرة المواطن على التمييز والاختيار، وسيتمكّن من بناء رأي عام جمعي تصير من خلاله الثقافة طريقة للعيش وقوة داخلية لتطوير الذات.

- الفترة قادمة. قد تطول لنرى ثقافة قادرة على تنوير السبيل وانتشالنا من غيابات الضّياع . في ثقافتنا ومجتمعاتنا ما يكفي من العناصر السلطوية والتسلطية والأبوية والثأرية، بما يجعل إعادة إنتاج نظام الاستبداد مجدداً، بصورة أو أخرى، احتمالاً وارداً ومخيفاً. يقوم معذبو الأرض السورية بثورة على حكم وحزب وطغمة عسكرية، مالية، أمنية، متسلّطة، وعلى قيادة وزعامة أبدية.
- أهم ما يمكن للمثقفين أن يفعلوه بداية، هو التخلص من وزارتي الثقافة والإعلام. والانطلاق من أرضية محايدة تلتقي عليها المذاهب والعقائد الدينية والأفكار، بحيث تتمكن من التعامل مع الفضاء العام والشأن الوطني والساحة السياسية الجامعة.
- بعد رحيل النظام، وعودة الناس إلى ما تبقى من بيوتهم، وبعد تجاوز مرحلة قلقة محتملة من الفوضى والانتقامات الثأرية وتصفية الحسابات

بين عدد من الأفراد والمجموعات، سيسود مجدداً في المجتمع مزاج التدين الشعبي السوري البسيط السمح والذي عرفت به سوريا المعاصرة، وعرف به شعب سوريا عبر التاريخ .

- عندما تبدأ عملية إعادة الإعمار والبناء، فإن رأس المال السوري سيعود بقوة لقيادة مسيرة الإعمار والبناء هذه والاستثمار فيها. وسترى سوريا على الأرجح بروز شخصيات ورجالات وقيادات جديدة طالعة من هذه الأوساط بحكم استمرار العملية وتصاعدها. في مثل هذا المناخ سيجري استيعاب تيارات الإسلام السياسي الأكثر تعنتاً وتخفيفها في بحر الإسلام الشعبي التقليدي. أي أن سوريا غير مرشحة لسيادة ذلك النوع من الإسلام الذي يمنع التعليم ويحرق المدارس ويغلق الجامعات ويعطّل المعاهد ويحرم المرأة من التعليم والعمل المنتج. إذا أوصلنا الثورة إلى صناديق الاقتراع بأمان نسبي، لا نرى أن أياً من تيارات العلمانية أو الإسلام السياسي المغالية في سوريا سيتمكن من اكتساح نتائج الانتخابات على الطريقة المصرية أو التونسية.

تدخلت فاطمة في الحديث وقالت:

- مهلًا مهلًا! أراك ترفض الإيديولوجيات الجاهزة وتتحدث بإيديولوجيا بعيدة عن العلم الديني والتاريخي معًا .

تقول إن (سوريا غير مرشحة لسيادة ذلك النوع من الإسلام الذي يمنع التعليم ويحرق المدارس ويغلق الجامعات ويعطّل المعاهد ويحرم المرأة من التعليم والعمل المنتج .)! سبحان الله!

فهلا أتحفتنا إن كنت تعلم متى وأين تاريخيًا قام الإسلام بكل ما ذكرت؟؟

ما أعلمه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفكّ الأسير المتعلّم بفدية أن يعلِّم عشرة من الصحابة، وأن النساء شاركن في الحروب والتمريض، بل أول ديموقراطية مورست هي في مبايعة امرأتين للرسول صلى الله عليه وسلم مع ثلاث وسبعين رجلًا في بيعة العقبة الثانية .

والأمثلة التاريخية كثيرة لا يتسع الحديث لذكرها. أما دينيًا فإن آية المبايعة النسائية في سورة الممتحنة تقطع كل قول مدّع . فإن كان لديك دليل من القرآن الكريم أو السنّة النبوية على ما ذكرت فأتِ به أو اشتغل على نفسك لتخرجها من هذا الهراء الإيديولوجي . على المثقف الحقيقي ألا يلقي كلامه

جزافًا حتى تكون له مصداقية ينتشر صداها ويؤثر ، وإلا فما قيمة كلامه إن تضارب مع مواقفه أو كان علميًا خاطئًا لا يؤخذ به؟

قال كمال:

- الأقرب إلى واقعنا هو صراع شخّصه فرانز فانون في كتابه الشهير «معذبو الأرض» ومن المفيد العودة إليه اليوم في أية محاولة لتشخيص الثورة السورية وفهم طبيعتها، بخاصة أن فانون كان رائداً حقاً في وصف آليات ومراحل تحول قوى سياسية وأحزاب وتنظيمات بدأت كأحزاب وحركات تحرر وطني في مجتمعات عالم ثالثية مقهورة، إلى طغم حاكمة انفصلت تماماً عن بداياتها وقواعدها الشعبية الأولى وعن البرامج التحررية التي تبنتها بداية وعن الأغراض التي جاءت من أجلها لتقوم بقمع جماهير بلادها الشعبية من معذبي أرضها وتدوس على رقابهم، ثم تتجه بالضرورة إلى تمجيد القائد الأوحد الذي يخرج من صفوفها إلى رفع شخصه فوق مستوى البشر والأرض والوطن، وصولاً إلى درجة التأليه. هذا كله دفاعاً عن احتكار الثروة والسلطة معاً مع ما يرافقهما من امتيازات ومغانم ومصالح

طبقية وفئوية ضيقة على حساب البقية الباقية من البلاد وأهلها .

- المفارقة الملفتة هنا هي أن عمال وفلاحي وحرفيي وطلبة وصغار كسبة سوريا (والجيش الحر منهم وفيهم) هم الذين يشكلون القاعدة الطبقية للثورة على حزب كان يقدم نفسه في يوم من الأيام على أنه حزب العمال والفلاحين، وعلى قيادة «وطنية» كانت تدّعي أنها منهم وفيهم وجاءت أصلاً لتخلّصهم من مظالم إقطاعية وبورجوازية واستعمارية سابقة. هذه الكتلة من معذبي الأرض السورية لا تتحرك بوعي طبقي-مصلحي واضح وحيد، بل تتحرك أيضاً بفعل انتماءاتها الدينية وعواطفها الطائفية وولاءاتها المذهبية، وبنوازع الثأر والانتقام لكرامتها المهدورة وحرياتها المسلوبة، وواقع القهر الشديد الذي عاشته وتعيشه، بالإضافة إلى تهميشها الدائم وخيباتها المتراكمة والمستمرة.

لا يوفّر كمال، في أي جلسةً، الحديث عن الكواكبي:

- يأتي الكواكبي هنا ليفصّل في كتابه "أم القرى" الملامح القادمة لما ينبغي أن يكون في وسط

متديّن وسطي، لابد أن ينبري المثقّفون فيه لمكافحة الفساد وتبيين الطرق المناسبة لغد جديد. كان المثقفون في سوريا وما يزالون هم الذين يحملون هموم المواطن والوطن، ونرى أعداداً كبيرة منهم تقف اليوم مع الثورة وتعبّر عنها، ولكن بأسلوب لا يوضّح أنه فعل ثقافي . ليس هناك علاقة استثنائية للمثقّف بالثورة ، فالمثقفون لا يصنعون الثورات أو يقودونها، قد يمهدون لها ويحرّضون عليها ويصوغون بياناتها وبرامجها وينشرون دعاياتها ويكتبون أدبها وينشدون شعرَها وينتجون تحليلاتها ويموتون في سبيلها، ولكنهم هم أنفسهم الطبيب أو الصيدلي أو المحامي أو الموظف أو الكاتب . هؤلاء جميعاً يمكنهم تشكيل هيئاتهم الثقافية ومنتدياتهم الأدبية وحلقاتهم الفكرية واتحاداتهم المهنية المستقلة ذاتياً ، أو إعادة هيكلتها، وإدارتها بغير تبعية لأحد أو هيمنة لطرف. بعد ذلك، هناك ما هو متعارف عليه من قيم الدفاع عن حرية الفكر والضمير والتعبير والإعلام وتداول المعلومات التي يجب الحرص عليها.

أكّد ابراهيم ما قيل:

- بالفعل، قام المثقّفون بأدوار مميزة ، فعلى الرغم من أجهزة التحكم المخابراتية التي مارست الرقابة والحظر والمنع والمصادرة للمطبوعات والكتب والمجلات وتمزيق الصحف والجرائد وطمس كلمات في المعاجم والقواميس وسيطرة وسائل إعلام وثقافة رسمية واحدة موحدة في سوريا ، أثبت المثقّفون، عبر ما أنتجوه من كتابات ووثائق وتحليلات وتعليقات وانتقادات ومقالات، أنهم لم يتأخروا لحظة واحدة عن عصرهم وزمنهم وعالمهم الأوسع بتطوراته ومتغيراته كلها.

استلم شهم الحديث، وهو ينظر في ساعته، معلناً تاخّر الوقت، لذلك حاول أن يختم الجلسة:

- ونحن كي نحقّق قفزة نوعية في الفعل الثقافي، بعد انتصار الثورة، علينا أن نصبر ، لأن الفعل الثقافي تراكمي اجتماعياً وبطيء تاريخياً، ولا تظهر نتائجه النوعية إلاّ متأخرة. المهم أن نحرص على تثبيت ما يصلح للمجتمع من أهداف مثل: الكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية والدستور والتسامح الديني والنشاطات الأهلية وحقوق الانسان.

أردف محمود :

- المثقف الجاد والمثابر في ضوء الثورة يمتحن جهازه الثقافي والمعرفي والفكري بما يحمله من التزامات ومسؤوليات على الواقع المتحرك كما أنه يعيد النظر في جهازه المعرفي والثقافي على ضوء تجربته مع الواقع ومتغيراته ومستجداته. كما أنه يستخدم جهازه في نقد الواقع حين يرى لزوماً لذلك. إن الثورة قد تسير إلى أهدافها ببطء شديد، وعلى المثقِّف في هذه المرحلة تقوية الإيمان بالنصر، وإشاعة الصبر وإبعاد الناس عما يؤدي إلى الإحباط والقنوط.

قال شهم وهو يقف، مؤكّداً عزمه على المغادرة:

- ربما يسقط النظام بصورة فجائية زلزالية وكارثية تؤدي إلى الذهول والضياع لدى المثقف وغير المثقف، هنا ينبغي أن يكون المثقِّف قد وضع في ذهنه هذا الاحتمال وأعد العدّة لمواجهته.

اعزاز 2013

اختفاء سراب

بعد منتصف الليل جاء سراب اتصال يتعلّق بصفقة أسلحة كان يحاول شراءها لفصيله، تواعد مع المتّصل عند مفرق بلدية اعزاز. كان رفاقه نائمين باستثناء حارسين خارج المقرّ، وحارس داخله. عرضوا عليه أن يرافقه أحد في لقائه، فأخبرهم أنه ليس هناك من داعٍ، المتّصل آمن ولايقبل بوجود آخرين. شعر بالتوجّس الذي لم يدرِ سببه، وهو يخرج حاملاً المال في كيس أسود. كان يحدّث نفسه طوال الطريق، وهو يتحسس المسدّس على خصره. وضع الكيس. أخرج المسدّس، تأكّد من جاهزيته. أعاده إلى خصره.

حمل الكيس يرافقه تداعي ذكريات من بدء انطلاق الثورة. المظاهرات. الهتافات. تراءت له بيارق النصر وهو يرقص في ساحة سعد الله الجابري مع أصحابه الحالمين بتلك اللحظة. غاب أكثر من ساعتين، فقلق الحرّاس عليه. اتصلوا به. هاتفه المحمول خارج التغطية. أيقظوا رفاقهم،

وبالرغم من فتور ردّة فعل قائد الفصيل، الذي بدا هادئاً، على غير العادة، هرعوا إلى تمشيط المنطقة.

التحرّي والبحث، طوال اليوم، لم يجدِ شيئاً، فلم يتمكّنوا من العثور على أي أثر له. بدؤوا يتساءلون عن مصيره، مرتابين. لم يكن احتمالاً بعيداً أن تكون العملية مجرّد سرقة قام بها بعض اللصوص، عندما رأوه وحيداً، بعد منتصف الليل، يحمل هذا المبلغ. وقد يتمّ اكتشاف جثّته في إحدى الحاويات، لذلك لم يوفّروا التفتيش عنه هناك، وفي الأزقّة، والأماكن المهجور. في أوقات متقاربة اختفى أيضاً عبد الرؤوف في ظروف غامضة. وكذلك عبد الغني كعكة الذي كان يرافقه. غير أن كعكة شوهد في أقبية الأمن الجوي، بعد فترة، ثم جاء نبأ، بعد شهرين، أنه قضى تحت التعذيب، ملتحقاً بأخيه، عبد الغني. ضجّت وسائل التواصل الاجتماعي بخبر اختفاء سراب في ظروف غامضة.

على مدى شهرين انتشرت شائعات كثيرة حول اختفائه. خرج يحمل مبلغاً كبيراً من المال، مايجعل كل أنواع الحشرات تحوم حوله. تهامس بعض رفاقه، ممن هم خارج اعزاز، حول احتمال وجود خيانة من قائد فصيله، فقد كانا على خلاف، في الفترة الأخيرة. آخرون رجّحوا أن تكون عملية قامت بها المخابرات الجوية لاختطافه، وسرقة

المال. قد يكون الآن قابعاً في أحد الأقبية، وقد نعلم أنه قد مات تحت التعذيب. ماهو خافٍ اليوم، سينكشف، ربّما.. بعد حين.

أصدقاء سراب وذووه ومعارفه شدّوا الرحال إلى اعزاز، لم يتمكن معظمهم من الدخول للمشاركة في التقصّي حول مصيره. بعضهم تلقّى تحذيراً من الإيغال في التنقيب عن الأحداث لمعرفة الحقيقة، فجبهة النصرة، تصول وتجول هناك.

عندما اتّصل كمال بأحد مرافقي سراب المخلصين، للاستفسار عمّا جرى، تلقّى جواباً مقتضباً قاسياً، وخطير الدلالة:

– انسَ.

كتب كمال على صفحته في الفيسبوك، كلمة مقتضبة عن سراب، واصفاً إيّاه بأنه بطلٌ، طلبَ الحريّة وهاهو قد نالها. برهن على أنّه عاش من خلال موته أو اختفائه القسري. كما الفراشة مرّت لتزرع في قلوب ذويها الفرحة، ثمّ لملمت جناحيها بلطف وغادرت لتذكّرنا بأنّ الحياة لا تستحقّ كلّ هذا العناء، في تمثيل دور (الخالدين). والمشكلة أننّا لم نستوعب، بعد، معاناة جلجامش أو

الآلهة المزعومة التي تهاوت في وديان التاريخ السحيق لتبقى الحقيقية الوحيدة التي نتناساها ونمتنع عن الاعتراف بها، وأعني حقيقة أننّا عابرون، وأنّ غاية حلمنا أن نُحاسَب محاسبة سراب، عندما نمضي. ذهب وهو يحمل انطباعاً وهميّاً عن جمال الحياة. طوبى له لأنّه عاش الموت ولم يتمسّك بالحياة كي يدرك الموت ويقلق بشأنه. ولأنْ نحيا في الموت خير لنا من أن نموت في الحياة.

الاختفاء الغامض غدا سمة للحرب الدائرة في سوريا، فقد تم، قبل فترة*، اختطاف المطرانين، يوحنا إبراهيم، وبولس يازجي، بعد قتل السائق فتح الله كبود، ورمي فؤاد إيليا من السيارة، وكان فؤاد هو الشاهد الوحيد على ما جرى داخل السيارة، ومن شاهد وجوه الخاطفين عن قرب في قرية حور في الريف الغربي لمدينة حلب، وهو من حاول، مع عبد الرحمن علاف** البحث عن المطرانين في تلك المنطقة لحوالي عشرين يوماً تالية، بلا فائدة. وقد كان بوداعهم سراب وعلاف، عند آخر حاجز للجيش الحر بعد المنصورة، قبيل اختطافهما بنصف ساعة.

. ...

* 4-2013

** رئيس مجلس القضاء الأعلى الحر آنذاك.

2015

المعمعة

انتشرت في حلب الفوضى من كل ناحية، وفي كلّ مكان. بينما بدت، على السطح، هادئة وتعود تدريجياً إلى الحياة الطبيعية، بعد أن خفّت فترات انقطاع الكهرباء والمياه. أما في العمق، فمن الواضح، تماماً، سيطرة العصابات واللصوص والشبيحة على المدينة، وسط انتشار واسع للأمن الذي يغضّ الطرف عن الانتهاكات التي تحدث بحقّ الناس، بل ويساهم فيها. الحدائق صارت تعجّ بالمثليين والمتحوّلين، وباتت تجارة الحبوب المخدرة، والدعارة، سمتين طبيعيتين أساسيتين في المدينة. وقد حلّت عادات جديدة محلّ القديمة. فبدل اكتظاظ المساجد يوم الجمعة، والاحتفالات بالأعياد الدينية، بحسب عادات

الحلبيين التي درجوا عليها عبر قرون، انتشرت عادة اللطم والاحتفالات الدينية على الطريقة الشيعية المنتشرة في إيران والعراق.

...

2

المهجّرون السوريون إلى أوروربا، عانوا من الصراع الأسري الذي كان متخفّياً تحت السطح، فكثير من النساء، فور وصولهن إلى أوربا طلبن الانفصال عن أزواجهن. ومن لم تفعل ذلك عاجلاً، قامت به، بعد حين. أجواء الحريّة أضرّت بالكثير من السوريين الذين أخطؤوا فهم معناها، وغدت، في ممارساتهم اليومية، تعني الانفلات.

...

3

استمر القصف المتقطّع على سوريا، واستمر السوريون يعانون فقدان ذويهم في البحر، أثناء محاولة العبور إلى أوروبا، هرباً من جحيم الحرب. بوادر التدخل الدولي

لإيقاف نزيف الشعب السوري، قوبلت بتكذيب الناشطين الذين لم يروا اقتران أقوال ساسة الغرب بالأفعال. بل على العكس، الدول التي تدخّلت فعلاً في سوريا، تدخّلت لمصلحة النظام، فهاهي إيران وروسيا، تساهمان في قتل السوريين، بحجّة مكافحة الإرهاب. حتى تركيا، لم تتمكن من إنشاء منطقة آمنة تكون ملاذاً للمهجّرين.

..

4

عاد كمال يعاني كثرة عدد مرّات الحاجة إلى إفراغ المثانة، ونتيجة فحوصات متعدّدة، تبيّن وجود تضخّم في الكلية اليمنى، سببه وجود انسداد في الحالب الذي تعترضه كتلة. أجمع الأطبّاء على أهمية إجراء استئصال للكلية اليمنى، للتخلّص من تلك الآفة. لم يثق كمال بقرار الطبيب التركي، فاستشار طبيبه السابق، حنا كوركيس، المقيم في ألمانيا. اطّلع حنا على التقارير وتصوير المنظار، فنصح له بإجراء العملية، وهكذا كان. تمّ استئصال الكلية اليمنى مع جزء من الحالب.

بعد شهور بدا الإرهاق واضحاً على قسمات وجه كمال، الذي غدا كثير النسيان. تدريجيّاً بدأ يفتقد نكهة

الأطعمة المختلفة. كل مايتناوله، يبدو له المذاق نفسه. أيضاً، لم يعد يميّز الروائح. الاستعانة بدفتر صغير يرافقه، أضحى عادة لايمكن الاستغناء عنها، لتذكّر الأسماء والأماكن. وبالرغم من ذلك، لم يتذكّر الواقعة، ولم يكن لديه أيّ جواب، عندما سأله محمود عمّا حدث بشأن بيته الذي صادره فرع أمن الدولة في حلب.

حين راجع مشفى "يرمي بيش" في عنتاب، قال له الطبيب إن حالته تشي ببداية الزهايمر، ونصح له، ليتخلّص من تلك الآفة، أن يداوم على حفظ بعض آيات من القرآن الكريم، كلّ يوم، فحالته ليست متأخّرة. وإذا استطاع المثابرة على الرياضة الجسمية والفكريّة، وتنظيم الغذاء؛ هناك أمل كبير بالشفاء التام، حيث يستعيد قدراته الذهنية، ربما بعد حين.

بقيت تحوم في رأسه كلمات "نور" الذي عقد العزم على إنشاء جبهة تحرير سوريّة، وتساءل: هل تتمكّن تلك الجبهة من التحرير، وإقامة دولة ديمقراطية، في ظل تكاتف الدول الكبرى ضدّ السوريين، وسط وهن أصابهم من سنوات الحرب؟. ينبغي أن أكون هناك إذن، فلا أفوّت على نفسي فرصة المساهمة في تطهير الأرض، وإعادة بناء الوعي كي لاتتكرر المأساة.

5

يعود متخفّياً إلى مدينته. إلى مسقط رأسه. يسير وسط الخراب، مذهولاً مما يراه. حلب التي غادرها منذ ثلاث سنوات، لم تعد المدينة التي يعرفها. سوق الخضار والفواكه أنقاض وحفر عميقة توحي بأن هناك قذائف قد دمّرت المكان. بقايا أكياس. بقايا أثاث من خشب وزجاج ونتف من لعب أطفال ملقاة في الطريق.

منطقة السبع بحرات مدمّرة بالكامل. في الطريق إلى محيط قلعة حلب، يرى تلالاً من القمامة، ينبش فيها أطفال يفتّشون عن شيء يأكلونه.

قبل أن يدلف إلى باب الأحمر، أوقفه خمسة أشخاص ملثّمين.. أحاطوا به واقتادوه من غير أن يعرف من هؤلاء،وماذا يريدون، وإلى أين يأخذونه. لم يعد يرى شيئاً أمامه. يتركّز ذهنه في مكان عميق .. مظلم ..تحوم فيه الثعابين وتفوح منه رائحة الدم ..هل يمكن أن ينتهي به المطاف في غيابة الجب؟..

الفهرس

موضوع	صفحة
الفصل الأول: عنتاب ٢٠ أيلول ٢٠١٣ ظهراً	
أول الخيط	
مذكرات معتقل	
الاعتقال	
الممر	
إفادة أولى	
إفادات متوالية	
اعترافات خطيرة	
نداء من حلب	
الجدران دفاتر المساجين	
الليلة العصيبة	

الأكل و المرحاض	
إزعاج ليلي متواصل	
احترام مريب في التحقيق	
استمرار جلسة التحقيق الطويلة	
ذكرى	
مشكلة المثانة	
التفتيش عن غوغل	
غسل الدماغ	
بلبلة في الممر	
سوابق امنية وذكريات	
اجتماع تشرين اليتيم	
مرجل الفتيان	
أين تذهب حين تبكي	
الفصل الثاني : عنتاب أيلول ٢٠١٣ مساءً	

شهم ودوامة البحث	
الطريق إلى حلب	
جريدة الجماهير	
العاديات	
الفصل الثالث : حلب – شباط ٢٠١٢	
شرارة العصيان	
منتدى حلب	
أوراق أخرى	
اليوم السابع .. بلا شمس	
رسالة إلى المحقق	
الأكتع	
القرار الصعب	
بين قسطل الحرامي وغرفة التعذيب	
باب الأحمر	

لحظة البتر	
الدين ممنوع	
جلسة خاصة	
الإمتناع عن الطعام وتدجين فاشل	
تشريفات المشفى	
الفصل الرابع : حلب – آب ٢٠١٢	
موت أبي لجين	
محمود الكاتب	
الحياة في حلب	
الإبرة في الإحليل	
مكابدات الموت	
برقية وبرق الذهب	
مظاهرة صينية	
زيارة الشيخ وأمل الإفراج	

اكتشاف المكان وجرعة مرار أخرى	
ثائر في قبضتهم	
الفصل الخامس : عنتاب ٢٠١٤	
انبثاق النور	
فسحة للتنفس	
عودة الشيخ	
رائحة الغار بين الحب والحرب	
العيد	
الحر والعراب	
اللوحة	
الفصل السادس : الرياض ٢٠١٤	
رحلة البحث / الرياض	
نكء الجراح	
تحت الرماد	

الفصل السابع : دبي ٢٠١٥	
محطة في دبي	
الخروج من الكهف	
الريحانية	
سراب في اعزاز	
المئذنة والكارلتون	
الفصل الثامن : عنتاب ٢٠١٥	
ظهور الغائب	
بقية مذكرات اعتقال حلب	
أجهزة الثريا	
نور الأمل	
حديث مساجين	
العيد في الزنزانة	
نافذة سراب	

حطب السلطة	
الفصل التاسع : دمشق – أيلول – ٢٠١١	
سجن المزة	
الخفافيش	
الهذيان	
من قتل سارية؟	
سر الرفاهية	
سجن باب توما	
الزيارة	
محاولة أخرى	
جماعية (١) باب توما	
الإفراج	
الفصل العاشر : غازي عنتاب – ٢٠١٥	
غازي عنتاب	

أطياف الرؤى	
اختفاء سراب	
المعمعة	

المؤلف

- مدير مركز أبحاث الوعد للدراسات – تركيا – عنتاب ٢٠١٥م.
- الباحث التنفيذي في مركز الأبحاث والدراسات orient - vision دبي ٢٠١٤ م.
- أستاذ تاريخ الحضارة والفكر العربي الحديث في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (info) (٢٠٠٩- ٢٠١١م.
- مستشار التحرير في مركز آفاق العرّاب الإعلامي في الرياض(٢٠١٢ - ٢٠١٣م).
- مدير تحرير مجلة(العاديات) منذ صدورها٢٠٠٤-٢٠٠٨.
- رئيس لجان الثقافة والمعلوماتية والإعلام في جمعية العاديات(٢٠٠٣- ٢٠٠٨).
- مدير المركز الإعلامي لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية (٢٠٠٦ -٢٠٠٧).
- مشرف على منتديات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية في مواقع كثيرة.
- المنسق العام لملتقيات القصة القصيرة جداً منذ عام (٢٠٠٢- ولايزال).
- أعدّ بعض البرامج الثقافية في إذاعة صوت الشعب من دمشق.

- يسعى لإنجاز مجموعة من الأبحاث حول الثقافة والفكر العربي المعاصر.
- ألقى العديد من المحاضرات وشارك في بعض الندوات الفكرية حول مسائل معاصرة في عدد من الدول العربية والإسلامية، (الأردن- لبنان- المغرب- إيران- تركيا - الإمارات- مصر- إسبانيا- الجزائر- السعودية - ألمانيا - سورية ..).
- له خمسة وثلاثون كتاباً مطبوعاً في الفكر والنقد والشعر والقصة، (في سورية ولبنان والمغرب والسعودية والإمارات وإيطاليا وتركيا ...).
- نُشر له ما ينيف عن ألف مادة بين الدراسة والنقد والقصة والشعر في الدوريات العربية المختلفة.
- نال بعض الجوائز المحلية والعربية، منها:
  - جائزة الباسل التي تمنحها رئاسة مجلس مدينة حلب عن مجمل الأعمال (عام ٢٠٠٠).
  - الجائزة الأولى في الشعر في مسابقة محافظة حلب (عام ٢٠٠٠).
  - الجائزة الثانيةعن السيرة القصصية في مسابقة ثقافة الطفل العربي (أبو ظبي- عام٢٠٠٠).
- عضو في لجان تحكيم عدد من المسابقات في الفكر والأدب.
- أمين عام جائزة الشيخ كامل الغزّي للأبحاث التراثية.
- أمين عام جائزة الدكتور نعيم اليافي للأبحاث النقدية.

• الكتب المنشورة : محمد جمال طحان

رقم	اسم الكتاب	نوع العمل	الناشر	عام
١	عشرة زمن يا آه	شعر	دار الثقافة (دمشق) **نفد**	١٩٨٥
٢	الاستبداد وبدائله في الفكر العربي الحديث– الكواكبي أنموذجاً	دراسة	اتحاد الكتاب العرب (دمشق) **نفد** ط٢ دار النهج – حلب – ٢٠٠٦ **نفد** **ط٣ دار نون – الإمارات** **٢٠١٥**	١٩٩٢
٣	مشاغبات فكرية	مقالات	دار سراج (بيروت) **نفد**	١٩٩٤
٤	الأعمال الكاملة للكواكبي	دراسة وتحقيق	مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) **نفد** الطبعة السابعة ٢٠٠٩ **الطبعة الثامنة دار كلمات –** **الكويت ٢٠١٥**	١٩٩٥
٥	على هامش التجديد (من الكلامولوجيا إلى التكنولوجيا)	دراسة	دار سراج (بيروت) **نفد** **ط٢ دار كلمات (** **الكويت)٢٠١٥**	١٩٩٦
٦	هكذا تكلمت حورية	مقالات	دار سراج (بيروت) **نفد**	١٩٩٧
٧	شرفات للجمر	شعر(بالاشتراك)	دار المرساة (اللاذقية) **نفد**	١٩٩٨
٨	صرخة الأسيان/ إضاءة كواكبيّة	دراسة	دار سراج (بيروت) **نفد**	١٩٩٩
٩	الحاضر غائباً (تأملات في الزمان)	مقولة	دار بترا (دمشق) **ط ٢ – دائرة الثقافة – الشارقة** **٢٠١٥**	٢٠٠٠

١٠	**رحلة إلى الأعماق**	إعداد وتقديم	دار الأوائل(دمشق)	٢٠٠٠
١١	**أفكار غيّرت العالم**	دراسة	دار الأوائل (دمشق) **نفد**	٢٠٠١
١٢	**أبو الضعفاء (عبدالرحمن الكواكبي)**	سيرة قصصية	أبو ظبي **نفد**	٢٠٠١
١٣	**الخديعة الكبرى / اليهود والأوهام الصهيونية**	دراسة	المكتبة الحقوقية (بيروت) **نفد** ط٢ دار الأوائل ٢٠٠٣ **نفد** ط٤ – دار صفحات ٢٠٠٧	٢٠٠٢
١٤	**المثقّف وديمقراطية العبيد**	أبحاث	دار الأوائل – (دمشق) **نفد** ط٢ – دار صفحات ٢٠٠٧ **الطبعة الثالثة دار كلمات – الكويت ٢٠١٥**	٢٠٠٢
١٥	**أم القرى**	دراسة وتحقيق	دار الأوائل / جمعية العاديات **نفد** ط٥ – دار صفحات ٢٠٠٧	٢٠٠٢
١٦	**الرحالة ك طبائع الاستبداد**	دراسة وتحقيق	دار الأوائل – (دمشق) **نفد** دار صفحات –**الطبعة الخامسة ٢٠١٠**	٢٠٠٣
١٧	**امنحوني فرصة للكلام**	مقالات	دار الأوائل – (دمشق) **نفد**	٢٠٠٣
١٨	**تيار الإصلاح الديني ومصائره**	دراسة(بالاشتراك)	المعهد الفرنسي للشرق الأدنى	٢٠٠٣
١٩	**قراءات في الفكر العربي**	دراسة(بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية(بيروت)	٢٠٠٤
٢٠	**الشجرة المثمرة العالية**	تحرير	دار بترا (دمشق) **نفد**	٢٠٠٤
٢١	**الاستبداد في الوطن العربي**	دراسة(بالاشتراك)	مركز دراسات الوحدة العربية(بيروت)	٢٠٠٥
٢٢	**عودة الكواكبي**	دراسة	حلب عاصمة الثقافة الإسلامية **نفد**	٢٠٠٦
٢٣	**الرؤى الإصلاحية عند الكواكبي**	تحرير	اتحاد الكتاب العرب(دمشق)	٢٠٠٧
٢٤	**الصورة الفنية في الشعر العربي**	تقديم	دار صفحات (دمشق)	٢٠٠٨
٢٥	**حالات سريّة**	مجموعة قصصية	وزارة الثقافة السورية (دمشق) **نفد**	٢٠٠٨
٢٦	**الكتاب الذهبي/توثيق فعاليات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية**	تحرير/بالاشتراك	الأمانة العامة لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية	٢٠٠٩

٢٧	صنّاع الحضارة	دراسة	دار صفحات – دمشق	٢٠١٠
٢٨	أدباء من حلب	دراسات بالاشتراك	خمسة مجلدات من ٢٠٠٢ حتى ٢٠١٠	٢٠١٠
٢٩	لأنّه كان مثلنا	بالاشتراك	دار نون ٤ – حلب	٢٠١٠
٣٠	حكايات سوريّة لها علاقة بالاستبداد	بالاشتراك	دار نون – الإمارات	٢٠١٤
٣١	واضح كالسيف ..رقيق كالنسمة	شعر	دار نون ٤ – حلب	٢٠١٤
٣٢	شؤون يوميّة	قصص قصيرة جدا	دار نون ٤– حلب	٢٠١٤
٣٣	بطولة وصبر وفداء	سير قصصية للناشئة	دار نون ٤– حلب	٢٠١٤
٣٤	المكتبات والتوثيق في الثقافة الإسلامية	تحرير	كتاب الشهر — المجلة العربية– الرياض	٢٠١٥
٣٥	أعلام الحضارة الإنسانية	دراسة	دار كلمات – الكويت	٢٠١٥
٣٦	مذكرات كرسي	قصص قصيرة جداً	دار كلمات – الكويت	٢٠١٥
٣٧	الصبر مفتاح الفرج	سير قصصية لليافعين	دار كلمات – الكويت	٢٠١٥
٣٨	رويداً أيتها العابثة	شعر	دار كلمات – الكويت	٢٠١٥
٣٩	القصة القصيرة جداً من التأسيس إلى التأصيل	تحرير	دار كلمات – الكويت	٢٠١٥
٤٠	دعاة وأدعياء معاصرون	دراسات	دار المتوسط — ايطاليا	٢٠١٥

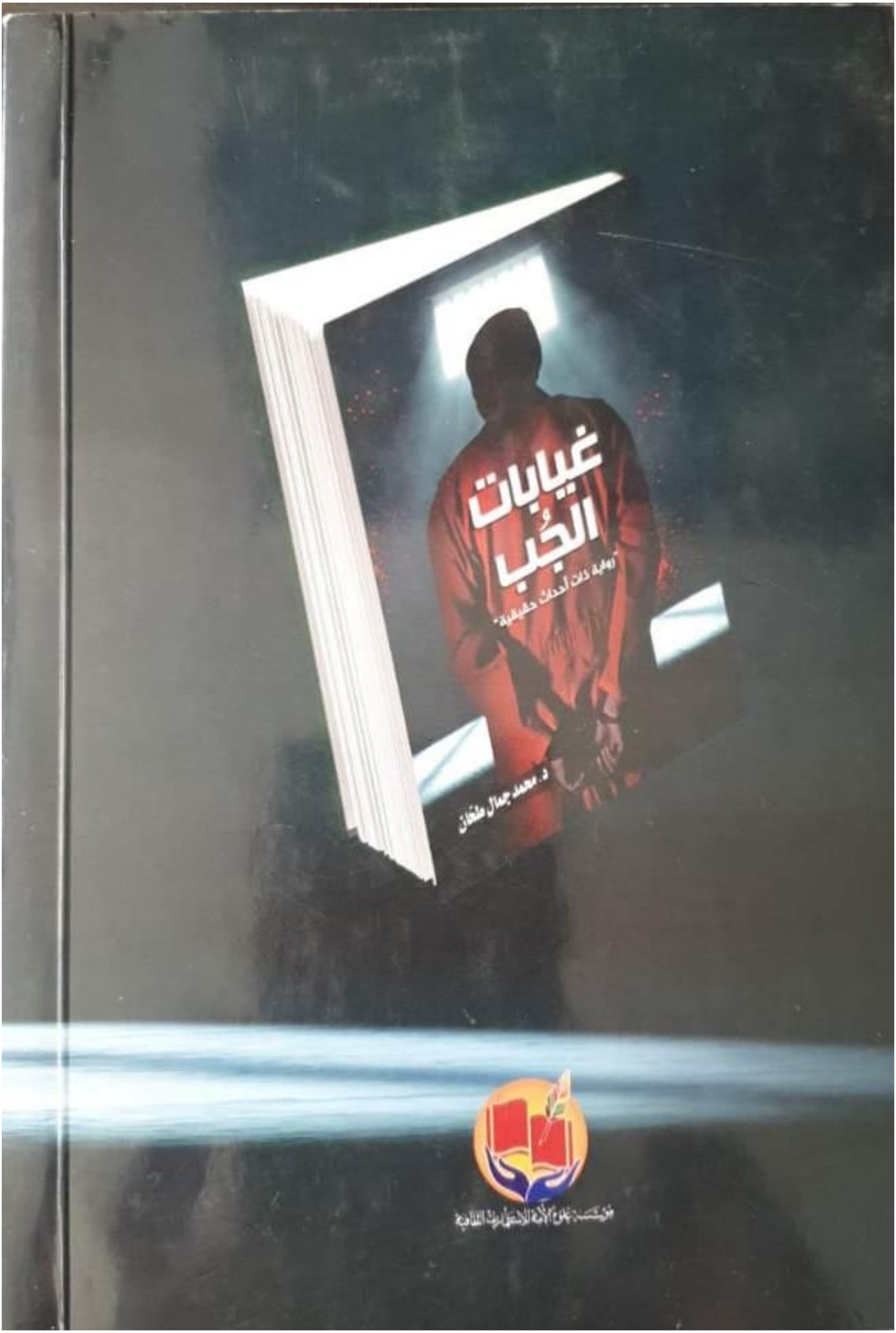
غيابات الجُب
"رواية ذات أحداث حقيقية"
د. محمد جمال طحان